

obeikandi.com

عودة المرشد

عودة المرشد

أشرف المقدم

رواية

الناشر :

زحمة كتاب للنشر والتوزيع

Www.za7ma-kotab.Com

Www.facebook.com/za7makotab

Za7ma-kotab@hotmail.Com

01205100596 01100662595

المراجعة اللغوية

عمر و مغیث

”مكتب ضاد للمراجعة والتدقيق اللغوي“

رقم الإيداع:

2016/21790

تصميم وتنسيق داخلي

أحمد عوض «E, W».....

الترقيم الدولي:

978/977/6527/75

جميع الحقوق محفوظة لدى الناشر زحمة كتاب للنشر والتوزيع

عودة المرشد

رواية

أشرف المقدم

زحمة كتاب

obeikandi.com

الاهداء

الى استاذى اللذى علمنى دون ان يدري اهديك اول اعمالى

كان يومًا شديد الارتباك، هذا هو شعورها تجاه هذا اليوم. وربما يعود السبب المباشر لهذا الارتباك أنها ستذهب إلى مدفن العائلة لزيارة قبر والدتها.

هي أول زيارة لأُمها منذ أن ماتت، ولا تدري على وجه اليقين أن أمها قد دفنت في مدفن العائلة أم لم تدفن هناك، وليس لديها دليل غيره عندما أتى ليشكر لها عدم حضورها مراسم الدفن وأعطائها شهادة الوفاة وأخبرها أن أمها دفنت بجانب أبيها في مدفن العائلة. علمت كذبه لأن أباه لم يدفن في مدفن العائلة ومنع أصدقاء أمها المقربين من حضور مراسم الدفن لذا لم يكن لديها دليل غير كلماته تلك عن مكان أمها، لا تدري لماذا استبعدت نفسيًا أن تكون أمها قد تم إطعام جسدها للكلاب وهذا ما يفعلونه دومًا مع أمثال أمها، هل لعاطفة البتوة دور في ذلك الشعور؟ لا تدري، ولم تجلس كي تتحقق لأنها باعت كل ما ورثته عن أمها وأبيها، باعت كل شيء عدا بيت العائلة، لكنها هجرته وتركته خاويًا ورحلت، فهي تحمل في طياته ذكريات خوف أليمة جعلها تكرهه كما كرهت أمها المعذبة والمسحولة حتى الموت، وكانت على يقين من أن أمها كانت تستحق تلك النهاية المهينة لحياتها. لكن اليوم واليوم بالتحديد قررت أن تذهب لزيارة أمها، مما أثار داخل روحها عواصف هائجة مضطربة، تسببت في عدم قدرتها على التركيز.

كانت الأم تدرك مشاعر الرفض البادية من ابنتها تجاهها بل والتجاهل وخاصة عند عودة الأم من المعتقل بعد قضاء فترة طويلة، ظنت الأم أن ابنتها تكرهها، واجتهدت كثيرًا في التفكير في تلك الحالة حتى تصل إلى تفسير صحيح ووصلت إلى جواب واحد، إنه الخوف.

إن ابنتها تخاف منها وأدركت أن ابنتها تعاني صراعًا داخليًا شديدًا بين حبها لها والخوف من أن تصبح مثلها وأدركت أن هذا الصراع سيؤدي إلى طريقتين، فإن تغلبت البنت على مخاوفها فسوف تصبح البنت نسخة مطابقة منها، وتعلن في تقليدها، أما إذا تغلب الخوف على قلبها فسوف تكرهها وسوف تميل إلى احتقار وتسفيه كل ما تفعل.

وبالفعل تغلب الخوف على قلب هالة ومسح روحها وجعلها حبيسة، فبدت، رغم جمالها الأخاذ، لا تطيق الاستمرار في النظر إلى وجهها لمدة طويلة وكانت الأم في حديثها الداخلي عن هالة كانت تقول لنفسها إن روح هالة بلا ملامح وأهم ما يميز روحها هو رائحة الخوف المنبعثة منها. وكانت الأم تكره خوف المرأة وانكسارها وكانت شديدة النفور من النساء اللاتي يخفن ولولا أن هالة ابنتها، لفارقتها منذ زمن بعيد، وكانت في كل أحاديثها تلقي اللوم على المرأة الأولى التي خافت واستكانت لبطش الرجل.

أصبح لدى هالة عقدة ذنب وألم نفسي تجاه والدتها وخاصة عندما تتذكر شعورًا بالارتياح غمر روحها عندما تم إبلاغها بوفاة والدتها، وكانت هالة تتجنب ذلك الألم بقولها لنفسها إن أمها كانت تستحق ذلك وأكثر، لكن الآن، أكثر ما يقلقها عند زيارة والدتها هو كيف ستقابل والدتها مع هذا الذنب الذي بالتأكيد قد عرفته بعد وفاتها.

شعرت هالة بدمعة دافئة على خدها، مسحتها بطرف كم ثيابها، وقالت عندما أجلس بين يديك يا أمي سأعترف، وسأعترف أنني لست مثلك يا أمي، أنا ضعيفة وكنت أخاف أن تملكني روحك المقاومة.

كنت أقاوم يا أمي إعجابي بقدرتك الفذة على الصمود، وكنت أرى تصاعد الإعجاب بك داخل نفسي كتصاعد خيط رقيق أبيض، كنت أعاني وأقاوم بقوة حتى أستطيع أن أكتمه، لكن اليوم سأقف بين يديك وسأعترف وألقي كل الأثقال التي كانت تحملها روحي، وسوف تسعين عندما تسمعين ما كتبت من مذكرات في أجندتي، فقد كنتُ وأنتِ في المعتقل أتذكر كلماتك وأحاديثك مع أصدقائك وأدونها. كنت أدون كل شيء حتى أحاديثك التي كنت أحاول أن أمنعك من قولها، لكن سأعترف بضعفي وأناى رغم التغيرات الكثيرة إلا أنني ما زلت أخاف.

أصدر محرك سيارتها "البيجو" "موديل ٢٠٣٥" صوتًا متقطعًا انتزعها من سرحانها لأنها علمت أنها تقترب من المبنى ٦٦. فمنذ أن اشترت تلك السيارة وأورثتها خوفها من هذا المبنى، فصارت السيارة مع اقترابها من هذا المبنى - سواء أدركت هالة أنها اقتربت من المبنى أم لم تدرك- تصدر هذا الصوت المتقطع معلنة أنها ستتوقف، مما يخلق حالة من الهلع لدى هالة.

والغريب أن السيارة لم تتوقف في أي مرة قبل أن تسافر أو حتى بعد عودتها، لكن قلب هالة في كل مرة صباحًا ومساءً، يضطرب ويدق بعنف لمدة دقائق مع عبورها البوابة.

لكن سرعان ما تحققت مخاوفها وتوقفت السيارة في المكان الذي تمت ألا تتوقف فيه أبدًا، كان ذلك المبنى يقف متفردًا بمساحة عظيمة وسط الصحراء ورغم عدم وجود أية مبانٍ بجانبه، إلا أنه يحمل رقم ٦٦ .

كان سوره الممتد المحيط بالمبنى في عمق الصحراء ولا تدرك العين نهايته، مرتفعًا معطيًا مشهدًا كثيبًا مرعبًا وانطباعًا بأنه مبنى غير اعتيادي أو تابع لجهة أمنية.

لكن احتمال أن يكون مبنى غير اعتيادي أكبر، لأن هالة لم تشاهد يومًا خروج أو دخول أي شخص، حتى إنها لم تشاهد أي حارس على البوابة، وبالطبع سمعت قصصًا مرعبة عنه وأشياء تحدث في المساء حول المبنى تجعل أشد النفوس تماسكًا ترتعد فرائصها عند المرور به.

إذن تحققت أكبر مخاوفها وتوقفت السيارة أمام بداية المبنى، وهو التقاء السور والبوابة. خرجت من باب السيارة حاملة زجاجة ماء لتفرغها في القربة، وبصعوبة وارتباك فتحت «كبوت» السيارة فاكشفت تبخر ماء القربة تمامًا، وأدركت أن زجاجة الماء غير كافية لإعطاء القربة كميتها المحددة، لكنها حاولت - حتى قبل أن يبرد محرك السيارة - أن تقوم بتشغيل السيارة، لأن قلبها يدق بعنف معلنا عدم قدرته على تحمل موجات الخوف التي تزداد، وأيضًا لعدم مقدرتها الجسدية على تحمل حرارة شهر يوليو لوقت طويل وخاصة أنه وقت الظهيرة، فساعتها تشير بأنها تقترب من الثالثة عصرًا.

لكن بالطبع لم يكن لسيارة ذات طراز عتيق مثل هذه أن تستجيب، وبعد فشل د-هالة في تشغيلها، لم يكن أمامها سوى خيارين، إما أن تترك السيارة تبرد تمامًا أو تطلب من السيارات القليلة العابرة مساعدتها ببعض الماء، وعلى ما يبدو أنها لن تستطيع الانتظار. فأمسكت بزجاجتها كي تشير إلى المار بها، فيفهم أنها في حاجة إلى ماء، ومضت قرابة نصف ساعة ولم تمر أي سيارة في الاتجاهين، ولم تعد السيارة وحدها الآن في حاجة إلى الماء فقط، لكن هالة أيضًا.

بدأ العطش يمارس استبداده على عقلها، وبدأت صورة استبداده تظهر على شفيتها فأضحت جافة خشنة، فمررت لسانها عليها محاولة ترطيبها، لكن على ما يبدو أن تلك المحاولة لم تفلح.

كانت أمها تخبرها أن شفيتها تشبه شفاه ممثلة أمريكية قديمة اسمها "أنجلينا جولي" وسألته هالة هل كانت جميلة؟ فقالت لقد كان جمالها مسار حسد النساء الجميلات وكان أبيك يقول عنها إن شفيتها أشهى ما يتذوقه رجل، لكن شفاه هالة تشتكي الآن نقص السوائل فصارت بيضاء خشنة، وتحركت هالة بسرعة إلى السيارة لتحتمي بها.

لكن دعوني أخبركم عن حرارة شهر يوليو في صحراء القاهرة في أسوأ موجة جفاف تضرب العالم، ربما تكون مميتة إن تعرض لها الإنسان لفترة قليلة متصلة دون ماء، وعلى أقل تقدير ربما تصيب عقله بالهذيان.

وذلك ما تخشاه هالة، لذا دخلت هالة السيارة وتركت بابها مفتوحاً حتى يمر بعض الهواء وأيضاً إذا سمعت محرك سيارة مقرب، تستطيع أن تقفز بلا عائق.

شعرت بعدما احتمت من أشعة الشمس أنها قد انتقلت من قيظ جهنم إلى الفردوس، لكن سرعان ما بدأ يزول ذلك الإحساس مع سيل من العرق حاملاً معه أملاح الجسم، فتمنت أن تخلع الخمار الذي ترتديه وتترك ذلك الكم من الشعر ينساب بعيداً عن رأسها فيقلل من شعورها بالحرارة لكن خوفها من مرور شرطة الحسبة دفعها دفْعاً لطرد تلك الفكرة من رأسها.

راحت تتلصص بين الحين والحين على المبنى وكانت التفاتاتها على ما تبدو غريزية، نابعة من الخوف، فبدت مثل شاة وحيدة ضائعة في الصحراء ورغم خوفها من ظهور الذئب إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الالتفات إليه.

بعد أن هدأت نفسها قليلاً ومع انعدام الخيارات أمامها، ويأسها من وصول أي سيارة، تولدت لديها روح طفل يريد أن يستكشف أي شيء مخفي حتى لو كان فيه هلاكه أو قل ربما أرادت أن تهدأ من مخاوفها، أو ربما للحظات تحلت بروح كلب خائف وطريقه للهرب من مطاردة كان مسدوداً، فاستدار ليقاتل، فما للموت بد فلا بد أن يموت بشرف، ربما يكون واحد من تلك الاحتمالات صحيحاً وربما لا، لكنها تحركت في اتجاه البوابة التي كانت عتيقة الطراز ذات الحجم الهائل، وبعد تردد كبير بعد رؤيتها للجرس، ضغطت

عليه، لكن بعد ضغوطات متتالية، لم تسمع صوت الجرس، فنادت بصوت متحشرج خافت وكأنه خارج من أعماق النفس البشرية أو سحابة صيف تبدد تحت نار القيظ فلا ترى لها أثراً غير سراب لا يراه إلا هائم.

خلاصة القول، لم يسمعها أحد أو قل لم يكن هناك أحد كي يسمعها، فأرادت أن تستجمع قوتها ونادت مرة أخرى، لكن صوتها كان خائر القوى ورغم ذلك انتظرت وتلصصت بأذنها محاولة أن تسمع الإجابة.

وعلى ما يبدو أن القدير كان رحيماً بها، فقد سمعت أذنهما صوت سيارة تقترب، فجرت مسرعة في اتجاه الطريق وحملت زجاجتها ووقفت جانب السيارة في انتظار القادم وتهللت أساريرها، فقد كانت سيارة شحن كبيرة تستخدم لنقل البضائع وهي دائماً ما يكون بها كثير من الماء لأن سائقيها يسافرون لمسافات طويلة في مناطق مختلفة، شعرت باطمئنان عارم، فقد تأكدت رغم بعد المسافة أن السائق قد رآها بوضوح.

قالت حالما يتوقف سأجعله يساعدي في إصلاحها فإن أمثاله يكون لهم خبرة كبيرة لكن على ما يبدو أن القدير أراد أن يختبر صبرها فلم يتوقف السائق، بل على العكس عندما اقترب ضغط على البنزين أكثر فتجاوزها مسرعاً مما أعطى لهالة مدلولاً مرعباً.

أرادت أن تترك السيارة وتفر بعيداً عن المبنى لكن تذكرت أن سور المبنى الموازي للطريق يستغرق منها بالسيارة أكثر من ثلث ساعة، فطردت تلك الفكرة من رأسها، ولشيء ما لم تستطع تفسيره، ظلت عينها متعلقة بالسيارة إلى أن أصبحت نقطة في المنتهى واندججت قبل اختفائها عن عينها مع السور.

مجتمع الفصام

ذلك ما قالته وهي تلتفت إلى سيارتها وتضع يدها على محرك السيارة كي تختبر درجة الحرارة، لكن يدها لم تستطع أن تتحمل الاقتراب فأبعدتها مسرعة، لكنها لم تستطع أن تتوقف عن الحديث وقالت بكل حنق غير مبالية:

تمارسون علينا ذكورتكم من السمع والطاعة لأنكم حماة لنا وتباهون أن الرجل منكم من الممكن أن يدفع حياته ثمناً للدفاع عن امرأته عن طيب خاطر وأصدقكم أنكم تفعلون ذلك عندما تعتقدون أن هناك من يراكم، أما إذا شعرت أنكم بمأمن عن أعين الآخرين فضحون بالأنثى عن طيب

خاطر، ولا تتهنز ضمائركم خجلاً.

وتذكرت أنها لا تصف الذكر فقط بالفصام لكن الأنثى أيضًا فهي تتشوق بالعفة والطهارة وترتدي ذلك الحجاب، وخلفه توجد أنثى نعمة للجنس والمحرمات، وما تكاد تشعر بالأمان عندما تسنح لها الفرصة حتى تلقي ما تدعيه جانبًا وتقوم بإشباع تلك الأنثى بداخلها، وقالت أنا لا ألومهم على الفعل لكن ألومهم على الكذب على النفس.

شعرت هالة أن هناك شيئًا في أفكارها قد تغير أو أن روحها حصلت على بعض الحرية. من أين أتت؟ لم تستطع هالة أن تستمر في هذا الحوار الداخلي كثيرًا.

فمع السكون وفحيح الصحراء الخافت، هجمت على عقلها إحدى موجات الخوف، فلم تستطع حصونها لها دفعًا ونظرت إلى المبنى مجددًا. وكادت أن تسقط قتيلة تلك المرة، وفركت في عينيها محاولة أن تبين إن كان ما تراه حقيقياً أم هو جزء من تراوحات العقل بين المنطق واللامنطق أو بين الحقيقة والوهم.

فقد رأت رجلاً يخرج من جانب السور يتحرك مستنداً عليه. فرّت هاربة ولم تنظر خلفها تلك المرة لأن عقلها لديه قرار واحد، هو الفرار، لكن أذنها سمعت صوت اصطدام جسد آدمي بالأرض، وبعد فترة قصيرة من العدو لم تسمع أي صوت، أو صوت أقدام تحاول اللحاق بها، فتوقفت تحت ضغط التعب وهي تنظر خلفها فوجدت جسد الرجل قد افترش الرمل الساخن ووجهه قد غاص في الرمل.

وبشعور لا إرادي نابع من إنسانيتها، فلم تقم باستشارة عقلها وعادت باتجاه الرجل محاولة إسعافه، لكن قبل أن تصل إليه يبدو أنها قد استنفدت قدرًا كبيرًا من مخزون شجاعتها فلم تتحرك. وقفت بجانب سيارتها في الجهة المقابلة لذلك الرجل إلا أن جسد الرجل كان في حالة سكون مماثل لسكون الموت، فاقتربت منه، فسمعته يتنفس بصعوبة بالغة، فحاولت أن تعدل من وضعية رأسه وجسده لكن لاحظت كطبيعة سابقة قبل أن تخصص في الهندسة الوراثية، أن حرارته مرتفعة بطريقة غير طبيعية لكن عقلها لم يستطع أن يعطي تفسيرًا صحيحًا لدرجة الحرارة تلك، وأدركت أنه يعاني من غيبوبة وأنه غير قادر على الإيذاء.

ودفعها ارتباكها إلى أن تتحرك إلى الطريق، لكن تلك المرة لم تكن هرباً ولكن من أجل طلب المساعدة من أي عابر للطريق الخالي من أي حياة، لكن اليأس سرعان ما استبد بها سريعاً، فعادت إلى الرجل لتختبر حالته مرة أخرى، وما كادت تصل إليه حتى طرأ على عقلها فكرة عبقرية بالنسبة إلى حالتها المضطربة، وهي الاتصال بالإسعاف.

على الفور وضعت يدها في جيب العباءة لتخرج "الموبيل" لكن لم تجده، فتذكرت أنه في السيارة فاتجهت إليها بسرعة، وأخرجت "الموبيل" من السيارة وقامت بمحاولة الاتصال مرات عديدة لكن كعادة القاهرة القديمة تكون تلك الأرقام دائماً مشغولة ولا تجيب، وكأنها أرقام وهمية. لكنها لم تيأس فظلت تعيد الاتصال مرة بعد أخرى، فلم يكن لديها أي حل آخر، ومع فقدان الأمل في أن يجيبها أحد، راحت تتحرك بخطوات متثاقلة مرتعشة باتجاه الرجل لتختبره.

عندما وصلت إليه، وضعت "الموبيل" بين صدغها المائل وكتفها ومالت عليه كي تطمئن عليه، لكن يديها الخبيرتين لم تشعر بنبض عروقه، فأغلقت "الموبيل" وفحصت النبض بدقة أكبر مرة تلو الأخرى. لكن على ما يبدو أن روحه انتقلت إلى السماوات العلاء، وراحت تتحسس تلك المناطق في الجسد التي تشير إلى وجود الحياة أو انقضائها وتبينت من كل مؤشرات الحيوية التي توضح بشكل جلي أن الرجل قد فارق الحياة، لكن شكاً ما راح ينبت بداخلها.

فدرجة حرارة الرجل ما زالت مرتفعة فاتجهت إلى السيارة مرة أخرى كي تحضر البرفان الخاص بها، فلو كانت غيبوبة ستكتشفها عن طريق البرفان وكان هذا هو المحك كي يستريح قلبها لإعلان وفاته.

وقبل أن تشيح بوجهها عنه سمعت صوت صادر من واد سحيق متحشرج كفحيح الأفعى وكان هو مصدر الصوت.

مالت مسرعة عليه كي تنصت إلى ما يقول لكن لم تسمع أي شيء.

انتبهت إلى أنه يحمل ملامح غريبة فأضاف إلى رعبها رعباً جديداً وراودتها

أفكار عن المكان أنه ربما يكون مهبطاً للكائنات الفضائية، وربما يكون

ذلك الرجل كائن فضائي، ورغم سذاجة الفكرة إلا أنها قالت لما لا.

فارتفاع الحرارة لكائن ميت أو مقبل على الموت بتلك الطريقة، هو أمر غير طبيعي حتى وإن كان مريض كبدا، لأن درجة الحرارة التي هو عليها أكبر من الأربعين أو الخمسين أو الستين، خبرتها تؤكد ذلك، عندئذ انتبهت إلى ألوان وجهه، تتغير بفعل الاختناق على ما يبدو.

جحظت عيناه بشكل غير طبيعي، كاشفاً عن عيني زرقاوين مختلفتين بحمرة شديدة وانفجرت يديه كاشفة عن شيء لمع تحت وهج شعاع شمس.

تلصص من خلف السور المهيّب . لم تلتفت إلى ما يحمل وكان انشغالها بذلك الإنسان، ضغطت على نفسها لأقصى حد حتى تستطيع البقاء معه كي لا يدفعها خوفها من الهرب أو الموت بجانبه، وأحضرت البرقان ووضعت في منخاره وضغطت إلى أقصى حد فاندفع السائل قوياً ووصل لأعمق أعماق رثيته، هكذا اعتقدت، لكن لم يبدو على هذا الكائن أي استجابة وأيقنت أنه لن يفاجئها بإصدار صوت مع محاولة رحيلها. ومع تيقنها بوفاته عاودتها أحاسيس الرعب وبقوة لدرجة أن رجفة مصحوبة بقشعريرة مرت بجسدها جعلتها غير قادرة على الحركة وبدت متعثرة في نقل خطواتها والابتعاد عن الجثة، شيء عجيب جعلها تتذكر ذلك الخاتم فعادت بصعوبة إلى الجثة ومالت على يديه والتقطته، لم يكن منظره الغريب ما جعلها تتأكد من أن ظنوها الساذجة تقرب من الحقيقة، فمعدن الخاتم غريب ورغم أنها ليست عالمة معادن، لكن هذا المعدن المصنوع منه الخاتم لم يكن شبيها لأي معدن قد رآته من قبل وأضفت نقوشه الغريبة شيئاً من الإثارة، عندئذ تركت لساقها العنان وفرت إلى سيارتها وأدارت مفتاحها ناسية من الخوف أن تلك السيارة لن تتحرك.

ويبدو أن ما نسمع عنه على قدر من الحقيقة، ففي لحظات الحاجة تستجيب الآلات الميكانيكية متخفية حالتها الطبيعية، فقد أصدر محرك السيارة صوتاً يقول إنه أصبح مستعداً للحركة ولم تترك قدمها له فرصة للتراجع فانطلقت السيارة. وأظهر مؤشر الحرارة تراجعاً مما منح السيارة فرصة الحركة وعلى إثره استجاب محرك السيارة.

لم يبدُ على وجه هالة أي أثر للسعادة نتيجة نجاحها في الهروب من المكان لأن شيئاً من تأنيب الضمير قد استبد بها فكيف تترك جثة وتهرب، وتحت تأثير هذا التأنيب الذي لم تكن حالتها تسمح لها أن تتحمله، اتصلت على الفور بالشرطة ورغم علمها بما ستعانيه من متاعب ومن شك الشرطة بها وتعرضها لكثير من الأسئلة والاحتجاز والمضايقات الشرطية المعروفة إلا أنها أصرت على استكمال الجرس حتى النهاية وجاء الرد سريعاً من الطرف الآخر، فأبلغت وأعطت المستقبل لاتصالها كل المعلومات التي طلبها منها وأغلقت "الموبيل" وانطلقت بأقصى سرعة إلى القطامية حيث توجد شقتها.

لمع الخاتم بوهج قوى تحت تأثير شعاع الشمس على «تبلوه» السيارة.

وعلى غير العادة، لم يساورها أي تأنيب ضمير لأنها أخذت ذلك الخاتم، بل بدت مرتاحة الضمير لأقصى حد لأنها قررت أن تسلم ذلك الخاتم للشرطة حالما تذهب للإدلاء بشهادتها، ثم تنسى ما قد حدث للأبد، وربما تغير مكان شقتها.

أوقفت السيارة أمام العمارة التي تسكن في إحدى شققها في القطامية، عندئذٍ

أصدر "الموبيل" الخاص بها أزيزاً معلناً بصوته الكئيب عن اتصال غير مرغوب، ظنت أنه من الشرطة وقد كان بالفعل من الشرطة، يطالبونها بالعودة إلى ذلك المبنى بأقصى سرعة ممكنة.

كان سؤال الضابط برتبة النقيب عندما وصلت مذهلاً!

- أين الجثة؟

نظرت هالة برية إليه فقد كان يقف مكان الجثة بالضبط.

هنا في المكان الذي تقف فيه.

نظر إلى وجهها بتفحص كي يستبين من إن كانت ملامحها تحمل أي أثر لمرض نفسي.

فأكدت حديثها وقالت مرة أخرى، كانت في هذا المكان بالضبط.

ونظرت يمينًا ويسارًا وقمعت رغبة ملحة في أن تنظر داخل سيارتهم للبحث

عن الجثة ونظرت تحت قدميها لتطلع لأي أثر على الأرض تثبت به أن في هذا المكان كان يوجد جثة بالفعل، لكن لا أثر لها على الرمل.

وهي متأكدة أن تيارات الهواء كانت في حالة سكون، إذن ما الذي قد أخفى أثره. نظرت إلى السور الممتد بلا نهاية في جوف الرمال، متشككة في أن يكون قد استطاع أن يتجاوز رجل بمثل حالته، عندئذ بدت ملامح الاضطراب تظهر على وجهها.

فما من دليل لديها يثبت للضابط أن جثة ما كانت هنا وأنها لا تهذي،

وحاولت أن تؤكد له أنها رأت يقينًا جثة لشخص ما هنا وحاولت أن تضيف إلى كلامها مصداقية بإضافة ملامحه الغريبة وحالة وفاته الغريبة لكنها ابتلعت الكلام لأنها تعلم أن تلك الكلمات ستؤكد شكوكه فيها.

ورغم نظرات شكه فيها إلا أنه أراد أن ينتهي من ذلك الموقف بسرعة، وخاصة أنها قامت باستخدام غريزتها الأنثوية وهي البكاء أمام الذكر والتي تبعث فيه نوعًا من إحساس ذكوري بالسيطرة والامتلاك وتدفعه للتصرف وكأنه حامي الحمى وموكلًا للدفاع عنها.

لكن هذا الرجل لم يأبه لتلك الدموع وأراد أن يقطع عليها طريقها تلك، يبدو أنه خبير بالنساء، وأراد أن يتخلص من حرارة الجوف فقال سأتحرك بجانب السور حتى أتأكد إن كانت تلك الجثة موجودة بجانبه أم لا، ونظر حوله وقال لا يوجد مكان آخر للاختباء.

وبعد مرور وقت طويل عادت معه وكان الرجل مخلصًا في عمله فقد كان يبحث بعينه في كل أرجاء المكان وينظر للرمال بدقة ليتبين إن كانت هناك آثار لأي سيارة ما مرت قبله من هذا الطريق، وقد حملت الجثة، فلم يجد، ومع بحث شبه دقيق، وكان هذا أقصى ما يستطيع فعله، لم يجد الجثة أو أي أثر يدل عليه، وتأكد أن تلك المرأة قد مرت بظروف عصيبة نتيجة توقفها في هذا المكان، وسألها مباشرة:

تقولين إن سيارتك توقفت هنا لعطل.

قالت نعم.

كيف أصلحتها؟ هل ساعدك أحد؟

قالت لا، هي تحركت وحدها عندما أدت محركها.

علمت ما يفكر فيه الضابط وارتعبت.

لكنه كان رحيماً وأوكل الأمر إلى الخوف من المكان والعطش، قد هيا لها ذلك أو ربما هي مصابة باضطراب نفسي، ربما هي مجنونة، فتهيأ لها أنها توقفت واخترع عقلها تلك القصة. ونظر إليها بإمعان.

اعتبرت حالة أن تلك النظرة وما تعنيه إهانة لها، فتذكرت أمر الخاتم وحمدت الله أنها أخذته معها ولم تتركه، وربما يكون هذا الخاتم وما يحمله من معدن غريب ونقوش أغرب، دليل صحتها العقلية أمام هذا الضابط.

أخبرته بأمر الخاتم فترك لها فرصة إحضاره ليؤكد لها أن كل ما رآته كان وهم، لأنه يعلم أن هذا الخاتم ربما يكون ملكاً لها لكن عقلها يفترض أنه ملك للجثة أو ربما لا يكون هناك خاتم من الأساس، لكنه استعد ليقيم الحجة عليها إن وجدته ويثبت لها أن هذا الخاتم ملك لها هي.

وغابت في بحثها في سيارتها وكادت أن تقلبها رأساً على عقب، عندئذ اقترب الضابط منها.

وقال بصوت أجش لكن رحيماً، ستأتين غداً للقسم لغلق ذلك المحضر على أنه بلاغ كاذب، وكان مجاملاً ومقدراً لحالتها وتركها تنصرف.

وقف الصول عبد العاطي ينظر بعيني كلب مسعور نحو الرائد حسن، ويريد أن ينقض عليه، وكان الرائد حسن يتناول فطوره بتلذذ على غير العادة.

وكان يعلم كل ما يدور في ذهن الصول عبد العاطي دون أن ينظر إليه فعبد العاطي هو صنعته، هو من حوله إلى تلك الحالة، ويعلم مقدار غضبه منه، ويعلم أيضًا أن الصول عبد العاطي رغم قوته الهائلة، يمتلك عقل ثور أحق لا يحركه إلا غريزته، فكل ما اكتسبه من حسن، اكتسبه بالغريزة، لا بالمعرفة لذا فإن الحالة التي هو عليها هي حالة حيوانية بحته لا عقل فيها، لذلك لن يستطيع الصول عبد العاطي أن يصل إلى جوهر حالته ويفسرها كما فسرهما حسن.

ويعلم حسن أيضًا أن مقدار المتعة للفعل عند عبد العاطي أكبر بكثير منه، لأنها نابعة من الذات، من تكوينه، من إرادته، لذلك لم يكن في حاجة إلى تبرير ما يفعله، لكن حسن كان دومًا يحتاج إلى تبرير.

في تلك اللحظة شاهد حسن اندفاع رجل عبد العاطي تجاهه ثم تراجع، فواصل حسن طعامه دون أن يعيره انتباهًا لأنه يعرف أن الصول عبد العاطي كأى حيوان يعرف بغريزته، إن كان حجم المخاطر التي سيقدم عليها عند محاولته الهجوم أكبر منه فلن يقدم عليها.

عندئذ اتكأ الصول إلى الحائط بعد محاولته النفسية الفاشلة في الانقضاض على الرائد حسن، لأنه يعلم مقدار قوة الرائد وحصانته، فراجع، لكن ظل يراقب الرائد حسن وشيئًا فشيئًا تغيرت حالته ونظراته إلى الرائد من ثورة إلى استعطاف، وكان يمني نفسه بأن الرائد حسن سيعود إلى ما كان عليه. فمنذ أن عمل معه منذ عشرة أعوام يعرف أنه غريب الأطوار، متغير المزاج ويعلم أنه أيضًا من أكفأ الضباط ويقال إنه أكثرهم ذكاء بل يطلقون عليه العبقرى، لكن هذه المرة طالت الحالة التي هو عليها الآن وأيضًا ولأول مرة يطوي أدوات التعذيب فأضحت حبيسة ذليلة، مكونة في ركن قصي.

فما الذي قد غيره إلى تلك الدرجة، وغمغم بغيظ أنه هذا الشيخ الملعون الذي لم يسمح الرائد حسن لي بقتله، أو تعذيبه، واستأثر هو بتعذيبه، ومنذ أن التقاه وهو قد تغير.

لكن ورغم طول مدة الحالة التي عليها حسن أو تصميمه على البقاء فيها إلا أن أملاً ما زال يراود الصول، وبنظرة خبيثة واثقة قال: أعلم أنك لن تستمر في تلك الحالة طويلاً وأعلم أنك ستعود.

وعلى ما يبدو أن الصول عبد العاطي أخطأ في تقدير الأمور. وعلى الرغم من معرفته الواسعة بالرائد حسن إلا أنه لا يعرف ما يتويه حسن هذه المرة، أو ربما لن يجد تفسيراً لما يتويه حسن طوال حياته.

وربما آخرون لن يجدوا تفسيراً أو ربما يصيهم ما يتوى فعله بذهول، لأنه قد نوى أن يستقيل.

ولأن الرائد حسن كان واحداً من القلائل الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه، أو ربما هو الحالة الأولى التي تصل إلى هذا المكان وأن يصبح ضابطاً في أمن النظام، وأبويه لا ينتميان إلى التنظيم أو أحد أجداده، لذا ستفسر حالته بمجنون أو متآمر.

- كان الرائد حسن في ٣٣ من عمره فتياً قوياً، حاضر الذهن شديد الذكاء غير متزوج، يعشق عمله.

لكنه لن يستطيع أن يستمر، رغم اعتقاده أنه يقوم بعمل وطني شديد الأهمية وفي خدمة الدعوة إلى الله اليوم، لكن قرار استقالته لا رجعة فيه وسيجعل أمر الاستقالة سراً حالما ينتهي من ترتيب أفكاره وترتيب المأوى الآمن لاختباء طويل، لأنه يعلم أنه سيلاحق بلا هوادة تذكر، كيف أصبح ضابطاً في شعبة أمن النظام، كانت ضربة حظ حظي بها حسن جعلته ينضم إلى هذا المكان، عندما كان في احتفال التخرج وكان تربيته الأول على دفعته مما أعطاه الفرصة كي يظهر أمام سيادة اللواء (عبد الكريم قاسم) الذي اختاره بعد ذلك ليتدرب على يديه والذي أحبه كثيراً واعتبره كابن له ولم يخل على حسن بالمعلومة وكان ينشي عليه دائماً ويقول له إنك ضابط مميز كثير الأسئلة تدقق في التفاصيل لكنك لن تكون على الرغم من موهبتك محققاً حقيقياً، لكن حسن حاول بتحديد أن يكون محققاً حقيقياً.

أصدر الصول عبد العاطي صوتًا هامسًا حتى يحظى باهتمام سيده الذي نظر إليه بعين الشفقة تلك المرة، لم يكن حسن غاضبًا أو حائقًا، على الصول عبد العاطي بل التمس له عذرًا، وقال لعبد العاطي دون صوت، أعلم أنك تقول ألم تكن تستمتع بما أفعل، ألم تنزع فطورك بسماع سياتي المزوجة بأنات المعذبين.

نعم يا عبد العاطي، لم أكن أستطيع أن أتناول فطوري دون سماع أنات المعذبين المختلطة بالسياط، كنت أستمتع بحماستك للعمل، وخاصة مع اقتراب انهيار ضحاياك، نعم أنت من ألهمتنني أنك حين تعذب، فإنك تؤدي طقوس وصلوات في محراب العبد الكامل والسيد الكامل، لذا كنت أشاهد كرهك ونفورك من الذين يعترفون مسرعين، ولا يوجد بداخلهم أمارات التحدي، بل وكنت تعاملهم باحتقار شديد.

أما الذين يصرون على أقوالهم فكنت تقترب منهم كاقتراب الحية بهدوئها حتى لا تصيبهم بارتباك ثم تنقض عليهم وتعطيهم قبلة الموت في ثوان ثم تعود لهدوئك مرة أخرى منتظرًا أن تقع الفريسة مضرجة في دمائها بين أحضانك، فلم تحرمها من ملمس جلدك الناعم فتلف عليها وتكرمها وتجعلها جزءًا من جسدك وروحها تصير من روحك.

كان هذا الصول يخترق جسد ضحيته الجديرة بالاحترام، فيصل إلى روحها وبعد أن يقوم بطقوس الحياة معها، كان يعطيها شرف الامتزاج بروحه، إنه يشعر ويفعل دون أن يعرف تفسير ذلك، ولم يكن الرائد حسن يعرف ذلك التفسير إلا اليوم.

إن عبد العاطي يصل معهم إلى نشوة الوصول إلى ثنائية السيد الكامل والعبد الكامل وهي لحظة لذة مماثلة للحظة الذروة الجنسية وأشد في متعتها، وكان يستخدم في ذلك أحدث وسائل التعذيب، والبداية منها، ولم يكن يحرم ذلك الشخص الذي اصطفاه أن يتحول إلى عبد كامل وكانت اللذة تزداد مع طول مدة المعاناة في التحول.

أراد حسن أن يختبر صدق أفكاره عن العبد والسيد، وأن عبد العاطي لا يعذب بل يمارس طقوس، فترك عبد العاطي مع ضحيته بل وأمعن في إظهار السعادة لعبد العاطي كي يوحى إليه برضاه، فلا يقلق.

وما أن رأى الصول السعادة البادية على وجه الرائد حسن، فزادت حماسه وبخبرته في الشخص الذي يتعذب، علم أنه من ذلك النوع الذي لن يعترف، فشعر بالسعادة، وراحت سياطه تشق ظهر المعتقل ومع كل سوط تندفق نافورة دماء، ويزداد الصراخ، لكن المعتقل لا يتوسل.

نظر الصول بإعجاب إلى نفسه، لأنه يعرف جيداً القماشة التي تحت يديه، وبدأ يشعر بمتعة الوصول، فلقد اقترب مراده، وها هو يتهيأ لأداء طقوس الحية مع فريستها، واقتربت لحظة الذروة، وكان الرائد حسن يراقب الصول عن كثب وانتظر لحظته وما كاد يصل إلى الذروة حتى قام الرائد حسن وقال آمراً:

- توقف

قالها بصوت قوي حاسم، فلا يترك الفرصة لعبد العاطي كي يكسر الأمر، فنظر إلى الرائد حسن بتنمر، ولولا معرفته بقوة الرائد حسن التي تفوقه بكثير، لفك به هو الآخر وليكن ما يكون.

وتوقف الصول، عندئذ تحول وجه الرائد حسن من صرامة مفرطة إلى رقة بالغة وقال:

- فك المعتقل وعالج جروحه.

نفذ الصول الأمر دون أن ينطق بكلمة، أو ينظر للرائد، لكن عندما وقف الرائد أمام آلات تعذيبه غير متبته للوصول، نظر إليه الصول نظرة المتعجب وكأنه يريد أن يقول إن شيئاً غير طبيعي أصاب عقل الرائد حسن، وقال للوصول أنت تمارس طقوس العبد والسيد.

نظر الصول ببلاهة لما يقوله حسن، كانت نظره تلك مماثلة لنظرة حسن عندما توجه إليه اللواء عبد الكريم قاسم بالسؤال مع بداية التلمذ على يديه، وقال له اللواء هل تريد أن تصبح سيّداً أم عبداً؟

لاحظ اللواء تخرج حسن من الرد ومحاولته المصطنعة أن يبدو خجولاً أمام أستاذه، فأكمل حديثه دون أي اعتبار لما يديه حسن من بلاهة.

إن السؤال قد يبدو لا أخلاقي، لكن بعض الموهوبين فهموه، فصارت الإجابة هي مفتاح الحياة، ومعظم البشر فهموه دون تفسير فاختروا أن يكونوا ما يريدون، سادة أو عبيدًا. وكثيرٌ لم يفهموه، فلم يعرفوا ذلك المعنى الخفي للحياة، فتنتهي بهم الحياة إلى اختيار واحد، وواحد فقط هو الانتحار؛ الخروج من الحياة.

اختر واحمل على كتفك تبعات اختيارك، واعلم أن السيد هو الفاعل، والعبد دومًا مفعول به فإن اخترت أن تكون سيدًا فلا تأبه لصرخات العبد تلك، لأن العبد من طقوسه الصراخ، فإن لم تجعله يصرخ فقد منعتة حقه، وسينقلب عليك بحثًا عن سيد آخر أكثر ارتقاءً منك وأكثر فهمًا لروح العبد.

- استغرب حسن آخر كلماته وسأله هل هناك ارتقاء للسيد؟

- هناك ارتقاء للسيد حتى يصل إلى حقيقة السيد الكامل، كما أن هناك ارتقاء للعبد حتى يصل إلى العبد الكامل.

- واعلم أن سوء الاختيار قد يجلب عليك مشاكل لا حصر لها.

- كيف؟

إن كنت عبدًا واخترت أن تكون سيدًا، فسوف يثور عليك العبيد لاستبدالك بسيد حقيقي.

- هل يثور العبيد....؟

- نعم، يثور العبيد.

- كيف أعرف الفرق بينها وبين ثورة السيد؟

ثورة العبد سوف تعرفها من بحثه، فهو يبحث دومًا عن سيد آخر حتى وإن غلف كلامه ببعض شعارات السيد، والذي تكون ثورته بحثًا عن قيمة فهو لا يحتاج إلى سيد آخر.

- هل يصنع الخوف عبيدًا؟

ضحك اللواء وأكمل، يبدو أنك لم تفهم ما قلت، إنها يا صديقي من متطلبات العبودية التي يجب أن يحملها على كتفه.

انظر يا صديقي إلى أعداد العبيد والسادة على مر العصور، فالسادة دائماً أقل بكثير، حتى أو ربما ليس هناك مقارنة بين العديدين، فالسادة قليلون جداً.

ربما لأن السيد يملك من أسباب القوة الكثير.

السيد هو فرد، وإن حمل سلاحاً فهو فرد أمام أمة من العبيد.

كان هذا أشد ما حير العقل البشري، كيف لسيد واحد أن يسيطر على كل هؤلاء؟ فلما لم يستطع أن يصل عقله إلى تفسير، نراه يلحق صفات أسطورية بهذا السيد.

انظر في روحك واعرف من أنت، ولا تحزن إن وجدت نفسك عبداً، لأن هناك علاقة عضوية بين السيد والعبد تضيء كثيراً من المنعة، مثل التي بين الليل والنهار، الخير والشر، الصيد والطريدة.

- لا أستطيع أن أصدق أن العبد يستمتع من تلك العلاقة، ويجد لذة في ذلك.

- لماذا يعبد الإنسان؟

- لأن الرسل تأمره بذلك.

وقبل الرسل ألم يعبد الإنسان؟ ألا تتذكر كفار قريش؟ كانوا يعبدون يغوث ومناة، وكان هؤلاء العبيد يكون بجانبها، وإن لم ييكونوا فيتباكون، يتضرعون إلى السيد.... وفي الحقيقة إنهم لا يتضرعون إلى السيد وإنما يبحثون عن العبد بداخلهم، لذة العبد الكامل الذي لا يحضر إلا إذا وجد السيد الكامل الذي يفترض وجوده أو استحضاره هي "ممارسة طقوس استحضاره".

شعر حسن يومئذ أنه يقف أمام شخص استثنائي.

أنهى اللواء درسه باسمًا وقال يجب أن تبحث في روحك وتعرف ما هي عليه وتقرر ما سوف تكون.

راودت حسن خيالات كثيرة، إن قرر أن يصبح سيدًا، وأفكار أخرى عن الحاكم السيد الذي يستعبد شعبه، عندئذ طاف سؤال بذهنه وشعر أنه يستطيع أن يباغت اللواء به.

إن ما تقول يتناقض مع المواثيق الدولية، فهل سيسمح العالم الحر بذلك؟

كل العالم يستمتع بذلك، فدول اختارت أن تكون آلهة تعبد وأخرى اختارت أن ترزح تحت نير العبودية، ولا تعتقد أن من يحكمون تلك الدول هم سادة بل عبيد انتقتهم تلك الآلهة بعناية شديدة.

ذلك لقوتها وبطش أكتها العسكرية والاقتصادية الجبارة؟

ذلك ليس صحيحًا، فإن الحرية تموت ولا تأكل بثدييها، أما القوة العسكرية فإن الغازي مهما امتلك من قوة فلن يستطيع أن يسيطر على وطن من الأحرار ببساطة لأنه لن يبق كل جنوده على تلك الأرض إلى الأبد، لذلك يختار أحد العبيد بعناية ويجعله سيدًا بالوكالة على قوم من العبيد والكل مستمتع، ثم يوجد العبد لنفسه المبرر الذي يحتاجه، والسيد يوجد لنفسه المبرر الذي يحتاجه.

- أتدري لماذا؟

- لماذا؟

- لأن كليهما يوجد المبرر العقلي الذي يحتاجه الآخر.

- لذلك إن أصبحت سيدًا، أوجد لعبدك المبرر الذي يستطيع أن يبرر به فعلك وإن لم تجد، فاجعل عملك سرًا وكن مرتاحًا إلى أن ما تفعله هو عمل مشروع.

ومرت سنوات أمضاها حسن متنقلًا من نجاح إلى نجاح، وعلى الرغم من أنهم يصفونه بغريب الأطوار، إلا أنهم لقبوه بسيف الله المسلول، الذي يسلطه على أعدائه، فيفتك بهم، فهو يستطيع فك رموز أي قضية. كان رؤساؤه يقولون بأسى شديد فيما بينهم، لو كان أبوه من التنظيم لأصبح له شأن كبير ولا استطاعوا أن يضموه إلى شعبة أمن المرشد فإنه أكفأ من أقرانه هناك بكثير ولا تفتحت أمامه كثير من الأبواب المغلقة.

وكانت تلك التقارير عن نجاحاته وتفوقه اللافت، تغضب رجال كثير من شعبة أمن المرشد، وهي الشعبة الأعلى في نظام الأمن المصري وهم الأكثر سطوة ونفوذاً في دولة الخلافة وأيضاً الذي باعد بينه وبين الشعبة وجعل التحاقه بها مستحيلاً.

هو ما عرف من أمر صداقته باللواء (عبد الكريم قاسم) وخاصة بعد اختفاء اللواء المريب، بعدما سدد بعض اللكمات لنظام الحكم، لكن والله الحق على الرغم من تلمذ حسن على يد سيادة اللواء إلا أن إيمان حسن المطلق بالنظام لم يهتز، وأن ما قاله اللواء ممكن تبريره بغضبه من فساد بعض الرجال حول مولانا أو اكتشافه أخطائهم لكن ليس خروجاً على الخلافة أي خروجه من رقبة الإسلام والعياذ بالله فسيادة اللواء أجل من ذلك.

ولم يكن إيمانه الصادق بالنظام الحاكم هذا هو ما قد حماه من ضباط أمن المرشد حينما تم التحقيق معه عن طبيعة العلاقة بينه وبين ذلك اللواء، لكن تدخل مولانا "محمد عباس، نائب المرشد".

على الرغم من تيقنهم من أن اللواء قد أعطاه عنوان المكان الذي سوف يستقر فيه، وهذا بالضبط ما يريدون معرفته، لكن حسن لم يعطِ أي إشارة تفيد بأنه قد يتعاون في ذلك الأمر، وأنكر تماماً.

ظل حسن مراقباً لفترة، ومع تباعد المدة بين فرار اللواء عادت ثقة الجهاز في حسن، وعاد إلى حسن تقديرهم لعمله وأوكلوا إليه مرة أخرى، كبرى القضايا.

لكنه اليوم قرر الاستقالة من عمله وظل كلام سيادة اللواء جزءاً في فضاء عقله لا يعرف فلسفته بحق إلا عندما قابل الشيخ.

ولقد كان لقائه بالشيخ شيئاً استثنائياً، غير مجرى حياته، لأنه لم يكن رجلاً عادياً أو مجرم عادياً، حسب التوصيف الشرطي والقضائي. كان شيخاً جليلاً ملأ السمع والبصر، وكانت قضيته بالغة التعقيد، استطاع حسن أن يفك رموزها، ولم تكن براعة منه.

بدأت القضية بحادثة قتل لزوجته رجل مهم، سبقه اختفاء زوجة الشيخ.

بدأ حسن كالعادة وبحث عن آخر اتصال أجرتة تلك السيدة وكان مع ذلك الشيخ وعند سؤال الشيخ، أجاب إنها أرادت أن تستفتيه في بعض أمور دينها وعلى الرغم من منطقية الإجابة إلا أن خبرة حسن دفعته إلى عدم التصديق بحث مرة أخرى في مكالماتها وكان شيئاً مذهلاً أنه قد وجد اتصالاً يومياً بينها وبين الشيخ.

فسأل حسن الشيخ عن ذلك فقال: إن تلك السيدة كانت من النوع المتشكك الذي لا يثق في نفسه، فيحتاج إلى فتوى في كل شيء، ولأنها كانت من عليّة القوم فلم يكن باستطاعته أن يرفض لها اتصال.

نظر حسن إلى الشيخ وقال: إن وصولك إليّ يعني أنك لم تعد محمياً وغير مرغوب فيك. عليك أن تجيب حتى تستطيع إنقاذ نفسك إن شئت.

ابتسم الشيخ ابتسامة الظافر، ابتسامة حملت الكثير من المعاني، فقد أنزل الرائد حسن من عليائه، فطلب حسن الصول عبد العاطي، فنظر الشيخ إلى الرائد نظرة الظافر المسيطر على الأمور، وأن الرائد حسن سيفعل ما يريد.

عندئذ شعر حسن بكره شديد لهذا الرجل، فلم يترك لعبد العاطي فرصة الفتك به، ولكن تولّاها هو، وراح يذيق الشيخ من فنون التعذيب، قديمها وحديثها،

لكن الشيخ كان متماسكاً قوياً ولم تنهار همته تحت لهيب الشياط، وظل الرائد مصمماً، فقد كان تحد ولم يكن لثقل حسن أن يخسر تحدياً.

ومع اقتراب وفاة الشيخ، اقتربت لحظة الانتشاء لدى حسن، وكأنها لحظة الذروة، ومع اقتراب تلك اللحظة، التي سيطر فيها حسن على روح الشيخ، ثم إدراكه أنه الآن ملك ممكن أن يهب الموت.

إنها لحظة السيد الكامل، واهب الحياة والموت، فبدأ يشعر بخوف يتسلل إلى روحه من أن الشيخ قد يفعلها، ويعترف، فخلطت روحه بين اقتراب الانتشاء واستعجاله، حتى يدرك تلك اللحظة، لكن الشيخ نظر بابتسامة إلى عيني حسن وأدرك حسن مغزى الابتسامة وسمع الشيخ يقول بصوت قاطع سأعترف.

فتوقف حسن على الرغم من أن باستطاعته أن يكمل ويقتله.

لكن توقف! وقاوم موجات من الانكسار، لكنه لم يستطع أن يوقف موجة غضب اجتاحت وجدانه، تحولت مع كتبها إلى موجة كره.

تجاهلها الشيخ الذي قال مرة أخرى مؤكداً، سأعترف.

نظر حسن إليه بتوجس غير مصدق وقال لنفسه: هل ينوي التلاعب بي؟

كانت نفس الرائد حسن قد مالت للهدوء بعد خروجه من حالة الاحتياج التي كان عليها، ولم يمهلها الشيخ كثيراً ولم يدعه لحالة التفكير، راح يروي قصته بتعبير فج، غير جيد بالنسبة لشيخ جليل.

كانت تلك المرأة ذات صوت أخاذ.

جاءني اتصال منها، لم أكن أعرفها وعلى الرغم مما كنت أدعيه، أو أحسب نفسي عليه، أو إن شئت قل كنت مسجوناً في وعيي تحت دعوى تقواي وورعي، تمنيت أن يطول حديثنا.

فيما كان حديثكم؟

كانت تستفتيني في بعض أمور حياتها، وعلى غير العادة رحت أدلل على فتواي، كي يطول الوقت، وكان فهم الأدلة أصعب وأقسى من فهم الفتوى. فاستدعيتني إلى قصرها ولم أستطع أن أرفض طلبها أو أجد في نفسي قدرة على دفع الأمر عني وكان لدي إلحاح داخلي وتساؤل، هل صاحبة الصوت أجهل من صوتها أم صوتها أجهل؟

- و هل يا ترى هي تلبس نقاباً أو إنها سافرة الوجه؟

- هل ستكلمني من خلف حجاب أم سوف تمن عليّ وتطالعي بجملها؟

- آه، أسئلة كثيرة طافت بذهني،

لم يمض وقت كثير حتى توقفت سيارة فارهة أمام بيتي، وقبل أن يطرق سائقها بابي، وجدني واقفاً أمامه.

كاد قلبي يخرج من بين ضلوعي عندما وصلنا إلى باب القصر، أجلسوني على كرسي في مواجهة السلم الداخلي للقصر، لا أدري إن كان جلوسي في ذلك المكان كان مصادفة، أم أنه كان أمراً مدبراً منها.

نزلت كملكة تجر في زيتها، وخلفها كانت الجوارى.

آه لو تدري ماذا قد أصاب فؤادي.

كانت يا سيدي، فاتنة كالأله، فيها من سحر ربات مصر القديمة.

نظر حسن إلى صورتها مرة أخرى ورأى ما لم يكن يراه من قبل، نعم إنها فاتنة بل لم تكن فاتنة فقط...

ثم أطرق لوصف الشيخ لها وراح ينصت باهتمام إلى شيخ يصف امرأة مميزة وبدأ في وصفه كصوفي في محراب العشق.

كانت جميلة مثل الزنبق الأبيض، شهية بطعم النرجس، شفاها مصبوغة بلون الكريز، أي امرأة مثلها كانت أعز من أن تمنح نفسها لأحد.

جلست بجانبى ولا أدري لما منحني ذلك الشرف شرف الاقتراب وتنفس رائحتها المتصاعدة.

نظر حسن مرة أخرى للصورة، ورأى مع الوصف أشياء لم يكن يراها، وأكد أجزم أنه قد شم رائحة الزنبق الأبيض.

انتظرت أن تتحدث مع أمنية ألا تتحدث، لشعوري بأني راهب في محراب الجبال، فخفضت أن تتحدث فتقطع الحلول والاتحاد في روحها العليا.

لكن الأسئلة هي أسوء ما يواجهه صفاء راهب، فخرجت من الاتحاد على أسئلة مثل، لماذا اختارتني ولأى ميزة في قد اصطفتني حتى الآن لا أدري، ولحسن حظي لم يكن هناك وقت لأسأل.

- منذ متى وأنت تعرفها ؟

- ما يزيد على عامين.

- ولم يكن لديك وقت

نظر حسن إلى صورتها مرة أخرى، فرأى أشياء لم يكن يراها وقال ما لهذه المرأة، كيف تكون، كلما رأيت صورتها شعرت بشعور مختلف وأرى أشياء لم أكن أراها.

- قرأ الشيخ ما يدور في عقل حسن وقال تحسن روحها.

- كيف؟

مرر أصابعك على صورتها واغمض عينيك وسترى.

فعل حسن ما قاله الشيخ واعتري عقله بعض التشوش الذي سرعان ما صفى، راح يشعر بها بل يقترب منها ولمس روحها وتاه حسن معها.

لكن الشيخ أيقظه عندما قام بالنداء عليه وشعر أنه يأتي من مكان بعيد.

نظر حسن إلى الشيخ بعين معاتب تقول لما لم تتركني؟

وجلس بين يدي الشيخ كتلميذ أمام أستاذه، لا يقاطعه بل ينهل من فيض علمه

ونسى أنه محقق أمام متهم.

أسكرني حديثها، اقتربنا، لم تكن أحاسيس جنسية التي راودتني بقدر ما كانت طقوس عبادة. وفي ذروة الشوق أصدر التليفون أزيزاً معلناً منع الاقتراب أكثر، كان من زوجها، أنا أتذكر كان من زوجها الوزير، يخبرها أنه لن يحضر اليوم. وكان إعلانه منع الاقتراب إعلاناً كاذباً لأنني أحسست بالأمان.

فتحررت أكثر وأكثر، كان الخوف يكبلني عن المجازفة، كنت كمن يقف بجانب الشط يرى البحر الهائج يدعو للسباحة، فلا يمنعه إلا الخوف لكن مع شدة السكر فيها، قررت أن ألقي بنفسي، على الرغم من أنني لا أعرف فن العوم.

ألم تخش أن تصدك؟ ألم تخش أن تبعدك عنها؟

بعدها تكلمت مع زوجها رأيت عينيها كانت فرحة لغيابه، وحسبت أنها إشارة قبولي ووجودي بقربها، فتركت كل المخاوف ورائي، قررت أن أغامر ولا أخفيك سرًا، رحت أنصب شبكي حولها، وانتظرت رغم الشوق، لكنها قطعتها؛ قطعت شبكي كلها.

لم أكن أنا الصياد، بل كنت الفريسة!

ذكرتني أنني العابد أمام ربه، فلا يجوز لعبد أن يطلب.

انتظرت كثيرًا والشوق يأكلني، ورأيتها تطلبني، اقتربنا، امتزجنا. تسمع كثيرًا عن اللذة في لحظة الذروة بين ذكرٍ وأنثى، إنها لا شيء إذا ما قورنت بتلك بين عبدٍ وربّه.

أنا يا سيدي، المتزوج مرتين، لم أشعر يومًا بمثل ما شعرت به يومها من لذة، لكن مولاتي لم ترض.

نظرت إليّ باشمئزاز، وقالت إن هذا ليس جنسًا، إن ما قمت به معي كان هراءً.

هل قتلتها من أجل ذلك؟

نظر الشيخ إلى حسن نظرة المؤنب، تعني اصمت إن جلست في حضرة الأستاذ. فهم حسن الرسالة وشعر لأول مرة أنه طفل غريب، يؤنبه أستاذه، فلاذ بصمته وتضائل رغم حجمه الكبير في كرسيه.

قالت سأنتظرك غدًا، فقلت وأنا مطأطئ الرأس، أنا لم أتذوق مثل هذه اللذة، نظرت إليّ، أتذكر نظرتها، أشعرتني كم أنا مسكين.

أراد حسن أن ينظر إلى صورتها مرة أخرى، لكن خوفه من أن يغضب أستاذه دفعه إلى مقاومة تلك الرغبة، لكن لم يستطع أن يمنع لسانه من السؤال.

ألم تشعر بتأنيب الضمير من فعل منافي لما تؤمن به بعدما هدأت نفسك وعدت إلى بيتك؟ ومن قال بأن النفس قد هدأت؟ إن النفس قد علمت.

شعر حسن بعدم الراحة لإجابة الشيخ لكنه لم يعلق.

ذهبت اليوم الثاني دون اتصال، فدخلت وأجلسوني في نفس المكان الذي جلست فيه بالأمس، انتظرتها أن تنزل، شعرت بثقل الوقت على نفسي وكان صبري تابعاً من معرفة حجمي، فأنا عبد ينتظر ربه، سأظل أنتظرها ربما هي تستعد لتعليمي، وتلبس أبهى ثيابها، دعني لا أسرف في التوقع، قلت لنفسي ذلك.

ولم تمض غير لحظات حتى سمعت صوت حجرة تغلق بالطابق الأعلى، وأقدام تقترب.

اعتدلت في جلستي وانا بتني موجة سعادة، لم أستطع أن أغلق شفتي، وتركتها معلنة بتلك الابتسامة سعادتها، لكن سرعان ما زالت الابتسامة مع اقتراب الأقدام وتحول وجهي من لونه إلى لون آخر، وبردت أطرافي فقد كان سيادة الوزير.... زوجها هو الذي استقبلني!

عندئذ راح الشيخ في إغفاء، لكن الرائد حسن حاول إيقاظه، فلم يعد يطيق صبراً، يريد أن يعرف، لكن لم تفلح المحاولات التي قام بها لإيقاظ الشيخ. الرائد حسن، يعلم جيداً أن الشيخ قد أنهك من التعذيب، لكن يريد أن يعرف ما الذي فعله الوزير مع الشيخ. هل علم بما حدث بين الشيخ وزوجته؟ أم أن الشيخ استطاع خداعه؟ أم أن شيئاً آخر قد حدث؟ هل قتلها الوزير؟

نظر حسن إلى الشيخ ولسان حاله يقول استيقظ، أرجوك!

استيقظ مولانا مبتسماً وقال لحسن: أرايت لذة أن تصبح عبداً؟ لم يتببه حسن إلى تلك اللذة لكنه أدرك أنه اختبرها.

وأنا أيضًا استمتعت بكوني السيد، واستطرد الشيخ؛ شعرت يومها بخوف شديد، فابتسم حسن لسماعه تلك الكلمة، فقد اعتقد أن هذا الرجل لا يخاف أي شيء، حتى الموت لا يهابه، وكأنه قد ولد هكذا، رجل بلا قلب.

لم يكن خوفي من هذا الوزير خوف عبد لسيده، وإنما كان خوف من ذاق لذة القرب وخاف أن يفقدها، لكن سرعان ما هدأت بعض مخاوفي بعدما طلعت عليّ مولاتي من خلفه.

نزلت بيهاؤها، ربة كانت، لم أستطع أن أتمالك نفسي ونسيت سلطان زوجها وأي شيء يداني سلطان القرب من تلك الربة.

وماذا فعل زوجها، هل قتلك؟

ابتسم.

انتابت حسن غصة، تلاها قلق نفسي، لأن هذا الوزير يشغل كرسيًا مهمًا داخل التنظيم، وهو داع من دعاة الفضيلة، وغالي في تشدده حتى أصبح مقصدًا لكل المتشددين، وأصبح عنوان الفضيلة والتدين وكان حسن ينظر إليه بالتبجيل والاحترام عندئذ قال حسن مستنكرًا وكأنه يحدث نفسه، ابتسم؟

نعم ابتسم لكنني كنت مشغولًا معها عن التفسير، فأنا في حضرتها، أعطتني يديها فقبلتها.

ماذا فعل الوزير.

ابتسم

شعر حسن بأن الرجل يهذي، وقال لا يمكن أن تكون صادقًا.

إن شأنك مثل كل العبيد، لا يصدقون أن أسيادهم بهذا الضعف، فلا يصدقون أفعالًا تأتي من السيد حتى، ولو رأوها، ثم يبررون ويا ليتهم يبررون فعلته إنما يبررون.....

أقول بأنني عبد؟

أجاب الشيخ بابتسامة ساخرة ثم صمت، لكن حسناً لم يستطع صبراً فقال:

اكمل.

لم تمهلني مولاتي، ولم تتركني لمخاوفي، وبدأت طقوس المتعة، طقوس التحرر.

- طقوس؟ هل للجنس طقوس؟

- كل عبادة لها طقوس.

تحسن حسن مسدسه في تلك اللحظة، أراد فعلاً أن يقتل الشيخ، وأراد أن يخفف ما يشعر به.

وقال تقصد مثل الطقوس السحرية؟

لم يفهم الشيخ ما قاله حسن، فهو لا يفهم الفرق، فهو يدرك أن السحرة يؤدون طقوس العبادة التي يؤمنون بها، وهم بشكل أو آخر عبيد للسيد الذي يعتقدون أنه السيد والساحر، عبد من العبيد التي اصطفاها السيد.

أتدري أنها لم تكون طقوس جنس؟ لكنها كانت طقوس استخراج العبد والسيد. وكان الجنس أحد طقوسه، دخلت غرفة نومها ودخل الزوج معنا وكانت الغرفة تحتوي على بعض آلات التعذيب البدائية، أصفاد وسوط وبعض بطاريات السيارات وأشياء أخرى لم أرها من قبل!

أزاح الزوج الثوب عن زوجته برقة بالغة، قطعة قطعة، وكان كريماً، فقد كان يقاسمني رائحة ثيابها، كانت امرأة لها رائحة، واعلم أن هناك نساء بلا رائحة، هم بلا روح، فلا تقر بهم، ثم جلس بعدما ظهر بهاؤها.

كانت عجيبة، لو رأيت جسدها كل يوم فلن تمّل أبداً لذة النظر إليه، وكلما نظرت إليه تجد فيه حسناً، لم تكن تراه من قبل، جلس الزوج على كرسيه وأشعل سيجارة وارشف بعض النبيذ من كأسه، وراح يراقبني عن كثب.

- هل كان يحبها؟

- بل قل كان يعشقها.

مررت بيدي على مرتفعاتها وهضابها، وكنت كلما توقفت يدي، ترجوني عينيهِ أن أكمل، قبلتها وقبلتني قبلة غجرية لم أذق مثيلاً لها يوماً.

تعريت، تحررت من كل ثيابي، تلاصقت، وأعلن ذكري عن استنفار، أراد أن يدكّ حصون تلك الأنثى، لكن يا سيدي وبصدق، لم تكن تلك اللذة التي ذقتها، كانت تفوق مثيلاتها بالألمس كثيرًا، وشعرت ببعض الخيبة، فلم أحصل على ما وعدتني به، وأنا أعلم أن ربتي حرة، والحر لا يكذب. راودني شعور بالضيق وهممت بالانصراف، عندئذ قام الزوج وشاركني تقييدها، وبدأنا ممارسة طقوس استخراج العبد والسيد!

إنها طقوس يرى الإنسان نفسه بكل وضوح بين تلك الثنائية؛ عبد أو سيد. أكرمني زوجها مرة أخرى وتركني أكمل منفردًا الطقوس.

آه من ذلك الإحساس، عند تحرر السيد الكامل منك، أظنه شعور لا يدانيه إلا وصول المعذب والمتهك المخترق جسده بشكل عنيف إلى العبد الكامل، واعلم أن طريق الوصول إلى الصورة الكاملة ليست سهلة، وعلمت بعد ذلك أن الوزير لم يكن كريماً كما اعتقدت، لكن سأروي لك ذلك. بعد أن انتهينا من ممارسة تلك الطقوس، سألت الرجل:

- أليست زوجتك؟

- قال: هي زوجتي.

- قلت: ألا تحبها.

- قال: بل أعشقها.

واستطرد الوزير في حديثه، وأجاب عن سؤال لم أسأله، هو إحساس بلذة لن تختبرها إلا بالتجربة، إنها أقصى ما يستطيع المرء تخيله.

- هل جربته؟

أقنعت أحب زوجاتي إلى قلبي، أن تشاركنا تلك الطقوس. راحت تتحرر من الثوب المهلهل المسمى ثوب العفة، الذي يجرمنا من لذة المعرفة أو لذة الوصول. حقرتني في نفسك كيفما شئت، لأنك ما زلت خائف. سوف ترقب ما أقول وتحب أن تسمع ما أقول، لكن خوفك من أن تعرف من أنت، سيرر لك أن تتعنتني بأقصى الألفاظ وأشدّها وكلما خفت أكثر زاد حنقك عليّ وكرهك لي ومحاولة الابتعاد عني، لكنك لن تستطيع.

أتدري لماذا؟ لأنك تريد أن تتعري، كي ترى نفسك، لكنك خائف لذلك صب عليّ ما شئت من غضبك.

بدأت أختبر اللذة إلى أن وصلت معها الطقوس مداها، كانت هي الأخرى موهوبة.

أما أنا فشعرت بإحساس لم أعده من قبل، إنه إحساس لن أقول لك أكثر مما قاله لي، لن تشعر به إلا عندما تختبره، لكن سأصف ذلك الإحساس الفلسفي، إنه إحساس خليط بين السيد والعبد في نفس الوقت، إنه المزيج، أعلم أن العبد والسيد هي متلازمة الإنسان وأعلم أن الآلهة دائماً ما يحتاجون إلى عبيد، كما أن العبيد دائماً ما يحتاجون إلى آلهة.

وأعلم أننا نستطيع أن نصبح آلهة، كما نستطيع أن نصبح عبيداً لكن اعرف ما تريد أن تكون. سيداً أم عبداً؟ وأعلم ما أنت عليه جيداً.

إذن كيف قتلتها؟

صمت الشيخ ولم يجب، بل ترك ابتسامة واعترافاً مكتوباً بأنه قد قتلها.... ترك الحديث مع الشيخ انطباعات مختلفة على نفس حسن، وبالطبع لم يذكر أية كلمة مما قالها الشيخ في تحقيقه، بل رتب القضية كما أراد ووضع الشيخ إمضاء، لكن لم يستطع أن يفلت من التفكير فيما قاله الشيخ، بل إن هذا

الكلام أنعش ذاكرته، ليتذكر حديثاً تم بينه وبين اللواء (عبد الكريم القاسم) في مستقبل حياته المهنية.

لكن كلام الشيخ كان أوضح وأكثر تأثيراً على نفس حسن، لأن فلسفة الكلام كانت مقرونة بتجربة عملية اختبرها الشيخ بنفسه، فكانت أكثر صدقاً وتأثيراً وأكثر قدرة على التبصر، فرأى حسن العالم مرة أخرى بنظرة مختلفة. رأى حسن أن عمله استطاع أن يستعبد روحه، وأصبح حسن دون أن يدري عبداً للنمط، وشعر بثقل النمط على قلبه، ثم نظر في المرأة وقال لنفسه أهذا الشخص أنا؟ هل كان يسأل عن تغير طراً على وجهه؟ أم تغير طراً على روحه؟ أم كليهما؟

كان هذا السؤال تحولاً كبيراً في حياة حسن، إنه إنذار للنفس الرتيبة للفكاك من أسر العبودية؛ للفكاك من ذلك القيد المعنوي الذي يطفئ طاقة الروح، ويمنعها من التجدد، ويدفعها دفعاً إلى الانحلال الذاتي ثم الفشل بعدما أنهى حسن استعداداته للرحيل.

قام حسن من على مكتبه بعدما انتهى من مسيات الاستقالة، التي يعلم أنها ستسبب دوياً هائلاً في الوزارة، قد يستتبعه استدعاء الوزير له.

أو قد تجعل أمن المرشد يفتح تحقيقاً موسعاً يستدعي أشياء قديمة يربطونها باليوم.

لكن مهما يكن سأكون سيّداً، سأسترد روحي وأتحرر من قيد ذلك العمل، خرج من المكتب تملؤه الحماسة متجهاً إلى مكتب السيد اللواء مدير شعبة أمن النظام.

كان جمع من الضباط في الخارج يتحركون مسرعين في خطاهم، كما هي العادة، لكن كان جميعهم يتحرك باتجاه مكتب مدير شعبة أمن النظام.

ضغطت بقوة على دواسة البنزين، كي تهرب بأقصى سرعة، كانت تريد أن تهرب من خوفها ومن هذا الضغط العصبي الذي تعرضت له منذ توقف سيارتها أمام هذا المبنى المرعب، ثم تلاه ظهور الرجل اللغز الذي توفي ثم اختفى، ثم محاولتها إثبات أنها ليست كاذبة أو مجنونة أمام الضابط. لذلك لم تشغل بالها بالبحث عن الخاتم دليل براءتها وسلامة قواها العقلية، كل الذي سيطر على ذهنها هو الهروب!

وهو من عاداتها القديمة، فلا ملجأ من أي ضغط يقابلها غير الهروب، ينقلها دوماً من حالٍ إلى حال، تعلمت منذ صغرها فن ممارسة الهروب.

فقد كان ضباط أمن النظام ضيقاً شبه دائمين على والدتها، فما تكاد تخرج من المعتقل حتى تراهم، وكان هؤلاء الضباط يتعمدون ممارسة الإيذاء البدني واللفظي لأُمها أمامها، وكان في بادئ الأمر يتتابها موجة صراخ خوفاً على أمها، يتبعه حالة فقدان الوعي، لكن عقلها على ما يبدو قد طور طريقة للتغلب على الألم والخوف الذي تعانيه؛ عن طريق غلق المسارات العصبية لمناطق الخوف والألم النفسي وهي حالة الهروب والانتقال من ذلك العالم المر إلى عالمها الافتراضي، الذي تجد فيه بعض السكينة، فتنتقل من حالٍ إلى حالٍ مغايرة تماماً.

وضعت الفلاشة في الكاسيت، أرادت أن تسمع فيروز، كانت أمها تقول إن فيروزاً نسمة صيف رقيقة فوق موجة بحر حاملة، ما أن تسمع صوتها حتى تسبح بك بعيداً فلا تكون إلا معها، إنها فيروز، وهذا ما تحتاجه د- هالة الآن.

وصلت شقتها ثم ارتقت على سريرها مستلقية على ظهرها، شاخصة بنظرها عابرة لهذا السقف، إنها تنظر في فراغ العقل اللامتناهي.

استيقظت هالة من نوم عميق، اكتشفت أنها قد غاصت فيه دون أن ترتدي ملابس الغوص الخاصة بالإبحار في بحر النوم.

آه لو رأيتني الآن يا أمي وأنا نائمة بملابس العمل لتغيرت فكرتك عني تمامًا. كانت أمها معجبة بشخصيتها المرتبة ودائمًا ما كانت تثني عليها،

شعرت هالة بعرق النوم الذي لم تكن تطيقه يومًا، فقامت مسرعة إلى البانيو وتركت الماء ينساب فيه حتى امتلأ، كانت قد تخلصت من كل ملابسها ووقفت أمام المرأة عارية لتتخلص من ماسك الشعر الذي تستخدمه لتثبيت شعرها الطويل المنهدل ذا السمرة الفاحمة تحت الحمار ومع إتمام عملها وتمكنها من إزالة آخر ماسك، تهدل شعرها على صدرها فترك جزءًا من الصدر عاريًا وآخر مختبئًا خلف الستارة الحريريّة من الشعر، في منظر لم يبدع إلا فنان واحد في رسمه، الانتخاب الطبيعي الذي يمكّن بفرشة الحياة تلك المسماة ((DNA!

أدهشها الجمال البادي إلى حد أن جعلها تستدير لتعطي ظهرها للمرأة، ثم تستدير بعنقها للخلف كي تشاهد ما تبقى من اللوحة، ذلك الجزء شديد التماثل والنضارة في نصفه الأسفل وكان وصول الشعر بين شقي التماثل ليكون كبندول ساعة بين الجزأين شبه المستديرين المنفرجين إلى أسفل، ثم استدارت إلى المرأة مرة أخرى ووقفت تشاهد مرة تلك اللوحة الفنية التي أسرف الفنان في إضفاء لمسات الجمال عليه.

لكن سرعان ما خرجت من سحر الجمال إلى غصة واقعها الأليم.

فهي مثل كل فتاة شرقية تنتظر الذكر الذي سيأتي لكي يشعل تلك الأرض نازًا ثم يغرس علمه في أرضها معلنًا وصول الفيض مداه، ناشرًا في أرضها بذور اللذة، الذي يعرف كيف يعزف على أوتارها.

أقسمت من طول الانتظار إن أتى ذلك البحار، فلن تحرمه من أي مرسى وستتركه يغرس علمه في أي وادٍ ارتضى، وستستخرج كل فنون الرغبة وستضعها بين يديه. إن أرضها عطشى إلى الماء، ظمأى إلى حبه، وكانت غصتها أنها مع كل هذا الشوق تنتظر.

يصل الشوق مداه ويكاد يفتك بها في قمة الموجة قبل الانحسار ويكون دومًا انحسارًا مصحوبًا بالأسى على حالها، لأنها مثل كل بنت شرقية هي المفعول به، هي لن تذهب أبدًا كي تخطب وإن فعلت فقد تحطت قيم الزيف التي وضعها الرجل ليشعر أنه الفاعل، أنه المسيطر، وخضعت الأنثى! لذا عليها أن تمتثل، ويجب أن يظهر امتثالها في إظهار حياء مصطنع يصحب ذلك وصلات مدح وحمد من الذكر لأنه سيحصل على عبدة جيدة مفعول بها.

لن تصبح يومًا فاعلاً، لأنها دومًا مفعول به، وستحرص دومًا على أن تكون جزءًا منه، ممسوخة روحها في روحه، فهي لا شيء بدونه فهي تحيا بحياته وتموت بموته.

إنها طائعة، إنها لا شيء، إنها الأنثى الشرقية صاحبة الحياء، مختومة بختم غشاء البكارة، عذراء، هكذا يصفونها إنها امرأة شريفة وغشائها دليل على عذرية قلبها، وأنها لم تحب وأن قلبها ما زال فارغًا بانتظارك أيها الذكر كي تملؤه، ويمدحها الذكر الأحمق أنها امرأة ذات خلق ودين، لأنها استطاعت أن تحافظ على أعضائها التناسلية من الخدش.

عليها أن تظل منتظرة، تتحمل وتصابر حتى تقدم الدليل على أنها جزء من عالم الفاعل، ذلك العالم الذي لا يوجد فيه هي، بل يوجد فيه هو، ويجب عليها هي أن تصبح جزءًا من هو.

وحفاظها على الأعضاء التناسلية هو دليلها على أنها عاشت، وستعيش من أجله. لكن هو يعيش ما شاء قبل مجيئها وبعد مجيئها. افعل ما شئت أيها الذكر لكن هي ستظل تنتظرك، ورغم كل ذلك قد تأتي أو لا تأتي، وستعيش تلك الأنثى تنتظرك وقد تمضي حياتها دون أن تختبر تلك المتعة وتعرف إن كانت تستحق هذا العناء.

انسحبت هالة من أمام المرأة، وقالت يا لقيم مجتمع ذكوري تغذيه تفسيرات دينية منحازة وفقط إلى الرجل، وتذكرت أنها أرادت أن تتحدى قيمه الذكورية قبل سفرها إلى ألمانيا وتحرر من تلك القيم.

كانت تفكر في شيء واحد، أنها تمتلك جسدها، لا وصاية لأي ذكر عليها. إنها تمتلك القدرة على الاختيار، وستختار ما تشاء، لن تنتظر أن يقع عليها الاختيار من ذكر ما.

وقالت عندما أختار لن ترهربي سياط الجلاد، أو حتى تلك الألفاظ الذكورية التي وضعت لتحقيق المرأة الحرة، مثل عاهرة وأخواتها من كلمات إهانة المرأة الحرة التي استطاعت أن تختار، لكن قبل أن تشرع في فعل ما قررت، حظيت ببعثة لإتمام الماجستير في ألمانيا لكن الغريب أن تلك الأفكار لم تختبرها في ألمانيا، بل لم يأت على ذهنها أن تفعل ذلك، رغم تودد بعض الشبان الألمان إليها ولا تدري تفسيراً لذلك.

هل وجودها في مجتمع حر يجعل الأمور مختلفة إلى هذا الحد؟ هل هناك ارتباط بين الكبت والتفكير في الجنس فقط؟ لا أدري ومطت شفيتها.

عندما كنت صغيرة كنت أنتظر ذلك الحبيب، أضع الكتاب على نهدي مطمأنة قلبي إلى أنه سوف يأتي، ومع مرور العمر والاقتراب من العنوسة، تتحول تلك اللمحة الرومانسية إلى البحث عن ذكر فقط لا غير، أه منك يا مجتمع الفصام، وضعت جسدها في البانيو وغاصت وتركت أفكارها على سطح الماء.

لكن أزيز الموبيل كان مفرعاً، انتشلها من البانيو وأفكارها انتشالاً.

نظرت إلى الموبيل مرة بعد الأخرى، غير مصدقة ما ترى أن المتصل هو الدكتور عبد الرحمن مدير المستشفى، وكان قبل سفرها مديراً لقسم الهندسة الوراثية الذي تعمل به الآن وتطلق عليه لقب كبير السنافر.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل،

- لم يتصل بي؟

- الو..

- السلام عليكم يا دكتورة، أنا آسف ممكن تجيلي البيت حالاً، فيه أمر

ضروري

- خيرًا يا دكتور.

- ما ينفعش الكلام في الموبيل.

- المشكلة الطريق يا دكتور.

- لازم تيجي ما فيش عذر، الوضع خطير.

- خلاص أنا هتحرك.

- سلام عليكم.

لم تنتبه إلى البخار المتصاعد من فوق جسدها العاري في مشهد سحري،
واتجهت إلى الدولاب وارتدت ثياباً لائقة، ورغم أن اتصال الدكتور بها
وطلبه حضورها العاجل كان مقلقاً إلا أنها لم تفكر فيما وراء هذا الاتصال،
لأن أشد ما يزعجها هو عبور المبنى ٦٦ مرة أخرى ليلاً مع هاجس توقف
السيارة أمام المبنى.

توقف أحد الضباط الأقل رتبة أمام الرائد حسن.

- السيد اللواء يدعوك لاجتماع عاجل الآن سيادة الرائد.

- ليه دة مش ميعاد اجتماع.

- بصوت خفيض: هناك أنباء عن اغتيال مولانا نائب المرشد محمد عباس.

لم يذهب الرائد حسن خلف الضباط إلى مكتب مدير الشعبة، رغم أنه كان مقصده، بل عاد إلى مكتبه وجلس على كرسي، محاولاً استيعاب الأمر.

فقد كان مولانا نائب المرشد محمد عباس صديق سيادة اللواء (عبد الكريم قاسم) وكان معروفًا بأنه قائد الجناح المنفتح، وعلى يديه دفعت الحقوق والحريات دفعات كبيرة، على عكس رغبة التيار المحافظ الذي اتهمه اتهامات كبيرة تصل إلى العمالة وكان من أهم إنجازاته التي لم يرض عنها حسن نفسه، هي تعليم الفتيات في الخارج، وفوق ذلك أنه كان الحامي لحسن من فتك ضباط أمن المرشد في تلك التحقيقات التي طالته.

- من قتله؟

- هل قتله أحد رجال الدين المحافظين؟

تمنى حسن أن يعمل على تلك القضية، لكن الأمر لم يعد هامًا بالنسبة له لأنه قد أعد جواب الاستقالة ولن يتراجع عنها.

لكن خطط الاستقالة يجب أن تتغير بعض الشيء، خاصة وأنه ربما يتم التخلص من المحسوبين على مولانا، ولذا ربما يجب عليه الاختفاء الآن وللأبد. مصمص شفثيه وقال لا يهم على أية حال، لن أبقى في مصر، قال لنفسه ذلك، ثم قام متوجهًا إلى مكتب رئيس الشعبة.

بدأ رئيس الشعبة في استعراض التقرير المبدئي للحادث والذي يؤكد على مقتل مولانا بطلق ناري هو وسائقه في طريق القطامية، ولم يتعرض جسد السيارة لأية رصاصة، غير أن الزجاج يوجد به فتحتين ويشير قطر الفتحتين إلى أن هذا المظروف غير مستخدم في مصر.

- قال حسن: أليست سيارة مولانا مضادة للرصاص؟

- يبدو أن هذا الرصاص كان من النوع الخارق.

- هل طبيعة المكان تسمح بوجود قناص؟

- لا، فالمكان فسيح وخالي من أي مبنى ولا يوجد غير رمال حول الطريق.

- ألا يوجد أحد من ضباطنا في موقع الحادث؟

- حتى الآن لم يصل إلينا أمر بالتحقيق وما زال التحقيق في يد أمن المرشد.

- تملل حسن قليلاً لكنه لم يستطع أن يعقب، وقال لنفسه لماذا لم يسمح لنا...؟

يبدو أن هناك شيئاً غير سوي، وزادت شكوكه في التيار المحافظ، ويبدو أن شعبة أمن المرشد ستقوم بإتلاف الأدلة كي تؤدي التحقيقات إلى المجهول وإذا ازداد التدخل الإعلامي فستؤدي إلى قربان، وطريقة القتل تقول إن ذلك القربان يجب أن يكون ثميناً.

شعر حسن بقلق داخلي لا يعرف مصدره. وانصرف الجميع بعد استعراض الموقف وكلهم على استعداد للعمل على تلك القضية حين يتم استدعائهم. قام حسن من على كرسيه لكن مدير الشعبة أشار بيده له أن يجلس، وقال لحسن بعدما غادر الجميع:

أنا متأكد أنهم سيحرصون على ألا تعمل في تلك القضية لكنني سأحرص على أن تكون أنت المسؤول عنها.

صمت حسن ولم يجب، وراح في شروء عميق وقال لنفسه سأنتظر حتى المساء وهذا وقت كافي لأقيم الوضع ثم أقدم استقالتي أو أهرب.

وصلت هالة إلى بيت الدكتور عبد الرحمن أو كبير السنافر كما تحب أن تطلق عليه، كانت فيلا قديمة الطراز، محاطة بجنيئة قليلة الأشجار لكنها قديمة ونادرة يحدها من الخارج سور خشبي قديم، وكانت غرفة المكتب ذات جدار زجاجي مطل على الحديقة مباشرة، جعلتها مميزة واستطاعت أن تصل إليها بسهولة.

وقالت رجال التنظيم عادة ما يسكنون في قصور مثل هذه أما نحن.....

تركت سيارتها بالقرب من الفيلا، حيث كان ذلك هو المكان المتاح وقبل أن تضغط على الجرس رأت كبير السنافر يتحرك وسط حجرة المكتب بعصبية واضطراب باد عليه، وما أن ضغطت الجرس حتى خرج مسرعاً إلى الباب يجري في مشهد بهلواني، فلحيته الطويلة المتدلّية على كرشه وشحومه الكثيرة التي تهتز، جعلته كمصارعين السومو!

استطاعت أن تسيطر على شفيتها حتى لا تنفجران من الضحك ووضعت يدها على فمها مخبأة أي أثر للابتسامة.

استطاع كبير السنافر أن يرى أثر تلك الابتسامة لكنه تجاهلها فقد كان الأمر جليل وما أن وصل إلى باب الفيلا حتى جذبها من يديها وأدخلها ونظر يميناً ويساراً بشكل غريزي ودخل مسرعاً وهو يجرها خلفه.

- حد شافك؟

- إيه.....؟

- لاحظتي أي حد ماشي وراكي؟

اصابها ذهول لما يقول.. دخل غرفة المكتب وهي خلفه..

مال هذا الرجل؟ فهو منذ أن عرفته والصورة الذهنية التي كونتها عنه أنه يكره النساء، غير ودود معهم، ماذا يريد مني؟

هل هو خائف من شيء ما؟ هل علم عن طريق صلاته الأمنية الواسعة شيئاً ما؟ هل ماضي أمي وأبي ما زال يطاردني حتى الآن؟

انتشلها الدكتور عبد الرحمن من أفكارها بسؤال:

- أنت بتتتمي لأي تنظيم ليبرالي أو شيوعي أو علماني أو.....

نظرت إليه مستغربة..

- وقالت: تنظيمات إيه..... إحنا في ٢٠٦٥ الحجات دي انتهت من العالم من زمان.

- إحنا في مصر غير العالم!

تذكرت مع تلك الجملة أمها وهي تقول لها في أحد انفعالاتها؛ نحن في دولة اللا شيء، دولة الحريات ولا يوجد حريات، دولة الدين ولا يوجد إلا أشكال متدنية، دولة الخلافة ولا يوجد خلافة، دولة العلم ولا يوجد أي علم. كتمت غصة في حلقها، وانتهت لسؤاله، أمن النظام سألني عليكي النهاردة ليه؟ شعرت هالة بدوار وكادت تسقط أرضاً ولم تنطق.

- فقال: لولا مقتل مولانا نائب المرشد وانشغال الجهاز لكنت هناك الآن.

لم تستطع التعليق!

- أنتي عملتي إيه؟

- أنا معمלתش أي حاجة.

- أنتي ليكي صلات بأي حدبرة؟

- بره فين؟

- بلاد الفرنجة.

- لا.

فقال بصوت خافت يملؤه الخوف:

- افتكري كده..

- أنا مش عارفة وكادت تبكي.

فرق قلبه لها وكاد ينطق بشيء ما، لكن تجمدت الكلمة في حلقه ولم ينطق وظل فاغراً فاه في مشهد عبثي، شاخصاً بصره إلى الخارج.

انتبهت هي إلى تلك النظرة وقبل أن تتبع عينيها نظره، شاهدت على زجاج نظارته انعكاس لطائرة صغيرة بدون طيار تقف أمام الحائط الزجاجي، وما كادت تلتفت حتى انطلق صاروخ صغير الحجم ذو رأس ذات قدرة تفجيرية محدودة، وكانت كافية لقتل كل من هو موجود في الغرفة وتدمير كل الحوائط.

مرت اللحظات كدهر عليهما، فشل العقل في التفكير واتخاذ أي قرار، فتبيست العضلات وتصلب الجسد، لكن مرور الصاروخ بينهما لفح بحرارته وجهيهما وتنبه عقلهما بعض الشيء، فتحركت مقلة عينيها فقط متابعة حركة المقذوف الذي انفجر بعد أن تجاوزهما عند ارتطامه بالحائط على بعد خطوات منهما، مصدرًا دويًا هائلًا، كان كافيًا لكي يهرع كل من في الحي إلى الفيلا وكانت أجزاء من الفيلا ما زالت مشتعلة مع قدوم سيارة المطافئ وسيارة الإسعاف الموجودة في حي الأغنياء.

وبعد إطفاء السنة النيران، قام المسعفون وأعضاء المطافئ ومعهم بعض المتطوعين بالبحث عن ناجين تحت الركام.

اكتشفوا جثتين لرجل قد فارق الحياة وامرأة، والذي لم يتضرر من أجزائها. قام اللهيبي بشوائه وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتمنى كل من يراها أن تموت بسرعة حتى تتخلص من الألم.

وقفت هالة في فراغ العقل بمعزل عما يدور حول هذا الجسد، من محاولات الطبيب المسعف لإنقاذه، وهرج ومرج الواقفون حوله يراقبون هذا الجسد، وكانت مشاعر هالة مختلطة، حائرة، غير قادرة على تفسير ما يحدث، وكانت غارقة في التفكير، في هذا الجسد الذي تضرر تمامًا وربما لم يعد صالحًا للحياة.

ومحاولة إيجاد تفسير علمي لما يحدث من تغيرات داخل الجسد، تشعر بها الآن، ربما لا يعرفها الطبيب الذي يفحصها لأنها رأت مرات عديدة الكثير من حالات الوفاة أمامها في المستشفى وكانت تنظر لها مثل نظرة الطبيب الآن، نظرة من الخارج، لكن هالة محظوظة لأنها الآن تراقب عن كثب ما يحدث بالمقبل على الموت من الداخل وتشعر ما يحدث له أيضًا وكانت ترى انحصار الدم رويدًا رويدًا بداية من الأطراف فيتبعها برودة تلك الأجزاء المنحسر عنها الدم فلا تقوم بوظائفها الحيوية واستهلاك الطاقة فتبرد.

كان شيئًا عجيبيًا ما تشعر به هالة الآن، فمع برودة تلك الأطراف وعدم صلاحيتها للسكن، شعرت أنها تتحرر شيئًا فشيئًا ومع نبض القلب المتدرج من القوة إلى الضعف، ثم إلى الوهن وصار الانحسار متلازمًا مع ضعف عضلة القلب، فتموت تلك الأجزاء لانقطاع الدم عنها وتنقطع بالتالي أسباب الحياة.

شعرت هالة بتحرر كامل من الجسد مع وصول البرودة إلى الحلقوم، شعرت بتحرر وخفة كأنها تتأرجح على موجات الهواء بنعومة مماثلة لرقعة النسيم عندما يلامس خد البنفسج. وخرجت من فراغ العقل إلى الفراغ الكوني وشعرت باضطراب وخوف من هذا الوجود الجديد الذي لم تختبره من قبل، وصارت ترى الوجود بعيدًا عن عين الجسد، فشعرت بشعور مختلط، بين حرية وخوف، ولم تدر ما يجب أن تفعل فهي خرجت من الجسد كخروج الجنين من رحم الأم، لكن الجنين عند خروجه لديه أم سترشده إلى ما يجب أن يفعل حتى يظل مستمرًا على طريق الحياة، لكنها في الحياة بطريقة أخرى بلا مرشد فماذا تفعل؟

عندئذٍ تنحت ووقفت بعيدًا في أحد جوانب الغرفة المحطمة. لم تستطع الاقتراب أكثر لأنها لم تستطع تحمل الضوضاء الناتجة عن بحث الرجال عن أي جثث تحت الركام.

وقفت تراقب عن كثب ما يحدث وخاصة عندما بدأ الرجال بإزالة الركाम من على جسدها وأزاح أحد الرجال التراب من على وجهها بركة بالغة، فترقرقت من عينيها دمعة، كانت دمعة امتنان لهذا الرجل، فهي لم تعد على مثل تلك الرقة من الرجال.

كانت دمعة صادقة، لم تكن مثل دموعها السابقة مع الرجال، فكانت عندما تقع في مشكلة ما تضطر إلى ممارسة عادة قديمة وهي بذل بعض الدموع من عينيها وقت الحاجة لاستعطاف الرجال وغالبًا ما كانت تغسل، لذلك كانت تعتبر الذكور جنس قاسي القلب، عنيف الطبع، وكان ضباط أمن النظام دومًا يؤكدون ذلك عندما يجذب أحدهم أمها؛ الأستاذة الجامعية من شعرها، ويلقي بها إثر صفعه عنيفة على وجهها يتبعه فيض من الشتائم.

لم تكن تعتبر أيها من هؤلاء الرجال لأن أمها عندما كانت تحدثها عنه فتصف كيف كان رقيقًا جميلًا حرًا محبًا للحياة غير ممسوخ العقل بتلك الأفكار الذكورية.

تفحص الطبيب المسعف جسدها بدقة كبيرة باحثًا عن أي أثر للحياة داخل الجسد، وكان الجسد رغم ما حاق به، ومفارقته الحياة إلا أنه ما زال محتفظًا بنضارته، ووضع المسعفون الجسد على النقالة، وكان الثوب الذي ترتديه قد تمزقت معظم أجزائه، وتلك الأجزاء الباقية هي التي لم تحترق، وهي قليلة فلم يبق من الثوب غير بعض من ورقة توت تسترها وكانت أجزاء من عانتها ظاهرة.

رأت هالة بعض الأعين التي تتلصص عليها بنظرة خاطفة إلى الجسد على الرغم من محاولتهم الظهور بثوب العفة وتعطير ألستهم بقول استغفر الله العظيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم وذلك بعد أخذ نظرة خاطفة على الجسد!

أرادت أن تمد يديها وتضعها أمام أعينهم كي تحجب عنهم الرؤية وفعلت وتحركت إلى أقرب رجل للجسد ومدت يدها. فانتبهت لذراعيها العاريين فاندحشت كيف حدث ذلك ونظرت إلى جسدها كله فكان عاريًا تمامًا بلا ورقة التوت فأصابها ذهول شديد وانتابتها حالة خجل شديدة، وعادت إلى مكانها في الركن البعيد عن الأعين، وكان خجلها عظيمًا.

فماذا تفعل وهي عارية أمام هذا الجمع من الرجال؟ فوضعت يديها على مكمناها محاولة إخفائه، فصار ذراعاها مفرودين مارين بصدرها العاري ضاغطين على ثدييها شبه كاملي الاستدارة نافري الحلقات للدخول.

فأضاف وضعها هذا جمالاً على جمال لهذا الجسد، مما أصاب قلبها إعجاب قلل من خجلها قليلاً، وكان جسدها بلا زيادة أو نقصان، أبيض مشرب بحمرة فمال إلى اللون الوردي النضر، فلا تمل العين من النظر إليه.

ومع إحساس الطمأنينة المتسلل إلى قلبها، هدأت نفسها واختلط ذلك بشعاع خارج من أعماق الروح حاملاً، إرادة التحدي وصارت أفكار أمها أقرب إليها من ذي قبل فقالت:

- لماذا أخجل من جسدي؟

- ما العيب الذي أرادونا أن نخفيه في أجسادنا؟

فوضعنا أرتالاً من الثياب دون إرادتنا على أجسادنا، فصارت عبئاً على أرواحنا.

تذكرت أمها وهي تقول لأصدقائها، آه من ذلك العبد الذي لم يستطع أن يتحرر، فراح يتغزل ويجميل في القيد على الجسد إلى أن صارت دليل عفة وطهارة وكى يثبت العبد جدارته بالعبودية، وضع قيوداً أكثر حتى يطمئن السيد، ولأن السيد يريد عبده ذا روح ممسوخة فيه، تدور في فلكه، راح يحقر تلك الأرواح التي تبحث عن ذاتها، فصارت تحقيراته أنشودة للعبيد، تابو تحریم.

- مش بالضرورة.

- ليه ما بيحصلش إثارة لما يشوفوا بعض عرايا؟

- هههههه الزوجين لما بيتعودوا على بعض ويشوفوا بعض عرايا ما بيحصلش إثارة.

- بتحصل ازاى بقى.....؟

- بتحصل بشبه التعري أكثر، لما تتجوزي هتعرفي.

كان ذلك الحديث ممتعًا بالنسبة لهالة لكنها لم تحاول أن تتحدث فيه مرة أخرى كي تبدو أمام نجوى فتاة مؤدبة، وكانت بين الحين والآخر تظهر لنجوى اشمئزازها حتى لا تظن بها الظنون، على الرغم أن قلبها كان يدعو الله أن تتحدث نجوى مرة أخرى لأن هذا عالم لم تختبره، واختزان الرغبة داخلها دون تفريغ جعل للحديث مذاقًا جميلًا.

تذكرت هالة بعد حديثها مع نجوى، أن أول شيء فعلته عندما ذهبت للبيت هو التجرد من ملابسها كلها أمام المرأة، وكانت تلك أول مرة تتعري أمام المرأة قاصدة التعري ونظرت إلى جسدها بافتخار، فهو جميل ولو تعرت لن تحجل من أي شيء مسيء، أو أنه لن يلقى استحسانًا بل تأكدت من حسنه ولأن شقتها تطل على هضبة المقطم غير المأهولة ففتحت الشباك تاركة أشعة الشمس الذهبية تتسلل إليها وكانت تلك أول مرة تمر أشعة الشمس على جسدها فكان مترقرقًا كجدولٍ نير متصل، كل قطرة تسلمك إلى الأخرى في سلاسة، فضاء متصل غير منقطع فلا متعة تضاهي متعة النظر إليه، أكثر من متعة المرور على وديانه وهضابه بأناملك.

مررت يديا عليه فشعرت بجمال ولذة وعلى الرغم من بعض لمسات الحرية التي انتابت وعيها، إلا أنها شعرت بخوفٍ بالغ من أن تعشق جسدها فتضن به على غيرها، فهي تعلم أن هناك نوع من النساء يعشقن أجسادهن فيتوحدن معه في ثنائية النفس والجسد.

انتبهت إلى الطبيب وهو يوقع على تقرير يشير إلى أنها قد فارقت الحياة. لم تحزن أو تفرح!

فلم تكن تعني لها تلك الشهادة غير شيء واحد، أنها قد تحررت من الجسد وأنها أصبحت طيفًا يمتلك واقعًا غير الذي امتلكه الجسد، وبالطبع سيخضع لقوانين غير التي كان يخضع لها الجسد، وشعرت باضطراب خفي مع فكرة ألا يكون هناك واقع أو قوانين، وقالت: ذلك ما يجب عليّ اكتشافه. وكان لديها حلمًا قديمًا، كانت تريد أن تحققه، وربما الآن صار ممكنًا وكانت تحلم بالطواف بالعالم، ربما الآن بإمكانها، وستستطيع أن ترى كل الأعراق والأجناس.

سترى ثقافتهم رأي العين، ستقطع ما تشاء من الزمن كي تتعلم وتدرس تلك الثقافات، لن تتعجل لأن الزمن لن يتعجلها، فهي تعتقد أن الزمن لم يعد ذا تأثير عليها، لن تكبر أو تصغر، هذه فكرتها عما يجب أن يكون عليه الطيف.

ستجالس الحاصلين على نوبل في كل العلوم والآداب، ستحضر نقاشاتهم، ستتعلم في معاملهم، ستطوف بالغابات، ستجالس المفترسات من الحيوان والفرائس أيضًا، ستجالس البدائيين في الغابة، ستشاركهم طقوسهم، وصاحت بفرح: آه يا الله، يا له من عالم سأعيشه وواقع سأحياه، وأطرقت إلى فكرة مقلقة ومضت بعقلها، هل تستطيع فعل كل ما تتمنى أم أنها سترافق الجسد إلى القبر؟ هل سيكون هناك قيد ما يربطها به؟ فتظل بجانبه وهو يعود إلى دورته الأولى فيصبح جزءًا من أمنا الأرض عندما يمتزج الكل بالكل؛ ذلك الامتزاج الذي يجعل الجسد جزءًا من نبات يأكله الحيوان، فيصير جزءًا من الحيوان يأكله إنسان، ويصير جزءًا من إنسان آخر.

ومطت شفيتها باستغراب متسائلة، هل سألقي بجانب لا ش؟ فقد كان جسدًا ذات يوم ثم صار جزءًا من حيوات متعددة! وقالت قد يكون البقاء بجانب الجسد فكرة بلهاء، صنعها خيال أحدهم ونظرت متسائلة: أنا لم أقابل أي طيف ألا يوجد غيري؟ هل سأظل وحيدة في هذا العالم بلا أنيس؟

هل الأطياف لا تستطيع رؤية بعضها؟

رأت الطبيب وهو يوقع شهادة وفاة كبير السنافر أيضًا، فطافت بأرجاء الغرفة بحثًا عن طيفه ثم اقتربت من جسده وهم يحملونه على الناقلة كي تبحث عن الطيف بجانبه، لكنها لم تجد له أي أثر.

- أين ذهب؟

- هل يبحث عني مثلما أبحث عنه؟

- هل هو موجود أصلاً أم لا طيف له؟

قالت لنفسها لو كان موجودًا لرأيتَه، وإن لم أره سيصبح هذا هو الحال مع كل الأطياف الأخرى، صمتت ثم طافت في ذهنها فكرة أسعدتها، فإن لم يكن لكبير السنافر أي طيف تراه الآن، ربما يكون قد رحل، لذا ربما يكون بإمكانها الرحيل ويكون هناك أمل واحتمالية أن تقابل أحدهم ويصبح رفيقًا لها في رحلتها حول العالم.

انتهى المسعفون من وضع الجثتين في سيارة الإسعاف واستعدوا للمغادرة بعد انتهاء الطبيب من الإجراءات.

عندئذ جلست هالة على السور الخشبي تراقب جسدها الموضوع داخل السيارة كي تلقي عليه النظرة الأخيرة قبل الرحيل، نظرة الوداع، فقد عزمت على الرحيل وبدأ حياة جديدة كما تريد وتضع هي قوانينها ليست تلك الموضوعة عليها!

تهادى إلى سمعها صوت محرك سيارة الإسعاف معلناً الرحيل، شعرت هي بحزن عميق من ألم الفراق لجسد كان يومًا محتويها، وتحركت السيارة فلم تستطع أن تكتُم دمعها وظلت تراقبها إلى أن وصلت إلى نهاية الشارع، ثم انعطفت باتجاه اليمين وما عادت تراها.

عندئذ بدأت تشعر بشعور عجيب، هناك شيء ما يجذبها وازدادت قوة الشد تدريجيًا، فتشبثت بالسور الخشبي محاولة منع نفسها من الوقوع في براثن تلك القوة العجيبة التي تجذبها ولا تعرف مصدرها.

- إلى أين ستأخذني تلك القوى؟

- هل آن الرحيل إلى السماء؟

بكت وحاولت أن تتشبث أكثر فهي تريد أن تظل على الأرض وتطوف بها، ازدادت قوة الجذب أكثر وأكثر، حاولت أن تقبض بيديها على السور لكن السور بدا كطيف مرت يداها من خلاله.

- هل أنت طيف أم أنا؟

سألت السور الخشبي بعد أن أبعدتها تلك القوة عنه، فطارت بعيداً عن السور ثم اصطدم طيفها بشجرة صنوبر فاخترقتها الشجرة كأنها طيف بلا ذرات.

أين ذهب تماسكك؟ قالت للشجرة متسائلة وهي تحاول أن تمسك بفروعها لكن ما تكاد تقبض على فرع حتى يتحول إلى طيف تخترقه يداها. نظرت بتأن، هل أنا الطيف أم أنت؟ كانت يداها متماسكة إلى حد ما، ليست هي التي تتلاشى، إنها الشجرة!

تحرك طيفها في نفس الاتجاه الذي اتخذته سيارة الإسعاف بعد مغادرته للشجرة تحت تأثير قوة الجذب.

علمت أن تلك القوة كانت تشدها في اتجاه سيارة الإسعاف عندما رأت السيارة، لم تشغل بالها عن طبيعة تلك القوة أو لماذا حدث ذلك؟

لأنها اختبرت شيئاً جديداً، شعوراً بالمتعة، متعة السباحة عارية في الهواء. فردت زراعيها كي تعانق الهواء، فبدت كصقر سابح بين أمواج الهواء، ما يكاد يصل إلى قمة موجة حتى يبحث عن موجة أعلى.

ما أجمل الحرية، قالت، صاحت، أرادت أن يسمعها كل من في الأرض. أرادت أن يتذوق الإنسان تلك الحرية المفعمة بالسعادة، أصبحت تعتقد أنه لا يوجد سعادة تعادل سعادة الحرية.

نظرت بوذ إلى جسدها العاري وبحب وقالت: ليس هناك ما أخجل منه حتى ولو رأني طيف كبير السنافر فلن أضع يدي على شيء كي أداريه.

الآن فهمت معنى العري الفلسفي، إنه ليس عريًا بحثًا عن غاية لكنه بحث عن الحرية، أنا أمتلك ذلك الجسد، لا وصاية لك أيا ما تكون عليه.

شعرت بحرية في الحركة عندما اقتربت من السيارة، فقد تلاشى تأثير قوة الجذب ولم تعد تشعر بها. دخلت سيارة الإسعاف كي تلقي نظرة على الجسد المتهالك.

كان جسدها يرقد في سكون مغطى بجلال الموت وبجانبه جسد كبير السنافر الذي يبدو أنه قد تضرر أكثر ونظرت باحثة مرة أخرى عن طيف كبير السنافر لكنها كالعادة لم تعثر عليه، قفزت إلى فكرة من أفكارها العبقريّة أن طيف كبير السنافر ربما يكون موجودًا ولكن لا تراه، لذلك هو لا يراها وقد يكون ذلك أحد قوانين الأطياف.

انتبهت إلى توقف السيارة وسمعت ضوضاء شديدة خارج السيارة لم يكن لديها شغف الخروج لرؤية ما يحدث وما هي إلا لحظات حتى تحركت السيارة مرة أخرى في اتجاه مخالف للاتجاه الأول، رأت المسعف وكأنه قد تبدل، فأصبح كائنًا بلا روح، شاخص البصر محلقًا في الفراغ، جسدًا يملك من أسباب الحياة البقاء لكنه بلا روح.

لكن لم تهتم به كثيرًا وعادت إلى إحساس الحرية ونظرت إلى جسد كبير السنافر متسائلة: هل أدرك طيفك معنى الحرية أم أن قيمة الذكورية التي كان يريد أن يفرضها علينا ما زالت هي المحرك لروحه؟

زفرت بعمق وقالت بمرارة: خوفي منك جعلني أشاركك جريمة ظلم "د-ساميه فؤاد" عندما انحزت إليك في التحقيق ضدها خوفًا من أن تنكل بي أيضًا، رغم اعتقادي أنها حرة فيما تعتقد حتى ولو كنت ضده فهي حرة، أما أنت فكانت تريد أن تمارس القمع الذكوري عليها فتحديثها حينًا واستدرجتها أحيانًا وعندما أفحمتك استخدمت أمن النظام في قمعها.

كانت امرأه مثقفة جميلة، عندما دار نقاش بينهما وكان حاميًا، "أدركت هالة الآن أن دفاع د. سامية لم يكن عن نفسها".

وقالت: لا أعتقد الآن أنها كانت تدافع عن نفسها، بل كانت تدافع عن جنسنا كله ضد قيمه؛ قيم الذكر، وعن الحرية، عندما صاح د-عبد الرحمن في وجهها متحديًا:

- أنت تدافعين عن الحرية وتقولين أن الحرية هي أساس الإبداع.

- نعم الحرية هي أساس الإبداع ولا إبداع بلا حرية،

- صاح محاولاً إخافتها.

- إبداع العهر! تريدون الحرية كي تبيحوا الزنا والسحاق واللواط.

كانت تلك الدكتوراة من جيل أمي الذي لم يكن يرهبه شيء، فقد كان جيلًا تحدى الخوف. لم تكن تأبه لصياحه بل كانت تضحكها لأنها تعلم ضعفه وقالت:

- هذا مفهوم الكهنة عن الحرية في عصور الظلام!

- هتف منفعلًا أنت تشبهيننا بالكهنة! تشبهي الإسلام بالكهنة!

ورغم شجاعتهما، لكن على ما يبدو أن بعض الاضطراب ظهر على صوتها.

- التشبيه هنا بين مفهومك ومفهومهم عن الحرية.

- بعد نظرة اشمئزاز وجهها إليها قال: إيه هو المفهوم الصح؟

- نظرت إليه ولسان حالها يقول كيف لمثلك أن يفهم الحرية لكن على ما

يبدو أنها قد وجدت لها فرصة لتعلمنا نحن شيئًا فقالت:

إن الكائن الحر هو كائن غير قابل للاستعباد، لا يقبل الظلم، إن الحر لا يظلم.

كان الإنسان قديمًا يتم استعباده بعد الحرب وكان المنتصر يخيرهم بين العبودية والموت، فكان الأحرار دائميًا يختارون الموت، وبعد تطور المجتمعات وأضحت هناك حكومات، فصار الحاكم سيدًا لقوم من العبيد وكان يستعبدهم بالقهر والبطش، لكن تلك الأمور كانت مكلفة وغير مجدية فكان لزامًا عليهم أن يرهبوا العقل ويستبدوه حتى يدفع العبد نفسه عن

طوق العبودية ويلبسه عن طيب خاطر. فاستخدموا إما الدين أو شعارات جوفاء لا معنى لها فانتقل الحاكم من السيد إلى ظل الله على الأرض المنفذ لشرائعه، الحاكم بأمره، فلا يستطيع عبد أن يخلع طوق العبودية ويلقيه بعيداً عن رأسه لأن ذلك سيلقي بروحه في الجحيم.

أطلق كبير السنافر ضحكة استخفاف كي يبعد شبح التفكير عن رأسه أو رؤوسنا لكنها لم تهتم وأكملت حديثها.

إن العبيد درجات، وتحدد درجة العبد بالبعد أو القرب من السيد الأكبر، فلا يظهر الاستعباد بالقدر الكافي ولكن يظهر الاستعباد بشكله الجلي عند أضعف حلقات المجتمع، عند المرأة والطوائف الدينية المختلفة في العقيدة عن عقيدة الحاكم.

كان الضيق قد أخذ به كل مأخذ ولكن بدا في تلك الحالة كصياد وجد ضالته، فقال هل تقصدين أن الدين يستخدم لاستعباد الرعية؟

- وبكل حزم قالت نعم!

ثم نظرت إلى هالة، تذكر هالة نظرتها جيداً وتذكرت هالة رعبها من تلك النظرة خوفاً من أن يحسبها كبير السنافر على تيار الدكتوراة سامية فؤاد.

عندئذ استبدلت هالة النظر إليها بالنظر إلى كبير السنافر، فوجدته قد سكن سكون صياد قد أعد شركه جيداً فلا يأتي بأي حركة من شأنها أن تفزع الفريسة أو تقوم بتنبيهها وكان على ما يبدو موفقاً إلى حد بعيد فتركها تكمل.

نعم الأديان هي تلك الأطواق الذهبية التي يلبسها العبد مختاراً متخيلاً عبادته قوى عليا وهو في الحقيقة عبداً لسيد أرضي يخشى أن تفيق، وبهذا الطوق يقتادك إلى أي مكان حتى ولو كان هلاكك موجود فيه، فبالدين يستطيع أن يتزوج الرجل العبد وكيل السيد أربع نساء وهن راضيات ولا تجد العبد غضاظة في ذلك، بل تقف تلك العبدة مدافعة عن حقه في ذلك.

- أتريدون أن تتزوج المرأة أربعة رجال؟
- لا أريد ذلك لأنه ظلم للإنسان، لكن بالمساواة يكون سؤال لماذا يكون حقًا حصريًا للرجل ويشرع له الدين ولا يكون حقًا للمرأة؟
- من أجل ألا تختلط الأنساب!
- الآن عن طريق (DNA) نستطيع معرفة النسب، أو تدري قديمًا في إحدى الحضارات، كانت الأنثى تتزوج أربعة رجال وكان ما يدينون به من دين يسمح لهم بذلك.
- ضحك ضحكة ارتج لها كرشه وقال لا أدري من أين أتيت بكل تلك الأضاليل والأوهام؟
- قالت قبل أن تصبح الذكر المسيطر الذي يعتبر المرأة جزءًا من ممتلكاته
- أو تدري ما هو دافع الغيرة عند الرجل؟
- ما هو؟
- لأن الذكر يعتبر نفسه سيّدًا ولا يجوز لسيّد آخر أن يعيث بممتلكاته، إنها حضارة الذكر!
- أتساوون بين حضارتنا وتلك الحضارات الوثنية القديمة؟
- إن المساواة ظالمة، لأن تلك الحضارات كانت أكثر احترامًا للإنسان.
- ماذا تقولين؟ هل أصابك جنونٌ؟
- انظر، كان الجنس قديمًا طقسًا للوصول إلى متعة الاندماج والوصول والمعرفة أما في حضارتنا الذكورية هو جنس القهر، فبعدما أصبحت الديانات الذكورية هي المسيطرة، ظهرت ديانات الإله الغيور الذي لا يقبل أن يعبد غيره، ومن تحته الملك، ظل الله على الأرض الذي يريد أن يسيطر بسم الإله الذي يعبده على كل الأرض، فانتشرت الحروب وسُفكت الدماء وكان الملك المنتصر يغتصب الخاسر حتى يؤكد سيطرته وقهره.

أصبح جنس الرجل مع زوجته هو جنس القهر، بعدما كان يتقرب إليها بجزء من جسده، كان الرجل قديمًا ينظر إلى المرأة فيرى الحياة تخرج من رحمها، فعبد واهبة الحياة وأجلّها لأن الحياة لا توهب إلا من إله، فنظر إليها بغيظ شديد لكنه استطاع أن يسيطر على انفعاله، لكن الدكتورورة لم تأبه وأكملت، إنها واهبة كل حياة وخصب، فتعبد لها الذكر قديمًا وترنم وقال من ثدي إنانا ينزل المطر، اقرأ ذلك في الترانيم القديمة التي كان يتعبد بها.

أما الآن هي أداة للرجل لا يعتبرها إنسانه كاملة أورية واهبة بل أداة يجب السيطرة عليها ولكي يسيطر عليها يجب أن يمتنها، يخترقها عندما يمارس الجنس معها.

بعدما وصل إلى مراده واعتراف كامل بوثيتها، فلم يتركها تكمل بل صاح بكل تجبر: أتريدين الحرية والجنس وعبادة الريات القدامى؟

أنا سأعمل على رفدك بل سأعمل على أن تصلي لأمن النظام بتهمة الهرطقة وسأشهد عليك كل هؤلاء النسوة اللاتي تريدين أن تفسدي عقولهن وإيمانهن.

تذكرت هالة كيف كان هذا الرجل الغبي يسيطر على عقلها بمتهمي السهولة مستغلًا خوفها من أن تحسب علي الدكتورورة سامية فؤاد، ومنشطًا أشياء مثل الحياء، تلك الأطواق الجميلة التي يضعها السيد على رقبة عبده. فشهدت ضدها وذكرت في التحقيقات ما أراد كبير السنافر وما أملاه عليها قبل أن يتم استدعائها.

زفرت بعمق وقالت يا ليتني أستطيع مقابلتك حتى أستطيع أن أعتذر لك حتى وإن كنت أختلف معك فيما تعتقدين وأعلم أنك تستطيعين تفهم خوفي كما تفهمت أمني خوفي، لكن أين أراك فمنذ القبض عليك من أمن النظام لم نسمع عنك شيئًا!

تنهت إلى أن المسعف ما زال شاخص البصر فانتابها بعض القلق وعدم الشعور بالراحة من أن هناك شيء ما غير طبيعي قد حدث بالخارج.

أنهى الرائد حسن استعداداته للرحيل عن الجهاز، فأخفى ما يتوجب عليه إخفائه وجعل ملفات معينة لم يستطع إزالتها تحت حماية برنامج قد قام هو ببرمجته، فهو يجيد البرمجة أيضًا واحتفظ بملفات سيستخدمها عند الحاجة إليها وهي ملفات ضد زملائه ورؤسائه تتضمن فسادهم المالي وحتى فضائحهم الجنسية ووضعها في المكان الآمن الذي لا يعرفه غيره كما يعتقد.

لأنه يعلم أن بقاء تلك الملفات بين يديه ستؤمن له القدرة على الاستمرار في الحياة وكانت تلك أسلحته التي قام بجمعها بعد المحنة، فقام بالتصنت على أصحاب النفوذ من مشايخ وعلماء موجودين في دائرة المرشد وقد روعه في أول الأمر أن بعض العلماء المحافظين والمعروف عنهم دعواهم وحضهم على الفضيلة هم أكثر من يتكلمون بها، استطاع تسجيل مواد فيلمية لهم وأحدثت له تلك المواد الكثير من الأزمات النفسية وصدمة صدمات مروعة كادت تلقيه بعيداً عن الدين، لكن ثقته في مولانا المرشد الأعلى جعلته على يقين في عدالة ما يؤمن به والحق، إنه يدرك تمامًا أن الصلاح لهذه الأمة هو بقاء نظام الخلافة فلا إيمان بلا خلافة، إنه يدرك ذلك تمام الإدراك وهو يعلم أنه لولا نظام الخلافة لما استطاع الإسلام أن يستمر ولتكالب عليه العلمانيون والملحدون والمدعومون من اليهود والنصارى وأن الخلافة هي الحامي للإسلام، فإنها تحفظه من الحروب، فلا يجرؤ أحد أن يهاجم الإسلام وإنه الخير المطلق للبشرية وإن أي نظام آخر هو مفسدة، أي مفسدة!

يدرك تمامًا أنه في مهمة مقدسة وأنه جند من جنود الإسلام ويدرك أنه مبعوث لحماية النظام وأن ذلك هو المعنى الحقيقي لحياته وتلك عقيدة لن يتزحزح عنها وقد اتخذ عهدًا ألا يخالف ذلك، أما استقالته هذه مردودها أنه ربما يكون أكثر إفادة للإسلام في موطن آخر وخاصة بعد فهمه الجديد، فإن الإسلام قد جاء ليحرر الناس من رق العبودية وها هو يتحرر، لكن هناك فواصل لن يتخطاها، وهي حماية النظام من أي موقع ولأنه من جنود

الله عليه أن يخوض المعارك ويحرص على البقاء حيًا وكى يستطيع البقاء حيًا، كان لزامًا عليه أو أي جند من جنود الله وكان في مكان مثل مكانه كان يتوجب عليه أن يكون لديه ما يستطيع أن يحمي به نفسه، وتلك مهام الجندي لذلك قام بجمع تلك الملفات.

اطمأن حسن بخبرته الأمنية أن المكان الذي اختاره هو آمن تمامًا وأنه لا يوجد من يستطيع الوصول إلى ملفاته التي سيظهر بعضها إذا تم إلقاء القبض عليه من شعبة أمن المرشد حتى تكون ورقة ضغط عليهم.

ارتشف آخر رشفة من القرفة بالزنجبيل التي يداوم على شربها، فقد أوصى بها مولانا المرشد في إحدى خطبه.

ثم قام وعدل هندامه واستعد للخروج إلى مكتب اللواء.

لكن على نحو مفاجئ وقبل أن يضع يده على مقبض الباب كان هناك من يدير مقبض الباب ودخل اللواء وأغلق الباب ودخل مسرعًا وجلس على الكرسي الرئيس للمكتب ولم يترك حسن لاندعاشه أو لتلك الأسئلة التي فارت في رأسه، فقال

إن الأمور آخذة في التصاعد في القاهرة وقد تلقينا نبأ اختفاء سيارة إسعاف وبها جثتين لرجل وامرأة.

نظر حسن باندعاش إلى مدير الشعبة ولسان حاله يقول هل وصل بنا الحال أن نهتم باختفاء رجل وامرأة وسيارة إسعاف في مثل تلك الظروف؟ أين البوليس الجنائي؟

بالطبع ما كان لنا أن ننشغل بقضية مثل هذه لكن طريقة القتل هي ما أتى بي هنا بعيدًا عن مكثبي حتى يصبح الأمر بيني وبينك وتشعر أن الأمر بالغ التعقيد والسرية. لقد قتلوا بواسطة طائرة بدون طيار حسب رواية الجيران الذين ذكروا أنهم شاهدوا طائرة بدون طيار أمام فيلا القتل وبعدها رأوا صاروخ ينطلق مصحوبًا بدوي انفجار وبعدها اختفت الطائرة!

- هل هذا الرجل كان شديد الأهمية لتلك الدرجة؟

رجل عادي من عامة الشعب ولا يشغل أي منصب ذي مسؤولية كبيرة، رغم أنه من التنظيم.

- لماذا تستهدفه طائرة بدون طيار؟

- أعتقد إجابة السؤال هو حل القضية.

- هل ذهب أحد من الشعبة لموقع الحادث؟

ليس مسموح لنا أيضًا مما يوحى أن هناك أمر ما غير عادي داخل هيئة الصلاحية (هيئة شورى العلماء) وإعادة ترتيب البيت من الداخل ولا يريدون منا أن نتدخل.

- هل تعني أن تلك الأحداث لها علاقة بمقتل مولانا محمد عباس النائب الأول للمرشد؟

- بصوت قاطع: لدي شعور بأن هناك رابط.

- هل سنقف متفرجين حتى ينتهي جهاز أمن المرشد؟

- لقد ضغطت كي يسمحوا لنا بالمراقبة حتى، لكن كان الأمر قاطع أن الجهاز المخول له، هو جهاز أمن المرشد وحذرونا بوضوح من الاقتراب إلا عندما يطلب منا ذلك بل وكان هناك تحذير أكثر وضوحًا هو ألا تسند القضية إليك!

ثم صمت اللواء ولم يكمل.

صمت حسن ولم يعرف ما يقول وانتظر أن يكمل اللواء، فنظر اللواء إلى عيني حسن وقال بتحديد:

- لكنني أريدك أن تعمل على حل ألغاز تلك القضية!

- لو علم ضباط أمن المرشد ستكون رقبتني على المحك.

- سأحاول أن أدبر لك بعض الحماية.

يعلم حسن جيداً أن من يستطيع أن يشغل رئيس إدارة أمن النظام يجب أن يكون قد خدم في شعبة أمن المرشد ويكون له ترتيب ما في التنظيم - لكن !

ليس أمامنا أنا وأنت خيار آخر إلا المعرفة، أعلم أنك تريد الرحيل عن الجهاز لكن إن رحلت دون أن تعلم ما يحدث بالداخل سيشكل ذلك خطورة على حياتك وكذلك أنا، فكلما اقترب أمثالنا من المناصب العليا تكون المكائد أكبر والتخلص منّا أسهل.

- بالفعل أنا أريد أن أستقيل.

أعلم ذلك لكن عليك الانتظار حتي تنتهي من حل تلك الأحاجي وستعمل بشكل سري، ولا يعرف ذلك أحدٌ غيري وغيرك. ووضع ملف كان في يده على المكتب وقال ادرس هذا الملف ثم انصرف.

التفت حسن إلى مكتبه الذي قد أخلاه من كل شيء استعداداً للاستقالة وكان عليه ملف القضيتين والذي لا يربط بينهما إلا غرابة عملية القتل وعدم سماح أمن المرشد لأي جهة أمنية غيره بالتحقيق مما أوحى للواء بوجود رابط بينهما، قبل أن يقرأ أوراق القضية، طرأ على ذهنه أسئلة من هؤلاء، ماذا لديهم حتى يتم قتلهم بتلك الطريقة؟ هل لهم ارتباطات بمخابرات خارجية فتم إزاحتهم بتلك الطريقة من مخابرات دول أخرى؟ من يملك الطائرة بدون طيار؟ ألم يكن يكفي أن يستخدم قناص ما، أو يقتلوا بطريقة ذكية لا تثير أي جلبة؟ ما الرسالة من القتل بتلك الطريقة؟ هل يريد أن يرسل لنا في الداخل رسالة ما، أم أنه أراد أن يضمن إخفاء شيئاً ما؟

كثيرٌ من تلك الأجوبة سنعرفها من تقرير المعمل الجنائي إن استطعنا الحصول عليه.

شعر حسن أن تلك الأسئلة هي البداية الصحيحة لقراءة الملف، ففتح الملف وقام بالقراءة وبدأ بالطبع بملف مولانا لأنه قد قتل أولاً وحتى يسير في المسار الزمني الصحيح، كانت معظم المعلومات الموجودة داخل الملف عن مولانا نائب المرشد يعرفها حسن، عدا دراسته في أمريكا.

وقد أكد التقرير على أنه قد قتل برصاص خارق حارق ذي رأس متفجر داخل الجسد ونوع المقذوف ينطق باللغة العربية "المسار". السلاح المستخدم بندقية قنص موديل جيوديسك. قد سمع حسن أثناء تدريباته الأمنية بالخارج عن وجود تلك البندقية وهو لم يرها، لأن هذا السلاح لم يدخل الخدمة في الجيش المصري أو الأمن المصري ولا تمتلكه غير الدول الكبرى وقد تم إنتاجها لأول مرة عام ٢٠٢٥ وسميت جيوديسك لأن الرصاصة تأخذ أقصر مسار في اتجاه الهدف وتحترق أي حاجز حتى تصل إلى هدفها لكن لكي تصل إلى هدفها يجب أن يكون لديها البصمة الحرارية للهدف أو الحمض النووي للهدف، لم يعرف حسن ولا زال لا يعرف ما هي البصمة الحرارية للحمض النووي، لكن القناص هنا هو ليس قناصاً بالمفهوم العادي لكن هو حامل هذا السلاح وهو يتم تدريبه بطريقة مختلفة حتى يصبح آلة قتل لا شعورها ويتدرب جيداً على مهارات الاختباء وهو يعلم جيداً أن نسبة الخطأ تصل إلى صفر في المائة. كانت تلك المعلومات الموجودة في التقرير ورغم شحنتها إلا أنها أطلقت سيلاً من الأسئلة في عقل حسن وكان قد وصل إلى احتمال أنه ربما يكون خائن استطاع أن يسهل للجهة القاتلة الحصول على الحمض النووي لمولانا، لكن لماذا تم قتله؟ وما الخطورة التي يسببها رجل مثله؟ لم يكن له عدا مع أحد.

وقفز ذهنه إلى سؤال حاول أن يبعده كثيراً لكن لا مفر من طرحه لأنه لا يوجد أحد في الداخل يأمن عواقب قتل مولانا نائب المرشد، غير مولانا المرشد الإمام.

- لا لا لا لا يمكن، إنها بالفعل جهات أجنبية ما.

كانت المعلومات بين يديه، لم تكن تستطيع أن تعطيه الكثير من الأجوبة وإن كان مولانا المرشد الإمام هو من يستطيع أن يفعل ذلك، وإن كان وقد فعلها فقد انتهت القضية فمن يستطيع أن يحاكم مولانا المرشد الإمام أو من يستطيع سؤاله؟

أما احتمال تورط جهات أجنبية كما توحي أدوات الجريمة، فيلزمه الكثير من الجهد. نظر حسن بفتور تجاه الملف الثاني ولم يجد الكثير من الطاقة الداخلية لقراءته لأن حجم المعلومات الموجودة لن تكون كافية وسيكون مغلول اليد للحصول على ما يلزم، وشعر باضطراب نتيجة اختلاط فقدان الأمل مع شعور داخلي بالخطر، فقرر عدم الاستقالة، ولكن عليه أن يخفي. إنه الوقت الملائم ولن يتضرر أحد إذا نجح في الاختفاء فلا أب له أو أم، فقد توفي منذ فترة، لكن هل سيخيب أمل اللواء فيه؟ لا يهم، مع تطور الأحداث سيدرك أنه الفعل الصواب وإن كان الأمر ترتيباً للبيت الداخلي فعليه اغتنام الفرصة لأنه إن لم يصبح بالداخل -أي بداخل البيت- حول مولانا المرشد الإمام فقد تتم الإطاحة به، وإن لم يتضرر وأبعد نفسه عن مجرى الأحداث فقد يفقد وظيفته على أسوأ تقدير.

إنهم معتادون على مثل تلك الأحداث مع تعاقب الخلفاء على دولة الخلافة في مصر، قام من على مكتبه وكان عليه المرور على مكتب اللواء قبل أن يرحل ويخبره بخطة التحرك الوهمية التي سوف يقوم بتنفيذها حتى لا يشك فيه، لكن حتى تكون خطته منطقية يجب أن يقرأ الملف الثاني لمعرفة ما به من معلومات ووضع تصور مناسب للخطة الوهمية وكان عليه أن يعمق شعور اللواء بوجود رابط بين الحادثتين وعليه أن يبحث عن هذا الرابط.

تشير المعلومات عن الدكتور عبد الرحمن إلى أنه أرمل ولا أولاد لديه فمن تكون تلك السيدة التي وجدت معه؟ ولأي سبب هي كانت موجودة في بيته في تلك الساعة؟ هل كان الدكتور عبد الرحمن هو المقصود أم هي؟ أم كليهما ولماذا؟ هل كانا في اجتماع أم لا هذا ولا ذاك؟ أم يمتلكان معلومة مشتركة عن شيء ما ووجب التخلص منهما؟ لكن التخلص منهما بتلك الطريقة له دلالة مهمة، وكتب بخط يده أول ملحوظة: ما دامت هي لا تربطها به علاقة عائلية إذاً كان بينهما اتصال، يجب تفقد آخر اتصال مشترك بينهما.

- لم يكن في الملف تقرير الطب الشرعي لأن الجثتين قد سرقتا.

كان ملف الدكتور هالة يشير إلى أنها عذباء، لم تتزوج، تنحدر من عائلة علمانية وتم إعدام والدها بتهمة الهرطقة، استفادت من منحة تعليمية بألمانيا، وضعت تحت المراقبة الشديدة لمدة طويلة ووجد أنها لا تنتمي لأي تنظيم مدني ولا تشكل خطورة على النظام.

بل كانت شاهدة ضد الدكتور سامية فؤاد عندما أحييت إلى أمن النظام.

تقرير آخر لها يشير إلى اتصالها بالشرطة اليوم فقرأ حسن التقرير بتمحيص وكان بلاغاً كاذباً وكانت تدعي فيه رؤيتها لأحد الأشخاص ووفاته بجانب مبنى معزول على طريق القطامية، وعندما حضرت الشرطة لم تجد الجثة فاعتبر الضابط أن ما رآته كان تهيؤات نتيجة الخوف وربما العطش وقام الضابط بالتحقق ولم يجد أي أثر للجثة حول ذلك المبنى، فادعت أن هذا الشخص قبل وفاته قد منحها خاتماً ذا معدن لم تراه من قبل وأنه دليل صدقها لكن عندما ذهبت للسيارة ولم تجده تأكد الضابط أن ما حدث لها كان تهيؤات.

كان ذلك ما أدلى به الضابط حين تم التحقيق معه من قبل أمن المرشد، وكان على حسن أن يتفحص صورتها المرفقة كي يتحقق ما إن كانت تعاني مرضاً عقلياً ظاهراً أو باد على وجهها.

لكن ما حدث عندما رأى صورتها، لا يحدث إلا في تلك القصص القديمة. فمرر يده كما تعلم من الشيخ على صورتها يتحسس روحها ثم أطرق إلى ما يحدث داخل جسده ونظر بتمعن كي لا يصف عقله أن ما يحدث هو وهم، فقد رأى الدماء تضخ من الجسد إلى القلب حاملة إكسير الحياة إلى القلب الذي قد كان عضواً وظيفياً خالياً من الأحاسيس، أما مع وصول خلايا الدم إلى القلب حاملة إكسير الحياة ملقية به على القلب الميت، بدأت الحياة تثبت من جديد. أي قوة تلك يا ربى التي تستطيع أن تعكس دورة الدماء وتهزم مقاومة القلب لها؟، أي قوة تلك يا إلهي؟

- إنها قوة الحب!

إنها فتاته التي ظل طوال عمره يهرب من لقيائها ومن أجلها منع الحياة عن القلب حتى مات!

- لماذا أتيت الآن؟

- آه أيها الحب وما تملكه من قوى سحرية!

مع شعور عارم بالحياة بدأ يدب بداخله، استسلم لأحاسيس الحب واعترف أنها هي التي عاش طوال عمره يبحث عنها وراح يتحسس صورتها مرة أخرى، نعم إنها هي حبه العجري، وكلما أتت موجة دماء حاملة إكسير الحياة ووصلها إلى المرفأ، يضع يده على الصورة مستأنساً بروحها التي كان يبحث عنها في أحضان النساء التي كان يكذب عليهن حالما ينتهي، ويجاملهن ويدعي أمامهن أنهن ممتعات لكن في قرارة نفسه كان يشعر بتقزز، لأنها كانت أرواحاً بلا رائحة.

وضع يده فوق رأسه مغمضاً عينيه، متكئاً على كرسيه محاولاً أن يمنع دمعات ترقرت فقد كان دمه فيه مضى في الحوادث غالى، فلم ييك رحيل أبيه أو أمه عندما قرأ في الملف أن الطبيب قد أكد وفاتها.

قال حتى لو لم يؤكدوا فما لبشر أن ينجو من انفجار مباشر مثل هذا.

لكن انتابته حالة سكون وعدم قدرة على مواصلة التفكير أو الحركة وظل على تلك الحالة المشابهة لحالة الفشل النفسي عندما يتعرض الإنسان لضغط هائل ولا يستطيع له دفعاً، أو يجد منه مخرجاً وظل على حالته فترة من الزمن ثم استيقظ بعدها فوجد عينيه شاخصة إلى سقف الحجرة وكأنها كانت تنظر إلى السماء، متجاوزة حتى السماوات، إنها تناجى القدر وتقول أي حلم هذا الذي ولد ميتاً؟ أي عقاب هذا؟ فقد عشت طوال عمري وأنا أحمل قلباً لا يسخ إلا الدم، صائماً في وهج الحر، ظمئاً إلى قطرة ماء منتظراً ساعة الفطور، والتي سيعلمها عندما يجد النهر الأسطوري المملوء بذلك الماء المثلج في وهج الحر، فلما وجد النهر فرح فرحاً عظيماً ووضع يده ليغترف لكن وجد النهر قد جف.

- أي منطق في ذلك؟، أي عبرة تلك؟ لم تتركني أبحث عن أمل؟

- (أستغفر الله العظيم) ..

ونظر إلى صورتها بتحدٍ وقال: سأجد من قتلك وسأقتله حتى وإن كان....
قال ذلك ومسح الدموع من على عينيه ثم عاد إلى ملف القضية يقرأه من جديد بعد أن طرد فكرة الهروب من رأسه، فقد أضحى الأمر ثأراً شخصياً.

لكن سيطرت عليه مرة أخرى موجة اجتياح الشوق، ضربت قلبه بقوة وعنف شديد، لم يجد منها مخرجاً إلا غفوة، قللت بعض الشيء من ألم الفقد وكانت ملاذاً من الألم.

ترك حسن نفسه لها علّها تعطيه قوة الصمود، لكن زادت أرتال حزنه لأنه رآها، شعر بدفئها، تنفس من روحها، شم رائحتها، إنها روح لها رائحة!

شعر أنها تحدثت إليه طويلاً لكن لا يتذكر أي شيء مما قالت، ولم تترك له غير تلك الانطباعات وشيئاً آخر قبل رحيلها زاد إلى وجعه أوجاعاً، فقد هربت دون أن تسمع منه عندما أخبرها أنه ضابط في أمن النظام، فرت تلتحف رعبها وحنقها، حاول أن يدركها لكن ثقلاً ما قد تعلق في قدميه، لم يستطع اللحاق بها، أراد أن يوضح لها أنه ليس من هؤلاء الجزارين الذين تسمع عنهم، لكن هو سيف من سيوف الله، إنه رجل قد خلقه الله لغاية.

وكان يريد أن يقول لها إن حبيبك لا يختلف عما رسمته له من صورة في قلبك. لكن بعد صمت ممزوج بالألم قال:

كل الذي أستطيع فعله الآن هو إيجاد من قتلك حتى لو كان.....

لا تدري ماذا يكون هذا الشيء الموجود فيه الجسد وعلى أي شيء يحتوي. كانت حالتها مثل رجل ولد أعمى ثم أبصر، فلم يدرك ما الذي يحيط به، فتلك الأجهزة الموجودة بالغرفة لم تر مثلها حتى في أفلام المستقبل أو حتى في ألمانيا، لكن كل ما علمته أنها أجهزة، لأنها متصلة بالجسدين، بالتأكد تيار الدماء متوقف في الجسدين، كما أكدت شهادة الطبيب التي وقعها وأن الجسدين قد انفصلا عن الحياة فماذا تكون تلك الأجهزة؟

حاولت أن تختبر تلك الأجهزة لكن ذرات الأجهزة كانت تنساب في يديها، هل يتم إحياء الناس بتلك الطريقة بعد الموت؟ هل هذا هو القبر؟، ولكن أين الملائكة الذين قاموا بتوصيل تلك الأجهزة؟ فأنا لم أشاهدهم أم أننا لن نراهم إلا بعد البعث؟

- أين ذهب المسعف والطبيب؟ وأين دفنوني؟.

لم تشعر براحة ولم يتوقف عقلها عن طرح الأسئلة ولن يكون هناك أجوبة على ما يبدو، لكن بطريقة ما يمكن توصيف الحالة.

"إنه بطريقة ما قد تم الذهاب بها للمستقبل، حتى وإن كانت تلك الدار الآخرة، فهي انتقال للمستقبل"

وإن هناك شيء غير طبيعي.....

وأرادت أن تتراجع عن فكرة أنها قد انتقلت إلى الدار الآخرة لأنها لم تعبر بوابات السماء في رحلتها، لكن هل يوجد سماء؟

تذكرت حديث أمها معها عندما أخبرتها بعدم وجود سماء، وأن ما تراه إنما هو الكون في حالة تباعد بينه وبين نجومه وكواكبه، مسافات شاسعة، أي أنها ليست كما يوصف لنا سقف ترصعه النجوم.

صحيح أنها لم تقتنع عندما أخبرتها أمها بذلك لأن ما تراه غير مناقض لما تدعيه الأم لأنها بالفعل ترى سماء كسطح مغلق تزينه مصابيح ورات الأم حيرة انتهت وعدم تصديقها لكنها لم تعقب، إلا أن هالة سألتها قائلة:

إذن لماذا تغير لونها؟ فلو لم تكن شيئاً متناسكاً لما استطاعت أن تغير لونها.

ضحكت أمها..... فظنت هالة أن سؤالها غبي أو مضحك فأرادت أمها أن تخفف عبأ اعتقادها هذا فقالت:

إن كثيرًا من الناس كبارهم وصغارهم كانوا حتى وقت قريب يعتقدون ذلك، فقد كانوا يعتقدون أن سماء الليل المظلمة هي تلك السماء المنيرة التي يرونها بالنهار، لكن مع ثورة العلم اكتشفوا أن تلك السماء الزرقاء ما هي إلا غلاف غازي عندما تسقط أشعة الشمس عليها يحدث تشتت لأشعة الشمس على ذلك الغلاف فتضيئه فلا نرى الكون، لكن نرى غلافًا مضيئًا يحجب عنا رؤية الكون وقد أعطت له السحاب بُعدًا جديدًا فجعلته كشيء مختلف عن الأرض وكأنه لم يكن من نبت تلك الأرض.

لكن مع غياب الشمس نرى الكون بالليل، ولبعد المسافة نراه مسطحًا، أي يأخذ شكل سقف وهكذا رآها الأقدمون. فبدت كسماء أو سقف تنيره مصابيح وهي النجوم لكن مع الاكتشافات العلمية علم الناس أن تلك النجوم ما هي إلا شمس مثل شمسنا، أكبر منها أو أصغر، وبينها مسافات يستطيع العابر-إذا كان يمتلك كمًا من الطاقة مناسب- أن يتحرك حيثما أراد، فلا سماء ولا سقف ولا بوابات كالتي اعتقدها الأقدمون.

هذه أول مرة تخطئين فيها يا أمي، فأنا قد عبرتها بطريقة أو أخرى، قد عبرتها فأنا الآن في الأخيرة.

أيعقل أن أكون قد عبرت بجانب ثقب زمني وتحت تأثير طاقته تم نقلي بين أبعاد الزمن وما كانت حالة المسعف الجسدية وشروده هذا إلا لحظة عبور؟

دخل رجل يرتدى معطفًا أبيض مماثلًا لما يرتديه الأطباء فطافت حوله لكي تتعرف عليه ولكن على ما يبدو أنه لم يرها فتيقنت أنها ما زالت على الأرض فلو كانت في السماء لرآها إن كان ملاكًا.

ورغم أن فكرة عبورها بُعدًا زمنيًا كانت سخيفة بالنسبة إليها وأنها لم تتذوقها لكنها ما زالت هي الاحتمال الوحيد الباقي وتيقنت من صحته فقد كان رجل يحمل وجهًا ملائكيًا ورغم أنه يحمل سحر الشرق إلا أن ملاحه لم تكن مصرية أو عربية.

بدأ الطبيب بإزالة ما تبقى ما على جسدها من ثياب، وبدأ الجسد أكثر شحوبًا من ذي قبل وكان عليه دماء متجلطة نتيجة النزيف وكان الجسد رغم ذلك ما زال يحظى بقدر كبير من الجمال جعل الطبيب يقف أمامه بعض الوقت متأملًا وبعد برهة عاد إلى عمله ووجد كبير السنافر أيضًا من الثياب، فقامت هالة بوضع يدها على عينيها، كانت حركة غريزية، لكن شيئًا ما بداخلها قد دفعها للتلصص من خلف أصابعها على جسد كبير السنافر وخاصة على عضوه الذكري، كانت تريد أن تعرف ما شكله الطبيعي، لأنها لم تكن تدرس جسد الذكر في دروس التشريح وكان الذكر الذي يقومون بتشريحه يقوم الأطباء الذكور بإزالته قبل التشريح لذا ما زال لديها تلك الأسئلة عن مما يتكون، شيء ما لم تره وكيف يكون شكله وحجمه لكن على ما يبدو أن هذا الشيء لم يكن جذاب المنظر فسرعان ما صرفت نفسها عنه وكان انصراف المقتنع لا انصراف الخائف.

وقالت لماذا يسرف الناس في تغطية أجسادهم ولماذا يرهبون البنت بحيائها حتى لا تنظر، فلو نظرت لعرفت أنه لا شيء فيه مغري ولولا دافع داخلي لما وضعت المرأة نفسها ذلك الموضع.

سرعان ما أزاحت يديها من فوق عينيها بعدما زالت أي رغبة في النظر تمامًا.

قام ذلك الطبيب باستبدال بعض الأنابيب المتصلة بالجسد ثم أضاف أنابيب أخرى.

فقالت له متحدية: افعل ما شئت. ألا تفهم أن هذا الجسد قد مات ولو أردت أن تعيده للحياة ولو كانت لديكم طريقة ما لإعادته للحياة فأنا لن أعود إليه فأمره لم يعد يعينني لقد كبّلني بخوفه، أرهق أمنيّاتي التي لم تتجاوز حدوده، وضع خطوطاً حمراء ثم وضع طقوسها.

نسي أنني أنا الأصل وما هو إلا ناقل للمؤثرات الحسية فبدلاً من أن يحملني وضع عليّ أنقاله ثم أجبرني أن أعيش فيه، وفي حدوده، نسي أنني أنا الجوهر، أنني لا أفنى، إنما هو دوره في حياة الأرض، أنا جزء من الوجود وهو جزء من الأرض فقط.

لذلك مع ما مارسه عليّ فلم يشعر يوماً بالراحة أو السعادة فلا سعادة إلا بتحرير، لكن خوفه كبّلني، أتدري أيها الطبيب كل لحظة ألم أو سعادة لا تدوم إلا إذا تذوقتها؟ وإن تذوقتها فستشعر بطعمها في أي وقت تذوقها؟ أما لحظات الألم والسعادة التي يتذوقها الجسد فهي عابرة لا أثر لها.

خرجت من شعور التحدي الذي يحتاجها على عين الطبيب التي تخترقها فكان ينظر مباشرة إلى فرجها فوضعت يدها عليه لكنه ما زال ينظر فاستدارت فنظر أيضاً فقد كانت أردافها قطعة من جمال باريبي..

- فقالت ألا تحجل؟

الآن لا أريد أن أعرف ما تفعله بذلك الجسد ولا أريدك أن تنظر إليّ هكذا. سأرحل وافعل ما شئت فقد دنت لحظة الأمنية، رؤية العالم، ثم بعد ذلك سأركب أتوبيسات الفضاء التي تسافر إلى الأرض البديلة التي اكتشفوها وبدأوا في إعدادها للاستيطان، سأعرف إن كان هذا الأمر حقيقياً أم لا.

قد أخبرها جيفري بذلك عندما كانت تدرس في ألمانيا وكأنه سرٌّ حربي، أو ربما كان يعتبرها مخلوقاً بدائياً أراد أن يشير شغفه.

ستعرف الآن إن كان ذلك صحيحًا أم لا، وذلك لأنها ستدخل إلى مختبراتهم. إنها جزء من البشرية ومن حقها أن تعرف فإن كان ما قاله صحيحًا ستسافر معهم وستتعرف على منجزهم العلمي في مجال الفضاء والسفر بين الكواكب. إنها تعلم أن تعيًا شديدًا كان يمارس على المنجز الغربي في علوم الفضاء واستغلال طاقة الكواكب المحيطة بالأرض. وقالت لنفسها لا أعرف كيف فعلوا ذلك!

أريد أن أشاهد هذا الانجاز الذي فعله الألمان في مجال المواصلات الفائقة، حيث أنهم قد اكتشفوا قانونًا جعلها صالحة للعمل في درجة حرارة الغرفة مما جعل الأمريكيان يقومون باستغلال المجال المغناطيسي للأرض في الحركة واستطردت قائلة: أنا لا أعرف ماذا يعني ذلك لكنني سأكتشفه، إننا هنا صمتت وبعض المارة في حلقها، ثم نظرت إلى الجسد وقالت بتحد:

سأرحل عن سجنك، سأطوف العالم، سأعيش كل الحيوانات، حياة العالم في بحثه عن المعرفة، سأعيش حياة الرحالة الباحث في كنوز الأرض، وأيضًا سأجد حبيبًا وأكون معه ناسكة في محراب اللذة ومعه اخلط متعة الطواف بالعالم بلذة الجنس رافعة معه علم الحرية في أرض العبيد.

وقفت أمام الجسد ونظرت إليه نظرة وداع واعتذار عما بدر منها تجاهه فقد دنت ساعة الرحيل، ثم تحركت بسرعة كي تحترق الجدار وترحل للأبد عندئذ شمت عطر الحرية كان طازجًا بطعم البطيخ في يوم صيف.

واخترقت الجدار الذي أدى بها إلى لا شيء!

حاول الرائد حسن التخفيف من قلق ضابط النجدة، والذي كان قد قابل الدكتور هالة عند المبنى ٦٦ لكن على ما يبدو أن سمعة جهاز أمن النظام كانت أقوى من محاولات الرائد حسن.

لم يكن أمام الرائد حسن الكثير من الوقت، فوضع صورة الدكتور هالة بعد أن قام بتكبيرها أمام الضابط الذي كان مشغولاً بمعاينة مكتب الرائد حسن واستعراض محتوياته، كانت مساحة حجرة المكتب تبلغ ٦٠ مترًا مربعًا، عبارة عن ١٠ مترًا طول و٦ عرض، في أحد أركانها مكتب الرائد حسن وفراغ يبلغ عشرين مترًا مربعًا أو يزيد والباقي تشغله آلات التعذيب ما بين حديث وقديم، وفيها من الآلات ما لم ير الضابط مثلها، فتعاضم في قلبه إحساس الرعب، استيقظ منه على دبيب يد الرائد حسن على المكتب مصاحبة لسؤال:

- تعرف صاحبة الصورة ؟

نظر الضابط إليها باهتمام ويبدو على وجهه محاولة بذل مجهود حقيقي لتذكرها فلم يكن هذا وقت أو مكان المراوغة.

نظر إليه الرائد حسن بعدما قرأ تعابير وجهه وقال لنفسه هل يستطيع أحد أن ينسى امرأة تحمل تلك الروح، إنك تهين قلبي بتلك الطريقة.

أراد الرائد حسن أن ينعش ذاكرته قليلاً فقال:

- شوفتها عند المبنى ٦٦.....؟

- أيوه يا فندم افكرتها دي مخبولة !

لم يطق الرائد حسن صبرًا فنظر إلى آلات التعذيب ورغم أنه قد عاهد نفسه ألا يعذب أحدًا مرة أخرى لكن نظرت له آلات التعذيب كانت ذات مغذى قرأه الضابط فحاول أن يخفف من لغته.

- أقصد كانت زي المخبولة....؟

كانت بتقول إنها رأت جثة لرجل عند ذلك المبنى وتركتها وذهبت بعد إبلاغ الشرطة.

- لكنك عندما ذهبت لم تجد تلك الجثة.

- صحيح.

- كم من الوقت قد مضى حتى وصولك للمبنى؟

- نصف ساعة.

- دا وقت كافي لاختفاء أي جثة ومن الممكن يكون الشخص مامتش واختفى.

- لا يمكن يا فندم لأن السيارات العابرة للطريق دا قليلة وعلى مدار خدمتي هناك كان من النادر أن يقف أي عابر عند المبنى ٦٦.

- ليه؟

- لأن المبنى مع البيئة المحيطة شكله مربع.....

- أليس من الممكن أن يدخل المبنى؟

- من المستحيل أن يحدث ذلك لأن الأقفال على الباب اختبرتها بنفسي، كانت صدأة ولم يتم إمرار أي مفتاح فيها منذ زمن.

- مفيش باب خلفي؟

- اتحركت بجانب السور لمدة ٢٠ دقيقة بالسيارة ومكنش فيه أثر لباب أو لسيارة.

- إذن من أين جاء هذا الرجل؟

يا فندم لم يكن هناك أحد، تلك تهيؤات الحر، لقد أرادت أن تثبت لنا أن وجود هذا الرجل لم يكن تهيؤات فادّعت أنه أعطاها خاتماً ووضعت في سيارتها لكن عندما بحثت عنه لم تجده فأدركت أنه الحر والعطش ورهبة هذا المكان. فأشفقت عليها وتركتها ترحل.

- إذن لماذا قُلت؟

- قُلت.....

- واختفت جثتها أيضاً.

- نظر الضابط إلى حسن باندهاش ولم يعقب.

كان يتوجب على الرائد حسن عدم الإفراج عن هذا الضابط حتى لا يفتضح أمره ويعلم أمن المرشد تدخله المرفوض في التحقيقات، واستغرب عدم إجراء أي تحقيق مع هذا الضابط من قبل أمن المرشد، وقبل انصراف هذا الضابط كان على الرائد حسن أن يحسم أمره.

استقر على أن يفرج عنه فحتى لو احتجزه ستصل معلومة على نحو عاجل عن هذا الأمر إلى شعبة أمن النظام شعر هذا الضابط باضطراب الرائد حسن باتخاذ موقف تجاهه فتملكه شعور بالقلق، أفاق منه بعدما أدخل الرائد حسن سبيله وأمره بالانصراف ولم ينس أن يخبره أن هذا التحقيق كان سرياً وأن إفشاء أية معلومة عنه حتى لأمن المرشد ربما يهدد حياته. انصرف الضابط شاكراً.

وما كاد هذا الضابط يخرج حتى دوى صوت آلة سكاي فاكس الخاصة به وهي آلة شبيهة بالفاكس قديماً لكنها من الممكن أن تحمل رسالة مصورة، وبرامج الخصوصية لها جعلتها حصينة لا يمكن اختراقها.

استشعر حسن ثقل الوقت منذ سماع صوت سكاي فاكس حتى خروج التقرير، فالتقطته يد الرائد حسن بمتهى السرعة وكان كما توقع أنه من سيادة اللواء رئيس الشعبة، فقرأه باهتمام بالغ.

”إن الطبيب والمسعفين لدى شعبة أمن المرشد وعندما يصلني تقرير الاستجواب سأرسله إليك. لم يكن معهم الجثتين“

وضع حسن يده فوق رأسه وراح يقلب الأفكار ويسترجع معلومات التقرير مرة أخرى. قام من على كرسيه، فقد قرر الذهاب إلى المبنى ٦٦. يجب أن يسبق محققي أمن المرشد إلى هناك وعليه محاولة إيجاد مدخل للمبنى.

كان الرائد حسن قد حصل على كل ما يلزم من معلومات عن المبنى وكانت معلومات عادية عن صاحب المبنى وهو ملياردير إخواني يحب العزلة وقد بناه بعد اعتزاله العمل العام.

لكن عندما وقف قبالة المبنى وجد أن شيئاً ما غير صحيح إذا كان صاحب المبنى يحب الانعزال فما حاجته لوسائل التأمين تلك؟ فقد كان المبنى قلعة خرسانية ذات سور عالي، لا يمكن اختراقه أو تسلقه، ممتد داخل الصحراء حتى أن العين لا تدرك امتداده داخل الصحراء، والصحراء حوله منبسطة ولا مكان للاختباء ويبدو أن حديث الضابط كان صادقاً فإن أبعاد المبنى الهندسية ووجوده منفرداً يجعل أشد النفوس صلابة يأخذها الرهبة، أي مهندس عبقرى استطاع أن يفعل ذلك ومع قليل من الإشاعات ستجعل هذا المبنى آمناً تماماً، كانت تلك دوافعه لعدم تصديق ما قرأه عن المبنى.

لكن هل رأت الدكتورة هالة جثة رجل فعلاً أم أن رهاب ذلك المكان والحر والعطش جعل عقلها يطرح ذلك، ما أكثر ما يرى الخائفون أشياء لا نراها فكم رُوي من روايات عن العفاريت وكلُّ يروى حسب ثقافته، ذلك ما كان يخبره به والده الطبيب النفسي وكان يقول له إن العقل قادر على خلق أي عالم يريد، والإحساس به، والعيش فيه، وقال في موضوع الخوف إن العقل يطرح تلك الأشياء، وغالباً ما تكون متوائمة مع الثقافة المحلية والبيئة المحيطة، فأهل الصحراء لهم أقاصيصهم المرعبة عن العنقاء وقصص الجان القاتل أكل أحشاء البشر والقاطنين بجانب النهر يحكون عن جنية تخرج من الماء في المساء وتنادي على ضحاياها ثم تقوم بجرحهم إلى النهر وقد حكى لحسن عن جده الذي كان يعمل بالزراعة عندما ذهب ليلاً ليسقي

الذرة وظن أن هناك عفريتاً يلاعبه وكان قد تشكل على هيئة أرانب وسرعان ما اصطاد اثنين من تلك الأرانب ووضعهما في حجره وعندما حضر إلى البيت لم يجد شيئاً، تلك توهمات العقل عندما يكون خائفاً، وإلا فعليك أن تجاوب لماذا لا نرى العفاريت إلا مساءً وفي الأماكن المهجورة، فلم أعرف يومها لماذا، لكن أبي أكمل حديثه وقال لأن الأمان يجعل العقل لا يفترض تلك الأشياء ولا يخلقها.

أيعقل يا هالة أن يكون ما حدث معك ما هو إلا توهمات عقلية ويكون حادث قتلك مصادفة، ويكون ذلك الطيب هو من أرادوا قتله؟

ارتاح حسن إلى هذا الاستنتاج واعتقد أنه أقرب ما يكون للحقيقة، واعتقد أن القدر هو من وضعها في ذلك الطريق وأنها ماتت لأن هذا هو المكتوب ولا مهرب من مكتوب أبداً.

تحرك حسن رغم حالة الرهبة والقشعريرة التي شعر بها مقترباً من البوابة ثم قام بالضغط على الجرس عدة مرات متتالية ولم يجد هناك أي رد فعل ولم يسمع أي مؤشر للحركة بالداخل مما يوحي أن المكان خالي حتى من الحرس. قال على كل حال، من يحرس مكاناً مات صاحبه ولا يوجد من يدفع مقابل الحراسة؟ أو لأي مراد يحرس؟

عندئذ غادر البوابة وتحرك بجانب السور لم يكن لديه خطة لاختراق المبنى لكن كان دافع داخلي دفعه للحركة بجانب ذلك السور الذي ادعت هالة أن أحد ما خرج من جانبه وعلى ما يبدو أنه لن يسير طويلاً بجانب السور وأنه يرضي شيئاً ما بداخله.

وبعد أن سار أكثر من مائتي متر ظل على حاله ومضى، لكن بعد لحظات أدرك شيئاً لا تدركه إلا عين الخبير، ولم يكن الخبير يدرك ما أدركه إلا إذا مشى، لكن إن ركب فلن تستطيع العين إدراك ما أدركه.

فقد لاحظ أن هناك فاصلاً في الجدار لا تدركه العين أبداً ففكر أن هذا الفاصل الرأسى المستقيم في الجدار ربما يكون باباً مخفياً، ولكن لا وجود لأقفال أو مكان إدخال مفتاح فراح يتحسس الجدار بيديه، والتقطت يده حجراً قابلاً للانضغاط وسرعان ما ضغطت يده على هذا الحجر القابل للانضغاط فانزاح الباب انزياحاً بسيطاً لا يسمح بدخول فرد وبصعوبة أدخل حسن رجله أولاً، وعندما أصبح نصف جسده السفلي مع يده اليمنى للداخل قام بدفع الباب بكل ما يملك من قوة، وشعر بمقاومة الباب له، وبصعوبة بالغة استطاع أن يدخل رأسه مع كامل جسده وبعد أن دخل كان للباب ردة فعل عكسي للفعل الذي قام به فانغلق الباب محتجزاً حسن في الداخل، عندئذ عرف حسن الحقيقة الزائفة أن ما رآه بالخارج كان سوراً زائفاً لأنه جزء من المبنى وليس سور، علم ذلك بعدما دخل.

أبصرت عيناه على ظلام دامس داخل المبنى فنظر للضوء النافذ من الشق الذي صنعه الباب قبل أن يغلق تماماً.

شعر حسن بالخوف يتسلل عميقاً حتى ملأ وجدانه، ورغم أنه قد حسم قضيته منذ زمن مدعيًا أن الموت لا يرهبه، فطمأن نفسه من أنه لا مبرر للخوف من أي شيء، لأن خوف الإنسان نابع من أن تنقضي حياته نتيجة الشر، هكذا كان يعتقد، وما دام أنه لا يخاف الموت فلن يرهبه الشر المسبب للموت.

ولأنه يعتقد أن الروح تخرج عند الموت، وأنها طيف لا تحكمه قوانين الطبيعة، طيف لا يرى الظلام كما نراه.

- إذن لماذا أخاف؟

وشعر حسن بطمأنينة نتيجة الحوار العقلي الذي أجراه، لكن بعد لحظات من النظر في الظلام اللانهائي أمامه شعرت روحه بالخوف وتهافت كل الحجج العقلية أمام الخوف، عندئذ سأل نفسه متعجباً، لماذا يتتابني إحساس الخوف بهذا العنف؟ أيكون كلام الشيخ صواباً؟

فعندما قابله آخر مرة قبل إعدامه فرأى أن كثيرًا من أفكاره قد تغيرت، فسأله عن سر التغير فقال:

«في لحظة الحقيقة لا يثبت إلا الصادقون»

الآن صدقتك، قال ذلك ثم تحرك إلى جانب الحائط ويدها تبحث عن زر النور لكن سرعان ما شعر بالفشل وابتعد عن الحائط قليلاً للبحث عن باب آخر أو زر الكهرباء الذي يجب أن يكون على أحد الحوائط.

وبعد مرور بعض الوقت شعر حسن ببعض الراحة النفسية وتخلت عنه بعض المخاوف وبدأ يتألف مع تلك الظلمة فابتعد عن الحائط أكثر وتحرك باتجاه الحائط المقابل، مضى حسن في طريقه في خط مستقيم إلى الجهة المقابلة لكن بعد مضي برهة من الزمن لم يصطدم خلالها بالحائط أو لم يجد حائطًا، بدأت موجة خوف جديدة تعتريه وتكاد تفقده القدرة على التفكير ومع فقدانه أمل الوصول إلى حائط نبت بداخله أمل معرفة سر هذا المكان.

مضى الرائد حسن دون كلل في طريقه دون تراجع، محاولاً التغلب على ما يعتريه من رعب وعدم معرفة بجغرافية المكان لكنه ظل متحركاً ماداً يديه أمامه في الظلام وظل رابط الجأش باحثاً عن الأمل ومع مضي الوقت والشعور بالإرهاق بدأ يحس بثقل التنفس مصحوباً بثقل الزمن فهو يمضي دون الوصول لأي شيء، لم يصطدم بجدار، لم ير شيئاً، لم ير أي شيء لكن مع رحيل موجة الخوف تلك وعودة العقل رأى أن ظلام هذا المكان لا يتبدد أي أنه محكم الغلق، لم تستطع أي كمية ضوء التسلل والدخول.

تذكر أيضًا أن هذا المكان هائل الحجم وقد يتطلب منه الأمر المزيد من الجهد للوصول للحائط في الاتجاه المقابل لكن هل يا ترى المساحة كلها عبارة عن تلك الغرفة المظلمة؟

مع موجة الألفة بينه وبين تلك الظلمة شعر بتحسن في التنفس وهدوء، مما مكنه من شم رائحة المكان التي تظهر هواءً راکداً لم يتعرض للشمس منذ مدة طويلة ولم يتغير، فلا مدخل له ولا مخرج، ووصل إلى تلك الاستنتاجات لأن الهواء كان مصحوباً ببعض رائحة العطن الناتجة عن تفاعل الرطوبة مع

الظلمة، وشعر بنفور شديد من تلك الرائحة، ولحظه السيئ كان يجدها كثيرًا في حملاته على كتب العلمانيين، فقد كانت مصاحبة لتلك الكتب التي كان يدفنها العلمانيون حتى لا يكتشفها ويعدمها، فهي كتب حرمت قرأتها شرعًا.

مضى حسن، لم يستسلم لتعبه، ومع شعور التحسن في التنفس باتت خطواته أسرع، ولولا خوفه من ألم الاصطدام بالحائط لجرى، لكن ظل متحركًا بخفة كبيرة على أمل أن يكون يوم حظه مثل كل القصص التي قرأها فإن أبطالها كانوا يجدون الحل مع زوال الأمل، عندئذ يأتي دور الصدفة السعيدة، هل تنتظرنني صدفتي السعيدة التي تجعلني أجد زر اللبنة؟ وأعتقد أنه ليس زرًا واحدًا فيها للبنة واحدة تستطيع أن تضيء مكانًا بمثل هذا الاتساع، وقال لنفسه أنا الآن بلا أمل، لكنه ما كاد يذكر تلك الكلمة حتى أته موجة خوف مفاجئة على إثر فقدان الأمل، وطرأ على ذهنه سؤال؛ ما دام هذا المكان غير طبيعي فهل يا ترى من الممكن وجود أشياء غير طبيعية؟

توقفت قدماءه عن الحركة للحظة تاركًا الأمر لأذنيه كي تنصت للظلمة، فقد تستطيع أن ترى أي صوت لكائن غريب يخيف أو ثعبان أو عقرب، فكل تلك الأشياء لن تنهي حياته مرة واحدة لكن ستتركه يعاني الخوف والألم.

عندئذ استطاعت أذنيه أن تبصر صوت فحيح مكتوم آت من الأعماق لكن مع سماع الصوت المصحوب بالخوف، لم تستطع أذنه أن تحدد مكانه أو تستتج مصدره وشعر بالتصاق قدميه بالأرض وعدم قدرتها على الحركة ولم يستطع عقله أن يسيطر عليها ويحركها، ومع شعور أنه ربما يسير في اتجاه ذلك المفترس الذي ينتظره، وتخيل صورة اللعاب السائل من فمه ساقطًا على أرضية هذه الأرض المظلمة، لكن هل يستطيع أي مفترس أن ينتظر كل هذا الوقت، ومن أين جاء؟ وكيف دخل هذا المكان؟ إنها فكرة سطحية، حاول بتلك الأسئلة طمأنة نفسه لكن على ما يبدو لم يطمئن كثيرًا لأن أفكار الخوف رغم زيفها، إلا أنها أقوى من أي منطق.

زعمت تلك الأفكار أن المفترس ربما يكون أحد الزواحف التي تستطيع الصمود مدة طويلة دون غذاء أو قد يكون المكان مليء بالعقارب، وبعد لحظات من التردد قال: على كل سأكون وليمة، إن كان هناك مفترس فلا

مفر من الموت وليس أمامي سوى حل وحيد؛ أن أكمل الحركة في هذا الاتجاه الذي حددته سلفاً، واستجابت قدماء لتلك الفكرة وتحركت بسرعة معتمدة على يديه الممدودتين لتحديد المخاطر واستكشاف العوائق لكن على ما يبدو أن الطريق كان خالياً لا يوجد فيه ما يعوق، فزاد من سرعته أكثر ومع شعور بالتعب توقف يلتقط أنفاسه بعد وقت طويل من الحركة.

لم يكن يدرك مقدار الوقت بالتحديد الذي أمضاه في الحركة لكنه وقتٌ طويل، عندئذٍ انتبه لفكرة الوقت وقال عليّ أن أحسب الوقت، لم يكن يحمل ساعة في يده ولم يكن من هواة حمل الساعات، وكان يعلل ذلك بأن الحياة لا تحتاج إلى الزمن فإن الله قد خلقنا لشيء واحد لا يحتاج إذا فعلناه إلى الزمن وهو العبادة لأن بالعبادة والصلاح سيمنحنا الله ما نشاء فلا حاجة للعمل أو الفعل وقد سأله بعض العلمانيين الذين كان يحقق معهم عندما كان يعرض عليهم متباهياً فكرته عن الحياة، لماذا تعمل إذا كنت مؤمناً بذلك؟

فكان يقول لهم لأننا كلنا غير مؤمنين وإن المجتمع يوجد به الكثير منكم علينا إزالته حتى نوجد ذلك المجتمع العابد المخلص في العبادة عندئذٍ لن نكون بحاجة إلى أي شيء، ومما تدعون من فوائد العلم أو مما تجربوننا به عن التقدم لأننا سنكون عندئذٍ عباداً ربانيين نقول للشيء كن فيكون، إن أردنا علماً وضعه الله في أذهاننا، وإن أردنا تقدماً ساقه الله إلينا.

كان يضايقه جداً سؤال بعض هؤلاء العلمانيين الكفرة، إن كان هناك ما تدعي، لماذا لم نقرأ في التاريخ عن وجود هذا المجتمع؟ ولماذا لم يوجد على طول مسار التاريخ الإسلامي؟ وكانوا يقولون إن النبي مات فقيراً.

شعر بالخوف وقال لنفسه:

لم هذه الأفكار الآن؟ يجب عليّ منع عقلي من تذكر أفكار الكفر هذه، وراح يقرأ الآيات القرآنية، وكانت مصدر اطمئنان حقيقي لقلبه، فتابع السير وهو يقرأ القرآن وكان هذا خير ما فعل لقلبه وبث بعض الاطمئنان إليه، محاولاً التغلب على أفكار الخوف لكن كان يتوجب عليه أن يتوقف عن قراءة القرآن، لأن عليه أن يقوم بحساب الزمن لكن القرآن يعطيه الطمأنينة والثبات أما حساب الزمن عن طريق العدّ فسيعطي عقله الفرصة لتلك

الأفكار، واختار بعد تردد أن يقوم بالعد، لكنه احتار بين العد بصوت هامس أم أعلى قليلاً حتى لا يسرح في أسأله التي بلا نهاية، لكن الصوت العالي ربما يجعل أي مفترس غافل عنه يسمع صوته فيتنبه له، وأخيراً استقر أن يقوم بالعد الداخلي ذلك الذي يقوم بفعله دون إصدار صوت، إنه نوع من العد في اتجاه الداخل، إنه صوت يسمعه العقل وتؤديه الشفاه فقط.

ظل على حالة الجري المنظم ما يزيد على الساعة على مقياس الزمن الذي قام باقتراحه ولم يصطدم بشيء أو بالجدار ولا يوجد ما يدل على أنه اقترب من الجدار عندئذ قام بحركة عشوائية يديه ورجليه وكأنه يقوم بركل آخر خيوط الأمل، وشعر أنه مثل موسى وقومه في متاهات سيناء وتهكم على نفسه عندما اقتنع بعض الشيء بكلام ريتشارد دوكنز عالم التطور الشهير في أحد كتبه التي قرأها قبل إعدامها عن تلك المتاهة بأنه قال عند حساب مساحة سيناء وسرعة الحركة المطلوبة وجد أنهم لو تحركوا خطوة واحدة في اليوم وفي أي اتجاه لخرجوا من سيناء في أقل من ثلاث سنوات وقال لو أنه رأى ما أنا فيه من متاهة لعرف أن المتاهة كانت حق، نظر حوله وشعر ببعض الهدوء لأنه بعد كل تلك الحركة لو كان هناك أي أذى غير الظلمة لكان الآن ميتاً، واطمأنت نفسه لهذا الاستنتاج.

فجلس قليلاً ليستريح، اختبر الأرض التي تحته بقدمه فلم يجد شيئاً غير طبيعي وقبل أن يجلس شعر ببعض تأنيب الضمير، لأنه سيجلس وربما يكون بينه وبين الحائط عدة أمتار، وقال متسائلاً: أليس من المفروض أن أظل على حالة الحركة، ولأنها حجرة محددة الجوانب متسعة قليلاً لكن ليست بلا نهاية، وكل حائط في الأربعة جوانب هو نهاية، وإذا طبق كلام ذلك المخبول؛ عالم الأحياء هذا، فسيكون كل حركة هي تقربه من الخلاص، وقفز إلى استنتاج وقال إذا تأكدت من الحركة في اتجاه واحد وبسرعة فحتماً سأصل ويجب أن أكون سريعاً حتى أقلل من التغير في الاتجاه.

وانطلق بأقصى سرعة ممكنة له في نفس الاتجاه الذي اختاره من قبل ولم تمض غير لحظات قليلة حتى دوى صوت ارتطام هائل في المكان سقط حسن على إثره أرضاً وغاب عن الوعي.

وقفت من فرط التعب والمجهود لم تستطع أن تهرب منه أكثر من ذلك فأدركها حسن، لم تستطع أن تخطو خطوات أبعد مما وصلت إليه قدمها فاستسلمت ووقفت، فاقترب منها حسن وقال برفق:

- لماذا تهريين مني؟

لم تجاوب على سؤاله وطاف بذهنها ما حدث لأمها منهم وتذكرت حديث أمها عن إجبار أبيها على التوقيع على تهم لم يرتكبها ثم إعدامه قبل مولدها، حاول أن يهدئ من روعها فقال:

- إن ما فعله هو تقرب إلى الله والحفاظ على دينه.

نظرت إليه وقد زاد نفورها من حديثه وقالت دون خوف:

- بل أنتم مرضى نفسيين تستعذبون تعذيب ضحاياكم، تشعرون أنكم آلهة، قضاة وجلادون!

استفزه ما قالت وقرر أن يدافع عن نفسه وليكن ما يكون فكيف لامرأة مها كانت أن تتحدث إليه هكذا؟

إن الجلد والتعذيب مشرع للعقاب والتطهير، ألم ترجم الزانية؟ أليس الرجم هو نوع من العذاب؟ ألا تتطهر الضحايا ونحمي المجتمع؟ ألم يشرع عمر بن الخطاب الجلد لشارب الخمر؟، لماذا تلوميني أو تطالبيني بلوم نفسي لتعذيب أو قتل من هم ضد الدين وضد الخلافة؟

انظر إلى داخل نفسك وبصدق، ألم تستعذب أنات المعذبين وآهات الرجال عندما يسقطون أمام عينيك من عليائهم؟

- لا لست نادم.

نظرت إليه باشمئزاز وقالت:

- لست نادم؟

- دعيني أكمل، نعم لست نادم وسأذكر لك عن امرأة لو قابلتها ألف مرة لعذبتها حتى الموت كل مرة، لقد اعترفت قبل أن أعذبها بما أريد معرفته لكنها لم تتخلّ عما تعتقد.

- وماذا كانت تعتقد؟

كانت ملحدة تنشر إلحادها واكتشفنا كتاباً اعترفت أنها من ألفته بعنوان الفلكلور في الإسلام وهو كتاب يشوه الإسلام.

- دع هذا للقاضي!

لقد سببني وتهكمت عليّ قبل وفاتها، وقالت أنتم تمارسون التفتيش مثل الذي مارسه الكنيسة في القرون الوسطى.

- انظري كيف ساوت بيننا وبين الكنيسة ألم تعلم أننا مختلفين تمام الاختلاف؟

هالة، لا أدري لماذا أنت غاضبة مني إلى هذه الدرجة بل يجب أن تكوني سعيدة بما أفعل، فخورة به، فأنا من حماة الدين والوطن، وسيف من سيوف الله على رقاب الأعداء.

هل تصدق ذلك... فأنت بما تمتلك من سلطة يمكنك أن تدعي بما تشاء وأن تحاسب من تشاء، بإمكانك أن تدعي أنني ملحدة أو عميلة ولن أستطيع أن أدافع عن نفسي لأنك القاضي والحكم.

أفاق حسن من غيبوبته ولا يذكر من حلمه ذلك غير امتعاضها منه وشعور غير مريح قد انتابه وظل عالقاً في نفسه.

وانتبه حسن إلى إحساس بألم شديد صادر من ساقه فوضع يده على مصدر الألم، فوجد أن فوق البنطلون المغطي منطقة الساق رطب ولزج نتيجة خروج دماء من ساقه، فكشف ساقه ووضع يده على الجرح فوجد جرحاً عميقاً ممتداً تأكد منه بأصابعه التي قام بتحريكها، ثم قام بإمرار يديه على الساق كله حتى يتأكد من عدم وجود ورم نتيجة الاصطدام.

شعر حسن بقشعريرة تسري في جسده نتيجة الاصطدام لأنه لم يصطدم بحائط لقد كان شيء ما، وربما هذا الشيء الذي اصطدم به ما زال بجانب حسن أو ربما يكون... أو قد تحرك..... سيطرت حالة من الرعب والهلع عليه لبعض ثوانٍ، لكن لم يمهل نفسه الكثير من الوقت للاستغراق في تلك الحالة لأنه يعرف أن التأخير في الفعل للحظة ربما يكون سبباً في وفاته، وهو لا يعرف كم استغرق في النوم ورغم حالة الرعب التي اعترته إلا أنه سحب ساقيه الممدودتين بأقصى سرعة ممكنة محاولاً الوقوف لكن اصطدمت ساقه بذلك الجسم مرة أخرى، محدثة صوتاً، شعر حسن أن نهايته قد اقتربت وبعد أن تشهّد راح يقرأ بعض سور القرآن وتأكد أنه ليس هناك من الموت بد فقرر أن يموت شجاعاً، ومد يديه محاولاً استكشاف ذلك الشيء، تجمدت الدماء في عروقه لثوانٍ لأن يده لم تعثر على أي شيء. وبحركة غريزية ورعب الغنم الضائعة الخائفة من الذئب تلفت خلفه، ثم يميناً ويساراً، وشعر بخوار مفاجئ في قدمه فقعد القرفصاء مستعداً للمواجهة لكن قدميه لم تستطع أن تتحمله ثانياً فسقط أرضاً وارتطم جسده كله بهذا الشيء، استسلم حسن لمخاوفه وشعر بدنو الأجل وتعباً جيداً للموت وقال «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» لم يكن بحاجة أن يغمض عينيه بالطبع فهو في ظلام دامس وانتظر الموت للحظات، فلم يأت، عندئذٍ لم يكن أمام عقله إلا تفسير بسيط وربما يكون صحيحاً، أن ذلك الشيء الذي اصطدم به ربما يكون جزءاً من المبنى أو شيئاً لم يتم إزالته من تلك القاعة الفسيحة أو قل نسوه، فمن يأبه لشيء ضئيل الحجم مثل هذا الشيء في قاعة مظلمة بهذا الحجم؟ وبعدما أطمئنت نفسه لهذا الاستنتاج راحت يده تستكشف ببطء وحذر ذلك الجسم.

عندئذ ارتعد جسده رعدة كاد معها يفقد القدرة على الإدراك ثم تصلب جسده بجانب هذا الشيء وما كاد عقله يستطيع السيطرة على جسده، حتى انتفض مرة أخرى وتدحرج حسن بعيداً عن هذا الشيء.

لكن سرعان ما تغلبت طبيعة المحقق عليه فجعلته يمد يده مرة أخرى متحسباً ذلك الشيء، عندئذ تأكد من صحة ما اعتقده، لقد كان هيكلاً عظيماً للإنسان ويبدو أن صاحبه مات منذ زمن بعيد لأنه بلا رائحة وطفئت عليه رائحة المكان.

تذوق حسن لأول مرة رائحة الألم في حلقه لأنه علم أن هذا هو المصير المحتوم ويعلم أن هذا الشخص بالطبع قد حاول مثله وفعل ما فعله حسن من محاولة الوصول إلى الحائط والخروج، لكن في نهاية الأمر كان الموت جائعاً خائفاً عطشاً هو مصيره!

ألقي حسن جسده كله أرضاً في وضعية المصلوب ثم أغلق عينيه. شعر براحة كبيرة عندما اختار هو الظلام لا أن يفرض الظلام عليه، لكن شعوراً باطنياً بالقلق لم يستطع أن يتخلص منه، جعله غير قادر على التفكير أو الخروج بروحه خارج تلك القاعة المظلمة فوق وقع بين حالة محاولة التفكير وعدم القدرة على التفكير، وسرعان ما دفعته تلك الحالة إلى تحريك جفونه وفتحها ثم نظر إلى سقف الحجرة، هو يعلم أن ارتفاع السقف ليس كما يبدو في الظلام من أنه بلا نهاية، عندئذ وضع زراعيه تحت رأسه، استخدمها مثل المخدة، ثم وضع ساقاً فوق ساق ورغم إحساسه بالألفة مع الظلام إلا أن مشاعر القلق ما زالت هي المتحكمة في أفكاره، عندئذ أدار رأسه إلى الهيكل العظمي وقال: أتمنى ألا أمر بما مررت أنت به حتى مت، أتمنى أن أموت سريعاً ثم عادت رأسه إلى وضعها ثانية ونظر إلى الظلام السرمدي الممتد بلا نهاية وشعر باضطراب قليل في التنفس، حاول تهدئة نفسه وخاض عدة محاولات عبثية للسيطرة على مخاوفه ومع شعوره بالفشل لام نفسه وقال مؤنباً لذاته لم أكن أعرف أنني أحمل كل هذا الضعف.

قام بمحاولة خبيثة للسيطرة على ذاته ودفع عقله دفعًا للتفكير في شيء خارجي وفكر في هالة وأنه ربما يقابلها في الآخرة وأنه عاقد العزم على اختيارها في الآخرة لتكون شريكة مع الحوريات الأخريات وليمضي معها تلك الحياة الأبدية التي لا نهاية لها.

كان هناك شيء ما يعذب في عقله، كان يسميها وساوس شيطانية ما أن تأتبه عن تلك الأبدية حتى يشعر ببعض الضيق.

فما كانت تأتبه حتى يستعيز بالله من الشيطان الرجيم سرعًا حتى يقطع الطريق على الشيطان ووسوسته، لكن الآن هو على استعداد أن يعيش الأبدية مع هالة لكن هل هي على استعداد لأن تعيش معه، وتختاره لتعيش معه لأنه يعلم حسب ما ورد وما رواه المرشد أن الرجل سيكون له ما يشاء من الحور العين أما هي فليس لها غيره، استعاذ بالله سرعًا ونظر يمينًا ويسارًا باحثًا عنه؛ عن الشيطان، محدثًا نفسه، إنك لم تتركني، تأتي خلفي هنا في هذا المكان الموحش، تأتيني كي تفسد علي ديني قبل وفاي، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم مرة أخرى، حاول أن لا يلتفت إليه مرة أخرى مع موجة خوف بسيطة جعلته ينكمش وعاد إلى قراءة القرآن مرة أخرى وشعر بطمأنينة ونظر إلى السماء متخطيًا حدود الظلام إلى الله، مستغفرًا عن كل ذنب وأن ما فعله من جرائم تعذيب وقتل إنما كان دفاعًا عن الدين ونصرة شريعتك.

عندئذ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وشعر بدنو الأجل لأنه يعلم أن الشيطان يأتي في صورة أحب الناس إليه من الذين ماتوا قبله، يأتي للإنسان في نهاية العمر مع اقتراب خروج الروح ويقول له مت يهوديًا كما مت أنا تدخل الجنة، ويأتبه في صورة أخرى ويقول له مت نصرانيًا كما مت أنا تدخل الجنة فقد أتى إليه في صورة هالة وقالت هل أنت واثق أن الديانة التي ستموت عليها هي الصواب؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ فقال سرعًا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» وصرف ذهنه إلى شيء آخر.

لكن على ما يبدو أن الشيطان كان مصممًا على غوايته قبل موته فقال له وهو في صورة هالة أنت لم تسأل نفسك هذا السؤال أبدًا.

أستغفر الله العظيم.

ماذا لو ولدت لأبوين مسيحيين أو لأبوين يهوديين؟ هل كنت ستسأل نفسك هل الديانة الأخرى صواب أم خطأ؟

استغفر الله العظيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الجنة والنار ليست بالشيء السهل، إنها الأبدية يا صديقي ففي واحدة منهم ستعيش، فهل تتحمل نارًا موقدة إلى الأبد!!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لماذا لا تنصرف؟ ونظر إلى الجهة الأخرى،

لم يرغب في أن يقوم من مكانه لأنه يعلم أنه لو تحرك من مكانه سيبتعد عن هذا الهيكل وأنه لسبب ما يشعر بألفة معه فإذا تحرك في تلك الظلمة وهذا المكان اللانهائي في اتساعه فإن أي حركة بعيدة عنه تجعله يفقد هذا الأنيس وربما يموت وحيدًا.

نظر إليه وقال:

هل وسوس لك الشيطان كما يفعل معي الآن؟ هل تغلبت عليه أم هو غلبك؟ هل ظللت على دينك أم أنه استطاع أن يغيره؟

إن لم تكن تمتلك القدرة والقوة على التمسك بما تؤمن فأنت أنتعس الناس، مت وحيدًا خائفًا وكذلك فقدت ما تؤمن به.

شعر حسن باحتقار للهيكل العظمي فأدار وجهه للجهة الأخرى، لموته بتلك الطريقة ولم يمتلك قوة الإيمان الكافية لمقاومة وساوس الشيطان ومات بتلك الطريقة مثله مثل أي إنسان.

عاد حسن إلى وضعه الأول وهو النوم بطريقة المصلوب، فترك يديه مفرودتان وقدميه مفرودتان أيضًا لكنهما مضمومتان عند الساقين والقدمين يبدو أن ذلك الوضع كان يريحه لكن ترك رأسه على حالها في الاتجاه المضاد للهيكل، لكن شعر بشيء ما يضع يده على يده بحنو بالغ ويشعر غريزي وقبل أن يترجمها العقل ويحولها إلى موجة خوف تحسس حسن تلك اليد،

وجدها يد ذلك الهيكل الملقى بجانبه وظل حسن مرتاباً لأنه لا يعلم على نحو جيد هل تحركت يد الهيكل إليه أم تحركت يده إلى الهيكل؟ لكن على نحو ما شعر أن تلك اليد كانت تحمل رسالة إليه.

بأنك قد وجدت رفيق عند موتك أما أنا فلم أجد ذلك الرفيق، فلا تلومني على ضعفي ولن ألومك عندما توضع في اختبار حقيقي وأنت تقترب من الموت.

- ألسنت أعاني نوبات الموت؟

- لا.

- وما تلك الأشياء التي أراها من وساوس شيطانية وقد علمنا أنها تأتي دائماً مصاحبة لخروج الروح؟

- ترهات عقل الخائف، إنها مخاوفك.

- فقال لنفسه هامساً خائفاً من أن يسمع الهيكل، هل أحمل عقلاً متشككاً غير مؤمن؟

- أنت لا تستطيع أن تعرف ماذا يحدث لك في ساعة الموت من فتن، سأنظر لك وأراقب ثباتك أيها البطل.

- هل سأعاني؟

- في حالتك تلك ستعاني.

راح حسن في صمت عميق بعدما أنهى الهيكل حديثه وصمت، لكن بعد برهة قطعه وقال: هل من الممكن أن تساعدني؟

- إنها ساعتك أنت.

صمت الاثنان ولم يتحدثا مرة أخرى. لكن حسن سمع الصوت مرة أخرى فنظر إليه مسرعاً ربما يقول له أي شيء ليواسيه به أو ربما يخبره أشياء عن العالم الآخر ربما عليه أن يعرفها لكنه وجد الهيكل على حاله في حالة السكون متأملاً الظلمة، إذن من أين أتى ذلك الصوت؟

نظر إلى الظلام السرمدي الممتد بلا نهاية لكنه لم يجد شيئاً فاعتقد أن هذا الصوت ربما يكون قد صدر من الهيكل وقال ربما أراد أن يعدل من وضعه، لكنه انتبه وعرف أنه يهذي وقال ربما لا يكون هناك صوت.

وشعر ببداية موجة خوف جديدة وكان ارتفاع قمته قد بدا ملحوظاً من بعيد منبأ عن موجة عاتية ربما ستدك حصونه جميعها، فضغط بيده على يد الهيكل محاولاً استلهاً القوة، وأنه ليس وحيداً أمام مخاوفه، وتلك من عادات ذلك الكائن الاجتماعي الذي يقاوم مخاوفه بالجماعة، وربما يكون التغلب على المخاوف هي مشكلة المجتمعات الحديثة، المجتمعات القائمة على الخوف، مجتمعات تأكل من روح الإنسان الحرة، متى ستخطي البشرية مخاوفها ويصبح "الإنسان" - لا هاجس الخوف - هو المسيطر؟ ويكون عقداً اجتماعياً جديداً قائماً على قيم إنسانية جديدة.

نظر حسن إلى داخل نفسه وقال متعجباً خائفاً: هل في هذه اللحظات التي أحثاج فيها إلى الثبات، أتذكر كلام هؤلاء؟ ونظر إلى السماء مستغفراً وقال لئن نجيتني يا رب لأكتب قصص هؤلاء في كتاب، وسأعرض على المجتمع نظرهم الشاذة إلى الدين ولأنتصرن لدينك.

فسمع صوت الهيكل مرة أخرى وقال:

- ماذا ستسميه؟

مذكرات سيف الله المسلول على أعدائه العلمانيين والملاحدين.

شعر حسن ببعض الراحة النفسية وبقدرة على تخطي موجة الخوف الآتية ومع اقترابها من قلبه ضغط أكثر على يد الهيكل ولم تمض غير لحظات شعر حسن خلالها بتصلب في أوتاره، بعدها وجد حسن عقلة من إصبع الهيكل قد انكسرت ووجدها في يده، ربما انكسرت نتيجة ضغطة يده عليها فوضعها حسن بجانب اليد، وشعر حسن بامتنان الهيكل له لأن حسن رد إليه أجزائه.

ترك حسن الهيكل ليستريح لأن الهيكل كان مجاملاً وأرهق نفسه معه، وعاد إلى النظر في الظلام والغريب أنه لم يستطع التفكير في أي شيء، فظل على سكون الميت لم يحرك ساكناً وأغلق أذنيه حتى لا تفرعه مرة أخرى، لكنها سرعان ما التقطت نفس الصوت الذي سمعته من قبل، فنظر إلى الهيكل لكنه وجد الهيكل غارقاً في سكونه وقبل أن يترك نفسه لألم الخوف، استدعى خبرته السابقة في تحليل الأصوات وتمييزها الذي دربه عليه اللواء (عبد الكريم القاسم) قديماً فوجد أن هذا الصوت هو نفسه الذي سمعه من قبل فتأكد من أن هذا الصوت صوتاً حقيقياً، وليس من نبت الخيال بل هو فعل حقيقي،

إذن له مصدر، فتأهب لملاقاته وحاول الهيكل أن يستفسر منه، فأشار حسن عليه بالصمت وكانت الإشارة حاسمة، فصمت الهيكل ولم ينطق.

عاد حسن لتأهبه مرة أخرى لكنه ظل على تلك الحال فترة طويلة ولم يسمع أي صوت أو أي حركة صادرة من مركز الصوت، ومع إحساس باليأس من سماع الصوت مرة أخرى ارتخت عضلاته ووضع يده على يد الهيكل مطمئناً وعاد إلى النظر في الظلام إلى الظلام، لكن سرعان ما سمع ذلك الصوت مرة أخرى، نعم إنه نفس الصوت.

استطاعت أذنه التقاطه وتمييزه بل وتمييز مصدره، إنه صوت صادر من الأرض، صوت احتكاك آلة تدور ويبدو أن هذا الصوت يحدث عند نقطة معينة في محور الدوران ناتج عن بعض الخشونة.

- نظر إلى الهيكل وقال أين توجد تلك الآلة؟

- لا أعرف.

- بالطبع لا تعرف فلو كنت تعرف لما كان هذا هو حالك.
- قال الهيكل محتدًا وما هي حالتي؟
- حالك، مت مودة لا تليق.
- صمت الهيكل ولم يجب حسن.
- أنا لن أستسلم.
- ضحك الهيكل وقال ساخراً وماذا تفعل على الأرض؟
- أجد طريقاً للخروج.
- ههههههههههههه ثم صمت.
- لا تسخر مني هكذا.
- صمت ولم يرد على حسن ولم يلتفت إليه حتى اعتدل حسن جالساً ثم حاول الوقوف.
- ماذا تفعل؟
- سأبحث عن مخرج.
- لا يوجد أي مخرج، أرح نفسك ونم بجانبني.
- هل بحثت عن أي مخرج أم استسلمت؟
- بحثت حتى كللت قدماي ولم أستطع الوقوف أو الحركة.
- هل سمعت صوت آلة تدور في أرض تلك الغرفة؟
- أبداً لم أسمع.
- أنا انتبهت إلى أن هناك صوت لآلة تدور.
- وما الفائدة من المعرفة ما دمنا سنموت؟
- قد تبقيك المعرفة حيّاً أيها الأحمق.
- قل لي إذن كيف ستبقيك أنت؟

- إن كان ما أظنه صحيحًا فعليًا الحركة الآن، فأنا أعتقد أن عدم مقدرتي على الوصول لأي حائط تدل على أنني موجود في متاهة من نوع ما، لأن الغرفة مهما تباعدت أبعادها فلن تكون بلا نهاية فكان يجب أن أصل لأي حائط.

- لأنك تتحرك في ظلمة حالكة لا تدري أين تضع قدمك.

- لا، لأنني كنت أتحرك في خط مستقيم حسب اعتقادي لذلك كان ينبغي أن أصل إلى نهاية لكن على ما أعتقد أنني لا أسير في خط مستقيم.

- صحيح من الممكن في الظلام أن تسير في خطوط متعرجة.

- ليس السبب كما تعتقد لأنني تعمدت الانحراف فراقبت طريقي لكن دون جدوى، لم أصل لشيء فشعرت أنني في متاهة حتى تأكدت تمامًا الآن أن تلك الآلة تجعل الأرض التي ترقد عليها تدور وبسرعة محددة تجعلك غير قادر على الخروج منها.

- تدور... إن تلك الصالة مستطيلة الشكل.

- نعم هي مستطيلة لكن ربما تكون الأرض المتحركة دائرية ومحسوب سرعتها فهي أكبر من سرعة أي بشري وربما لا نشعر بدورانها لكبر حجمها والظلمة.

- إن كانت سرعتها أكبر من سرعة أي بشري فكيف تخترقها؟

- صمت حسن قليلًا..... عليّ أن أتأكد من اتجاه دورانها وأجرى عكسه.

- ضحك الهيكل، لن تصل لشيء لأنك ستسير عكس الحركة وكأنك تسير عكس «سير» هابط وأنت صاعد.

- جلس حسن حزينًا وقد اقترب أكثر من الهيكل في جلسته وقال أليديك فكرة أخرى؟

- لو كانت لدي أي فكرة ربما لم يكن ذلك حالي.

صمت حسن وتمدد ووضع ساقاً فوق ساق ثم وضع يديه خلف رأسه ونظر إلى الظلام لكنه حاول أن يبحث عن حل...

مضى الكثير من الوقت وكثير من الصمت في محاولة الوصول إلى حل ونظر إلى الهيكل وقال ربما يكون ما توصلت إليه هو الحل علي أولاً أن أحدد اتجاه الحركة ثم أسير بسرعة في اتجاه ما ثم أستريح قليلاً وبعد ذلك أسير بخط مائل عكس اتجاه الحركة ثم أجلس قليلاً وأعود إلى الاتجاه الأصلي وأسرع الحركة ثم أجلس وهكذا.

جميل لكن كيف ستحدد اتجاه حركتك بعد الجلوس والحركة والجلوس؟

لم يمهله حسن حتى يكمل وقال فهمت ما تريد أن تقول سأحدد عن طريق مؤخرتي.

دوت ضحكة مجلجلة من الهيكل شعر حسن ببعض الحرج فحاول أن يشرح للهيكل.

سألتفت بعجزي مقدار ما في عكس الاتجاه وعندما يأتي وقت العودة سألتفت بعجزي بنفس المقدار للاتجاه الأول وهكذا.

جميل ربما تكون فكرة صائبة.

شكراً سأنام الآن وأضع أذني على الأرض حتى أسمع الصوت ويجب أن أسمعه مرات متتالية حتى أحدد مصدر واتجاه الصوت.

لكن أليس من الممكن..... صمت الهيكل على إثر إشارة من حسن بالصمت.

عندئذٍ وضع حسن أذنه اليمنى التي يعرف مقدرتها على السمع فهو يعلم أن أذنه اليمنى أفضل في السمع من أذنه اليسرى، وظل على حالة المراقبة تلك التي أرهاقته مع شعور غير مريح تسببت به اللزوجة الصادرة من أذنه اليمنى التي تعرقت نتيجة الشعور ببعض الحر وزيادة الرطوبة، فاستخدم كم قميصه مرارًا لإزالة العرق والهرش لتهدئة الأذن لكن مع طول المدة على تلك الحالة جعلته غير مهتم بالمسح أكثر من اهتمامه بالهرش، لكن طالبت مدة انتظاره ولم تهتد أذنه إلى أي صوت، نظر الهيكل إلى حسن نظرة من أصابه الملل فبادلته حسن بنظرة فقدان الأمل لكن لسبب ما استمر حسن على تلك الحالة ورغم ذلك لم يسمع شيئًا إلا أن الهيكل قال:

- ربما كان الصوت الصادر من الآلة والذي سمعته أنت هو محض تهيؤات.

- لم يقطع حسن الهيكل أو يلزمه بالصمت وقال ربما.

- لكن هل نحن في متاهة فعلاً؟

- مع ابتسامة رقيقة من الهيكل وقال ربما.

لم يفهم حسن سر ابتسامة الهيكل لكنها لم تشعره ببعض الراحة وأراد أن يخبر الهيكل أنه ليس مثله لأن حسن لا يعرف الاستسلام وإن كان بقائه بجانبه قد طال إلا أنها استراحة محارب ولن يطول به الوقت على تلك الحالة وحتماً سيقوم للبحث عن مخرج ولن يستسلم.

- صدقني إنها متاهة وفشلت في تخطيطها ولا أعتقد أن هناك من يستطيع تخطيطها.

لم تعجب تلك الطريقة حسن فقال ربما فشلت أنت وكانت تلك هي النتيجة لكن ما زال أمامي وقت وسأحاول الخروج.

أشاح الهيكل بوجهه والتفت إلى الناحية الأخرى فلم تعجبه لغة حسن وتفادى حسن الاصطدام به ولم يعره أي انتباه بل قال لنفسه فعلت خيراً بصمتك، ووضع أذنه مرة أخرى محاولاً سماع تلك الآلة ومضت مدة أكبر من سابققتها وهو في حالة ترقب لسماع الصوت لكن لم يسمع أي صوت بل شعر بذبذبة اكتشفتها يديه عندما ارتخت بعد شعور بفقدان الأمل، حاول سماعها لكن لم يصل إليه أي صوت فوضع أذنه فوق الأرض في مواضع مختلفة من أرضية القاعة، لكن لم يصل إلى أذنه أي صوت فعاد إلى وضعه الأساسي القريب من الهيكل ووضع أذنه مرة أخرى ولم يسمع ذلك الصوت فوضع يديه وشعر بتلك الذبذبة فتأكد من وجود تلك الآلة تحت أرض القاعة، عندئذ نظر إلى الهيكل نظرة الظافر فوجده غير مهتم يتشاءب تشاؤب من أصابه الملل فقال حسن:

- وجدتھا.

- هل سمعت الصوت؟

لا لكن تأكدت من وجود تلك الآلة مصدر الصوت وأعتقد أنها المتحكمة في حركة الأرضية التي نقف عليها.

- هل ما زلت تعتقد أن الأرضية متحركة؟

- بالطبع وإلا لماذا لم تصل أنت إلى حل؟

- لأنها متاهة مثل كل المتاهات القديمة التي لا مخرج منها إلا بالوحي الإلهي.

- حتما سأجد مخرجاً إن شاء الله.

- أنت حر.

ما دام هناك ذبذبة فما سمعته كان صحيحاً وربما تكون تلك الآلة مثل كل الآلات عندما تصبها أعطال في بدايتها تصدر أصوات على فترات زمنية غير منتظمة، لذلك حتماً ولا بد أنها ستصدر صوتاً آخر لكن متى؟ لا أدري. عليّ انتظاره.

أحس حسن بحاجته إلى التبول، فنظر يمينًا ويسارًا لم يجد غير الهيكل بجانبه ولم يرى أي مكان يستطيع أن يتبول فيه فقال للهيكل:

- هل تبولت من قبل وفاتك؟

لم يجب الهيكل وانتظر حسن الإجابة لكن الهيكل لم يجب، فقد راح في نوم عميق وسمع حسن صوت شخيره فقال حسن حسنًا فعلت وقام حسن وأعطى ظهره للهيكل وحرك سوستة بنطاله لأسفل وقبل أن يبدأ في التبول نظر للهيكل ليطمئن أنه لا يراه وأنه يغط في نومه، ومع شعور حسن بالراحة مع تناقص حمولة الماء التي تحملها المثانة تدريجيًا سمع صوتًا، نعم إنه صوت.

حاول أن يتوقف عن التبول لكنه لم يستطع والصوت كأن قد اختفى فأنتهى حسن تبوله مسرعًا ونام على الأرض ووضع أذنه على أرض القاعة ووجد بعض الرزاز المتطاير نتيجة تبوله قد بلبل صدغه فلم يهتم، فلم يكن هناك وقت ليضيعه وهو يعلم أن الآلة لا بد أن تصدر صوتًا آخر وربما يكون هذا الصوت الذي ستصدره وهو حي، فانتبه جيدًا، لكن صوت شخير الهيكل قطع صوت الصمت، فأراد حسن أن يدك عنقه، عندئذ بدأ صوت الآلة في التصاعد وحدد حسن اتجاهها فقد علمه اللواء نظرية دوبلر وهي نظرية فيزيائية وتشير إلى أن القطار عندما يقترب يكون صوته حادًا وعندما يبتعد يبدأ الصوت في الليونة وكان الصوت الذي يسمعه حادًا لذلك علم أن اتجاه الحركة هو عكس اتجاه مرقده هو والهيكل فقام من رقدته فرحًا صائحًا وجدتها، فقام الهيكل من نومه مفزوعًا على إثر تلك الصيحة فمال عليه حسن وقبلة وقال له:

وجدتها، لقد سمعت الصوت وحددت اتجاه الحركة.

صمت الهيكل ولم يرد وشعر ببعض الحزن فهو يعلم أن تلك اللحظات هي آخر اللحظات التي سيقضيها مع ذلك الأنيس.

- سأتحرك حالاً، لأن أي وقت أضيعه من الممكن أن يعني بقائي هنا إلى الأبد هل حتمًا سترحل؟

نظر حسن إلى الهيكل وعلم ما يعانيه هذا الهيكل وكان قلبه التقط تلك الإشارة من قبل، إن الهيكل ربما يعاني ألم الوحدة الأبدية، لم يكن حسن يطيق ذلك الفراق أبداً ونظر إلى الهيكل وقال:

أتعلم أنني أبدو لكل من يراني إنساناً صلباً قاسياً ذا رأي نافذ، قادر على اتخاذ القرارات الصائبة لكن خلف ذلك الستار يوجد إنسان يبكي ألم الوجد، سريع التأثر، متردد في قرارات كثيرة لن تصدقني إن علمت حجم ألمي عند رحيل اللواء (عبد الكريم قاسم) بعد ارتباطي به روحياً وذلك الشيخ الآثم الذي أحببته، إني أبكي ألم الفقد وما أتى بي هنا هو الحب، الحبيب لم تره عيني أبداً. أعرفت يا صديقي من أنا؟

لكن على ما يبدو أن الدنيا مخوفة بخيار واحد، لا خيارين، فلا اختيار بين الحياة والموت هو اختيار واحد، هو اختيار الحياة.

سمع حسن صوت أنين صادر من الهيكل فاقرب حسن من حجمته ووضع يده على الهيكل فتعالى صوت الأنين أكثر فمال حسن عليه وقبله في حجمته وتساقطت بضع قطرات من عيني حسن على حجمته الهيكل فمسحها بكم قميصه وقال:

سأرحل وربما أكون أنا الخاسر، فأنت مت موة لا ثقة لأن هناك من سيذكرك أما أنا ربما لن أستطيع أن أصل إلى باب الخروج فلن أجد من يؤنسني وأنا في ساعتني الأخيرة قبل رحيلي عن الحياة، وإذا رحلت فلن أموت موة لا ثقة لأنه لن يكون هناك من يتذكرني لكن علي الرحيل لأنه كما قلت لك هو اختيار واحد.

قام حسن من على الهيكل بعدما جفف دموعه ووقف، ثم نظر إلى الهيكل الذي ما زال ينظر إليه ثم انطلق حسن بأقصى سرعة ممكنة لديه في الظلام. يعرف حسن أن كل دقيقة يضعها ستعني له الكثير، فلم يترك لنفسه فرصة للراحة وسرعان ما انتهى ألم ساقه الذي أصابه بعد اصطدامه بالهيكل نتيجة سخونة الجسم، وكان عقل حسن لا يعمل إلا في اتجاه واحد هو تحقيق الخطة التي أخبر الهيكل عنها واستعمل العد لينظم المسافة بين الحركة في الاتجاهين والجلوس والحركة.

عندئذٍ دوى صوت اصطدام هائل نزف حسن من رأسه وأنفه وظل للحظات غير قادر على التنفس، لكنه قام، وفرحة عارمة تملأ كيانه لأنه قد اصطدم بالحائط الذي قد وصل إليه أخيراً وألصق جسده بالجدار خوفاً من أن تأخذه تلك الأرض المتحركة فتقذفه في مكان لا يعرف منه كيف يصل لمخرج، وقال لا بد أن زر الخروج في مكان في متناول الإنسان العادي وسأجده عندما أجد ذلك الفاصل في الجدار، هو يعلم أن تلك المحاولة ربما تكون أصعب لأن عليه أن يتحسس كل الحوائط في القاعة، أي محيط القاعة كاملاً التي ربما تكون بلا نهاية وأن يحافظ على مكانه من الجدار فلا يسمح للأرض المتحركة أن تجرفه، استعمل حسن كل جسده الملصق بالحائط كأداة تحسس يستكشف بها الجدار.

هبطت على قلبه موجة خوف أخرى لا يدرى ما مصدرها وأصابته بضيق لأنه ليس الوقت المناسب لها، فقاومها، لم يترك لنفسه فرصة الركون حتى تمضي فمضى هو، ويبدو أن القدير كان له معيناً وأن هذا هو يوم سعيه.

اكتشف فاصلاً في الجدار فمرر يده عليه فوجده فاصلاً رأسياً ارتفاعه أعلى من رأس حسن بـ متر إلا ربع، هكذا قاسه وكان خبيراً بقياس المسافة بذراعه وخطوته أيضاً وكان هذا الفاصل يمتد على استقامته في اتجاه الأرض، فعلم حسن جيداً أن هذا هو الباب أو المخرج، فتعلق بالشق بيده اليسرى وترك يده اليمنى تبحث عن زر الخروج أو مكبس الخروج وبعد محاولة بسيطة لم تعثر يده على أي شيء في هذا الاتجاه كما توقع، لأنه الاتجاه الذي أتى منه.

لو كان هناك شيء لعر عليه قبل وصوله إلى الباب لذا كان عليه أن يتخطى الباب، لكن كم عليه أن يتحرك في هذا الاتجاه وكم سيبعد عن الباب؟ وهل إذا ابتعد باستطاعته العودة إلى ذلك الشق؟ لذا عليه أن يكون حذراً والتصق بالحائط أكثر، ثم قام بعد الخطوات التي تحركها بعيداً عن الشق الراسي وفي تلك الأثناء كانت يديه تبحث في كل شبر من الجدار بحثاً جاداً حتى وصلت يديه إلى مكبس دائري وهو جزء من الحائط، ضغط حسن عليه بكل سرعة وقوة لكن الباب لم يستجب!

قال حسن لنفسه ربما تفقد تلك الأبواب حساسيتها مع الزمن فضغط مرة أخرى بقوة أكثر لكن الباب لم ينزاح، فخشي أن يكسر ذلك المكبس، فتوقف للحظات ثم عاد للضغط مرات متقطعة دون فائدة ومع شعور بالخشية ترك جسده يسقط ملتصقًا بالحائط، والتفت لأعلى في محاولة لسؤال الخبير ومناجاةه.

التقطت عينه نقطة زرقاء لشعاع ليزر لن تستطيع أي عين مهما كانت خبرتها أن تلتقطه، لكن عين حسن التقطتها مصادفة، استطاعت عينه أن تتبع مسار الشعاع لمسافة قصيرة، لم يسمح له الظلام بأكثر من ذلك، لكنه علم أن شعاع الليزر لابد أن مصدره مختبئ خلف أستار الظلام، معلق في سقف تلك القاعة، أدرك حسن أن ذلك هو مفتاح الخروج فوضع يده بين مصدر الشعاع وتلك النقطة فقطع خط الاتصال بين الليزر وتلك الدائرة الكهربائية فانزاح الباب على الفور انزياحًا بسيطًا، مكن حسن من إمرار رأسه ثم بقية جسده، وخرج ثم سقط أرضًا غير قادرٍ على تحمل الألم وبصعوبة بالغة استطاع أن يتنفس ووجهه مضغوط وعينه جاحظة.

حاول حسن بكل قوة التغلب على حالة الاختناق، لكن عليه أولاً أن يهدئ من حالته الداخلية المنفعلة وأن يسيطر على مخاوفه التي اندلعت داخله، لأن حالته تلك مماثلة لحالة ذلك الرجل، لذا عليه المقاومة للرحيل عن هذا المكان بأقصى سرعة، لأن الحريصين على إبقاء هذا المكان سرًا ربما لن يعجبهم خروجه، وسيفعلون معه مثلما فعلوا مع ذلك الرجل الذي ذكرته د/ هالة ثم يتركونه في تلك القاعة المظلمة، تلك المقبرة، لذا عليه أن يتحمل أكثر وقاوم حسن بكل ما يملك من قوة محاولة الجسد الدخول في غيوبة، وكانت الشمس تهم بدخول عين النوم، تاركة العالم الأرضي بعد أن اطمأنت على عودة حسن سالمًا، هكذا تكون الأم، ولم يستطع أن يقاوم أكثر من ذلك، فراح في غيوبة.

لم يدر حسن إن كانت إغفاءة أم غيوبة لكنها سببت له بعض الراحة واستجمع بعض قواه ونظر إلى الأفق فوجد القمر مستقرًا، مكتملاً في السماء فعلم أنه قضى وقتًا ربما يكون طويلًا في تلك الغيوبة لأن آخر ما يتذكره هو ذلك الشفق الأحمر الذي تركته له الشمس بعد رحيلها.

قام مسرعًا لسيارته ونظر في المرأة فوجد دمًا جافًا قد غطت وجهه بالكامل فكان عليه أن يتجه للبيت قبل ذهابه إلى المكتب كي يغسل تلك الدماء ويرى بوضوح جروحه تلك ويعيد مرة أخرى تنظيم أفكاره.

حصل حسن على حمام دافئ كانت كل عضلات جسده تحتاج إليه ثم ألقى بجسده على السرير ونظر إلى الجرح الذي ألم بساقه نتيجة اصطدامه بالهيكل، الذي يشعر حسن بشوق وامتنان لما فعله معه.

- وقال ليس لدي الكثير من الوقت لأناقش تلك الحالة إن كانت حقيقية أم لا

وكانت تلك الطريقة المعتادة لديه كي يتوقف عقله عن التفكير في أمر ما وبدأ بترتيب أفكاره.

- إن ما رأيته هالة كان صحيحًا وإنها هي المقصودة بالقتل لا الدكتور عبد الرحمن.

شخص ما قد حصل على خاتم من ذلك المبنى وأعطاه إياه.

هذا الخاتم هو سبب وفاتها وهذا الخاتم شيء حقيقي وليس وهمًا، لأنها لم تدخل المبنى ولم تذكر أن ذلك الرجل الذي استطاع الخروج قد أعطاه أي معلومة عن المبنى، لأن حالته لم تكن تسمح له بذلك، لكن أعطاه خاتمًا.

- ما قصة ذلك الخاتم؟

- ما قصة ذلك المبنى؟

- ما الرابط بين مقتل هالة ومقتل مولانا نائب المرشد؟

أصابه ذهول عند إجابة السؤال الأخير، أمن المرشد، طوى أسألته مع رعشه في جسده لإحساسه بهول الأمر لأنه إن أراد أن يحقق في تلك القضية كان كمن يلقي بنفسه في أتون حرب لا هوادة فيها، لذا عليه أن يعيد حساباته لأن رجال أمن المرشد متورطون بشكل أو آخر، وكشفهم لمولانا المرشد ربما سيكلفه حياته، وبالتأكيد إن حياته أصبحت في خطر، لأنه دخل

ذلك المبنى، وأكد من يملك ذلك المبنى علم بدخوله كما علم بمقابلة هالة لذلك الرجل وحصولها على ذلك الخاتم لذلك عليه أن يدافع عن بقائه حيًا وأن يكشفهم من أجل حبيبته، وحتماً سيكون لمولانا المرشد رأي آخر بعد أن تتكشف الحقائق.

رسم خطته.

- أولاً علي أن أعرف حقيقة ذلك المبنى.

- ثانياً البحث عن ذلك الخاتم ربما يكون حقيقياً ولم يستطع أحد الحصول عليه .

قام حسن من على سريريه وارتدى ملابسه للذهاب إلى مكتبه وللمرور على اللواء لمعرفة آخر الأخبار ومحاولة الحصول على أي معلومة عن المبنى وما كاد يضع قدمه في مكتبه حتى تم استدعاؤه من اللواء.

وقال اللواء أخبار التحريات وصلت لحد فين؟

عرض حسن كل ما توصل إليه من معلومات وما يدور في عقله من أسئلة واستنتاجات وما حدث معه داخل ذلك المبنى وقد لاحظ حسن تغير تعابير وجه اللواء عندما علم بدخول حسن ذلك المبنى، بل وأدهى من ذلك لهفة اللواء لمعرفة التفاصيل عن ذلك المبنى وبدت لهفته، لهفة من يريد معرفة، هل توصل حسن لمعرفة أي شيء مما يحتويه ذلك المبنى؟ وكيف استطاع الخروج سالماً؟ فسأله حسن سؤال مباشر:

- هل تعلم أي شيء عن ذلك المبنى سيادتكم؟

- لا.

- شعر حسن بعدم صدق اللواء مما أوحى لحسن أن ذلك المبنى ربما يكون تابع لجهة ما؟

- مفيش غير القاعة دي؟

معرفش يا فندم أنا سأبحث عن المخطط الهندسي للمبنى في الكمبيوتر المركزي للمعلومات.

- جيد لكن قبل ذهابك، اقرأ التقرير هذا، وصلني حالاً من مصادرنا في أمن المرشد.

- هل يحتوي على أية معلومة عن سيارة الإسعاف؟

- في التقرير.

- التقط حسن التقرير واتجه إلى مكتبه.

كانت سيارة الإسعاف تسير في شارع (غزلان) وعندما وصلت إلى تقاطع (محمود عزت) مع شارع غزلان وجدنا زحاماً غير عادي فأطلق السائق السارينة كي ينتبهوا ويدعونا نمر، لكن كان الحادث أكبر من ذلك فقد كانت الضوضاء شديدة نتيجة دخول مجموعة منهم في عراك، مما مهد الطريق لذلك التكدر واختلط صوت البشر المشارك في فض العراك أو المتعارك مع كللكسات المستعجلين من البشر فلم ينتبه أحد لنا.

- وماذا فعلتم؟

حاول السائق حلحلة السيارة ثم التحرك بها لأحد الطرق الجانبية.

- وهل نجحتم؟

- لا أدري يا فندم ماذا حدث بعدها إلا عندما وجدنا أنفسنا في المقطم شارع مولانا الشاطر (شارع ٩ سابقاً) ميدان مولانا الهضيبي.

- فرك حسن جبهته عند ذلك المقطع وقال هل يكذب ذلك الطبيب؟

- لا أعتقد لأنه قد مورس عليه قبل التحقيق أقصى أنواع التهيب والإيذاء البدني والنفسي لذلك لن يستطيع الكذب، بل ربما يكون هذا التقرير خاطئاً لأنه ربما أجبروه على قول ما يريدون لإخفاء الحقيقة.

- من اصطحبكم إلى هناك؟

- لا أعرف يا فندم.

- أين الجثث؟

- عندما استيقظنا يا فندم لم نجد تلك الجثث. ممكن أقول حاجة يا فندم؟

- اتفضل.

- ممكن الشخص الذي قام بسرقة تلك الجثث استخدم مادة ما تفقدنا الوعي لكن لا تجعلنا ننام، بل تركنا على حالنا.

- لماذا تدعي ذلك؟

- لأن من يفعل ذلك يحتاج إلينا كي نظل أمام الناس وهو ربما اختبأ في الخلف مع الجثتين.

ورغم سذاجة الاستنتاج إلا أن حسن وجد مع ذلك التقرير تقريراً مرفقاً من وحدة الطب الشرعي تشير إلى أن دم الطيبب والمسعف والسائق يحتوي على نسبة من مادة غير معروفة وجاري تحليلها كيميائياً لمعرفة ماهيتها.

أشار التحقيق مع السائق إلى إضافة معلومة أخرى، أنه رأى شخصاً ما في المرأة يقترب من السيارة ببطء وما كاد السائق يلتفت إليه حتى عاجله برزاز وعندما سُئل عن ملامح ذلك الشخص، ادعى أنه يحمل ملامح أجنبية.

دعك حسن جبهته مرة أخرى وقال إيه حكاية الرجال الأجانب اللي بيظهروا في مصر الوقتي ومشاركين في كل الحوادث؟

- هل هناك جهة أجنبية ما ضالعة في ذلك الأمر؟

تذكر حبيبته التي زجّت بها الصدفة في موقع الأحداث أو ربما تكون جاسوسة وجب التخلص منها، هل استطاعوا تجنيدها عندما كانت تدرس في الخارج؟ وهز رأسه وقال ربما، فهي تنحدر من عائلة علمانية.

شعر حسن بوخزة في ضميره لتلك التهمة التي ألصقها بمحبوبته، عندئذٍ أخرج صورته من درج مكتبه ومرر يديه على وجهها بعدما أغلق عينيه، لكنه فتح عينيه بمنتهى السرعة خوفاً من أن تأتي إليه، فكيف سيرر لها ما ادعاه عليها الآن وتلميحه إليها أنها ربما تكون جاسوسة.

دس صورتها في جيبه وأغلق درج المكتب وترك مفتاحه فيه على غير عادته، لأنه قرر عدم العودة إلى ذلك المكتب حتى ولو عاد فليس في المستقبل القريب لأنه لن يستطيع أن يأمن مدير الشعبة، فربما يضحي بحسن وخاصة بعد دخول حسن ذلك المبنى، لكن قبل أن يرحل إلى المكان الذي حدده، عليه أن يحصل أولاً على الرسم الهندسي لذلك المبنى والبحث عن ذلك الخاتم قبل رحيله، للبحث عن أجوبة، هو متأكد أنه سيجدها عند أستاذه لأنه متأكد أنه لن يحصل على أجوبة في مركز المعلومات، لأن استنتاجاته إن كانت صحيحة فلا بد أن أمن المرشد قد أخفى أي معلومة عن المبنى ٦٦ أو ربما لم تكن هناك معلومة عن هذا المكان.

- لكن عليه أن يذهب إلى مركز معلومات الجهاز.

كانت غرفة المعلومات تترك انطباعاً على نفس حسن وتصيبه بالقلق والحيرة ولو دخلها في اليوم الواحد مرتين كان نفس الشعور ونفس التساؤل، شعور بالذهاب إلى المستقبل فتلك الأجهزة لا تنتمي بأي حال للحاضر المصري وكان سؤاله إذا كان المستقبل بتلك الأهمية وهذا التقدم لماذا لا نذهب إليه؟

تذكر حسن دخوله أول مرة هو ورفاقه إلى تلك الغرفة والانبهار الذي أصاب عقولهم.

قال أحد رفاقه: إن تلك الأجهزة تشبه ما نراه في أفلام الخيال العلمي وقال بيلاهة هل السيارات التي تستخدم الطاقة المغناطيسية للأرض موجودة؟ فعتقه سيادة اللواء وقال لا نتحدث إلا بأمر.

شعرت حينها ببعض القلق والكره للواء (عبد الكريم قاسم) لأن زميلنا هذا لم نره مرة أخرى لكن بعد سنوات علمت أن كل المكان مراقب جيداً وأن هذا الضابط قد ارتكب خطأ لأن تلك الأفلام غير مسموح برؤيتها وأن اللواء كان يعلم هذا جيداً فلم يكن يريد أن يتسبب كلامه بمشاكل له.

وتلك سياسة انتهجتها دولة الخلافة بعد مجيء المرشد الأكبر محمود عزت ودخوله في صدام مع الغرب الكافر ثم الاستئصال المستمر لأتباعه أو المتعاطفين في الداخل، حتى في يومنا هذا وحالة العزلة التي عاشتها الخلافة بعد ذلك ثم خطاب داخلي بثته دولة الخلافة عن العودة للأصول واستنهاض قيمنا القديمة، قاومه هؤلاء المستغربون فكان على الأمة الإسلامية التطهر منهم، وشعر حسن بفخر شديد لأنه من هؤلاء الذين حملوا على أعناقهم مشعل التطهير، ويذكر حسن كيف استجاب المصريون لذلك فتخلوا عن ولعهم بالأشياء الحديثة، لكنهم أبقوا على بعض الأشياء المألوفة مثل السيارة والتلفزيون لأنها ضاربة بجذورها في الماضي لكن لم يرتادوا المسارح والسينمات ولم يقرأوا أي شيء يلهيهم عن ذكر الله وكان القرآن دستورهم وكتب المشايخ هي سلاحهم وقال في نفسه إنه حقاً شعب رائع متدين بفطرته يبحث عن الآخرة وترك الحياة لهؤلاء الكفرة.

كان قلقه الداخلي يتصاعد كلما دخل تلك الغرفة ومحاولات الكبح الدائمة لم تجد نفعاً لأن كل ما يراه في مركز المعلومات هو عكس السياق الذي تربت نفسه عليه.

تخلص حسن من حديثه الداخلي وجلس على إحدى الشاشات الملوجرافك (شاشات افتراضية ثلاثية الأبعاد يصنعها الليزر) وهي شاشات فائقة السرعة والحساسية وقام بالبحث عن المبنى ٦٦.

لم يجد شيئاً كما توقع، تسلسل كما علمه مولانا على بعض وكالات المخابرات الغربية فلم يعثر على أي شيء، تأكدت شكوكه تماماً، فقام مسرعاً بالبقاء مدة أطول تحت نظر أمن المرشد، معناه خطورة شديدة على حياته، لذا وجب عليه الرحيل والبحث عن أجوبة لأسئلته للوصول إلى الحقيقة وتقديمها لمولانا المرشد.

هناك شخص واحد وواحد فقط سيوفر لي الحماية وسيعطيني الإجابة، إنه معلمي سيادة اللواء المعلم، على الذهاب إليه بعد بحثي عن الخاتم.

- لكن أين أجد سيادة اللواء؟

خرج حسن مسرعاً من مركز المعلومات، متوجّهاً إلى سكن د/ هالة.

كانت القاهرة في حالة نوم عميق ورغم حرارة الجو إلا أن المصريين قد اعتادوا على النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً مع صلاة الفجر ورغم أن حسن من رجال أمن النظام إلا أنه اختار أن يتحرك بعيداً عن الأمانة لاحتياطات خطته الأمنية.

كان أشد ما يشغله في تلك اللحظة هو كيفية الوصول إلى المعلم فهو لا يعرف العنوان.

انتبه حسن إلى أنه الآن على مشارف المبنى ٦٦، شعر بتيسر أقدامه وانتابه موجة رعب على أساسه وزادت السيارة من سرعتها حتى تستطيع الفرار، ولم يستطع حسن أن يظل على تركيزه على الطريق فكانت عيناه تنتقل بين الطريق وسور المبنى، ومع طول الطريق شعر حسن بضيق شديد مع عدم القدرة على التنفس واختلط ذلك الشعور مع إحساس بأن هذا السور ممتد بلا نهاية، ضاقت نفسه بشدة وكادت أقدامه تفقد القدرة على القيام بوظيفتها تحت حالة الفشل النفسي التي تتسلل من أعماقه، وكادت تسيطر على وعيه لكن حسن قاوم وبكل ما يملك من قوة لأنه يعلم أنه لم يكن باستطاعته البقاء بجانب ذلك المبنى لدقيقة إضافية.

سرعان ما تجاوزت السيارة ذلك السور فشعر حسن ببعض الراحة، ارتخت عضلات ساقه المتوترة، لكن حسن لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر في المرأة على ذلك المبنى الذي بدا في الظلام كشبح عملاق ممتد بلا نهاية، لا يخاف ولا يرتجف من الظلمة المحيطة، ولكن على ما يبدو أن رعب الظلمة ممتزج مع رعب المبنى في مشهد أسطوري، فيجعل أشد النفوس صلابة يصبها الجزع، لم يستطع حسن أن يطيل النظر أكثر من ذلك فالتفت إلى الطريق.

وثار ذلك التساؤل مجدداً، لماذا غامر ذلك الرجل ودخل هذا المبنى؟ هل دخله مصادفة؟ أم أنه أراد شيئاً ما؟

- هل أراد ذلك الخاتم؟

هل كان هذا الخاتم من مقتنيات ذلك المكان وكان ثمنه حياته التي دفعها
عن طيب خاطر؟

إذن لماذا تحلى عن للدكتورة هالة التي ربما دفعت حياتها دون أن تدري
ثمنًا لأنها تحمله؟

أم أن هذا الخاتم هو ملك لهذا الرجل وأعطاه إياه شاكرًا لها لأنها لم
تركه وفرت؟

إذن لماذا فقدت حياتها بتلك الطريقة مع الدكتور عبد الرحمن؟

أوقف حسن سيارته بعيدًا عن شقة هالة في أحد الشوارع الجانبية حتى
لا يثير أي شكوك وتحرك بسرعة، كانت العمارة التي تسكنها هالة بلا بواب
فسهل ذلك مهمة الدخول لحسن، فدخل مسرعًا، وصل إلى باب شقتها
فأخرج يديه وعالج كالون الباب فانفتح الباب، دخل ثم أغلق الباب
بمتمهى الحذر وبحركة غريزية نظريًا ويسييرًا رغم معرفته بخلو الشقة
تمامًا، فكما تؤكد معلوماته أن هالة بلا أب أو أم وإن هذا السكن قد اتخذته
بعد وفاة أمها، جلس حسن على أقرب كرسي كي يستريح قليلًا لكن عتمة
الشقة أشاعت في نفسه شعور غير مريح، ولم يكن معه كشف إضاءة.

فتحسس طريقه إلى الشرفة فوجدها محكمة الغلق وخلفها ستارة غليظة
وهذا ما أوحى به كثافة الملمس وكانت ذات قوام متهدل غير متماسك مما
جعله يشعر أنها قديمة فظن أنها ربما قد ورثتها عن أمها فاطمأن إلى أن
أشعة النور الخافت ربما لن تتسلل خارج الشقة فأضاء لمبة واحدة توخيًا
للحذر ثم قام بمباشرة عمله بتمتهى الحرفية.

وقف حسن مبهورًا أمام صورة هالة موضوعة في أحد أدراج المكتب،
كانت صورة كبيرة بحجم ورقة A4 كان شعرها متدليًا على صدرها بسمرة
فاحمة فأعطى وجهها جاذبية وعذوبة وكانت تحمل ملمحًا غريبًا ممزوجة
بسحر الشرق، تذكر حسن أن جدتها لأمها فرنسية، لكن كيف التقطت تلك
الصورة ومن التقطها لها؟ سأل هذا السؤال لأن تلك الصور لم يكن مسموح
بها في أرض الخلافة وقال بثقة ربما تكون التقطتها وهي في الخارج، فهو يعلم

جيدًا أن هناك فئة من المصورين الليبراليين تم القضاء عليهم، كان آخرهم المصور محمد سلامة، واستطاع حسن الإيقاع به ومات من التعذيب وكان هذا منذ أكثر من سبعة أعوام ومنذ ذلك الحين لم تظهر أي صورة لعاريات الرأس اللواتي كن يتحدين العرف ويقمن بنشر صورهن، أولائك العلمانيات وخاصة كبيرات السن منهم، كن يمتلكن صلابة كبيرة وقدرة على التبجح والاستهتار بمنجزنا الحضاري.

هل أنتِ منهن؟ سأل هذا السؤال وفي قلبه حزن كبير لخوفه عليها من عذاب أليم ربما تلاقيه الآن في الآخرة وهو يعلم أنه لن يستطيع أن يشفع لها وقال بحزن، ربنا يرحمها.

وشد نفسه من أمام صورتها وراح يكمل تفتيشه عما جاء من أجله، هو يعلم أن هناك من جاء للبحث عن الخاتم وربما وجدته لكن حركة أمن المرشد التي لم تهدأ ربما توحى بعكس ذلك، ولأن حسن يمتلك إصرارًا كبيرًا فلم يستسلم لتلك الهواجس ولم يمض وقت كبير حتى تأكد حسن بخبرته الأمنية أن هناك من أتى إلى شقة هالة.

لم يمض وقت طويل في البحث حتى أدرك حسن أن شقة هالة عادية وغير مميزة لكن وجد فيها ألفة كبيرة وراحة، ووصل حسن إلى غرفة نومها بعد أن استبقاها لتكون آخر مكان يبحث فيه.

لاحظ حسن أجندتها الموضوعة بعناية أسفل ملابسها ووجد أسفلها كتاب لكارل بوبر باسم أسطورة الإطار، عندئذ شعر حسن بطعم الغصة والخوف على حبيبته لأن ذلك الكتاب كان من المحرمات ومن يقرأ لهذا الفيلسوف فهو آثم ولم يكن يقرأ له غير العلمانيين وكانت غصته من أنها تنتمي إلى هؤلاء وقال مولانا المرشد عنهم أنهم حطب جهنم لكن لفت انتباهه بقاء أجندتها وذلك الكتاب يوحى أن أمن المرشد لم يكن مهتمًا في بحثه إلا عن شيء واحد، وبالتأكيد هم يعلمون أنها لم يكن لديها كثير من الوقت لتدوين ما حدث لها اليوم فلم تعني لهم تلك المذكرات أي شيء، فعاد مرة أخرى وقال لم تجازفين هكذا؟ هل تعلمين عقوبة امتلاكك كتاب مثل هذا؟

وضع الكتاب والأجندة على المنضدة الصغيرة الموجودة في حجرة النوم بجانب السرير.

أنهى حسن التفتيش في غرفة النوم ولم يترك رغم إرهاقه الشديد أي مليمت إلا وفتش فيه.

نظر حسن إلى ساعة الحائط وكانت تشير إلى الواحدة والنصف ليلاً فأدرك أن هذا الوقت لم يكن الوقت المناسب للحركة والعودة إلى القاهرة ولم يستطع أن يغالب نفسه ويخرج من شقتها، فأقام اتفاق مع نفسه للبقاء في شقتها حتى صلاة الفجر ثم الذهاب للبحث في سيارتها، عن ذلك الخاتم.

أراد حسن البقاء في شقتها الشعور بهالة، فكل جزء من منزلها يحمل من روحها، ففرد ظهره على سريرها، لكن حرارة الجو والدماء التي تركت رائحتها وبعض لزوجتها على جسده رغم اغتساله منها وتغييره للباس قبل الدخول على سيادة اللواء إلا أنه لم يحصل على حمام، وشم رائحة عرقه المتصاعد من إبطه فأراد أن يستحم

وقال لما لا؟ أليس هذا بيتي...

فخلع ملابسه وتعرى تماماً وذهب إلى الحمام وقام بشم العطور فيما كان الصنبور يملأ البانيو ولا حظ دقة هالة ونظافتها فامتلات نفسه سعادة بحبيته ولم يشعر أنه غريب عن شقة هالة، قام بتعطير البانيو ثم ترك جسده لينزاح داخل البانيو وشعر بلذة الماء البارد المعطر، لكن بدأ جرح ساقه بإصدار موجة ألم حملتها الخلايا العصبية إلى المخ وما أن فرها عقله، حتى قرب ساقه إلى عينيه، فوجد أن الجرح بالغ وعميق، فأدرك أن عليه تنظيفه وتضميده بعد استحمامه وترك رجله لتستقر تحت الماء وركن رأسه.

استسلم لطلب الجسم باحتياجه للراحة وأسبل عينيه حتى يحصل على غفوة تعطي جسده بعض القوة تمكنه من الاستمرار، لكن عندما أفاق منها كان لجسده رأي آخر وطالب حسن بالطعام فقد نفذ المخزون الاستراتيجي ومطلب المعدة صار أكثر صراحة خاصة وأن حسن كانت مواعيد الطعام عنده منضبطة فقام من فوره ونشف الماء من على جسده وذهب إلى المطبخ

للبحث عن أي شيء صالح للأكل ووجد حسن نصف بطيخة وقطعة جبن وعلبة تونة وبعض الأرغفة وكان هذا ما يحتاج إليه، فوضع طعامه على المنضدة وقبل أن يتناول الأكل تساءل:

هل هذا الأكل حرام؟

توقف قليلاً لكن مع ضغط الجوع عليه قال إن صاحبتة ميتة وحتماً سيفسد فعليّ أن أكله ربما يكون صدقة على روحها، وبعد أن فرغ من طعامه، تسلل إلى غرفة النوم واستلقى على ظهره فوق سريرها، ولم يستطع أن يقاوم رغبة ملحة داخلية فقام وأخرج بعض ثيابها وخاصة الداخلية وقام باستعراضها وأعجب جداً من ذوقها في ملابسها الداخلية خاصة التي لم ترتديها والتي يبدو عليها أنها من الخارج وكانت على ما يبدو تستبقها لحين زواجها مثل كل البنات وقام حسن بالتلصص عليها فوجدها تشف أكثر مما تخبئ وتترك الفرصة للناظر من جسدها بالظهور، فقام بشم ملابسها ووجد رائحة استطاع أنفه أن يميزها جيداً من بين العطر الذي تستعمله ومسحوق الغسيل، كانت تلك الرائحة مميزة، رائحة روحها، أغلق عينيه فأصبح لديه القدرة على لمس روحها فاحتضنها (وقفت هالة أمامه بلا غطاء الرأس وعلى شفثيها ابتسامة طفولية، فبدت خفيفة ورشيقة مثل أليس في بلاد العجائب ونظر حسن إليها نظرة غيبة مماثلة لنظرة بني بني، اقترب حسن منها وقال هل أنت علمانية؟ نظرت إليه باستغراب كبير لكن لم ترد فأكمل..

هل تنتمين إلى هؤلاء اللاتي كن يتحدين المجتمع ويصورن أنفسهن عاريات ثم يقمن بتوزيعها لنشر الرذيلة في المجتمع؟

لم تجب هالة ونظرت إليه بعمق أكثر فقال:

كن ينشرها لمقاومة سلطة مولانا والاعتراض على حكم الإسلام.

نظرت إليه هالة غاضبة وقالت من أنت؟

أصابته حسن دهشة من هذا السؤال وتألّم فكيف لم تعرفه حبيبته؟ جلس على صخرة بيضاء نبتت عليها طحالب خضراء زلقة ويجرى من تحتها ماء الجدول، ينظر للماء المار من تحته وسرعان ما رأى انعكاس صورته على الماء، لكن لم يعرفها، فالتفت إلى صاحب الصورة لكن لم يجد أحدًا غيره فوق الصخرة.

استيقظ حسن ليجد ساعة الحائط تشير للسابعة صباحًا فأصابه بعض الذعر لقضائه كل هذا الوقت في النوم وأن ذلك ما لم يخطط له على الرغم من قضائه مدة طويلة في النوم إلا أنه شعر بإرهاق وألم نفسي، ربما كان ذلك لانعكاس هذا الحلم عليه وكان في حلقه بعض الغصة لكن لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي للاستغراق في حالته، فقام بترتيب الفوضى التي أوجدها في الشقة وقام بإرجاعها كما كانت، ثم وضع صورته داخل مذكراتها وخرج حسن من شقتها ولم يتخذ أي نوع من الحيلة بل تحرك بحرية تامة وكأنه مالك تلك الشقة ونزل إلى الجراج للبحث عن سيارته فلم يجدها، وبعد بعض التفكير أدرك أن سيارته أمام بيت الدكتور عبد الرحمن لأنها بالتأكيد ذهبت إليه بالسيارة، وبالطبع لن تعود بها لأنها كانت قد ماتت.

ذهب إلى سيارته وقام بوضع مذكراتها داخل حقيبة جلد صغيرة لأنه لم يستطع رغم شوقه إلى معرفة هالة إلا أن النوم قد غلبه، وعلى كل حال ما دامت قد ماتت فإنه سيحتفظ بها إلى الأبد، هذا من حقي.

انطلق بسيارته وكان مشتاقًا إلى قراءة ما خطت يداها، إلا أنه الآن كان عليه أن ينجز مهمته وإن كان محظوظًا فسيحظى بذلك الخاتم وإن لم يكن فلا يهم، لأن الأهم هو معرفة سر هذا المبنى، لذا عليه الذهاب إلى المعلم؛ سيادة اللواء (عبد الكريم قاسم)، لا يتذكر حسن العنوان الذي أعطاه سيادة اللواء إليه لأن مولانا قبل رحيله قد أخفاه في تلافيف مخه وأنه لن يتذكره إلا عند الحاجة الحقيقية إليه، وكان مولانا يعلم ما سوف يتعرض له حسن من استجابات في شعبة أمن المرشد وربما يضعوه على جهاز كشف الكذب أو يعطوه مصل الحقيقة عندئذ لن يستطيع حسن أن يخفي ما أخبره به سيادة اللواء، لذلك بطريقة لا يعلمها إلا هذا اللواء، أعطى حسن المعلومة وأعطاه بعض التعليقات التي قام حسن بتنفيذها، عندئذ لم يعد حسن يتذكر أي شيء

عن العنوان وكأن سيادة اللواء قام بحقق تلك المعلومة في مخه فلم يستطع أمن المرشد الحصول عليها ولم يستطع حسن أن يتذكرها، كان قد وصل إلى أول الشارع الموجود به فيلا الدكتور عبد الرحمن فترجل من السيارة حتى يتبين إن كان هناك مراقبة موجودة على المكان من أمن المرشد، وجد الشارع هادئاً ولم يكن أمام الفيلا غير حارسين، دخل عليهما وأخرج الكارنيه الخاص به، فأدوا التحية العسكرية، التفت حسن إلى السيارة المهشمة، نظر إلى الرقم الخاص بها فوجده نفس الرقم الذي لديه فسأل العسكري ..

- هل قام أحد بفحصها؟

- معرفش يا فندم.

توجه حسن إلى السيارة، كانت السيارة بلا زجاج نتيجة التفجير ومع اقتراب حسن أكثر من السيارة بدأت حالة من خيبة الأمل تنتابه نتيجة شكوك تأكد منها مع فتحه باب سيارتها، فقد كانت نظيفة تماماً، عندئذ أدرك أن أمن المرشد قد حصل على كل شيء في السيارة وعلى ما يبدو أنهم استخدموا أجهزة للكشف عن الخاتم وعندما لم يجدوه أخذوا كل محتويات السيارة حتى يزيدوا من مساحة البحث لكن ظل هناك أمل، لأن أخذهم الزجاج المتكسر ومحتويات السيارة للبحث فيها وكل هذا مؤشر يشير إلى عدم حصولهم عليه، حتى لحظة أخذهم محتويات السيارة وربما لم يجدوه وما زال موجوداً في السيارة.

عندئذ فتح باب السيارة، وضع حسن كل خبراته في البحث عن الخاتم وبحث في كل مكان من الممكن أن يتواجد به خاتم صغير داخل سيارة وكانت السيارة رغم قيام أمن المرشد بتمشيطها ونقل جميع محتوياتها إلا أنها بدت كمغارة علي بابا، تخفي أكثر مما تعلن، وجد حسن أشياء كثيرة لم تصل إليها يد أحد مثل مخلفات الفئران وملاعق بلاستيكية، يبدو أن الفئران كانت تخفيها داخل تلك السيارة، بحث حسن بدقه كبيرة لكنه لم يجد الخاتم وأيقن حسن بخبرته أن ذلك الخاتم ربما يكون مع الأجزاء الزجاجية أو احتمال بعيد أن يكون ذلك الفأر قام بنقل الخاتم إلى مكان ما ربما يكون قريباً من السيارة لذلك قام بالبحث أسفل السيارة لكن لم ينتج ذلك البحث أي نتيجة

خرج من تحت السيارة، أضاف حسن احتمالاً ثالثاً مع زوال أمله في العثور على الخاتم، ربما لم يكن هناك خاتم من الأصل، وقف بجانب السيارة وقام بتنظيف ثيابه لكن سرعان ما تراجع عن ذلك الاحتمال لأن طريقة البحث تلك تؤكد أنهم يبحثون عن ذلك الخاتم، أسند حسن زراعته على شنطة تلك السيارة الهاتش باك فوق حز الزجاج المتكسر وقام بمسح حذائه تأهباً للرحيل ومع اهتزازة يديه شعر بوخز بسيط من بعض شظايا الزجاج ولزوجة السليكون وكان حسن يكره تلك الأشياء اللزجة فاعتدل حسن ورفع يده من على تلك السيارة، فانزاحت شظية من تحت يده وسقطت كاشفة عن استدارة قطعة زجاج دائرية ظن حسن أنها خاتم ولما اقترب كي يراها كانت بالفعل هي الخاتم فمد يده بسرعة كي يلتقطه وبالفعل استطاع استخراجها من السليكون اللزج، وكان على حسن الانصراف بأقصى سرعة ممكنة والخروج من هذا المكان.

دخل حسن القطار المتجه إلى صعيد مصر بعدما تأكد جيدًا من عدم وجود أي مراقبة عليه، أخفى حسن سيارته بعدما غير لوحاتها المعدنية وكانت طريقة حسن في الإخفاء هي الظهور الساطع فترك السيارة بجانب قسم مصر القديمة.

وذهب حاملًا شنطته الصغيرة التي توجد بها مذكرات هالة، جلس حسن بجانب الشباك ينتظر بفارغ الصبر قيام القطار لأن حركة القطار تعني له الرحيل عن منطقة الخطورة، لأنه يحمل في جيبه مامات شخصان من أجله وربما يكون هذا الخاتم له علاقة بمقتل مولانا محمد عباس أيضًا، أي سر يحمله هذا الخاتم يكلف هؤلاء الناس حياتهم؟ أراد أن يخرج من جيبه كي يتأمله لكن لاحتياطات أمنية يعرف أن إخراجه من مكانه سيشكل خطورة شديدة على حياته وعلى كشفه للغز. ثانيًا معرفته بطول الطريق وخاصة مع معلوماته عن قطارات مصر المتهالكة، لأن العالم لم يعد ينتج تلك القطارات بعد الثورة الصناعية الثالثة، ثورة الموصلات الفائقة لذلك لا يوجد أي قطع غيار ولولا فهلوة المصريين لتوقفت السكة الحديد منذ فترة لكن الله سلم، كان حسن مؤهلًا نفسيًا جيدًا لطول الطريق وبطء القطار وربما أعطاله.

دوى نفير القطار في محطة مصر معلنًا الرحيل وعلى الرغم من كونه القطار الوحيد المسافر يوميًا إلى الصعيد إلا أن عدد المسافرين في الدرجة الأولى كان قليلًا فجلس حسن مرتاحًا في مقعده، ولم يشاركه فيه أحد فوضع الشنطة من على كتفه ثم أسند رأسه على المقعد ورغم شوقه لقراءة مذكرات هالة إلا أنه ظل على حالته تلك غير قادر على الإتيان بأي فعل أو إدراك الزمن حتى جاوز القطار محافظة الجيزة فعدل من وضعه ووضع الشنطة بينه وبين شباك القطار ثم وضع يديه الاثنين على الشباك ثم وضع رأسه عليهما ليتابع الطريق وكان هذا أقصى ما يمكنه فعله.

مع حركة القطار بمحاذاة النيل لاطفت ريق رقيقة وجهه حسن فأسلب جفنيه مستسلمًا للنعاس وترك عقله يعلق في المنطقة بين النوم والاستيقاظ تلك المنطقة الهادئة التي تمد الروح بما تحتاج لمقاومة الإجهاد والتعب مما أعطى وجهه الهدوء المطلوب، فبدأ بشوشًا جميلًا، كان وجهه حسن ذا جبهة عريضة منفرج الحاجبين وكان لسمرة عينيه بعض السحر مع لونه الخمرى المشرب بالحمرة، مما أعطاه مظهرًا قويًا مهيبًا وجذابًا جدًا وكانت تلك الجاذبية مثار حسد بعض الذكور وخاصة عندما يتابعون تلك العيون المتلصصة إليه من تحت النقاب وهذا قد منح حسن القدرة على إقامة علاقات جنسية متعددة، وكان لحسن طابع في علاقاته الجنسية، فعل غريب هو معاشرة المرأة الواحدة مرة واحدة، ورغم إلحاح بعض النساء اللاتي عاشرن عليه بإعادة الكرة مرة أخرى، إلا أنه لم يكن يستجيب لهن مما كان يسبب بعض الألم النفسي لكونهن غير ممتعات، إلا أن حسن كان يحاول أن يقلل من أحزانهم ويدعي أنه هو الذي يحمل المشكلة مخفيًا مشكلة حقيقية، إنه يبحث عن روح أنثى لا يجدها فيهم، فضلًا عن أن ممارسة الجنس الحرام كان يسبب له مشكلة نفسية كبيرة سرعان ما يتغلب عليها تحت ضغط حاجة الجسم الملحة إلى الجنس، ورغم القيود الكثيرة على الجنس والعقوبات البدنية والنفسية التي يتعرض لها مرتكب ذلك الذنب، إلا أنه كان يجد ضالته بمنتهى السهولة.

لكن سرعان ما تغير وجهه من الهدوء والدعة إلى ملامح الاستغراب فهو في حقيقة الأمر لا يعرف أين ذهب سيادة اللواء ولا يتذكر غير شيء واحد أنه أخبره أنه ذاهب للصعيد وتلك المعلومة تركها سيادة اللواء.

دون إخفاء، لا يدرى حسن ما الهدف، هل هي مفتاح لاسترجاع المعلومة من رأسه أم أنها رسالة أراد إيصالها إلى أمن المرشد فتركها لهم ليتعرفوا على مكانه. صعيد مصر أرض مينا موحد القطرين من صعيد مصر دومًا يخرج نور ينير الأرض بداية النهر وبداية الحضارة من أراد أن يبدأ عهدًا جديدًا فليبدأ من صعيد مصر لا يعرف حسن ماذا يقصد سيادة اللواء بتلك الكلمات ولا يعرف أين يذهب أو إلى أي مكان يتجه، لكن يعرف شيئًا واحدًا أنه يثق في سيادة اللواء، عندما زرع تلك المعلومات في تلافيف عقله أخبره أنه لن يستطيع الوصول إليها إلا عندما يحتاجها بصدق وقال حسن الآن

أنا أفعل الصدق وأثق أنني سأحصل عليها ما دمت أخبرتني أنت بذلك سيادة اللواء، فعادت إلى تعابير وجهه تلك الوداعة والصفاء وقبل أن يدخل في مرحلة النوم ويترك تلك الحالة اللذيذة وخاصة مع حصول العقل على بعض القوة ومغادرته للخمول عاد إلى سؤال هالة له، من أنت؟

فتح حسن عينيه ثم فركهما ليتخلص من آخر خط موصول بينه وبين النوم ثم نظر إلى النهر مستنكراً سرعة القطار البطيئة جداً فقام من مقعده متمطعاً وشعر بحاجته إلى الذهاب للحمام فحمل الحقيبة الصغيرة وتوجه بها إلى الحمام فلاحظ بعض القاذورات الموجودة في الحمام فتجنبها لكن لم يستطع أن يتحمل رائحة البول المتصاعدة من الحمام، فقضى حاجته على عجل وخرج من الحمام مسرعاً وجلس على كرسيه وملأ رثتيه بقدر اتساعهما من هواء النهر، هذا العطر الصافي، فتح حسن زجاجة الماء التي كان قد ابتاعها من المحطة ثم شرب، أعطت جرعة الماء عقله بعض الهدوء مما منحه القدرة على تكرار سؤال هالة مرة أخرى

- أنا مين؟

- أنا ليه معرفتش نفسي في الحلم؟

تغيرت تعبيرات وجه حسن من إحساس بالخيرة إلى إحساس بالألم.

- أنا الورع التقى أم ذلك العاصي زير النساء؟ أنا سيد أم عبد؟ إذا كنت سيد طيب ليه بخاف أفكر في كلام العلمانيين وأقفل على عقلي بسرعة.

- ملحد ولا مؤمن؟ طيب ليه بتكلم زيمهم ساعات والشيخ وأمثاله بيأثروا فيا بسرعة؟

- هل حقيقي حبيت هالة؟ ولا دي رغبة في شخص مات وعقلي زيف لي الواقع عشان استمر في القضية؟

- هو فيه حب يهبط على الإنسان بالقوة دي، بعض العلمانيين قالوا لي إن الحب هو شعور بالحاجة، هل الكلام دا حقيقي؟

طيب روحها اللي بلمسها دي زيف؟

هل أنا ذلك الشيخ حاد الذكاء رصين العقل؟ أم أنا ذلك الإنسان غير القادر على التفرقة بين الأحياء والأموات؟ بل وإجراء أحاديث معهم وتذكر ذلك الهيكل الذي يكن له كل حب واحترام،

يطلقون عليّ في العمل غريب الأطوار، الآن فهمتكم فحياتي أحجية كبيرة وبها أعاجيب كثيرة وغير منطقية، لماذا خصني الله بذلك؟

أتحدث الفصحى كما علمني شيخنا، أجتهد أن أتحدث الفصحى وأجد نفسي في منتصف الحديث أتحدث العامية.

كنت أشهر من يحقق مع العلمانيين مع إني كنت أخاف منهم وكنت أداري خوفاً من كلماتهم بقدرتي الفائقة في الإبداع في التعذيب.

شبك حسن يديه على الشباك ثم وضع ذقنه مرة أخرى على زراعيه وراح في نوم عميق لم يستطع مقاومته.

ورغم عمق لحظة النوم وتأثيرها على عقله وكأنه سقط في بئر سحيقة لكن روح حسن حاولت الخروج متشبثة بأفرع شجرة الصنوبر العتيقة الممتدة مع امتداد البئر بلا نهاية بعد حصوله على المفتاح ومع اقتراب حسن من فوهة البئر أصبح الصعود قفزاً وسرعان ما استيقظ حسن فرحاً لقد استطاع الحصول على عنوان مولانا.

- هو العنوان ذا حقيقي ولا بيتهياي؟

كان شعوراً عارماً بالسعادة لم يقلل منه إلا تساءل "لكن أنا أعيش في عالم حقيقي"، ووقع في حيرة عدم القدرة على التمييز بين العالم الحقيقي وعالم الخيال، فوضع يديه على وجهه، حاول أن يوقف عقله عن التفكير ولم يكن في حاجة إلى أن يفكر أو يستوعب الموقف لكن كان في حاجة إلى أن يشعر أنه يعيش في العلم الحقيقي.

قام حسن من على كرسيه ثم جلس، هل يسأل من حوله هل نحن في العالم الحقيقي أم أنه ما زال يعيش في عالم من نسج عقله.

حاول أن يغلق عينيه لكنه لم يستطع ثم وضع يديه على جفنيه وقام بإغلاقهما لكنه استطاع أن يرى صفتي النهر ففتح عينيه وقام من على كرسيه ثم جلس مرة أخرى..

أستاذ أستاذ... كان صوت أحد الركاب مع شعور بهزة رقيقة أحدثتها يد هذا الرجل ففتح حسن عينيه وتحسس نفسه ووضع يده على الشنطة فوجدها..

- تذاكر

- ايه؟

- تذاكر، حضرتك كنت نائم.

- آسف معلش أنا مقطعتش تذكرة، تمن التذكرة كام؟

- خمسين درهم.

- أخرج حسن النقود وأعطاها للمحصل.

بعد رحيل المحصل أخذ حسن شهيقا وقال الحمد لله.

ارتشف بعض الماء من زجاجته وحاول أن يتذكر العنوان الذي وجده في الحلم، وتذكر حسن العنوان بمنتهى الوضوح ولم يكن في حاجة إلى كتابته، لم يحاول العودة إلى تلك الأسئلة التي طرحها على نفسه فقد شعر بألم شديد لكنه آمن أن ذلك العنوان هو العنوان الذي أعطاه له معلمه والذي وضعه داخل تلافيف مخه، واخبره أنه لن يحصل عليه إلا إذا احتاجه فعليا، وبالفعل كل فعل أتى به حسن يعني أنه يريد أن يعرف بصدق لذلك، استجاب له عقله كما وعده معلمه، شعر حسن بالطمأنينة لأنه سيحصل على إجابة سؤاله، لان من يعرف الإجابة إن لم يعرف معلمه، وسيحصل على الأمن في ضيافة المعلم حتى تهدأ عنه العيون ثم يعود بمنتهى السرعة بعد حصوله على الأجوبة التي تمكنه من تفكيك تلك القضية.

شعر حسن بالحاجة إلى النوم لكنه خشي أن يقع في تلك المغارة من الأحلام التي تخلط الواقع بالخيال، تلك المغارة التي لم يكن باستطاعته الخروج منها إلا بسلطان فتسببت بألم لم يستطع حسن احتماله ولم يستطع إجابة داعي النوم، عندئذٍ امتدت يده إلى شنتطته وبعد أن فتحها أخرج حسن أجنده حبيته

التي كتبت فيها مذكراتها وكانت ذات لون بني مائل للحمرة ذات خطوط ذهبية لكن لم تكن أنيقة بل كانت أجنده طبيعية ترجع أهميتها على ما تحتويه من معلومات عن حياة حبيته..

- هل إنا شخص طبيعي؟

- هل أحب تلك الفتاه أم تلك نزوة لأني أعلم أنها ميتة، فافترض عقلي أنها من كنت أبحث عنها.

إذن لماذا أبحث عنها بكل هذا الجهد، هل هي كانت مبررًا داخليًا لاستمرارى في العمل الذي أحبه. إذن لماذا كان هذا الهجوم العاطفى على قلبى؟ فرك جبهته ولسان حاله يقول: إنا قربت أشك أن أنا مش موجود، أو موجود فى حلم يحتوى على كل تلك العجائب.

ولم يجد حسن أى جهد نفسى يعطيه القدرة على القراءة فقام بتصفح الأجنده وأدرك بعد أن انتهى من تصفحها أنها ليست مذكرة بالمعنى الاصطلاحي بل هي مقتطفات على ما يبدو عن حياتها، كانت على ما يبدو شيقة لأن حسن رغم ملله إلا أن بعض المواقف قد استوقفته لقراءتها بل دفعته إلى القراءة فعاد إلى البداية.

الصفحة الأولى

في يوم ١٥ - ١٠ - ٢٠٣٧

قد وُلدتُ لم أرَ أبي، فقد تم إعدامه قبل مولدي بخمسة أشهر..

بتلك الكلمات المقتضبة استهلكت مذكرتها.

عند بلوغي ثلاث سنوات أدركت الاسم الذي كانت تناديني به أمي «المتمردة»

وعلى ما يبدو أنها كانت صفة أكثر من كونها اسم لأنها كانت تخبرني عن نفسي وهي فرحة مسرورة.

[illegible]

لم أكن أستطيع أن أفسر سعادتها بتمردني في ذلك الوقت..

في الخامسة عشر من عمري دخلت علي أمي وهي تستخرج كتاباً من مخبأ سرياً في غرفة نومها لكارل بوبر، وكانت تحتفظ في هذا المخبأ بكتب لهذا الفيلسوف ولفيلسوف آخر اسمه برتراند راسل، وكتاب وحيد في الاقتصاد اسمه رأس مال بكييتي، وعلى ما يبدو أنها كانت تكن لهم تقديرًا شديدًا لأنها تحملت الإهانة والتعذيب ولم ترشد عن مكان تلك الكتب ولم أدر لماذا لم أرشد عنهم أنا عندما أخبرني الضابط أنه باستطاعتي إنقاذ أمي إن أخبرتهم عن مكان تلك الكتب، هل تقدير أمي وخوفها من أن تظالمهم يد الحرق والتخريب لتلك الكتب جعلني دون أن أدري أقدرها؟

وعندما دخلتُ عليها كان الشحوب والخوف بادياً على وجهي فقامت إلي وقالت مالك فيه إيه؟

أنا بموت يا أمي.

ليه بتقولي كذا؟

أنا بتزف بألم شديد.

ونظرت أمي إلى مكان الدم وابتسمت، وقالت لا تخافي إن الورد يوشك أن يفتّح .

ما زلت أذكر ابتسامتها.

كان يومي الأول في الصف الأول الثانوي، وبالطبع كانت مدرستنا مثل كل المدارس منفصلة، أي هناك مدارس للفتيات فقط وأخرى للذكور فقط لكن الغريب أن المدرسة لا يوجد بها أي مدرس ذكر، وعندما سألت أمي قالت إن المدارس في المراحل الثانوية لا يوجد بها مدرسين، ومدارس الذكور لا يوجد بها مدرسات

هل يحدث ذلك في الجامعة؟

بعض الكليات..

هذا الاختلاط محرم؟

حرّموه.

لماذا لا يكون ذلك التحريم في كل الكليات؟

أتذكر وجه أمي الذي كان يحمل الكثير من الكلمات لكنها لم تتكلم.

أصبحت أرى أُمِّي كثيرًا فسألتها عن السبب.

فقالت: لقد تم فصلي من الجامعة.

فسألتها: هل هذا له علاقة بأبي؟

أكدت لي بحزن بالغ أن سبب ذلك لا يعود إلى أُمِّي، لكن الأمر يعود إلى أن الجامعات في مصر ما عادت تدرس الفلسفة ولذلك تم صرفها عن العمل

ولم يمضِ كثير من الوقت حتى تم اعتقالها وأصبحت رؤيتي لها نادرة، فقد كانت تقضي في المعتقل أكثر مما تقضيه في بيتنا.

عوضتني مُدرّسة لي كانت تلميذة من تلامذة والدتي وكانت كما تقول لي إنها مدرسة الفلسفة التي تدرس لنا، وأخبرتني أنها مجبرة على أن تقول إن الفلسفة هي الحرام وليس عليها أن تبرز الوجه الآخر من الفلسفة.

كانت تنتقل إلى بيتنا لتعيش معي مع غياب والدتي ثم انتقلت بشكل كامل للعيش معنا حتى مع وجود والدتي غير مبالية بما قد يصيبها لقربها منا وخاصة أنها لم تتزوج.

وقد لاحظت نبوغي فقالت لي أن أي سؤال قد يطرأ على ذهنك من الممكن أن نناقشه سوياً وكانت الكلمات هذه فاتحة لإزالة الحواجز بين المدرس وتلميذه، لكن أذكر يوماً وقد دخلت عليها بسؤال وعلى ما يبدو كان مفاجئاً لبعض الشيء.

ما الذكر؟

وما الحاجة إليه؟

لكن لم تدم دهشتها طويلاً لأنها تعلم أنني لم أر أبي ولا أرى ذلك النوع البشري إلا في الشارع..

راحت تشرح الفروق التشريحية بين الذكر والأنثى والنفسية، ثم انتهت بكلمة حملت بعض المرارة وقالت إنه كائن أناني وغبي.

لكن لم يعد ذلك رأيي بعد رؤية كبير السنافر لأني أعتقد أنه كائن أحق..

قامت مُدرّستي وهي تغغم، لكن على ما يبدو أنها لم تنتبه إلى أن صوتها كان واضحاً فسمعتها تقول نفسي أصرخ من الظلم الي إحنا فيه مش ذنبنا أن إحنا اتولدنا إناث.

التحقّت بالجامعة، حصلتُ على مجموع مكنتني من دخول كلية الطبّ، استخدمت موهبتي في الحفظ، وغضبت أمي مني كثيرًا على عكس كل الأمهات الذين يبتهجون بحصول بناتهم على مجموع كبير، وكانت تقول إن أكثر طالب حصولاً على درجات في نظام تعليم قائم على الحفظ لديه مشكلة كبيرة في عقله لأنه ربما تخلّى عن ملكة النقد لحساب ملكة الحفظ فأصبح كالآلة تنفّذ ما يُملى عليها من تعليمات.

قال حسن ممتعضاً: غير صحيح..

ثم أكمل القراءة

اعتقدت أنني لم استوعب ما ربّنتي عليه لكنني أردت أن أكون مثل كل الناس..

ابتسم حسن فرحاً بحبيته.

كنتُ فرحةً منطلقة منفتحة على الحياة مثل كل البنات في مثل عمري

لكنني لاحظت إحجام الفتيات عن مصادقتي وتأكدتُ من ذلك عندما حاولت الحديث مع ابنة أحد قيادات مجلس شورى العلماء، فقالت بصراحة خالصة: نحن لا نتحدث إلى أمثالكم..

تذكرتُ أبى الذي أعدموه، وأمّي التي تعيش في المعتقل أكثر مما تعيش معنا خوفاً من نشر أفكارها أو أفكار أبي وكانت أمي متهمة دائماً بزعامة تنظيم ليبرالي، كانت أمي امرأة شديدة لا تخشى أحداً أو معتقلاً، لم أعرف من أين حصلتُ على كل تلك الصلابة، لكنها تقول إنها جيل ما بعد ثورة عظيمة وأخبرتني أنها ستحدثني عنها يوماً لأنها ثورة رغم القضاء عليها وعلى من قاموا بها إلا أنها تركت أثراً كبيراً امتد إلى جيل ما بعد تلك الثورة أي من لم يشهد تلك الثورة.

قام حسن بتصفح بعض الصفحات الفارغة حتى وصل إلى عنوان مكتوب
بخط كوفي جميل في منتصف صفحة الرسائل..

قام حسن بتصفحها بشغف ليعرف مَنْ التي كانت تراسل، وهل لديها
حبيب..

كانت الصفحة الثانية تحمل تلك الكلمات البسيطة.

تركت لي أمي رسائل وبعثت إليها رسائل، هناك ما قرأته وهناك ما هو
مكتوب ولم تقرأه لأنها ماتت لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن الكتابة إليها
كي أستلهم بعض قوتها..

شعر حسن بذلك الضعف الإنساني لحبيته، فتمنى لو كان قد قابلها
وأحاطها بذراعيه..

هل عانيت قبل موتك كل تلك المعاناة، وتذكر عندما دخل شقتها أن أول
ما لفت انتباهه هو ذلك الترتيب الشديد، كان له انعكاسات سلبية لم يستطع
عقله تفسيرها لكن شعر أن ذلك التنظيم الشديد ربما يخفي خلفه شيئاً ما.

استطعتُ أن أقنع تلك الضابط على السجن أن تحمل إليك الرسالة، ربما تكون آخر ما أكتب إليك لأنني أشعر بدنو الأجل وانتهاء العمر.

لقد بذرت فيك صغيرتي بعض قيم الحرية ودربت عقلك على التفكير النقدي وأعتقد أن ذلك إرثي الذي تركته لك فلا تضيعيه.

لأنك سترين أمورًا لن يراها غيرك، قد لا تفهمين رسالتي لكن سيأتي وقت ستبصرين فيه، عندئذ سيروعك هذا العالم غير العادل..

يعتقد الحكام في بلداننا أننا ضدهم، أبدًا يا بنيتي لأنهم مثلنا عبيد، لقد رضوا أن يكونوا حلقة الوصل بيننا وبين السادة الذين يحكمون العالم، يقيمون دولًا وينهون دولًا، يقيمون حروبًا ويطفئون أخرى، إنهم آلهة رأس المال لا أعرفهم أو أعرف أين يقيمون بنيتي، لكن أعرف أدواتهم، الساسة ورجال الدين في كل الأديان وتلك الجيوش التي يبیدون بها البشر، ولديهم علماء الاجتماع والفلسفة يستخدمونهم حتى يصنعوا لهم أطواق العبودية التي لا تدرکها أعين العبيد وعدوهم، بنيتي، هو الحرية والعقل النقدي، لذلك حربهم الدائمة على الحرية والأحرار. شعر حسن أنه قد سمع ذلك الكلام من قبل وأنه ليس غريبًا عن أذنه، لكن شعر أن أم هالة دكتورة سهير كانت مهرطقة، فحمد الله أن تلك المذكرات لم تقع في يد أحد غيره، وابتسم وقال: حتى لو وقعت فما الفائدة، فهل يضر الشاة سلعها بعد ذبحها؟ لذلك لم يهتم بها رجال أمن المرشد الذين عثروا عليها قبله.

وجد حسن الكثير من رسائل والدتها إليها فأرجأ قراءتها حال ما يكون ذهنه بحالة أفضل، لأن ما قالته مثل وسوسة الشيطان، لها منطق لا تستطيع له دفعًا فخاف من أن يسترسل فيه، لكن وجد في نفسه شوقًا جارفًا إلى رؤية ما خطت يداها وهل ردت على أمها، لأنها في رسائلها إلى أمها ربما سترد بما يعبر عن أفكارها، شعر بأنها فرصته كي يعرفها أكثر، ولم يستغرق كثيرًا في بحثه، وسرعان ما وجد رسالة من هالة إلى أمها بعنوان "إلى أمي".

لماذا يا أمي؟

علمتني الحرية في مجتمع لا يعرف إلا القهر والكبت وقلت أنني من حقي أن أختار حتى أكون إنساناً، فإن الحرية مثل العلم لا يجب أن تجرم، لكن لأنك حرّ يجب أن تتحمل تبعات اختيارك، فالعلم به نستطيع أن نتقدم أو نستخدمه في فناء الإنسان، لكن أي ديكتاتور لن يقبل الحرية، لكن من الممكن أن يقبل العلم رغم أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر، لكنك علمتني أن الحرية هي أصل الأشياء وهي عدو كل جبار لأن سلطانه قائم على الخوف.

لكن يا أمي أصارحك أنك قد أذنبت في حقي، لماذا لم تتركيني أسير مثل السائرين، أنا لست مثلك يا أمي، أنت بنت ثورة، كنت صلبة، لكني يا أمي أنا لست مثلك، ظلمتني ولم تتركيني لا أعرف ما أنا فيه من قهر، ربما لم يكن عقلي كان قد استطاع إدراكه، لكن ألمي شديد لأنني عرفت.

امتلاً قلب حسن بحبيته لأنها لم تخرج عن الإطار، وأنها مثل كل البنات. شعر بهجوم الشوق على قلبه، فراح يتصفح رسالة أخرى، يمضي بخطى المحب المطمئن.

لماذا يا أمي كل هذا التحيز الذكوري في مجتمعا؟ ألسنا يا أمي متساويين؟

ألم يكن كلانا حيواناً منوياً لا فرق بيننا؟، فكلانا عندما انطلق من ذكر الرجل إلى رحم الأنثى كانت له نفس الفرصة في الحصول على الحياة وقد سبق الحيوان الأنثوي ذلك الذكر فيعطي صورة الحياة الأنثى وفي حالة أخرى يعطي النمط الآخر، وقد نصل كلانا في ذات الوقت إلى نفس البويضة فنصير توأماً متساوٍ الحقوق تماماً في رحم الأنثى، فكيف ساوت بيننا الطبيعة في الحق في الحياة، وفصلت بيننا ثقافات متحيزة وبشدة للذكر، فداثها يا أمي الرجل فاعل والأنثى هي المفعول.

في لغتنا هو المانح وأنا المستقبل، أليست روح الأنثى بداخلي مساوية لروح الرجل بل أعلى، انظري يا أمي ألا يضع البذور فقط في أرضي وأنا أمنحها الحياة، إذن أليس لي الحق أن أصرخ إذا أرادوا أن يساوا بيننا حتى؟، لأن المساواة بيننا ظلم، لأن من فرجي تولد الحياة ومن ثديي ينزل المطر.. آه يا أمي الأولى، لماذا فعلت ذلك بنا، لماذا يا أمي حقروك إلى تلك الدرجة وأنتِ قد رضيعتِ، كيف يا أمي استدرجوكِ وغيروا وعيك فتحولت من ربة معبودة كان الذكر يقدم لها جزءاً من جسده قرباناً عرفاناً بفضلها، إلى عبدة مهانة، والأغرب أنك تحبين وتزيدين من إهانتته، فبدلاً من أن تقاوميه، كنت له عوناً فيما أراد، حقروك فزدت من تحقيرهم، ألبسوكِ غطاء الرأس فزدت وغطيت أنتِ الوجه، قدموكِ قرباناً على مواعدهم فلم تعترضني، تزوج عليكِ واحدة واثنتان وثلاث وله ما شاء وأنتِ مستكينة تحت إمرة الذكر المسيطر.

لم يستطع حسن أن يكمل ما كتبت وتحولت تعابير وجهه من البشر إلى الغيوم فنظر إلى سقف القطار راكناً رأسه على مسند المقعد، وقال لماذا أرى أن لغتهم متشابهة ويثير حديثهم في نفسي كل هذا القدر من الخوف والاشمئزاز، لكن لا تستطيع أذني الابتعاد عن أفواههم حين تتحدث، ولا تستطيع عيني الابتعاد عما يكتبون، حتى وإن حاولت!

هناك شيء ما يدفعني إلى المتابعة..

ثم أخرج رأسه من القطار لينظر في الفراغ، ولينعش وجهه بنسيمات الغروب المحملة بعبق النهر المحمول على بخاره الندي ورغم ببطء القطار، إلا أن حرارة الجو جعلت الهواء الصاعد يحمل بين طياته بخار الماء فجعل الجو لطيفاً ورغم أنه كان محملاً بالرطوبة إلا أنه كان هواءً نقيًا خاليًا من الملوثات، ليس مثل هواء القاهرة، فملاً حسن رثيته بالهواء ثم زفر نخرجاً كل متاعبه.

ولأنها كانت أول مرة يستقل فيها القطار متجهاً إلى الصعيد، وأول مرة يتحرك بمحاذاة النهر مع القطار، فكانت فرصته ليرى صعيد مصر، كانت الأحوال عادية، تجمعات سكانية عشوائية مكتظة حول النهر، وبينها مساحات متصحرة كبيرة لا يوجد فيها أي أثر للزراعة، رغم توفر الماء بجانبها، مما يوحى بشيء غير طبيعي، فتذكر بعض التقارير التي كان يرفعها اللواء (عبد الكريم القاسم) عندما كان يتدرب على يديه إلى فضيلة المرشد مباشرة، وكان يغمغم أنها كارثة، لكن لم يتوقع حسن أن تكون بمثل هذا الحجم، كانت التقارير تشير إلى نزوح جماعي لسكان المدن في الصعيد إلى الريف، كانت تلك الكارثة المسببة للنزوح سببها نضوب النفط في العالم، فدعا مولانا دعوة صادقة إلى الناس كي يعودوا إلى طرقنا القديمة في التجارة والزراعة وذكرهم أن الصحابة لم يكن لديهم كهرباء وأنتجوا الحضارة الإسلامية وأن المصريين كانوا يطعمون العالم القديم ولم يكن لديهم آلات زراعية تعتمد على البترول، ولأن أهل الصعيد هم أكثر المصريين التزاماً بمنهاج الصحابة وأنهم لن يتذمروا، فقد بدأ انقطاع البترول عنهم ثم الدلتا ثم الإسكندرية ثم القاهرة حالما ينتهي المخزون لكن كان ذلك منذ زمن بعيد وهو ما فجر غضب سيادة اللواء لأنه قال مثل قول العلمانيين إنه كان يجب التخطيط للأمر لكن سيادة اللواء لم يدرك أن روح مولانا موصولة بالعلي القدير، فما الحل إذن؟

لم يكن غضب سيادة اللواء منطقيًا لأنه يعلم أن مولانا دعا الناس إلى الإيمان بالله ولو آمن الناس يا سيادة اللواء ستتنزل عليهم بركات من السماء ولن نحتاج إلى بترول أو أي شيء، ألم يحدث بعدها يا سيادة اللواء هجوم من الأوبئة مثل الكوليرا والطاعون وأشياء لم نعرفها من قبل وصار

في كل بيت مأتَم؟ ألم ترَ ذلك؟ ألم تعلم بأن أكثر من عشرين مليوناً من المصريين قضوا نحبهم؟ ألم تعلم أن ذلك كان غضب من الله علينا؟ ألم ترَ ما فعله مولانا المرشد؟ لقد دعا للصلاة والصيام لرفع البلاء، ورغم أن أعداد المصريين تناقصت قبل وبعد ذلك بشكل ملحوظ ولكن هناك دولا مثل السودان والصومال وإثيوبيا ودول كثيرة كادت أن تنتهي، لقد غضبت منك سيادة اللواء لكن لم أصارحك، افعل ما شئت لكن لا تقرب من مولانا، إنه حصن الإيمان لقد ظننتك مثل هؤلاء العلماء العلمانيين الذين لم نستطع أن نتخلص منهم جميعاً والذين يظهر منهم روافد جديدة كلما نقول انتهينا منهم يظهر أحد آخر وكأنهم سلسال لا ينتهي، لقد جعل موقفك هذا قلبي في حالة غضب شديد وعندما أوكّل إلى ذلك العالم المستفز الطاعن في السنّ بعد رحيلك كان أول من فتكت به، كان رجل شديد الغرابة كان قد بلغ من العمر أرذله، تعلم في الغرب وادعى أنه عاد إلى مصر قبل اندلاع ثورة كما يقول ثورة يناير، ولم يرجع إلى أوروبا رغم المغريات هناك، حتى جاءت الثورة الإسلامية فأثر الصمت ولم يستطع الهروب لأوروبا فعاش بعيداً عن الأضواء، لذلك لم نعرفه حتى أرسل رسالة إلى مولانا المرشد فقال إن أردت أن تقاوم تلك الأمراض فعليك بالحرية لأنها مداد العلم، رأيت يا سيادة اللواء أن هؤلاء العلمانيين الباحثين عن الحرية الجنسية يريدون أن نبتعد عن الدين حتى نتجنب البلاء، ألا يعرفون أنهم أصل البلاء وأن الله يبتلينا من أجل معاصيهم، كنت أتمنى أن تكون معي وتسمع حواراه معي بعدما أوكّل إليّ وكان مهموراً بخط المرشد تحت إحالته، كنت أتمنى أن ترى خط مولانا، إنه خط نوراني وكأني عندما رأيته رأيت خطأ من نور يصعد من الورقة إلى السماء لعلك لا تصدق لكنني رأيته كان مكتوباً، إنها أقدار الله لكن هذا العلماني شكك في هذا، كنت أتمنى ألا تكون في نفس مركبهم.

أعلم أنك لست منهم سيادة اللواء ولن توافق أبداً على ما يقولون فقد حذرنا أنت كثيراً من أقوالهم، وعلمتنا أن أقوالهم لها سحر ودعوتنا أن نبتعد عنهم فكانت نصيحتك وطاقتي لمولانا نبراس حياتي وسراجي المنير ضدهم لكن أعترف أن هذا الرجل كان مختلفاً.

نظر إلى آلات التعذيب باستهتار كبير، التقليدية وغير التقليدية ثم نظر إلى وقال بصوت قديم قدم الزمن لكنه غير مثقل بالتعب ونظر إلى هازئاً وقال كلمة لم أفهمها حتى يومنا هذا مع إنها واضحة وضوح الشمس:

إن مجالك لا يتعدى ثوبك الذي ترتديه.

ناديت للصول عبد العاطي ويا ليتني ما ناديت، فظهرت أمامه بصورة الضعيف الذي استعان بصديق لكي أستطيع مواجهة هذا الرجل الطاعن في السن، فابتسم ساخراً مني ومن عبد العاطي فشعرت بوخز في نفسي شديد لكنني تغلبت عليها وشعر عبد العاطي بما شعرت به فكان ككلبي الوفي، أراد أن يفتك به إكراماً لصاحبه، لكنني صرفته بعدما هدأته فكان طيعاً لينا ونظرت إلى الرجل.

تقول التقارير إنك مما تبقى من عصر الزندقة.

- أطلق الرجل ضحكة مجلجلة.

- لماذا تضحك؟

- ألا تخشاني وأشرت بحركة بهلوانية إلى الآتي.

- أضحكنتي وكأنا في عصر الإيمان.

- لا أدري كيف اختفيت وأين اختفيت عنا طيلة تلك المدة ربما كان عمرك قد انتهى منذ زمن.

- أنا لم أكن أختبئ لكن من أرشد عني؟

- خطابك.

- خطابي إلى مرشدكم؟

- خطابك إلى أمير المؤمنين مرشد الدولة الإسلامية.

- ما به؟ إن هذا رأيي.

- إن ما خطت يدك هو الكفر.

- هل صارت الحرية كفرًا؟

- إن مولانا المرشد فعل كل شيء من أجل إزاحة البلاء فَمَنْ أَنْتِ حتى تعدل عليه؟

- أنا بعثت إليه بتوصية إن شاء أخذها وإن شاء تركها، فليَم أنا هنا؟

- لأننا اكتشفناك وكما قلت إنك من عصر الكذب.

- عن أي كذب تتحدث؟ لقد كنا باحثين عن الحرية والباحث عن الحرية لا يكذب.

- إن الخائف من الله هو الذي لا يكذب.

- إن الخائف لا يصدق، لذلك أن عصرنا كان كشمعة ما كاد يضيء حتى انطفأ

- إن الله متم نوره.

وقفت مزهواً بنفسي فصرت أجاريه كلاماً بكلام وقوة بقوة لم يعد يرهبنني وتهيات للانقضاء عليه.

- أنتم عصر الكذب والبحث عن الجنس.

- كيف كذبنا ولماذا؟

- ألم تدعوا أننا سرقنا ثورتكم؟

- هذا حقيقي فأين الكذب؟

- الكذب أنه لم يذكر التاريخ أنكم قمتُم بثورة ولم يكن هناك ثورة غير ثورتنا الإسلامية، ولم أسمع أن هناك ثورة إلا منكم، من الطاعنين في العمر أمثالك.

ضحك الرجل مرة أخرى ساخراً لأنكم أيها الكاذبون من كتب التاريخ وكم حلقة من التاريخ لا نذكرها لأن الكاذبين أمثالكم هم من يكتبونه.

اتخذت قراراً أن أطيح به وأبدأ بالاستمتاع بأناته لكن قررت أن أقول شيء قبل أن أبدأ، حتى وإن كان هناك تظاهرات كما تدعي ألم تكن تظاهرات تريدون بها حرية الجنس والشذوذ؟

- ألم تخالط البنات الشباب؟

- ألم ينام النساء مع الرجال الذين لا يعرفونهم في خيمة واحدة؟

هم بالحديث، لكنني لم أهتم، فقد أعددت العدة.

قال بصوتٍ آمر لم أستطع له دفعًا وكان حاسمًا فجلست أمامه كتلميذ أمام أستاذه مستكينًا.

اسمع، كانت هناك ثورة عظيمة سميت ثورة يناير، كنت أبلغ الثلاثين من العمر وقتها، كنت عائد من ألمانيا بعد حصولي على الدكتوراه في الفيزياء النظرية وكنت أنوي ألا أطيل البقاء في مصر لأن الأجواء كانت غير ملائمة.

فرق هائل في التوزيع الطبقي، وأصبحت مصر جزرًا منعزلة رغم التجاور، فالأغنياء يعزلون في منتجعات ومحيطونها بأسوار عالية خوفًا من الفقراء، رغم غناهم كانوا خائفين من الفقراء، والفقراء يخافون من بطش الحاكم، الذي يخاف هو الآخر من زوال ملكه، فدعمه بألة بطش جبارة لكن لم تكن تلك الآلة قادرة أبدًا على قمع المصريين وأظنه قد فهم هذا فاستعان بكم.

- بنا؟؟

نظر نظرة إلى حسن أجبره على الصمت.

- نعم أنتم، استعان بالتيارات الدينية التي ترى الخروج على الحاكم حرامًا وكان عليه أن يترك لهم مساحة كبرى رغم ما كان يشاع وكان عليه أن يطلق نفير الجهل في المجتمع حتى يضمن اندفاع المجتمع في الاتجاه الذي أراد، وأُشيع أنه يعتقلهم حتى يشيع لكل من يريد التحرر أنكم الأحرار الذين يجب اتباعهم وكان على المشايخ أن يقدموا بعض أتباعهم إلى مذبح الحاكم كأضحية وكانت دليل الوفاء والإخلاص، لكن يا سيدي كان هناك دولة تدعى تونس قامت هناك ثورة عفوية جعلت بعض الشباب في مصر يتخلون عن مخاوفهم ويدعون لثورة كانت لها إرهابات لدى الشعب الخائف، جاء الخامس والعشرين من يناير وكنا نمضي في شوارع مختلفة، مسيرات كبيرة تتجه إلى ميدان كان يسمى التحرير والذي تسمونه ميدان الشهيد محمد مرسي، أتدري لقد قتله أحد قادتكم.

فقلت محتدًا إننا لا نخون.

بعد ضحكة تحمل روح السخرية، بل قتله أحدكم حتى تنتهي القضية
المشارة ضده وتأجيج الحمم حتى يتسنى لكم الاستيلاء على الحكم مرة
أخرى لكن دعنا من ذلك.

فقلت في نفسي حسنًا فعل ورغم غيظي من جراته، تركته يكمل.

كنا أول الأمر خائفين نحتمي في أعدادنا ولكن كنا نلتفت إلى الشرطة لنرى
إن كانت ستحدث أي فعل تجاهنا وبالفعل سمعنا صوت قبلة ففرنا فمنا من
سقط أرضًا ودسنه من الفزع لكن في نهاية اليوم وصلنا إلى الميدان واتفق
المتظاهرين على البقاء فيه حتى مجيء يوم الجمعة، لكن الشرطة أتت ليلاً
وفررنا لكن لا أخفيك أن سماء القاهرة رغم ما كانت تحمله من رائحة الغاز
الخانق إلا أنك كنت تشم بوضوح روح الحرية وأتى اليوم الثاني، أذكر جيدًا
أنا وصديق لي قد دخلنا مكانًا مسدود وتبعتنا الشرطة فعلمنا أننا هالكون،
لكن كانت المفاجئة، اصطفت البنات أمامنا عدة صفوف منعت الشرطة من
الوصول إلينا، هل تقول إنهن جئن من أجل الجنس؟

كانت روح الحرية أسمى يا صديقي، عشنا أياما في برد الشتاء، اختفت فيه
أي رغبة إلى الجنس بل كانت لحظات إثبات المساواة وأن لا فارق بين ذكر
وأنثى وأن أعضائنا التناسلية ليست ما نفكر فيه بل كان سمو الآمال.

نحن الذين تجردنا لنطلب لأنفسنا ولغيرنا العيش والحرية والكرامة،
لذلك كانت ثورة إنسانية، رقصنا، مررنا بكل شوارع وسط البلد، رجال
ونساء، لا فارق، كنا ننشر الحرية حتى انتصرنا.

- انتصرتم؟

- نعم، انجلى الطاغوت وخرج الشباب بكل طاقته إلى الشوارع ينظفها
ويرمم أرصفتها ويحمل حدائقها وفي الليل نجلس على المقاهي، أولاد وبنات
تسامر، نمشي في الشوارع، نغني، بلغنا بطموحاتنا عنان السماء كنا نريد أن
نغير ونغير العالم، في تلك الأثناء اتصل بي صديق إيطالي وقال:

- سنتلقون إلى المستقبل بسرعة الضوء فقلت له لماذا؟

- قال انظر إلى طاقة الشباب، إنها هديرٌ لن يوقفه أي سد، تمتيت ذلك.

- أتدري لماذا لم تدوم وتبددت تلك الطاقة؟

- لماذا؟

- لأن في منتصف الثورة التحق بنا في الاعتصام بعدما نادى مناديتهم للنزول من سرقها.

- أتقصداً أيها الخرف؟

- نعم أقصدكم.

- لقد شممت يومها ريحاً قذرة دخلت الميدان وقلت لصديقي أتشم تلك الريح؟

لم أطق هرطقته فنادت عبد العاطي وأهينا حياته ... كان يستحق.

لكن ما آلمني أنه لم يصرخ إلى أن مات فلم يشفي غليلي، رجلٌ محمّل بالأكاذيب. لكن لا أنكر أن بعد وفاة مولانا المرشد، أخذ مولانا المرشد الحالي بنصيحة ذلك الرجل، لا أدري لماذا فعل ذلك؟ لقد كان من أشد المعارضين لتعليم الفتيات، فإذا به يعلمهن ويرسلهن إلى الخارج، ماذا حصل له؟ يبدو أنه خضع لتأثير مولانا الشيخ محمد عباس نائب المرشد.

سحب حسن وجهه إلى داخل القطار فلا مهرب أمامه من الأفكار. أسند رأسه إلى مسند الرأس ثم أغلق عينيه محاولاً الاختباء من الأفكار وعلى ما يبدو أنه قد نجح، واستطاع أن ينجباً منها لوقتٍ قصير أو تقليل التسارع في الانتقال من فكرة إلى أخرى، لكن فكرة تسللت من الظلمة التي أحاط عقله بها، حتى ينعم، ولو للحظات بهذا النوم الهادئ مشككة في مكان مولانا الذي توصل إليه مؤكدة أن ذلك محض خرافة، لكن لم يعلق حسن على ذلك فقالت ربما أعطاك عنواناً مضللاً حتى يخفي تماماً وجهته، ثم من أدراك أنه ما زال حياً؟

راح حسن يردد بصوتٍ مسموع، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

هبت ريح برتقالية مائلة للحمرة، حارة بغیضة، شعرت هالة باختناق شديد، نظرت هالة حولها باحثة عن مكان للاختباء، لكنها لم تجد، كان فراغاً غير ممتد، ترى الحواجز حيطان ملساء ملتفة في شكل دائري حولها، ما تكاد تخرج من دائرة حتى تقع في دائرة أوسع، لكن تلك الجذر لا تراها إنما استتجتها من الريح البرتقالية الحارة التي لا تترك مجالاً للروح كي تتنفس لكن لاحظت مع اقترابها من الجدار أنه يهتز بشكل زائف ويشف ما بعده فيتحول مع اقترابها من صلب إلى ليونة خالصة كانت الدوائر تزداد اتساعاً والريح يزداد هموها.

هل هذه جهنم؟

هل هذا سيكون مصري يوم يبعثون؟

أم أنه مصري منذ اليوم إلى يوم يبعثون؟

حاولت أن تتوقف عن الحركة لكنها استمرت دون إرادة منها ولا تستطيع استخدام قدميها في مقاومة الحركة المفروضة عليها ولا تعرف الاتجاه الذي تتحرك فيه لكنها متأكدة أنها تتحرك في اتجاه جهنم لأن الحرارة تزداد كلما اخترقت داره وتحول الريح من البرتقالي إلى اللون الأحمر القاتم، ومع شعور متزايد من صعوبة التنفس تمت لو تستطيع العودة إلى المكان الذي يوجد به الجسد.

استنكرت هالة تلك الرغبة على نفسها، فكيف لها كل هذا الضعف قبل موتها وبعد موتها، ألا تستطيع أن تتحمل يوماً تبعات الحرية، خافت أن تكون من المناضلات من أجل الحرية مثل أمها في الدنيا، خافت وإن الخوف آفتها

الكبرى، لم تكن تمتلك الشجاعة أن تدافع عما تريد، لن تنسى أنها كثيراً ما حقرت الحرية وقالت مثل ما يقولون على من ينادون بها أنهم عاهرات يردن الحرية الجنسية، كيف فعلت ذلك وكيف تحولت؟

سأذهب.. لن أراجع حتى وإن كنت في طريقي إلى جهنم، لا يهم، شعرت أن قوة الشد تزداد في اتجاه.... إنها دوائر لا يمكن تحديد الاتجاه لكن مع كثير من الصبر استطاعت أن تكتشف أنها تتحرك في اتجاه الدوائر الكبرى، أي من الدوائر الصغرى تتحرك في اتجاه الدوائر الكبرى وتزداد الحرارة، أرادت أن تخلع تنورتها لتقلل من تأثير الحرارة حتى تشعر ببعض الراحة لكن جسدها كان عارياً، فشاهدت أن لونه قد تغير وأصبح مائلاً للزرقة.

شعرت هالة بحالة من الخوف على جسدها الذي تحول إلى أصفر شاحب باهت، هل هذا عذاب السموم؟ كانت تتجه بسرعة إلى الدائرة الأكبر ثم الأكبر منها وكلما اخترقت وجدت أن الحرارة تزداد، وأن الريح الملونة بدأت تسرع في نفس اتجاهها إلى الدائرة الأكبر التي ما إن وصلت إلى حوافها حتى دفعها الهواء، دفعت وخرجت إلى سطحين متوازيين، المسافة بينهما أكبر من عرض الجسد بقليل لكن امتدادهما بلا نهاية جعل منهما قريبين إلى درجة تجعل أشد النفوس تماسكاً تصاب باختناق، لكن هالة بدأت تشعر بالرعب فهي وحدها بين سطحين بلا بداية وبلا نهاية ويمحلان لون حمرة الشفق.

تنفست بصعوبة وشعرت أن حركتها تتباطأ أو أنها لا تشعر أنها تتحرك أو ربما لا تتحرك، ربما تتحرك الريح من حولها لكنها ثابتة أو ربما تتحرك والريح ثابتة، إنها تكره هذا الشيء الممتد بلا نهاية، فقد كانت قبل الموت عندما كانت تجلس وتفكر، كان أشد ما يقلق نفسها ويجعل روحها ترتعد هو فكرة الأبدية سواء في الجنة أو النار، تلك الأبدية التي بلا نهاية، الممتدة مثل هذين السطحين التي انحشرت بينهما هل سأظل هنا للأبد؟، هل سأظل؟، انظر إلى لون الشفق الكثيب كم يا ترى الوقت الآن؟، وكم مضى من الوقت وأنا هنا؟، هل مرّ ما يعادل يوماً أو يومين؟، لكن هل في هذا الثبات أي معنى للوقت؟ سوف يمر يوم يتبعه يوم، يتبعه شهر، يتبعه عام، يتبعه ألف عام، بل مليون، ملايين، بل بلا نهاية.. أي ملل هذا؟! وبلحظة تأمل قالت إن لحظة في الثبات هي أبدية، أين كبير السنافر؟ لماذا لم يرافقني

في رحلة العذاب؟، أم أنه دخل الجنة؟، لماذا دخل الجنة ودخلت أنا النار؟، أنا لم أسبب أي ألم لأي إنسان ولم يكن لدي النية لإيذاء أي إنسان إلا عندما أجبرني الخوف، لكن كبير السناقر كم تسبب في إيذاء الآخرين، لماذا يدخل الجنة وأنا أدخل النار؟ شعرت ببعض الغبن، لكن على كل ليس هناك فارق كبير لديها بين الحالتين فكلاهما في الأبدية متشابه لأن الأبدية لحظة، لكن ماذا بعد الأبدية.

وقالت مغمغة: أي تخريف هذا؟ إنها الأبدية بلا نهاية، إن الأبدية في ظل الثبات هي لحظة وما دامت لحظة فلا معنى لعدم وجود نهاية، شعرت هالة نتيجة تفكيرها المنطقي بالنسبة لها بشيء من الطمأنينة. بالفعل أنا أحتاج إلى رفيق، لا، أنا لا أحتاج إلى رفيق، شعرت أن الامتداد الكثيب الممتد في كل الاتجاهات للسطحين، يسبب لها بعض الألم، حاولت أن تتحرك بعيداً، بعيداً عن ماذا وعند أي نقطه ستتوقف؟ وإن توقفت من أين لها المعرفة، إنها تحركت من الأساس أرادت أن تصنع نقطة تنطلق من خلالها وتكون مرجعها، لكن لا شيء مميز.. الكل متشابه، ودار في رأسها سؤال، لماذا لا تحاول الهرب، لكن من أين تبدأ وأين تنتهي فالكل متشابه حتى جسدها صار كالحلزون الشفق، لم تعد ترى الجمال في أي شيء، إنها الأبدية ولا جمال في الأبدية لكن هل تنتظر الأبدية حتى تنقضي أم تحاول الهرب لكن في الأبدية الكل متشابه، حتى وإن اختلف لكن هل هناك معنى للاختلاف في الأبدية؟ صارت أكثر اضطراباً، هذا النظام متكامل؛ فسطحين بلا بداية أو نهاية في الطول والعرض، لا شيء مميز فيهما نظام لا يمكن الهرب منه، لكن إن كان هذا النظام بهذا الجمال وبتلك الدقة ربما تنبع تلك الدقة من نظرنا إليه، من طريقة تفكيرنا القديمة التي تعتقد أنه نظام متكامل، شعرت أن قوة رهينة تجذبها مرة أخرى، وشعرت أنها تتحرك، لكن كل شيء ثابت، لكن القوة كانت عنيفة مفزعة مؤلمة، وراحت تصرخ بعنف.

بدا وجه حسن كوجه الهارب الذي يبحث عن ملاذ آمن، لكنه لم يجد فصارت أنفاسه متلاحقة، متعب من طول البحث لكن لا يستطيع أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، فلم يجد غير صفحات حبيبته مأوى رغم ما تسببه أفكارها الغريبة له من ألم، فقلب صفحات كثيرة يقرأ بعض كلماتها فيقلبها سرعاً لأنه يبحث عن شيء واحد، ملاذ يريحه، لذا لم يعد باستطاعته الآن التوقف أمام أفكارها الغريبة والتفكير في تلك الأفكار، وعلى ما يبدو أنه قد وجد ضالته، فهي تحدث في تلك الصفحات التي بين يديه عن رحلتها في ألمانيا وتروي الأشياء الظريفة التي حدثت لها فيمتلئ قلبه سروراً وتظهر على وجهه ابتسامة عريضة وعندما تتابها ذكرى مؤلمة يظهر على وجهه أثر الحزن، ولقد انتابته حالة من الغضب والغيط من إريك زميلها في كورس باثولوجي الذي كان يعاملها بعداء شديد، وتفيض عيناه عنصرية واستعلاءً، وكأنه ينظر إلى حفريات ما قبل التاريخ وكان غير ودود. وفي يوم شملت رائحة الخوف تنبعث في أنفاسي ولم أستطع أن أركز في شرح البروفيسور مع نظراته المربكة لي وكنت لا أستطيع أن أبعد عيني عنه، فقد كان الخوف يدفعني لأنظر إليه فأجد عينيه المتحجرتين المرعبتين، فأغمض عيني لأكتم نظراته داخل روحي فتملأني رعباً وأفتح عيني لأنظر إليه مرة أخرى. وحسبت أن انتهاء المحاضرة أنقذني منه فخرجت من الجامعة أجري في اتجاه السكن، لكن انهمار المطر بكثافة، أخرج حركتي وتناغم المطر مع أغصان أشجار التفاح المتدلية والجو المظلم ليغطي انطباعاً مرعباً، ورحلت ألتفت خلفي فقد كنت أشعر أنه يتبعني، لم أكن أراه، لكنني كنت أشم روحه الشريرة مع تلك الأنفاس المألحة.

لن أطيل عليك حبيبي، وسأحكي لك ما تم في لحظات لا تزيد عن دقيقة أو دقيقتين، لكن كانت دهرًا كاملاً.

حاول اغتصابي، انتظرني قبل صعودي لسكني أسفل السلم. وبسرعة وقوة مفرطة لم أستطع مقاومتها قام بتقييد يدي خلف ظهري، ثم قام بشق البلوزة فظهر الثديي أمامه، فقبض عليه كوحش مفترس، شعرت بألم

ولم أختبر أي معنى للذة، وبكل ما أمتلك من قوة حاولت أن أنتزع نفسي منه، فملت على يديه وعضضته، لكنه ثبت رأسي ووضع حلمتي بين شفثيه، وكان يقول بلغة ألمانية: كيف لمثلك أن تحمل جمال هذا الصدر؟، لم تشعرني كلماته ولا لسانه وشفثيه التي تمضغ حلمتي بأي لذة فقاومت أكثر، ضمنى بعد ما انتزع البلوزة كاملة ثم مزق قميصي كاملاً فصرت عارية من نصفي الأعلى فتركني ونظر إليّ، فوضعت يدي محاولة أن أخفي ثديي، حاولت أن أستغيث لكنه لم يمهلني، فاحتضنني بجسده العاري الأبيض المائل للحمرة، كان يبدو مثل زيوس، كانت تلك أول مرة أختبر حرارة الجسد المتصاعدة من الذكر، لكن رائحة جسده الكريه وعباراته العنصرية ذكرتني أن هذا الوحش لا يريد جنساً معي، إنه يريد أن يقهرني قهر المستعمر الغربي لتراب بلادي، فقاومت، قاومت فيه إعلان النصر الزائف عندما أعلن استسلامي وأترك بعضه يدخل في بعضي. شعرت هو بعد عناء أنه اقترب بأن يعلن أن أرضي ملكه وأن العدة بين يديه ستعلن أنه السيد، عندئذ أدخل يديه داخل الجيبة من أسفل فلامس فخذي فضممتها حتى لا يمس بظري، لكنه أصر أن يخترق فخذي وضغط بقوة واستطاع أن يصل إلى بظري، وعندما لامست يده ذلك البظر انتفضت. كانت تلك أول مرة تصل فيها يد المستكشف تلك الأرض المجهولة، فضممت جاهدة فخذي محاولة أن أمنع يديه من أي اهتزازة، زادت ثورته أكثر لأنه قد اقترب، لكنني علمت أن أي اهتزازة أخرى له سينزاح فخذي منفرجتان تاركة حصوني يدكها هذا الوحش الإغريقي كيف يشاء، عندئذ شعرت بتقلصات في عضوي الداخلي تطلبه وربما ترجوه أن يضع بعضه في بعضي، وشعرت ببائي الداخلي يخرج معلناً النهاية وغصباً عني ارتخت عضلات رجلي ولم تستطع هملي، فسقطت أرضاً على عجزي واصطدمت يده بمصدر قوتي وضعفي فارتعشت ارتعاشة تطلبه بل ترجوه، لكنني استنفقت من سكري سرعة، وأدركت حينها أنني سقطت وعليه أن يعلن السيادة ويغرس علمه من فوق ربوتي حتى الوادي فيصل به إلى منبع النهر، فخلع بنطاله واقترب وقبل أن يكشف عن علمه، صرخت بكل ما أمتلك من قوة رافضة لما يفرض عليّ.

لم يستطع حسن أن يكمل، لكن انتابته رغبة ربما تكون فكرة أن ينتقم لحبيته من هذا الوحش ربما بعد أن ينهي تلك القضية ستكون وجهته ألمانيا، لكن كان عليه الآن أن يداري عاره، فوضع مذكرتها على ذكره المنتصب، لم يستطع أن يواجه نفسه بسؤال لماذا انتصب ولا تلك الرغبة الدفينة في أن تكمل وصفها لما حدث ولم يستطع أن يقرأ حتى تأكد تماماً بعودة ذكره إلى

وضعه الطبيعي حتى يستطيع أن يواجه نفسه، وعلى ما يبدو أنه لم يواجه بل هرب مرة أخرى إلى ما كتبت حبيبته، لكن قال إنه سيتنقم لها.

هرب مسرعاً، لم يستطع أن يعلن للناس خسته ولم أكن أدرك أن إزاحته بتلك السهولة، لكنني لم أستطع أن أقوم من مكاني وظللت عارية الصدر لم تستطع يداي أن تلتقط ملابس الممزقة، ثم انتابتنني حالة بكاء هسترية، وضعت يدي على فمي محاولة كتمان صوت بكائي حتى لا يسمعي أي وحش عابر فيكمل التهامي رغم حاجتي الشديدة إلى حنان أبوي لأشعر بالطمأنينة من الخوف وأشعر بالرحمة والحماية.

كنت أحتاج إليك يا حبيبي، شعرت كم أفقدك يا من عشتُ أبحث عنك، أنت الحبيب الذي أعشقه ولسوف أترك روحي تذوب في روحه وجسدي يكون أرضه يغرس محرائه في أي ربوة من رباه، ويترك علمه في أي مكان بأرضها اشتهاه، أعلم يا حبيبي أن روحك تبحث عني مثلما أبحث عنك لأنك محبوبي منذ الأزل، كم كنت أريدك أن تكون بجانبني تلك اللحظة.

قام حسن واقفاً وخط بيده اليمنى على كرسيه ثم جلس والتقط المذكرة ثم وقف مرة أخرى ثم أخرج رأسه من القطار وتنسم هواء بطعم العنبر الأبيض، إنها تنتظره مثلما ينتظرها وتبحث عنه مثلما كان يبحث عنها، ويعشقها مثلما تعشقه، أتمنى أن أعرف أين وضعوا رفاتك وأجلس على قبرك وألمس روحك العذبة.

وعاد إلى المذكرة مرة أخرى بعدما هدأت جوانحه وفتح الصفحة التي توقف عندها. وبعد مضي وقت شعرت بعودة بعض القوة إلى بدني ومكنتني من أن أجذب الثوب على جسدي فداريت صدري وبطني ولمت جسدي فاخفيت تماماً عن الأعين تحت السلم، فمكثت حتى عم الظلام وقبل أن تضاء الإنارة قمت مستندة على ما تبقى لي من قوة ودخلت شقتي ورميت جسدي على سرير ورحت في نوبة بكاء عنيفة وتركت العنان لصوتي كي يعلو كيفما يشاء ومرّت بعد ذلك بضع ليالٍ وأنا أعاني من حمى شديدة ولم تزرني أنت حبيبي.

نزلت من عينيه دمعة لم يستطع لها دفعًا، وكانت تلك أول مرة تدمع فيها عيناه في مكان عام، فمسحها مسرعًا ونظر حوله ليعلم إن كان هناك من شاهد لحظة ضعفه تلك وبعد أن اطمئن إلى أن دمعه لم ترها أي عين متلصصة، عاد للقراءة، على كل حال يا حبيبي انتظر تلك طويلاً ربما احتجتك جانبي في تلك اللحظة، لم أستطع أن أقوم من مكاني، ظلمت مدة يومين بدون طعام لم أستطع فيهم أن أتناول شيئاً غير الماء، لم أعرف إذا كان ذلك عقاب من النفس للجسد، لكن مع ارتفاع درجة الحرارة الشديدة تحركت إلى البانيو وملائته بالماء البارد وعندما أوشك على الامتلاء تركت نفسي تسقط بداخله، كنت أوشك على الموت لكن بعدما نزلت للبانيو وشعوري بعذاب كنت أتوقعه جراء التقاء جسدي الملتهب من الحرارة بالماء البارد نهت جهازني العصبي، فبدأت أشعر ببعض الجوع، فتناولت كسرة خبز ووضعت عليها قطعة جبن ثم تناولتها ببطء، وتوجهت إلى سريري، نمت ولا أدري كم من الوقت قد مضى وأيقظني شعور بالجوع، فقممت من نومي ثم تناولت قطعة خبز أكبر وبعض اللبن لكن لم أستطع النوم تلك المرة.

ورغم انخفاض درجة حرارتي بعض الشيء إلا أنى شعرتُ بأنني محتاج جسدي كله فتناولت مسكن، وشعرتُ بانحصار الألم ونظرت لباب السكن فوجدت أن الأقفال التي وضعتها على الباب موصدة ولا أدري لماذا لم أستطع أن أصدق عيني، فتحركت مستندة على الحائط حتى وصلت إلى الباب ففتحت الترياس ثم أغلقته وفعلتُ ذلك بالترياس الثاني لكن لم أستطع أن أزيح تلك المخاوف من على صدري، وبحثت عن الشباك فرأيتُه محكم الغلق، فتوجهت إلى سريري مرة أخرى فلم أستطع أن أجابه ذلك الشعور العارم بالرغبة في النوم، فنمت لكن سرعان ما استيقظت مفزوعة على كابوس كان بطله ذلك المدعو إرك كان يحاول أن يغتصبني لكن في تلك المرة نجح، واستطاع أن يقترب، لم أستطع أن أدفعه تلك المرة، مزّق ثيابي كله، لم أستطع أن أمنعه، وقفت عارية تماماً أمامه، لم أضع يدي فوق أعضائي التناسلية، لم أدار أي شيء، كنت ضعيفة خائفة، شعر باستسلامي، رأيت في عينيه كيف زهدني، لم يكن يريد من فريسته أن تستسلم بتلك السرعة، كان يريد بعض المرح، فلما لم يجد راح يصنعه هو، لم أستطع أن أمنعه، جلس على الكرسي يجتسى كأس خمر وراح يستعرض جسدي كسيد يرى جاريته لينظر كم سيدفع أو كم يستحق النحاس كي يدفع له، فالجارية بلا ثمن وإن ما يدفعه ثمن النخاسة، ثم راح يضع يده على كل مكان في جسدي، لم أر في عينيه أي استمتاع لكن كان يثمن بضاعته، ثم قام فخلع ثيابه وبكل عنف المحتل القاهر وضع ذكره في

دبري، لم أستطع أن أحتمل ألمه فاستيقظت مفزوعة فوضعت يدي على دبري محاولة أن استكشف ماذا حدث ولأي سبب ما زلت أشعر بالألم! لم أستطع أن أقرب، فقممت إلى الحمام مستعملة ماء الشطّاف لتخفيف الألم، وقابل انخفاض الشعور بالألم شعور أكثر قسوة، لم أستطع احتماله أو أن أواجه نفسي به لكنه كان مزيجاً من الخوف والقهر والألم بكيت ثم بكيت.....

وضعتُ كل الأغذية على جسدي حاولت أن أحتمي لكن بمن أحتمي، فأنت يا حبيبي ما زلت بعيداً لم تسأل عني لم تبحث عني.

شعر حسن بوخزة في روحه وضرب بيده على الجدار الحديدي بجانبه فأصدر صوت ارتطام جعل كل مرافقيه في تلك العربّة يلتفتون إليه بل حاول المتلصصون استبيان الأمر لكن تلك الهالة المهيبة ونظارتها السوداء حول عينيه جعلتهم يشعرون بتوجس، فجلس كل في مقعده وسرعان ما عاد الهدوء للعربّة..

قسماً برّبي لأنتقم من مخاوفك من ذلك الكلب حبيتي.

ثم عاد إلى المذكرة كي يقرأ.

شعر بكره شديد لألمانيا ولكل الناس فيها، وشعر أنه يجب عليه العودة بعد انتهاء المهمة والذهاب لألمانيا لقتل ذلك الوغد.

كنت خائفة وبدأ شعور بالكره لذلك البلد.

مضى يومان آخران لم أتذوق طعم الأكل، لكن في تلك المرة لاحظ أساتذتي غيابي، فمرت الدكتورّة أنجيلا كول وكانت سيدة رقيقة مثل والدتي على مكان السكن حتى تستوضح سبب غيابي وكانت الحكومة المصرية قد تعاقدت معها كمتعهدة تشرف وتكتب تقارير للفتنصليّة المصرية عن أحوال البنات المصريّات، فوجدتني في حالة إعياء شديد، بل كنت أشم رائحة الموت تملاً أنفي، فاستدعيت سيارة الإسعاف وقضيت في المستشفى ثلاثة أيام حتى شعرت ببعض القوة وأخذت ثلاثة أيام نقاهة بصحبة الدكتورّة أنجيلا كول فبثت في شعور بالقوة والطمأنينة لكن لم أستطع أن أخبرها أو أخبر أي إنسان بما حدث لكن هي أقنعتني أن أستمّر في دراستي ولا أغادر حتى أحصل على ما جئت من أجله وخاصة بعدما نقلتني من مسكني إلى مسكن قريب منها فشعرت ببعض الأمن وعدت إلى جامعتي.

لم أعرف رد فعلي عند رؤية المدعو إريك، هل سأثور عليه أم سأخاف منه؟ لكن حاولت أن أتمالك أعصابي ولا ألتفت للمخاوف التي بداخلي وطلبت من الدكتورة أنجيلا مصاحبتني إلى محاضرة كورس الباثولوجي ووافقت لكن عندما دخلت المحاضرة لم أجد هذا الشخص وعلمت بعد ذلك أنه قد اعتذر عن إكمال الكورس هذا العام.

ورغم شعوري بالطمأنينة من عدم وجود إريك، إلا أنني صرت متوجسة من كل شيء لم أستطع أن أتعامل مع هؤلاء الذكور رغم معرفتي يا حبيبي أنك من الذكور وأنا أنتظر، لكن أنت لست من هؤلاء.

نظر حسن إلى نفسه بإعجاب شديد، نعم أنا لست مثل هؤلاء.

ثم عاد مسرعاً ليكمل لكن وجد الصفحة قد انتهت فقلب صفحة أخرى فوجدها فارغة والتي تليها وهكذا.

لكن لم يملّ وقلب صفحات الأجنحة حتى وجد صفحة ملصق عليها وردة حمراء اللون جميلة..

إلى حبيبي أهديك الوردة الحمراء، فبعد أن نضجت خلاياي وشدت قيثارتى فصارت أحاسيسي مرهفة فصرت أنفحص الوجوه باحثة عنك، ومهما كانت بعض الوجوه تشبهك إلا أن أذني لم تطرب عند سماع أصواتهم فأعرف يا حبيبي أنك لم تأت بعد.

تذوق حسن لأول مرة غسل السعادة، فراح يمصمص شفثيه ليتأكد أن ما يتذوقه حقيقي، ويسعادة وحب، قلب صفحة أخرى فلا أجمل للمرء من سماع مناجاة الحبيب فما بالك بقراءتها.

”حبيبي طال انتظاري وشوقي لكنني أشعر أنك اقتربت وقريب مني وغداً ألقاك يا روحي“

توقف حسن عن القراءة وأخرج رأسه من شباك القطار وأوقف عقله عن التفكير، إنه لا يريد أن يفكر في شيء يخرج منه تلك المتعة.

مسّ الهواء المنفد وجهه وتطايرت خصلات شعرة فشعر بأنه فارس من العصور الوسطى يمتطي صهوة جواده ويحمل حبيبته أمامه يحتويها تحتضنه وتلصق رأسها بقلبه طالبة من ضرباتها الحماية.

انتبه حسن إلى أنه لم يستطع أن يحمي حبيته أو أن يظهر لها في الوقت المناسب لكن عندما ظهر كانت حبيته قد فارقت الحياة وسُرقت جثتها، لا يدري في أي مكان قد استقرت ولأي شيء قد سرقت ولا من سرقها.

انتابت حسن مخاوف من أن يفقد سعادة اللذة التي حصل عليها فترك أفكاره وحاول أن يتغلب على طعم الغصة فعاد مسرعاً كي يغترف من مذكرتها بعض السعادة.

لكن كان الوقت قد مضى وانتهت الشمس من عرضها اليومي ولت بقايا الشفق مسرعة فلم تترك أي فرصة لحسن كي يكمل فاستنجد حسن بلمبات القطار مستجيراً من تعنت الشمس، لكن لمبات القطار لم تستجب فتحسس أقرب لمبة إليه ووضع يده عليها فلم يجد غير بقايا زجاج فأدرك أن هذه حال اللمبات في العربة فاتجه إلى الممر الطولي الواصل بين كل العربات كي يلمح أي ضوء في القطار لكن لم يجد فأصابه شعور بخيبة الأمل واستسلم ووضع زراعيه على الشباك ثم وضع ذقنه عليها ونظر إلى الأفق الممتد أمامه ونظر إلى أمواج الظلام المتوالية الموصولة من السماء إلى الأرض وعلم أنه لن يستطيع مقاومتها فاستسلم وأرخى جفونه ثم غطّ دون أن يدري في نوم عميق.

كان الهواء المنعش حاملاً لريح زهرة مسك الليل التي ترطب هواء الليل فتجعله لطيفاً ولا تملك أمامه إلا أن تملاً صدرك بعبقه ولو كان محملاً بهواء رطب لنسيته معه كل همومك لأن عقلك لن ينشغل ساعتها إلا بمعرفة سر سحر تلك الزهرة، ومما زاد من سحره، نسمة رقيقة نتجت بفعل حركة القطار البطيئة، تتحرك في اتجاه معاكس لحركة القطار فملأت بما تملك من قوى سحرية روح النائم بالطمأنينة، أسلم حسن نفسه لنوم لذيذ لم يتذوق طعمه من قبل وخاصة منذ أن التحق بالجهاز، فبالرغم من يقينه أن عمله يرضى عنه الله ورسوله ولو مات في تلك اللحظة مؤكداً أنه سيكون مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، إلا أن شيئاً ما أو عاطفة ما كانت تشعره بعدم الراحة لما يعتقد عن رضاه عن نفسه، وكان دائماً ما يرجع ذلك إلى وسوسة الشيطان وكان مبرره القوي أن الكوابيس التي تأتيه حاملة صور هؤلاء المعذبين أعداء الدين فلو كانوا من الصالحين ما ظهرُوا في كوابيس.

أرسلت شمس الصباح أشعتها الذهبية على وجه حسن فأظهرت براقصها على وجهه، معدنه الحقيقي مخترقة الهالة التي تصنعها ثقافة رجل الأمن التي تمس روحه فتعطي انطباعاً كاذباً من أنه مهيب الجانب.

لم يطع حسن رغم حساسيته المفرطة في نومه شمس الصباح ويستيقظ، لم يكن يريد أن يبعد نفسه عن تلك اللذة، لذة النوم مصحوباً بالطمأنينة.

لكن برودة فوهة ذلك الرشاش الملتصق بصدغه أعطته تفسيراً لتوقف القطار، فأذنه التقطت صوت الفرامل مما يوحي بتوقفه لكن عقل حسن لم ينشغل بالتفسير..

- إنا اصحى.

كانت حركة الرشاش عنيفة بعض الشيء على وجه حسن مصحوبة بهذا الصوت الأجش، فاستيقظ حسن.

- فيه إيه؟

- قوم اقف.

- إيه؟

- قوم اقف مسمعتش ولا إيه وإيدك فوق راسك.

نظر حسن إلى العملاق الحامل للرشاش الواقف أمامه وأيقن حسن أن توقف القطار لم يكن في المحطة بل ربما في مكان قصي بعيداً عن أي محطة، لذا ومن أجل سلامته لابد أن يمثل لما يقولون.. وخاصة أنه يعلم شدة رجال العصابات في الصعيد وحزمهم الذي قد يصل إلى حد التهور فالتزم وقام دون أن ينطق، وضع الرجل يده على النظارة المعلقة في جيب القميص الذي يرتديه حسن وقال:

- النظارة دي تلزمني.

ولم ينتظر موافقة حسن، وأخذ النظارة الشمسية ولم يبد حسن أي اعتراض أو مقاومة، لم يكن يريد أن يعرف أحداً هويته وأيضاً كان عدد قطاع الطرق كبيراً ومتشربين في كل مكان في العربة ورغم أنهم قطاع طرق لاحظ حسن أنهم كانوا يتعاملون مع الناس بشيء من اللين فاطمأن إلى أنهم ليسوا من النوع الذي يقتل إلا إذا لم يكن هناك بد من القتل، لكن حسن استغرب من شيء عجيب، أن الرجل الواقف أمامه لم يقم بتفتيشه أو سؤاله عن الأموال التي معه فنظر حسن إلى باقي الرجال وجددهم مثل الرجل الذي يقف أمامه لا يقومون بالتفتيش أو جني الأموال لكن مع بعض الملاحظة وجد اثنين يقومان بالتفتيش وخلفهم رجل مهيب المنظر ذا شارب كث مختلط بياضه بسواده وتحت عينيه هالة سوداء أضفت على مظهره بعض الكآبة والهيبة كانا يعطيانه كل ما يحصلون عليه من مال فيضعه بيده في شوال خيش يحمله أحد العمالقة خلفه، لذا اعتقد حسن أن هناك هيكل تنظيمي

يجمع قطاع الطرق هؤلاء، اقترب الرجال الذين يقومون بعملية التفتيش من المربع الموجود به حسن، وصلوا للكرسي الذي أمامه وكان يوجد به رجل عجوز وقبل أن يضع أحدهم يده في جيبه أخرج هو كل ما يملك من مال لكن رئيس قطاع الطرق في مشهد عجيب أخذ بعض المال من الرجل ورد له الجزء الأكبر، لاحظ كبير قطاع الطرق الاندهاش البادي على وجه حسن لكنه لم يعلق، ومع اقتراب المفتشين منه ارتبك حسن، وذلك لخوفه أن يعلموا بهويته فربما لا يشعرون بوجد تجاه رجال البوليس أو أن يعثروا على الخاتم فهو يحمل في جيب سري صغير داخل الجيب الأصلي لكن مع التفتيش بدقة سيعثرون عليه، مع اعتقاد حسن الجازم أنه مفتاح اللغز، ازداد توتره مخافة ضياعه لاحظ كبير قطاع الطرق تلك الأفكار وقرأها وعلم أن حسن يخفي شيئاً خلف ارتبائه فلم يسمح للمفتشين بتفتيش حسن وامتلأ الرجال لإشارته وقال لحسن:

- اطلعي بره الكراسي يا بيه.

- حاضر.

أحد الرجال

- فيه كراسة هنا يا سيدنا.

لم يرد ونظر إلى حسن.

- أنا هفتشك بنفسي.

ارتبك حسن وعلم في نفسه أن الرجل قرأ ما يجول بخاطره من اضطراب ولاذ بالصمت.

- إنتا منين يا بيه.

- بصوت متحشرج: من القاهرة.

أخرج الرجل محفظة حسن وحصل على ما بها من مال دون اهتمام ووضعه في السؤال ثم شعر بالظفر عندما وجد الكارنيه واطمأن إلى أن هذا مصدر ارتبأكه.

- إنتا ظابط شرطة بقى يا بيه حضرتك هتشر فنا شوية مش بتقولوا لينا كدا في القسم؟

مع نهاية كلام الريس قبض على يديه قبضة العملاق ثم قام بتقييد يديه وسط تصفيق بعض الركاب المراقبين لما يتم من العربة الأخرى.

- إنتا مش أخذت الفلوس يا ريس عايزني في إيه؟

نظر الرجل في الكارنيه مرة أخرى وعلم رتبة حسن وقال بصوت الواثق هنبادل بيك.

- أنا ضابط مش مهم.

- يا بيه أنت كذاب.

صمت حسن ولم يرد فقد أخرسه رد الرجل.

نظر الرجل إلى أحد المفتشين وقال فتشوا الشنطة واستدار إلى حسن وأكمل تفتيشه وأخرج الموبايل وبعض المفاتيح ثم وصلت يديه إلى الجيب الصغير وأمسك الخاتم ثم قام بإخراجه..

- خاتم مين دا؟

لم يجد حسن أي رد.

نظر الرجل إلى الخاتم ملياً ورغم أنه لم يعجبه إلا أنه قال:

- ما يساويش حاجة بس هنديه للبننت الصغيرة.

امتقع وجه حسن فالرجل لا يعرف ما سببه هذا الخاتم من قتل واختفاء لكن لا يعلم كيف يستطيع أن يتخلص من تلك المصيبة فالخاتم لم يعد بحوزته وعلى ما يبدو لن يستطيع أن يسترده وليس لديه أية فكرة كيف يستطيع

استرداده لكن أشد ما يقلقه أن حياته ربما تكون على المحك لو تمت تلك
المبادلة فحتماً سيذهب إلى أمن المرشد..

- أننا كنت رايح تقبض على مين عندنا؟

- مكنتش رايح أقبض على أي أحد.

- كنت رايح فين؟

- البلينة.

- ليه؟

- كنت رايح زيارة.

- لمين؟

- أشار الرجال إلى الرئيس أنهم قد انتهوا من تفتيش كل العرببة لكنه لم
يعرهم أي اهتمام.

- لصديق.

- اسمه إيه؟

تملح حسن قليلاً وقال للشيخ همام

- مين؟

- الشيخ همام شيخ العرب.

- أننا تعرفه؟

وجد حسن الاهتمام البادي على وجه الرجل وشعر أن تلك المعرفة ربما
تكون هدية من السماء فأكد:

- نعم أعرفه أنا رايح البر الشرقي.

- تكرم من أجل الشيخ همام.

لم يصدق حسن ما سمع، لكن الرجل لم يمهلته وقال للعملاق الواقف
خلف حسن:

فك البية، ثم وضع يده في الشوال وأخرج النقود ثم وضعهم في المحفظة،
خذ محفظتك يا بيه.

- ليه؟

- مش عايز فلوسك ولا إيه يا بيه؟

- ليه رجعتهم؟

- أننا عايز شيخ العرب يزعل منّا ولا إيه؟

تناول حسن محفظته..

أخرج الرجل الخاتم من سيالته، خد الخاتم كمان يا بيه.. التقطه حسن
مسرّعاً، فاسترعى ذلك انتباه الرئيس لكن لم يعلق..

كانت الأعين تراقب ما يحدث باهتمام بالغ وتناقلت الألسن هامسة ما
يحدث وعلموا أن الرجل ضيف على شيخ العرب همام وقال الرجل:

لما تقابل شيخ العرب قوله الرئيس عبد البر يسلم عليك وبيقولك ساعنا
يا مولانا.

وقبل أن يغادر هو ورجاله القطار التفت إلى حسن وقال:

إحنا ما بنخفش من الشيخ همام إحنا بنحبه.

ثم انصرف ولم يفتش العربات الأخرى الأقل درجة في القطار.

جلس حسن على الكرسي واضعاً يديه فوق عينيه لمحاولة استيعاب ما
حدث

كائن حياته على المحك، تسليمه لأمن المرشد كان يعنى ذلك.

فقال هامسا «الحمد لله» وكان حمده لله لتأكده من صحة العنوان الذي
زرعه سيادة اللواء في رأسه فهو لا يعرف الشيخ همام لكن هو مزروع في
رأسه وشعر بسعادة بالغة وسحب يده من على عينيه ليجد ابتسامة ودودة
من الرجل الجالس أمامه كيف جلس أمامي دون أن أشعر به فقال الرجل
باسماً

- أنتا ضابط؟
- أماء حسن برأسه.. نعم..
- أول مرة تسافر الصعيد؟
- أيوه.
- لم يكن حسن في حالة تسمح له بالحديث لذا بدا حديثه جافاً.
- أنتا رايح للشيخ همام؟
- أيوه أنتا تعرفه؟
- كل الصعيد يعرفه.
- تعرف مكانه؟
- لو معرفتش توصل إليه هوا هيلايك.
- نظر حسن إلى الرجل العجوز مرتاباً من لغة الحوار.
- لكن أنتا يا حضرت الضابط مجالك ضعيف، أنتا محتاج الشيخ ليه؟
- عندي رسالة هوصلها ليه
- نظر الرجل مبتسماً غير مصدق.
- وقال ألم أقل لك مجالك ضعيف لكن هتوصل..
- تذكر حسن العالم العجوز الذي قال له «أنتا مجالك لا يتعدى....» شعر حسن بضيق شديد.
- أنتا بتسافر كثير؟
- أنا مسافر على الدوام.
- أنتا صعيدي؟
- لا.
- هما قطاع الطرق بيفتشوا القطار يومياً؟
- انتا عارف.

يعلم حسن جيداً أن قبضة الدولة قد وهنت على الصعيد وأنها لا تستطيع حماية الناس ووصل بها الحال أنها تتفاوض معهم إذا استطاع هؤلاء اللصوص القبض على أحد الضباط فيقومون بالتفاوض والمبادلة ويعلم أن القطار هو الرابط بين جنوب مصر وشماله الآن، وأيضاً حب مولانا المرشد ولو لم يكن هذان الرابطان لاتفصل شمال مصر عن جنوبها ويعلم أن رجال المرشد يعلمون ذلك لكنهم يتفادون الحديث في ذلك،

- هما ليه مفتشوش باقي العربات؟

- لأنهم مش حرامية.

- ابتسم حسن ابتسامة ساخرة.. طيب هما إيه؟

- جعانيين وعازيزين طعام ليهم ولأولادهم فيياخدوا فلوس من الأغنياء مرتادي الدرجة الأولى.

- أنتا مين؟

- أنا من محبي مولانا.

- مولانا مين؟

- هتعرف لو حدك.

نظر الرجل إلى عيني حسن وقال:

- لما يجي الاختيار اختار صح.

- اختيار ايه؟

- لما يحين ميعاده هتعرف.

نظر حسن إلى الفراغ الممتد من نافذة القطار وقال لنفسه ضيف يا حسن لأعاجيبك إضافة جديدة، أنا لو حاولت أحكي عما يحدث لي فلن يصدقني أحد. عاد حسن مسرعاً من شروده ليكمل مع الشيخ وأراد أن يسأله عن وجهته التي سيتوجه إليها لكن الرجل أسند رأسه وراح في نوم عميق، شعر حسن بحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام فاصطحب زجاجة الماء وقام دون أن يحدث جلبه حتى لا يوقظ الرجل العجوز، وبعد أن فرغ من الحمام وغسل

وجهه، طرأت له فكرة أنه ربما عليه أن يقتسم بعض البسكويت التي اشتراها من محطة مصر قبل ركوبه..

لكن عندما عاد لم يجد ذلك العجوز فيبحث عنه في الكرسي الذي كان يجلس فيه قبل جلوسه معه لكن لم يجده ولم يجد أمتعته، جال حسن بنظره في كل أرجاء العرببة بحثاً عن الرجل لكن لم يجد له أي أثر، لكن وجد بجانب الشنطة علبة عسل نحل صغيرة وملعقة بلاستيكية نظيفة، تأكد حسن من أن الرجل لم يكن خيلاً افترضه عقله النشط في مجال التهيئات، ونظر بامتنان إلى ما فعله الرجل وظن حسن أن الشيخ سيكون في أحد العربات الخلفية لأن القطار لم يتوقف، وتعجب حسن من صنيعه فكيف لهرم مثله أن يغادر من السكون وهدوء الدرجة الأولى إلى صخب الدرجة الثالثة، وقال لنفسه لن يتحمل وحتماً سيعود. راهن حسن نفسه على عودة الرجل لمقعده خاصة عندما نظر إلى تلك العربات الممتدة، وجد تكديساً كبيراً وأشخاصاً لم يجدوا مقاعد فافترشوا الأرض وآخرين متشعلقين في الحديد الممتد والقريب من سقف القطار ومع جلوسه قال حتماً سيعود.

وراح يتابع باهتمام نهر النيل الموازي لشريط السكة الحديد وأتاح بقاء القطار لعينه أن ترى بوضوح ما حدث للنهر وحوله من تغيرات.

فالنهر لا يوجد به كثير من الماء رغم أنه موسم الفيضان وكثير من الأراضي تصحرت ونمت على ضفاف النهر بعض النباتات البرية ولم يعد يشتم رائحة الزهور التي كان يشتمها مع بداية الرحلة وكان يتخلل الصحراء المحيطة بالنهر بعض قطع الأراضي الصغيرة التي ما زالت تحتفظ بلونها الأسمر وبها بعض الزراع الذين يستخدمون الآلات البدائية للزراعة على الرغم من وجود بعض الآلات الميكانيكية متروكة غير مستخدمة فأدرك حسن أن عدم استخدام تلك الآلات الزراعية والعودة للآلات البدائية مرجعه نقص المواد البترولية وربما عدم وصولها للصعيد فحدثت تلك الردة.

خطف حسن نفسه من أفكاره وقام من على كرسيه وراح يبحث بنظره عن العجوز في تلك العربات الممتدة إلى الخلف وأدهشه جلد ذلك الرجل وقوة احتماله لأنه استطاع إلى الآن أن يمكث في تلك العربات المكتظة دون

تبرم رغم كبر سنه ورغم حمله تذكرة درجة أولى، ثم عاد إلى متابعة النهر وبعض الجبال التي يراها من بعيد وما لها من إجماء وتأثير على النفس البشرية وخاصة على المسافر أول مرة إلى صعيد مصر، وأراد حسن أن يترك طابعاً في نفسه وقال مغمغماً ومتحدثاً إلى نفسه، إن الصعيد هي أرض السحر.

فهي تحمل رغم ما هو باد عليها من وهن روح القوة والبطش، ورغم بطء القطار إلا أنه يزداد بطئاً كلما مر بمحطة ما في طريقه معطياً الفرصة للبعض بالصعود أو الهبوط من القطار ومع كل محطة كان حسن يلاحظ جيداً الرصيف ويطل النظر إلى النازلين من القطار فلربما يعثر على ضالته ويرى الشيخ، ورغم أنه يحمل أسئلة كثيرة إلى هذا الشيخ الذي إن نزل لن يستطيع أن يستوقفه، إلا أنه منى نفسه أنه لربما إن نزل ورآه فيودعه بطريقة جيدة، ولا يدري حسن ما الذي ربط بين قلبه وهذا الرجل إلا أنه قال لنفسه أنا رجل تحدث له الأعاجيب، هذا قدرتي. وضع نظارته الشمسية على عينيه محاولاً انقاء وهج أشعة الشمس المنعكسة من الرمال المحيطة بصفتي النهر وبحث بنظرة خاطفة عن العجوز. وبعد وقت مالت الأشعة للغروب ف شعر ببعض الراحة وخلع النظارة من على عينيه وكفّ عن متابعة النهر لكنه مارس عادته التي اكتسبها في القطار وهي النظر بدقة إلى رصيف المحطة عند مرور القطار بها أو توقفه فيها.

ومع توقف القطار في محطة جرجا، علم حسن أنه قد اقترب وأن عليه الاستعداد للنزول في المحطة القادمة محطة البلينا، ومنها سيتحرك إلى البر الشرقي حيث وجهته، تفقد حسن مذكرة حبيبته واطمأن لوجودها في حقيبتة ثم تحسس المكان السري في جيبه الذي يوجد به الخاتم فوجده واطمأن على وجوده، عندئذ قام من مكانه للبحث مرة أخرى قبل حلول الظلام عن هذا العجوز فلم يجده وفقد الأمل وخاصة مع اقتراب نزوله برؤية العجوز. وشعر حسن بتسارع في ضربات قلبه علم على الفور ما تعانيه نفسه من قلق، فقد غامر وقطع كل تلك المسافة على عنوان ربما توهمه عقله لكنه طمأن نفسه وقال أنا أثق في سيادة اللواء ولم يعط فرصة للقلق أن يتسلل إلى قلبه وحاصره في مهده بتلك الجملة. أصدر القطار نفيراً معلناً عن رؤيته للمحطة واستعداده دخولها، نظر حسن من شبك القطار لكن الظلام الحالك الممتد منعه من الرؤيا.

توقف القطار فنزل حسن مسرعاً، لم يكن يعرف أين يتجه ومع شعوره برهبة الصعيد وهواء سوهاج الحار الذي قابله وتوقف عن التفكير للحظات ثم نظر للرصيف باحثاً عن وجه العجوز فلما لم يجده ظل واقفاً متابعاً الوجوه من نوافذ القطار وانتهى أمله فأراد حسن أن يلقيه من الذاكرة.

وبعد مغادرة القطار وابتعاده عن المحطة وخروج كل من نزل معه من المحطة تحرك حسن للخروج من الباب الرئيس واتجه قبل خروجه إلى شباك التذاكر وسأل عن أقرب مكان من الممكن النوم فيه، فندق أو بنسيون أو شقة، أي شيء فأرشدته إلى أحد الفنادق المطلة على النيل وكان الفندق على ما يبدو مقصد للسياح فيما مضى قبل تحريم سياحة القبور وأصنام الفراعنة فأصبح شبه مهجور.

- سألته العامل: حضرتك عايز تحجز كام ليلة؟

- ليله واحدة

- ممكن البطاقة؟

أعطى حسن البطاقة للعامل فقبلها ونظر باهتمام وقال بصوت متحرج

- حضرتك ضابط؟

- ضابط سابق قالها وهو يبتسم.

شعر العامل ببعض الراحة ولم يعقب ثم أعطى البطاقة للرائد حسن بعد تدوين البيانات ثم تحرك الرائد حسن إلى الغرفة ٢٢ وهي الغرفة التي سيقضي فيها حسن ليلته وقال له العامل إنها أفضل غرفة في الفندق فيماكانك أن ترى النيل وفي الصباح تستطيع أن ترى بوضوح معبد سيتي الأول بابيدوس، فنظر حسن إليه..

شعر العامل بارتباك وعلم بخطأه، فقال العامل آسف لم أقصد..

تقبل حسن أسفه فلم يكن أمامه كثير من الوقت كي يعقب لكنه راح يغمغم إلى نفسه وهو يسير في الطريقة المظلمة خلف العامل الذي يرشده بكشاف وقال لنفسه: الآن علمت سبب هذا الخراب على أهل الصعيد، هو جهم لتلك الأصنام وتلك الحضارة الوثنية التي قال عنها مولانا الإمام

المرشد إنها حضارة عفنة ولولا وقوف أميركا وحلفاؤها لحطمها مولانا المرشد الإمام تحطيمًا وطهر تراب مصر من دنسها، عندئذٍ ستنزل بركات من السماء وتهبط الكنوز ويفتح لنا المولى باب رزق، وستغمر نيلنا الغائر المياه وتظهر آبار البترول مرة أخرى، ولأن الغرب يعلم أنها سبب الخراب علينا ومن أجل استمراره في حربه على الإسلام فقد عارض هدم تلك الأوثان تحت حجة أنها تراث إنساني، لكن لا أدري لماذا امتثل مولانا الإمام لرأيهم، لماذا يرضى الدنية في ديننا.

- اتفضل يا فندم تحب أصحابك الساعة كام؟

- لا شكرًا أنا هصحي لوحدي.

كان حسن في حاجة ماسة إلى أن يضع جسده على السرير، إلا أنه انتظر العامل حتى أضاء له الكشف الصغير في الحجرة.

مرت ساعات الليل بسرعة واستيقظ حسن مع دخول أول ضوء إلى حجرته،

خرج حسن إلى الشرفة لكي ينظر إلى البلينا ليرى معالمها حتى يحدد اتجاه تحركه، وأي شارع سيسلك وصولاً إلى نهر النيل حتى يعبر إلى الناحية الأخرى من النهر وشاهد لأول مرة آثار الفراعنة، وقع نظره على مسلتين ومدخل وبناء ضخيم لمعبد يأخذ شكل قوس، أيقن أنه المعبد الذي حدثه العامل عنه بالأمس، معبد سيتي الأول، لم يستطع أن يخفي انبهاره بعظمة العمارة المصرية القديمة وتقدمها لكن استغفر ربه سرعًا وأشاح بنظره عن المعبد ورأى مطعمًا للفلافل فنزل سرعًا بعد أن صلى الصبح واتجه مباشرة بعد رحيله عن الفندق واستفساره عن كيفية عبور النهر إلى الجهة الأخرى من البلينا إلى مدينة دار السلام فأخبره العامل أن مدينة دار السلام هي أكبر المدن في سوهاج فيجب عليه أن يحدد وجهته فيها بدقة، وكانت تلك نصيحة جيدة حتى لا يضيع حسن الكثير من الوقت، فقال حسن: أريد أن أذهب إلى وديان قصب..

فأخبره الرجل عن أقصر الطرق للوصول إليها عندئذ برقت عيناه بريقاً
لم تخطئه عين ذلك الموظف فتبسم الموظف.

لم يكن حسن يعرف من الصعيد إلا محافظاتهما وبعض المراكز المشهورة
ولم يسمع أو يعلم بوجود مدينة دار السلام من قبل أو وديان قصب عندئذ
اطمأن إلى أن ذلك العنوان الذي تذكره في منامه صحيح وأنه في الطريق
الصحيح إلى سيادة اللواء.

وصل حسن إلى دوار شيخ العرب، الشيخ همام بعد عناء شديد فلم يكن الوصول إليه سهلاً وخاصة بعد اعتراض قطاع الطرق لطريقه وسرقة كل ما معه ولم يأبهوا بالكارنيه الذي يحمله واستهزأ أحدهم به وطلب منه خلع ملابسه فقال حسن مسرعاً إنه ذاهب إلى شيخ العرب همام فلم يسأله أحد عن السبب إلا أنهم أعطوه كل ما أخذوه منه واستأذنه كبيرهم بالاحتفاظ بالشنطة فوافق حسن وما كان من الرجل أن بعث معه من يرافقه، وكانت تلك أفضل خدمة حصل عليها حسن، فقد وصل إلى دوار شيخ العرب دون أن يتعرض لمشاكل أخرى، وكان الطريق طويلاً ومرهقاً وشعر حسن بجوع شديد ولم يكن يحمل معه طعاماً ولم يتناول أي شيء غير طعام الفطور في الصباح.

وما إن وصل الدوار حتى قدموا له ماءً مثلجاً ورحبوا به وتساعد إلى أنفه رائحة الشواء المتبلّة فسأل لعابه ولم يستطع أن يرد على عبارات الترحاب من قبيل شرفتنا يا فندم، فكان يومئذ برأسه فقط وتعالى صوت معدته لاهتياجها الشديد، فوضع حسن يده على معدته مطمئناً إياها، ولم يطل انتظاره، فسرعان ما وضع الطعام أمامه. وتناول حسن الطعام بنهم الجوع وأيضاً بنهم الطعم المميز لهذا الشواء الذي اختزن عقله هذا الطعم في خلاياه الحسية، ليظل فم حسن يتذكره لمدة طويلة بل ويقارن بين طعم أي طعام يتناوله وطعم ذلك الشواء المميز، وتباطأت يد حسن رويداً رويداً مع شعوره بالامتلاء ولم يعد قادراً على تناول المزيد، عندئذ لاحظ حركة في المكان وهرجاً ومرجاً تلاه دخول الشيخ همام، وكان دخوله مهيباً وبدا الشيخ في حاشيته التي تحيط به كسلطان من السلاطين، وكان الشيخ على ما يبدو قد غادر الشباب منذ فترة طويلة إلا أنه عندما صافح حسن، شعر حسن بقوة مفرطة تضغط على يديه، وبعدما طلب من حسن الجلوس سأله:

- أنتأ طلبت تقابلني يا أفندي؟

- أنا اسمي حسن يا شيخنا.

- أنا ما يهمنيش أنتأ مين، أنتأ جاي عايز إيه؟

- ممكن أكلمك لو حذك؟

- نظر الشيخ إلى حسن باستغراب وقال اتكلم يا أفندي ما تخافش، محدش من الرجالة يبطّل كلمة اتقالت في المجلس بره المجلس.

وبعد تلمل، قام حسن ثم وقف مواجهاً للشيخ وشمر عن ساعديه وسط حذر وترقب من الجالسين الذين توقعوا جواباً.

لكن حسن لم يتحدث مطلقاً بل قام بالضغط بيده اليسرى على راحة يده اليمنى لتتحرك عكس الاتجاه فانحنى رسغه بمرونة كبيرة لأعلى، ومست إطراف أصابعه ساعد يده وسط اندهاش الجالسين للمرونة التي يحظى بها حسن رغم القوة والصلابة الباديين عليه لكن لم يستطع أحد منهم أن يفسر ذلك الفعل، لكن شيخ العرب تبسم ثم رحب بحسن ترحيباً كبيراً وأمر حارسه الشخصي أن يجهز السيارة الجيب وأمر خادمه باصطحاب حسن إلى أحد غرف الدوار لتغيير ملابسه وحرّق الملابس التي كان يرتديها وأدرك حسن أن ذلك الفعل ربما يعود لاحتياطات أمنية فاطمئن وقال الشيخ لحسن قبل أن يغادر:

- حمد الله على سلامتك يا حضرة الضابط.

- إحنا هنتحرك مع أول ضوء بعد الفجر هنسيك ترتاح.

فنظر حسن إليه بابتسامة الظافر الذي وصل إلى ما يريد بعد طول عناء.

بعدما حظي حسن بحمام دافئ، كان جسده بحاجة إليه، ارتخت على إثره عضلات جسده تبعاً ولم يستطع أن يقاوم النوم ولم يستيقظ إلا عندما أيقظه الخادم لصلاة الفجر فصلّى مع الرجال خلف الشيخ همام، وتلا ذلك انقسام الرجال لمجموعات كل مجموعة التفت حول واحد كان يقرأ القرآن وهم يقرأون خلفه ويسبح وهم يسبحون خلفه، ورغم السعادة التي انتابت

حسن لهذا السلوك المتدين إلا أن قلبه لم يشعر بالراحة خشية أن يكون هؤلاء الرجال صوفيين لأن مولانا المرشد الإمام قد أقر بكفر كل الجماعات الصوفية، وتحريم تلك الطرق القائمة على الاستعانة بأهل القبور من دون الله

ومع ظهور أول ضوء تحرك الخادم إلى حسن وقال إن الشيخ يستدعيك،

فقام حسن إلى الشيخ همام الذي قابله بابتسامة وقال له ستتحرك بعد تناول فطورنا.

دوى صوت محرك السيارة الجيب التي قام حارس الشيخ بتجهيزها بما يلزم من وقود وإصلاحات وبعض الماء وقليل من الطعام، وراحت السيارة تنهب الصحراء نهباً، فوق مدقات جبلية بدت السيارة كنقطة متحركة في بحر ساكن.

نظر الشيخ همام إلى الشمس التي باحت له بسرّها، فأمر السائق بالتوقف وأذن حارسه لصلاة الظهر وصلوا خلف الشيخ ثم استأنفوا رحلتهم ولم يستطع حسن أن يتبين الاتجاه الذي سلكوه فهم يسرون في صحراء معزولة ثم يدخلون مدقات جبلية وهكذا فلم يستطع أن يحدد بدقة في أي اتجاه يسير وراودته بعض الهواجس، لو أن هؤلاء الرجال تركوه هنا لهلك بالتأكيد

فهو لم يعرف من أين بدأ ولا أين ينتهي في وسط صحراء لا تنتهي، لكن السائق يحفظها عن ظهر قلب وتعجب حسن فهو لم ير أي علامات يمكن الاهتداء بها إلا أن الرجل يسير ولا يتردد وكان صمت الشيخ المهيب دليلاً على صحة الطريق ومن طول الطريق وتشابهه لم يعد حسن ينظر إليه إلا على فترات متباعدة وراح عقل حسن يبحر بطريقته المعتادة ويسأل تلك الأسئلة التي لا تسبب الراحة..

- هل ما زال اللواء يذكرني؟

- هل ما زال يحمل نفس ملامحه القديمة؟

- هل ما زال يكنّي من الود والمحبة؟

- وهل وهل وهل..

وشعر حسن بيد تربت على ظهره ورغم ثقلها إلا أنها تحمل الرحمة يرافقتها
صوت الشيخ همام..

استعد عشان هنمشي على رجلينا.

كانت السيارة تتحرك في اتجاه سلسلة جبال مختلفة الألوان، حمراء ممزوجة
بالسواد، وصخور بركانية محروقة وأخرى رسوبية ذات أشكال تخطف
العقول، وقفت السيارة أمام مدق جبلي لا يسع أكثر من شخصين فنزل
السائق والحارس والشيخ وحسن وسار السائق في الأمام والشيخ همام
وحسن خلفه وخلفهم الحارس ورغم طول المسار وضيقه إلا أن اختفاء أشعة
الشمس الحارقة جعل الهواء الحامل لرائحة الزهور البرية رطباً منعشاً ولذيذاً
مما جعل حسن متشياً غير عابئ بطول الطريق بل تمنى ألا ينتهي الطريق
لكن كعادة حسن تذهب أمنيته أدراج الرياح فقد بدأ يظهر انفراجة المدق
وظهور بعض الرمال الصفراء الناعمة المعلقة عن قرب الخروج من المدق
كالعادة إلى الصحراء، لكن كانت الرمال الصفراء خادعة تلك المرة فكانت
امتداد سهل مملوء بالخضرة أوسع بين جبلين أقل ارتفاعاً وأكثر تباعدًا من
الجبلين اللذين يحيطان بهما.

لم تكن تلك النباتات بفعل عشوائي كما اعتقد، لأنه اكتشف امتداد السهل
ينتهي بحاجز ضيق لجبلين أكثر ارتفاعاً وكانا شاخين كأنهم بوابة وتم بناء
سد على كل منهما لحجز الماء واستخدام ذلك الماء في الزراعة والإعاشة
وانفراج الجبلان عن سهل أكثر انبساطاً وكان مزروعاً بنفس النباتات،
فامتلات نفس حسن بهجة وحيرة وقال مغمغماً إلى نفسه: كم أنت عبقرى
سيادة اللواء، اختيارك للمكان، فلا توجد قوة مهما كانت تستطيع اقتحام
تلك القلاع الجبلية، ووجود خزانات الماء تلك يجعلك قادراً على مقاومة أي
حصار، حتى اختيارك لكلمة السر تنطوي على عبقرية شديدة، كنت قلقاً
من أن تكون خطأ فأنت زرعتها في عقلي ولو كنت أعرفها قبل ذهابي للشيخ
ربما كنت تراجع عن فكرة الذهاب لكن اعترف بعبقريتك فقليلون من
يملكون موهبة ثني الأصابع لأعلى وحتى وإن وجد فلا يوجد من يصدق
أن تلك هي كلمة السر.

انتبه حسن إلى صوت الشيخ همام وهو يقول بفخر شديد:

- دي أغلى نباتات في العالم، دا نبات الفانيليا مولانا بيقول عنها فانيليا مدغشقر

ثم أشار بيده لمنطقة بها نبات مختلف وقال هذا نبات الزعفران أما الزهور الجميلة تلك وكانت ذات ألوان مختلفة فقال حسن:

- دا نوع واحد؟

أيوه تلك زهرة الأوركيد وليها أشكال كثير غريبة. إحنا بنبيع تلك النباتات للأجانب وينقبض عملة صعبة، ثم أخذ نفساً وزفر وقال قبل ما يجي مولانا هنا كانت المنطقة دي اسمها متاهة الهلاك لأنها كانت قاحلة ولا بتزرع ولما كانت الميه بتنزل من الجبل لما يبقى فيه سيول كانت بتروح هدر لكن ببركة مولانا كل شيء اتغير والآن النباتات دي بتجبلنا ملايين والمكان بقى روضة من رياض الجنة وحضرتك هتشوف بنفسك.

مر سؤال عابر بذهن حسن هل مولانا الذي يتحدث عنه الشيخ هو سيادة اللواء أم أن هناك مولانا وسيادة اللواء مساعد له؟

طافت عينا حسن بأرجاء المكان واستطاعت على اتساعه وامتداده أن تلتقط الكثير من تفاصيله فهو سهل محاط من جميع جوانبه بالجبال معزول تماماً لكن تشعر روحك فيه بالهدوء والسكينة وكأنه مكان صوفي بامتياز، ومع مرور نسمة رقيقة حاملة معها عبق الزهور إلى رئتي حسن أفرغت رأسه من كل الأسئلة بل راح يتأمل تلك الريح وهي تنتقل كفراشة رقيقة من زهرة إلى أخرى فتزهها وكأنها تتمايل ذكراً لله وشكلت الأزهار مع الريح شكل أمواج متتابعة فنظر الشيخ إلى حسن مغتبطاً بهذا الشكل البهي الذي على ما يبدو أسر عقل حسن.

تحرك رباعيتهم متجاوزين النباتات والزهور إلى أن بدت أمام أعينهم بيوت خشبية وكان المكان الذي كان فارغاً استحال إلى قرية كبيرة منتظمة بيوتها من الأخشاب ثم بدأت عيناه في ملاحظة بعض هؤلاء الساكنين الزّراع، ويبدو أن مظهر قوتهم وانتظامهم يحملهم من الزّراع إلى رتبة المحاربين ويبدو أنهم

قد أبصروا الشيخ همام فأقبلوا مسرعين الخطى نحونا وسلموا علينا وقبلوا يد الشيخ همام وكانت عيونهم تنظر إليه بحب وقدسوة ومهابة كبيرة، عندئذ وصل مسرعاً رجل طويل ممشوق القوام صارم الوجه فقبل يد الشيخ.

- فتوجه إليه الشيخ بالسؤال مولانا فين يا ولدي؟

- في الساحة يا سيدي.

عندئذ تنحى الجميع جانباً عندما تحرك الشيخ وأنا خلفه واتجه الشيخ إلى أحد البيوت الخشبية وكان في مكان متفرد ولا يوجد بجانبه إلا بيتين اثنين وكانت تلك البيوت أكثر اتساعاً وفخامة من البيوت الأخرى وقال الشيخ: - سنتنظر في استراحتي حتى يأذن لنا مولانا بمقابلته.

فقلت لنفسي لقد جئت كي أقابل سيادة اللواء ولا حاجة لي بمقابلة مولانا لأنني قد تأكدت من وجود ثلاثة بيوت متفردين، يعني بيتاً للشيخ همام وآخر لمولانا والآخر لسيادة اللواء، لكن البيت الذي في الوسط هو أكثر البيوت حجماً على الإطلاق فلا بد أن يكون لمولانا وكانت تلك البيوت الثلاثة تحتضن الزهور، ترى كل بيت في القرية وترى كل أرجاء المكان بوضوح ولاحظ حسن أن الريح تتحرك في اتجاهها بعد مرورها على حقول النباتات فتدخل البيوت الثلاثة محملة بأريجها، نظر الشيخ إلى حسن وقد رأى أثر سحر المكان على وجهه فاغتنب..

دخل الخادم على الشيخ وحسن، وقدم لهم ماءً مثلجاً بريح الورد، شرب حسن ولسان حاله يقول والله ما ذقت أطعم منه.

فقال الشيخ للخادم مداعباً

- أين الطعام؟

فانصرف الخادم سريعاً ولم يمض وقت طويل حتى دخل الخدم حاملين خروفاً مشويّاً وأرزاً، فأكلت بنهم شديد فقد كنت جائعاً وكذلك مولانا وبعد أن أنهينا طعامنا دخل علينا الحارس وقال للشيخ إن مولانا ينتظرك أنت

والضيف في استراحته وعندما خرجنا لملاقاة مولانا في البيت المجاور رأيت المكان يحيطه حراس أشداء وتحرك الشيخ بهمة كبيرة وأنا خلفه واجتاز الحديقة الفاصلة بسرعة كبيرة مهتلل الوجه وصعد درجات السلم كحبيب يتحرك لملاقاة محبوبه فقام مولانا في بهائه لملاقاة الشيخ..

- ربه..... إنه هو لم يتغير، إنه سيادة اللواء.

وبعد أن سلم على الشيخ وقف أمامي قليلاً يتأملني، لم أشعر أنه لا يعرفني لكن تأمل المحب الذي انتظر حبيبه.

حسن قال هامساً ثم احتضنتي وبחנו الأب أخذ بيدي وأجلسني جانبه.

فاطمثن الشيخ إلى صدق معرفتي بمولانا.

وبعدما فرغنا من تناول الشاي استأذن الشيخ همام بالرحيل.

لاحظ سيادة اللواء توتري.

وقال لم تتخلي عن عاداتك القديمة، تقوم بهز رجلك عندما تكون متوتراً.

ابتسمت وقبل أن أنطق قال:

ما الذي يحدث في القاهرة، من قتل نائب المرشد؟

تعجبت فكيف تصل المعلومات إلى من يعيش في تلك المنطقة المنعزلة حتى ولو كان مهتماً، فإن الأصل في وصول الشائعة هو اهتمام الوسط بها وقد لاحظت في رحلتي من القاهرة حتى وصولي للصعيد عدم اهتمام أهل الصعيد لما يحدث في القاهرة.

هذا ما جئت من أجله.

لم تصدم تلك الإجابة سيادة اللواء لكن قال:

كنت أنتظرك وأعلم بمجيئك.

لكن صدمتني أنا إجابته وفتحت الباب لسيل من الأسئلة انهالت على عقلي فجأة، فقال سيادة اللواء مبتسمًا:

ما زلت أنت لم تتغير، فأنا أرى تلك الأسئلة التي طافت بعقلك.

لكن سأتركك لتستريح لكن أنت تعرف ليس لمثلي أن ينعزل عن الأحداث مهما كانت طبيعة الجغرافيا التي تحيط به.

أنا أريد أن أنهي ما جئت من أجله، علي العودة بسرعة إلى القاهرة.

فقال:

الأحداث متصلة ولن يضرها غيابك يومًا آخر، استرح قليلاً ثم قم.

فقلت هل تعرف شيئًا عن المبنى ٦٦ ويبدو أني قد أثرت انتباهه إلى أقصى حد وانتبه إلي بكل حواسه عندئذ علمت أن رحلتي لم تكن هباءً.

هل للمبنى علاقة بالأحداث التي وقعت في القاهرة؟

فقلت نعم أعتقد أنه كان بداية الأحداث.

شاهدت تغيرًا كبيرًا على وجه مولانا وقال بحزم:

تعالى معي.

أخذني من يدي وصعدنا إلى الدور الثاني شعرت عندئذ أن بيت الأسرار قد انفتح وربما بعدما يمدني بما أحταجه من معرفة عن المبنى، أسأله أسئلة قديمة؛ لماذا هرب؟ فقد كان بإمكانه أن يصل إلى ما يريد من مناصب فلو أراد أن يكون المرشد لأصبح المرشد فكيف له أن يترك تلك الحياة ليحيى؟ ليعيش هنا منعزلاً بعيداً عن الحضارة.

دوى جرس اللاسلكي في يد مولانا ورغم أني شخصية غير متشائمة إلا أني شعرت بأن شيئًا ما سيقطع فرحتي بدخول بيت الأسرار.

بالفعل قد كان، فقد كان صوت اللاسلكي واضح.

مولانا، هناك مصدر للإرسال تم رصده في استراحتك، هل تسمح لنا الآن بعمل مسح؟

أشار إلى مولانا بالجلوس انتظاراً للفريق الأشعة، لم تمض غير لحظات حتى رأيت اثنين أحدهما برتبة ضابط والآخر برتبة صول، معهما جهاز لكشف الأشعة، وبدء العمل بعدما أديا التحية العسكرية لمولانا، مما أشعرتني بعدم ارتياح، ثم استأذني الضابط للوقوف لإجراء مسح عليّ وقام بإمرار المستقبل أمامي ثم من خلفي، عندئذ أصدر الجهاز أزيزاً عند مروره بمحاذاة كتفي وأظهرت قراءة التردد أنها نفس الإشارة التي تم التقاطها من قبل.

انتابتنى حالة من القلق والخوف لكن ما طمأنني قليلاً، ابتسامة أبوية من اللواء وقال سنذهب إلى المركز وقد علمت بعد ذلك أنه المركز التقني وهو تجميع لسلح الإشارة والحرب الإلكترونية.

تحركت أنا وسيادة اللواء إلى المركز لاستخراج الجهاز وتحديد نوعه، تحرك اللواء بحركة عسكرية سريعة استرعت انتباهي لكن لم يعرني أي اهتمام مما زاد ارتياكي وقرأت في عينيه أن قراره سيكون لاحق على ما يبدو بعد تحديد نوع الجهاز.

تحركت بنا السيارة بعيداً عن البيوت الخشبية في اتجاه أحد الجبال البعيدة الموجودة في اتجاه شروق الشمس.

تخوفت أن يفقد اللواء الثقة فيّ، فلم أعرف ما أقول رغم أني أجيد التبرير، لكن خوفي كان أكبر من أن أقول شيئاً، ولم يتحدث اللواء إليّ، بل لم ينظر إليّ، لكن عندما نزلنا من السيارة وضع اللواء يده على كتفي ثم أشار إليّ بالحركة بيده إلى الاتجاه الذي ينبغي أن نتحرك فيه، سرنا ما يقرب من خمس دقائق ثم تفرق بنا النفق إلى نفقين، تحرك اللواء في النفق الأيسر وتبعته، وبعد بضع خطوات ظهرت بوابة حديدية مصمتة، ضغط اللواء على شاشة بلازما وبعدما أضاءت قام بإدخال بعض الأرقام لينزاح الباب كاشفاً عن واقع آخر وفارق زمني بين العصور الوسطى والمستقبل داخل ذلك المركز.

تركني اللواء وجلس على كرسيه بعد تأدية الشباب العامل على تلك الأجهزة التحية العسكرية وكان هؤلاء الشباب يعملون على تلك الأجهزة بهمة ومهارة بالغة وتعجبت أين تعلموا وكيف تعلموا العمل على تلك الأجهزة التي لم أرى مثلها في أفلام الخيال العلمي، عندئذ اقترب مني أحد هؤلاء الشباب وكان يحمل رتبة عسكرية تساوي نقيب وقال لي بأدب جم: تفضل معي يا سيدي. ثم أدخلوني جهاز أشعة مشابه لجهاز الأشعة المقطعية لكن كان مختلفًا تمامًا من الداخل حيث وجدت جسدي يخف شيئًا فشيئًا ويرتفع لأعلى، وعلقت في المنتصف وبعد لحظات أخرجوني وسلموا سيادة اللواء تقريرًا مفصلاً. أعطاهم أمرًا لاستخراج ذلك الجهاز من أسفل كتفي الأيسر وحقيقة لم أشعر

بيد هذا الجراح بعد وضعه لبعض الأعشاب المخدرة على ما يبدو، وكان شديد المهارة والسرعة أيضًا فما هي إلا لحظات حتى استخرج الجهاز، ثم قام بوضعه في قارورة تحتوي على محلول ما وأعطاه لسيادة اللواء.

ترك اللواء التقرير ووضعه على المنضدة التي أمامه ونظر مليًا إلى الجهاز ثم أعطاني القارورة وقمت بتأملها وكان جهازًا صغيرًا جدًا، لم أستطع أن أتبين أجزائه بدقة ولا أخفيكم القول، كانت أول مرة لي أن أرى مثل هذا الجهاز.

قال اللواء:

- هل تعرف هذا الجهاز؟

- هذه أول مرة لي أن أرى مثل هذا الجهاز.

وقمت بتقريب القارورة أكثر من عيني، تأملت الجهاز بدقة أكبر حتى أتأكد من إجابتي لكن سيادة اللواء قال:

لن تعرفه لأنه لم يدخل الخدمة في سلاح أمن النظام، لكن هو من أخطر أجهزة التجسس لدى أمن المرشد.

إن هذا الجهاز يدعى (N٧٥) وكان يستخدم في العشرينيات كجهاز بديل للإرسال في حال توقف الجهاز الأصلي عن الإرسال لأي سبب واسمه الدارج الطفيلي، لأنه متصل بجهاز الإرسال الرئيسي، فيتغذى من طاقته الأساسية ويحصل على المعلومات التي سوف يرسلها، وفي حال فشل الجهاز الأساسي في إرسال تلك المعلومات يقوم هو بإرسالها. ورغم صغر حجمه البادي إلا أنه عالي التكلفة لإشارته القوية، ومعالج البيانات لديه فائق القدرة ويستهلك الحرارة الناتجة عن معالجته للبيانات في توليد ما يلزم من طاقة كهربية وذلك في غياب العائل الأساسي.

- وما علاقة ذلك بوضعه في ظهري؟

لقد تم تطويره بعد ذلك لاستخدامه في التجسس، فهو يوضع في جسد العائل البشري أو الحيواني ثم يقوم بإرسال المعلومات التي يتلقاها في صورة شفرات.

- لكن سيادة اللواء أنا لم أخضع لأي جراحة عندما كنت محتجزاً لدى أمن المرشد، فكيف تفترض أنهم من وضعوه؟

شعرت ببعض الحرج لأنني أحسست أنني أقدم اتهام مباشر للواء بافتراء تلك القصة، وسألت نفسي دون أن أرفع رأسي وأواجه سيادة اللواء، لماذا ادعى اللواء ذلك؟ هل أراد مني أن أثق فيه وأفقد الثقة في المجموعة الأخرى؟

- أنا أثق فيه ولا أثق في الجهة المقابلة، في أي منهم إلا في مولانا المرشد الإمام، لأن فقدان الثقة فيه هو مضيعة للدين، لأننا يجب أن نكون جميعاً بين يديه، يجب أن نكون مثل وجودنا بين يدي مغسلنا وإلا ما اكتمل الإيمان وإني لن أسمح أن ينهار نظام الخلافة ولو كان ثمنه حياتي.

- لأنك لن تعرف.

قال اللواء تلك المعلومة بشكلٍ قاطع. كانت كل تعبيرات وجهي علامة تعجب!

- هل شعرت يوماً بكره لي؟

- لا سيادة اللواء، فأنا أحبك وأحمل لك كل تقدير.

- هل هبط عليك يوماً شعوراً مفاجئاً بالكره لشخص ما أو حبه ويكون طرفاً في تلك القضية التي تعمل على حل ألغازها؟

- أحسست أنني كالمصعوق.

- ما الذي تريد أن تقوله سيدي اللواء؟

- أردت أن أقول أنك لا تعرف أي شيء عن إمكانات ذلك الجهاز.

- إن هذا الجهاز بإمكانه أن يمحو بعض الأشياء من الذاكرة أو يضيف إليها وأعتقد أنه قد تم محو أي معلومة عن زرع الجهاز في ظهرك وبالمثل ممكن إضافة معلومة حب أو كره لشخص ما، وصمت اللواء قليلاً ثم استطرد لقد خضعت لاستجابات قوية هناك وتم محوها.

- صمتت وقبل أن أبحر مع أفكاري أردت أن اطمئن.

- هل توصلوا إلى مكانك؟

- ابتسم سيادة اللواء وقال

- على الرغم من أنك رجل دولة إلا أنك ما زلت تحتفظ بحبك لي.

- لا يستطيعون الحصول على أي معلومة عن هذا المكان لأن تلك الأجهزة أكثر حداثة، استطاعت فك شفرة إرسال الجهاز وسيتم إرسال المعلومات التي نريدها وسينطلق أحد العناصر حاملاً الجهاز إلى منطقة ما وسنتركه هناك لبعض الوقت ثم نحركه إلى منطقة أخرى.

- ابتسمت معلناً تقديري لتلك الخطوة، فاستطرد اللواء:

- لكنهم استطاعوا بالتأكيد تحديد هوية الشيخ همام ومكانه وتحديد صلته

بي

أعطى اللواء الجهاز إلى الضابط المسؤول وأمره أن يعد خطة تمويه جيدة.

كانت تعبيرات وجهه جادة وعينية تقول إنه يفكر بعمق، لذا لم أقطع تفكيره، لكنه هو الذي قطعه وقام من مكانه وقال تعالى معي.

أردت أن أسأله، فلم تكن معلومة بث الجهاز لموجة حب أو كره واضحة في ذهني وخاصة أنني أعلم أن الحب والكره بيد الله، لا دخل لمخلوق في هذا،

لكن الجدل الظاهر عليه وكوني أنا الطعم الذي أتى بكل تلك المتاعب إليه منعني من الحديث معه بل اتباعه لكن، هل أنا طعم؟ ربما تم وضع هذا الجهاز في ظهري منذ زمن بعيد منذ استجوابي ولم يكن بمقدورهم معرفة سير الأحداث أو أنني سأذهب إلى سيادة اللواء.

تحركت خلف سيادته بخطى سريعة، وما أن وصلنا حتى نهاية النفق حتى استقبله الحرس بتحية عسكرية أربكتني لكن تقبلت الأمر فربما مولانا يود أن يكون كل شيء منظماً، ركبنا السيارة وقد أدركت أننا لسنا ذاهبين إلى الاستراحة فقد تحركنا بعيداً وقبل أن أنطق وأسأل سيادة اللواء إلى أين نحن ذاهبين، ابتسم سيادة اللواء لي ابتسامة تعني أنه سوف يذهلني فسكت لأنه يود أن يطلعني على سره الدفين.

بعد خروجنا من المنطقة الجبلية من مكان غير الذي دخلنا منه، سرنا في مدقات شبه ممهدة، لكن شديدة الوعورة وبعد أن سرنا بالسيارة لمدة تصل إلى ثلثي الساعة، وصلنا إلى منطقة جبلية أكثر انعزالاً من التي كنا فيها وجبالها أكثر ارتفاعاً.

سرنا بعض الوقت ومعنا الحراس، إلى أن وصلنا إلى منطقة سهلية بين الجبال لكن كانت أكثر ضيقاً وأكثر استواءً، نظرت إلى الجبال المحيطة بالسهل فشعرت أنني أقف في قلعة حربية حصنتها الطبيعة بدروعها، وما أن وصلنا إلى بداية السهل حتى دوى صوت البروجي معلناً قدوم القائد.

انشقت الأرض عن ضابط يحمل رتبة عالية، وقف أمام اللواء معطيًا تحية عسكرية ورغم استغرابي للموقف ونفوري منه، إلا أنني شعرت بتيسر في عضلاتي وانتصاب جسدي وكأنني عسكري أيضًا، افسح الضابط ذو الرتبة العسكرية العالية الطريق أمام سيادة اللواء، إلى أن وصلنا إلى منصة حجرية منحوتة في الجبل، صعدت مع اللواء، ثم أعطى مولانا إلى الضابط إشارة ببدء العرض فأعطى الضابط الأمر ببدء العرض وبدأ العرض مع دوى نغير البروجي، فبدأت الوحدات بالدخول واستعراض قدراتها القتالية وأسلحتها المتطورة وأعترف أنني لم أرميلاً لها لدى جيش مولانا المرشد وأدهشني حماس الجنود وانضباطهم وكفاءة استخدامهم تلك الأسلحة، عندئذ أصبت بتوتر لاحظته سيادة اللواء فابتسم وقال:

- يبدو أن الجيش قد أثار إعجابك.

طافت في ذهني أسئلة تنم عن خوف حقيقي على الدولة المصرية، لماذا هذا الجيش ولأي غرض؟ هل هو من أجل السلطة؟ هل سيادة اللواء طامح في السلطة؟

فلو أراد مولانا السلطة لحصل عليها وربما كان هو المرشد القادم، إذن لماذا هذا الجيش؟ ومن أين حصل على هذه الأسلحة المتطورة؟

ما أن انتهى العرض حتى أمر اللواء الجيش بوضع الاستراحة ثم خطب فيهم وحقيقة لم أفهم من كلامه أي شيء لكن مع كل فاصل من كلامه أرى الحماس في ردود الجنود "هو هو هو هو هو" وكأنه كلام صوفي.

هل مولانا صوفي؟

هل هذا جيش صوفي؟

ختم مولانا خطبته وهو ينظر إليّ مما اختطفني من أفكاره وقال «ألا إن نصر الله قريب»

ثم اقترب مني وقال:

- ما رأيك في قدرات هذا الجيش؟

لم أستطع أن اخفي ملامح الغضب من على وجهي، فضحك سيادة اللواء ضحكه عالية وقال

- يبدو أن الجيش قد أثار إعجابك، ثم أكمل حديثه قائلاً إن هذا الجيش هو ضمان لاستمرار الدولة المصرية.

- كيف وفوهات بنادقه ستكون في اتجاه الدولة؟

ضحك مرة أخرى وقال:

- أعرف ما يعتريك من مشاعر لكن سأجيب على أسألتك كلها لكن بعد الخلوة.

حملتني السيارة وحيداً عائداً إلى استراحتي، وأخبروني أن تلك الاستراحة المغلقة كانت معدة لي، وقلت لنفسني إن عالم اللواء مليء بالأعاجيب.

دخلت استراحتي الموجودة بجانب استراحة سيادة اللواء، كانت بسيطة ومريحة وتناسب مع ذوقي الخاص، أجلت التجول ومعرفة ما تحتويه غرفها إلى حين انتهائي من الحمام، أرشدني الخادم بكل أدب ومودة إلى مكان الحمام وعرفت أنه يحتوي على بانيو، مما قلل من كآبتي، وقال لي الخادم الأسمر دقيق الملامح أنه قد أعد البانيو وخلط ماء ببعض الأعشاب التي ستمتص برائحتها الذكية آثار التعب والعرق، فإن لم أرتاح إليها سيغيرها على الفور وأخبرني أنه يعرف فنون التدليك إن كنت أحتاج إلى جلسة مساج، فشكرته وأخبرته أنني بحاجة إلى الاستغراق والاستمتاع بالبانيو فقط.

رغم شوقي إلى الماء إلا أنني خلعت ملابسي على مهل وتوجهت إلى المرأة، وقفت معطيًا ظهري لها ونظرت أسفل كتفي حتى أتبين موضع الجرح، وجدت بالفعل مكان الجرح لكن لم أشعر بأي ألم حتى الآن، ثم توجهت إلى البانيو مباشرة، فلم أستطع أن أقاوم تلك الرائحة الذكية المتصاعدة منه.

تحسست الماء بيدي قبل نزولي فوجدته بارداً منعشاً فدلقت إليه متسللاً
كثعبان، حتى لا أثير حفيظة الماء تجاهي فيشاركني تناغم سكونه.

هجمت الأفكار على عقلي هجوماً لا مخلص منه، على الرغم من حاجتي
إلى عدم التفكير ورغبتني الملحة في أن أنعم ببعض السكون، لذلك قررت
الحرب من أفكارٍ مستعينة بروعة وطرارة الماء المعطر الذي يحتويه الآن.

تركت جسدي ينساب داخل الماء فغطست وتركت الأفكار وحيدة على
سطح الماء، منتظرة خروج رأسي حتى تعود إليها من جديد، ثم أغمضت
عيني لأحظى بلحظات من متعة السكون.

لكن فكرة استطاعت أن تتسلل إليّ ووصلت إلى عقلي فأخرجتني من البانيو
مسرّعاً ثم ناديت على الخادم، أريد أن أقابل سيادة.... بالطبع هو يعرف
سيادة اللواء بمولانا، عندئذٍ انتهت إلى أن مولانا هو سيادة اللواء الآن ولا
فرق فقلت أريد أن أقابل مولانا.

إن مولانا يستعد لدخول الخلوة ولن تستطيع أن تقابله الآن سيدي لكن
ستقابله في الخلوة.

- هل أستطيع أن أتحدث إلى الشيخ همام؟

سيأتي إلى الخلوة أيضاً سيدي، إن مولانا قد أمر لك بشرا به المفضل، كأس
من عصير الأناناس المثلج، هل أضعه لك في (الفراندة)؟

- نعم ضعه هناك.

كانت شمس الغروب قد زالت ولم يتبقى إلا بعض الشفق معطياً
انعكاسات على الجبال المحيطة بالسهل فبدت الألوان غير الألوان، بما يشبه
السحر فزفرت مخرجاً كل التعب وكنت محظوظاً بريح رقيقة حملت كل أنواع
الروائح للزهور المحيطة فملأت رئتي بها وكان إحساساً غريب، شعرت أن
دماء القوة راحت تسري في جسدي، أغمضت عيني حتى أحظى بتبع روح
القوة تلك التي تسري في جسدي.

إن هذا الجو لا يتغيه إلا زاهدًا عابدًا متأملًا ساكنًا، أو محب غادرته حبيبته
فانزوى بعيدًا عن الحياة وأراد أن يلتمس الراحة من عذاباتِه ويستعين بهذا
الجمال على ضعفه، أو صوفي أراد الوصول.

هل سيادة اللواء أصبح صوفيًا؟ ألم يعلم رأي الله فيهم والذي بينه لنا
فضيلة المرشد أنهم أهل بدعة وضلال وأنهم عبدة الأضرحة ويضلون الناس
باسم الدين؟

- ألم يبصر قلبك بعد؟

نظرت يمينًا ويسارًا وقلت:

- من أين أتى ذلك الصوت؟

قممت باتجاه السور الخشبي ووقفت عنده لأرى صاحب الصوت وأعرف إن
كان صاحب الصوت يحدثني أنا، أم أن ذلك الحديث ما هو إلا حديثًا داخليًا
واختلط عليّ الأمر، لكن إن كان صاحب الصوت موجودًا فعلاً، كيف علم
ما أفكر فيه؟

دارت تلك الاستفهامات في ذهني قبل وصولي إلى السور الخشبي لكن
أصيب عقلي بذهول ومن هول المفاجأة قلت:

- أهو أنت؟

- أنا عبد الله.

- لقد بحثت عنك طويلاً، أين ذهبت؟

- رحلت.

- هل أنت دائم الترحال؟

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرضٍ مستقراً

ونلت من الزمان ونال مني وكان مناله حلواً ومراً

- هل أنت صوفي؟

- أنا الباحث بقلبه عن الحقيقة.

أردت أن أقول له كذبت بل أنتم مشركون بالله، تشركون بأوليائكم، فرد الشيخ علي وتعجبت لأن تلك الفكرة لم أنطق بها وما زالت في عقلي.

فقال الشيخ:

إن المحب إلى المحبوب يتجرد والميل إلى سواه إشراك.

بل مَنْ منكم من قال؟ أنا الحق.

وكيف لمثلئك أن يفهم؟، اقترب مني.

اقتربت قدر استطاعتي، وضع يده على قلبي وقال:

إن القلب عين المحب وفي بحار العشق يذوب هذا وفي متاهات الشوق يوجد أقوام. آه، أتمنى أن تذوق كي تعلم، فمن ذاق علم ومن علم أبصر، عندما تصير روحك من روح الله، لأن الروح ليست محدودة بالجسم لكنها موصولة به تثير الشوق إلى الامتزاج بالأصل الذي هو كل شيء وليس في عالم الحقيقة سواه.

شعرت ببعض النفور من كلام لا أفهمه وتذكرت كلام شيعي عنهم، أنهم أهل فتن، فكلامهم لا تستطيع القلوب مقاومته، فقاوموه بعقولكم، لكن شعرت براحة وسكينة عندما لامست يد هذا الشيخ قلبي، لكن الشيخ هتف وقال:

إنك رجلٌ تحدث له الأعاجيب وسترى أحياء الموتى.

ماذا تقول؟

سترى عجباً يا بني، فلا تصدق عقلك، لكن صدق قلبك.

هلا أوضحت فأنا لا أستطيع أن أفك تلك الرموز، هلا تفضلت في الداخل
تشاركني الشراب؟

- إن مولانا لم يأذن.

فقلت هل أحضر لك هنا بعض الشراب؟ إنه جيد.

لم أمهله حتى يرد وناديت على الخادم كي يحضر كأساً من عصير الأناناس
المثلج للشيخ المسافر.

لكن عندما التفت لم أجده ولم أجد له أي أثر فقلت وتمنيت أن يسمعي:

إنك لغز أكثر من كلامك!

عدت إلى الكرسي الهزاز المصنوع من جريد النخل، لم أشغل بالي بما قاله
الرجل.

إن كل ما يقوله جنونٌ، أشاهد العائدين من الموت أو أحيائهم، إن تلك
تخاريف صوفية، فهم دائماً ما يثيرونك بكلام لا تفهم منه شيئاً ويتحدثون
عن المستقبل وكأنهم يقرأون كتاب الغيب ويشعرونك أنهم يمتلكون السر،

لكن لا أعرف لماذا أحدثهم ولا أرفضهم ولا أخرج من الوقوف معهم؟ مع
أن مولانا قد حذرنا منهم وقال عنهم أنهم تلك الفرقة التي أخبرنا الله عنها
«الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا».

بتلك الآية ختمت أفكاري وعدت إلى استمتاعي بذلك الجو الذي لا
يوصف في جماله وسكونه.

لكن لم أستطع أن أقاوم سؤالاً طاف بذهني.

كيف علم ذلك الرجل بأني رجلٌ تحدث له الأعاجيب؟ ألاقي رجالاً
مثله وأشاهد أحداثاً عجيبة، أحب فجأة.....!!!!!!.

ثم أكتشف أنني أحببت بفعل فاعل تحت تأثير ذلك الجهاز الذي منح قلبي عاصفة من العواطف الزائفة، ألغيت عقلي وصدقت قصصاً هزلية عن فتاة أشعر بحالة حب فوق العادة من صورتها وأجدها ميتة ولا يوجد لها جثة، جثتها مختطفة، أليس هذا عجيب؟

لكن الأعجب هو حبيتي، تقف بجانب مبنى غريب ثم تدعي أن رجلاً خرج من ذلك المبنى ثم مات وعندما يذهب الضابط للتحقيق لم يجد الجثة، فتحاول تلك المرأة إقناعه وتقول أنه أعطاها خاتماً ولكن عندما ذهبت إلى سيارتها كي تحضر ذلك الخاتم لم تجده، ورجال أمن المرشد لم يجدوا الخاتم أيضاً وأجده أنا ويفشل رجال أمن المرشد بأجهزتهم المتطورة في العثور على ذلك الخاتم وأعثر عليه أنا، خاتم يبدو من معدن مختلف، نعم لكن ليس مبرر أن يكون سبب كل الحوادث ولا يجذوه وأجده أنا، ولأني أحببتها وصدقت رواية ذلك الضابط المدسوس بالفعل من أمن المرشد حتى أدخل ذلك المبنى ويضعون لي من الصعوبات حتى أطمئن إلى صدق روايتهم والأغرب أنهم جعلوني أكلّم الموتى. ثم لغز الخروج والدخول واللغز الأكبر عندما أخرج من ذلك المبنى الذي أوشكت على الهلاك فيه، يخيب بحثي في العثور على أي معلومة عن ذلك المبنى، كل ذلك حتى لا يكون أمامي إلا باباً واحداً أطره بحثاً عن المعلومة، هو سيادة اللواء، فأكون المرشد إليه.

لكن لماذا لم يفعلوا تلك المؤامرة منذ رحيله عن الجهاز؟

الاحتمال الوحيد أنهم يرتبون البيت من الداخل الآن، وتخلصوا من مولانا نائب المرشد وأرادوا أن يتخلصوا من رفيقه وربما يعلمون بجيشه الصغير المتطور، وربما كان لمولانا نائب المرشد صلةً به، فأرادوا معرفة المكان الذي يعيش فيه ومكان الجيش ويتخلصون منه ومن جيشه قبل أن يستفحل أمره، كلها احتمالات لكن كنت في هذه الاحتمالات كعروس المسرح يحركها أمن المرشد كما يشاء، ورغم ثقتي في عقلي إلا أنه قد تم التلاعب بي.

كيف تم التلاعب بعقلي؟ كان مدخلهم هو القلب؟ ولأني أحببت، أحببت سراباً! عندئذ أجهشت بالبكاء على لذة الحب الزائف، وكانت موجة بكاء عاتية، لم يخرجني منها إلا دخول الخادم.

- سيدي؟

- ماذا تريد؟

وبطرف ثيابي مسحت الدموع من على عيني.

- بإمكانك الانضمام إلى الخلوة سيدي.

- اعطني خمس دقائق.

- حاضر، سأجهز لك ثياب الخلوة.

لم أفهم ما يعنيه بثياب الخلوة لكن نظرت إلى السكون السرمدي حين يتم اختراقه من موجات الظلام وتشبع النهار بالظلام، فلم يعد له أثر،

- ألهذا الحد أحببتها؟

وقبل أن أبدأ في موجة بكاء أخرى دخلت إلى داخل الاستراحة فوجدت الخادم ينتظرنني حاملاً معه لبس الخلوة فارتديت الثياب وهو طاقية خضراء

وقميص أبيض طويل ممتد حتى الركبة وعليه صديري حريري أخضر وبنطال أبيض، كان نفس اللباس الذي يرتديه الخادم عندما خرجت من غرفتي ونظرت للخادم فأجريت مقارنة بين لباسنا فلم يكن هناك فرق فعلي فقلت:

- هل أنت ذاهب إلى الخلوة أيضاً؟

- نعم سيدي كلنا نذهب للخلوة فلسنا عمالاً بل عباداً.

لم أنطق بعد كلاماته تلك، وسرت معه في صمت وكأن الطير على رأسي لكن قلت هامساً لنفسي، أحسنت سيادة اللواء في تربيتك لرجالك،

تحررنا تلك المرة دون سيارة رغم بعد المكان لم أكن أرغب في الحديث حتى إلى نفسي وتركت نفسي للهواء الجاف الحامل لرائحة الزهور، شعرت رغم كل ما مررت به وما أمر به أنني في تلك المنطقة مثل طيف وأنني أعيش حالة روحية رغم معرفتي بأن الطقوس الصوفية حرام شرعاً، لكن هذا الصفاء يلقي السكينة على قلبي.

وصلنا إلى باب المغارة وكان مدخلها مرتفعاً، عريضاً جداً، يخالف للمغارات التي دخلتها في تلك المنطقة ذات المداخل الضيقة، المتسعة من الداخل، وكانت شديدة الاتساع من الداخل يمر داخلها تيار من الهواء الرطب تفوح منه بخور العود، مشينا حتى انقضى الظلام وبدأ ظهور النور وازدادت ريح العنبر فملأت رثتي بطيب ريحها ولكن لم تشغلني تلك الريح الطيبة عن متابعة المريدين، ولم يخطر ببالي أن أرى تلك الأعداد من الصفوف المتراسة من البشر التابعين الذين يرتدون مثل ما أرتدي، مشيت متأملاً لهؤلاء القوم، إنهم مقاتلون ومزارعون بالنهار وعباداً بالليل، أي فكر أو أي روح بثها اللواء فيكم حتى أجدكم بتلك الطريقة؟، لم أستطع أن أتبين موقع سيادة اللواء لكن كان الجميع ينظرون في اتجاه واحد أو قبلة واحدة، من المؤكد أن سيادة اللواء هو القبلة فظللت على تحركي في نفس الاتجاه.

بدت من بعيد أريكة كانت قبلة العابدين الذين تفوح من أفواههم رائحة الذكر وطيب الدعاء، ورأيت الدموع المختلطة بالفرح تملأ العيون، إنهم في حالة حب، حاولت أن أمنع قلبي من التأثر بهم.

كان بجانب الأريكة على اليمين كرسي، تبينت أن من يجلس عليه هو الشيخ همام وعلى يسار الأريكة كرسي يجلس أحدهم عليه، لم أعرف حجم الرفعة التي يحظى بها الرجل حتى يجلس على يسار الأريكة، لكنني علمت بعد ذلك أنه المنشد.

أثناء سيري رأيت طيف يمر بين الصفوف وعرفته عندما نظر إلي قبل أن يختفي عن عيني، إنه طيف الشيخ المسافر، نظر إليّ بابتسامته ثم اختفي. رأيت مولانا سيادة اللواء قد حضر، علمت ذلك بعدما اشرأبت الأعناق وقالوا الله الله، ثم صمتت الألسنة وساد السكون.

كنت الوحيد الذي ما زال يتحرك، فرآني سيادة اللواء فأشار إلي بالاقتراب
فاقتربت حتى وقفت أمامه، عندئذ طلب مني الجلوس فجلست.

كان سيادة اللواء أو مولانا يرتدي مثلما نرتدي لا فرق بيننا وبينه لكن
قدره كان عظيمًا.

عندئذ قال اللواء لكل المريدين:

- السلام عليكم.

فرد الجميع بصوت يملؤه الحماس والحب.

- وعليكم السلام يا مولانا.

ثم عادت الرهبة والإجلال إلى الجموع الناضرة والواقفة في حضرة مولانا
ورأيت البعض مشدود الوجه، يحرك أطرافه بعصبية كأنها يقاوم شيئًا ما،

نظرت إلى الشيخ همام وأردت أن أسأله عن الأجندة والخاتم الذي يوجد
بداخلها لكن هيئة وجلال الموقف دعاني للصمت.

وتذوقت طعم الحسرة وقلت لنفسي عن أي شيء أبحث؟ إنها وهم وإني
طعم، تلك حقيقة الموقف التي علي إدراكها.

ثم بدأت الطقوس الصوفية بالإنشاد فقام الرجل الجالس بجانب مولانا
ينشد بصوته الشجي وأجزم أنه صوتًا جميلًا لم أسمع مثله من قبل، وقام
الشيخ همام بتنظيم الحاضرة بمقاطع صوتية «الله الله» وبالتصفيق المنتظم مع
حركة الجسد، ثم بدأ ظهور دخان صوفي النزعة، دخان الحشيش النقي،
بحثت عن مصدره فوجدت كميات من الحشيش الموضوع عند مصادر
الهواء الداخل إلى المغارة، قاومت بكل ما أملك الحشيش الصوفي الذي
يبعث أحاسيس الجمال وكدت أسكر مثل هؤلاء الذاكرين الذين أسكرهم
الصعود مع الحماس والإجلال المصاحب لصوت الشيخ همام، ورغم خشونة
صوته وقوته إلا أن التنظيم في الأداء الصوتي المصاحب للأداء الحركي جعله
متناغم مع صوت المنشد العذب الذي شعرت مع امتزاجه بروعة الحشيش،
أنه صوت منشد من أهل الجنة، لكنني قاومت بكل ما أستطيع أن أنجرف

إلى الوقوع في معصية الصوفية وكنت أقرأ في تعاليمها لإثبات خطأها تقريباً إلى الله، وعلى الرغم من أن المنشد لم يقل شركاً بل كان الذكر متضمناً حب الله في ذاته والحب لله والتقرب منه ليس خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، بل كان الطلب هو حب الله لأنه هو الحب. ومع سماعي نشيداً صادقاً لبكاء أحد الأحبة المشتاق لحبيبه وإحساسي بصدق دعواه، كاد الحاجز النفسي بين ما يدعون وبين ما أعتقد أن ينهار، إلا أنني حافظت عليه.

كانت الوجوه التي رأيتهما وجوه عاشقة أضناها شوق المحبين ووجد العاشقين لكن مع نظرة إلى العيون، إلى عيونهم، ومع زيادة واضحة في حماس المنشد، تبعته موجة من الحماس انتابتهم، رأيت أن عيونهم كانت في رحلة المعرفة. لم أعتقد يوماً أن ما أراه الآن ممكن الحدوث.....

لم يستطع عقلي أن يدون كل ما رأيته من ملاحظات وضعتني في موضع شك في كل ما قيل لي. وجدت مولانا ينظر إليّ فنظرت إليه ومع تسلسل الحشيش إلى روحي رأيت مولانا يحملني بعيداً عن كل شيء وكأنه وكأنني وحدنا في الوجود فقال لي:

- لما لا تذكر مع الذاكرين؟
- إن هناك شيء في داخلي يرفض ذلك.
- لماذا؟
- لقد علمونا أن الذكر بتلك الطريقة حرام، وإن الطرق الصوفية كفر.
- ألا تعلم ذلك؟
- ضحك مولانا بصوت جهوري جعلني ارتبك وقال:
- من علمك؟
- مشايخنا، الذين علموك أيضاً.
- هل تعتقد أن ما علموك إياه صحيحاً؟
- نعم صحيح، إنه علمٌ محقق من أهل العلم.
- ومن أدراك بصدق ما قالوا؟

بعد فترة من الصمت قلت:

أتريد أن تقول إنهم ربما كذبوا علينا وإن ما عشت طوال عمري أعتقد أنه صوابٌ أضحى في لحظة موضع شك؟

هناك مئات من الفرق في الإسلام مثل كل ديانة، هناك الكثير من الفرق فيها، وكل فرقة تدعي أنها صاحبة المعرفة الحقيقية للدين وترتكب في سبيل ما تعتقد ما تشاء من المجازر.

أتريد أن تقول إنها من الممكن أن تزيف الدين لصالحها؟

أقول لك إنها تقتل الإنسان من أجل ما تعتقد، ألا تستطيع أن تزيف دون أن يخالجها ألم الكذب من أجل اعتقاد داخلي بصواب ما تعتقد وأنها تمتلك المعرفة الحقيقية للدين؟ أتدري إن ذلك الادعاء الذي يموت من أجله كل الحمقى يكون من أجل هدفٍ دنيوي؟

أقول إن كل ما تعلمناه خطأ؟

أقول كل ما تعلمته، ربما يكون صواب، لكن انزع عن عقلك عباءة العنصرية، فكل الفرق من كل الأديان هي تبغي الوصول إلى الله، رضا الله وكلها صواب لكن عليك أن تختار منها ما يناسبك.

ما الذي تقوله؟ هل كل الصوفيين يفكرون بتلك الطريقة؟

إنك يجب أن تختار ولا تترك نفسك لما يفرض عليك، إن هؤلاء العارفين الذاكرين همهم هو المعرفة والوصول وكل منهم له حال مع الله، لا يهمه إن آمنت بما يؤمن أو أنكرت، لأنه يعرف أن الله هو مراده ويصل إلى معرفته بالذكر، فبالذكر تنجلي مرآة قلبك ويرتبط قلبك بالرسول.

شعرت مع حديثه بضعفٍ شديد نتيجة صراع محتدم بين المنطق فيما يقول وبين ما تربيت عليه منذ الصغر، حتى أن صار جزءاً من تكويني.

شعرت في أيام كثيرة وأنا أدافع عن اعتقادي عندما كنت أحقق مع الملحددين، أنني متهم أمام نفسي، عندما تمس أفكارهم شيئًا ما كنت أخاف، فأصب عليهم العذاب صباً وعندما آوي إلى فراشي كان عقلي يلفق إجابة فأنام مطمئن، لكن يا مولانا أكبر دليل على خطأ ما تقول أنه يثير اضطراب داخلي مماثل لذلك الاضطراب الذي يثيره كلام الملحددين.

شعرت بوخزة في جنبي مصاحباً لها صوتاً في أذني كان واضحاً مفهوماً الكلمات، قال عندما تكون في حضرة مولانا لا تدع عقلك ينشغل بشيء آخر.

نظرت إلى مولانا فوجدته مبتسماً لي وأكمل حديثه:

عندما تبحث عن المعرفة فستصل إلى حقيقة واحدة أنه ليس هناك موجود إلا هو، فهو هو، وما هذه الظواهر والمظاهر التي تراها إنما هي مظهر للحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية.

لم أستطع مع كلماته أن أوقف عقلي عن التفكير، فانصرفت عنه متذكراً حسن بدير، ذلك العالم الذي مات على يد الصول عبد العاطي عندما قال لي

- ما الكون؟ ما الإنسان؟

- الكون هو الكون والإنسان هو أنا.

ضحك ضحكة أزعجتني وأردت أن أفتك به لكن انتظرت حتى ينتهي من كلماته متصيداً أخطائه حتى أنقض عليه فأنصرت لنفسي.

أتدري أيها المحقق؟ إن المشكلة تكمن في ما نحمله من وعي، فما نراه من سماء وأرض وأشكال وعوالم ما هو إلا تفسير وعينا لهذه الأشياء، وحقيقة الأمر إننا لا نرى إلا ما تسمح به حواسنا، ولأننا خضعنا لنفس عوامل التطور فتمتلك حواس متشابهة فصار لدينا حس مشترك تجاه ما تدركه حواسنا.

- لا أفهم ما تقول، هكذا دوّمًا أنتم تتحدثون بكلام غير مفهوم، حتى نقف مشدوهين ونعتبر تحاريفكم صحيحة وحقيقة لا تقبل جدال.

- إن هذا الإحساس المشترك أيها المحقق جعلنا نعتقد أن ما نراه حقيقي.

- ما الذي تود أن تقوله؟

- أود أن أقول يوجد احتمال أن نكون جزءًا من تجربة يجريها الواجد أو نحن جزءًا من ذلك الواجد.

صرخت فيه أسكت (استغفر الله العظيم).

تذكرت أن هذا الكلام يشبه كلام مولانا، أن الكون مظهر من مظاهر الواجد

فتنبهت أني يجب ألا أنشغل عن مولانا وأنا في حضرة مولانا. نظرت إليه فوجدته ينتظرنى مبتسمًا وقال:

ما يجب أن تعرفه..... فقاطعته قائلاً

ما يجب أن أعرفه هو المبنى ٦٦ وسر هذا المبنى، هذا ما جئت من أجله. صدمني نسياني فأفقت من غفوتي وقلت أين أخذني نبات الحشيش وكم استغرقت في شرودي هذا؟

نظرت إلى مولانا والذاكرين فوجدت موجات الذكر صارت أكثر حماسًا والأعين أكثر شخوصًا فظننت أنهم كما يقولون في حالة اتحاد الواجد والوجود، الكل صار واحدًا.

ازدادت رغبتى في مغادرة هذا المكان وشعرت أني ممزق، رحت ألتمس

الراحة في النظر للذاكرين الذين يتحركون بمنظر مهيب كوحدة واحدة، يذكرون بكلمة «هو» ينطقونها بصوت واحد وكأنهم واحد، يفعل فعلًا واحدًا، وبعد قول «هو هو» مرتين يقول الشيخ همام «الله»، كان مولانا هو قبلة هؤلاء الذاكرين وطريق الوصول.

نظرت إلى مولانا فوجدته مغمض العينين، يتصبب عرقاً متقلص العضلات ويده مشدودة وانقلب سواد عينه إلى بياض ويبدو أن جسده يعاني ارتعاشة فظننت أنه يعاني نوبة صرع محدودة، انتبهت إلى نظرة الشيخ همام المعاتبه لتلك النظرة الطويلة إلى مولانا وهو في تلك الحالة، ومال عليّ قائلاً إنها المكاشفة، إن مولانا في المكاشفة يتلقى من حبيبته.

لم أعرف عما يتحدث لكن التفت إلى حالي فبين دافع الرحيل ودافع البقاء اضطربت حالي لكن كان لجسدي حال أخرى فمع الصوت الشجي وموجات الحشيش الصوفي الدافعة إلى التحرر من ثقل الجسد وأغلال النمط والعادة راح جسدي يتمايل مثل هؤلاء الذاكرين، لكن نبهني صوت الشيخ المسافر في أذني أنني أذكر عكس الذاكرين غير العابثين بي أو المتبهيين إلى حالي..

وقال لي اغمض عينيك واترك روحك تهيم في الوجود حتى تصل إلى اللذة، لذة الوصول والمعرفة ودع جسدك سيتمايل ويتناغم مع خلاياك، افعل كما تفعل الأشجار فهي تذكر وتمايل وتتخلى عن صلابتها مع الريح الرقيقة وتقاوم بكل عنف تلك الريح العتية فترفض أن تتمايل معها حتى وإن كان خلعها وموتها ثمناً لذلك.

أغمضت عيني ورحت أتناغم مع خلاياي ولا أقاومها فذكرت معها في نفس الاتجاه مع صوت المنشد وتقطيعات الشيخ همام المميزة، كانت اللحظة الوحيدة في حياتي التي لم أفكر فيها في أي شيء ولم أستطع أن أختبر تلك الحالة مرة أخرى، كانت حالة لن أحكي عن ما شعرت به لأنني لا أعرف كيف أصف ذلك الشعور ثم انقطع صوت المنشد وراح الجميع يقول «الله الله هو هو» بطريقة متقطعة حتى انتهوا ففتحت عيني وتوقفت عن الذكر لكن لم أقل مثلما يقولون رغم أن صوت ذكرهم كان له جلاله فكانه صادر من أعماق أعماق النفس البشرية نظرت إلى مولانا فوجدت عضلات وجهه بدأت في الاسترخاء وانقطع العرق ورموشه أبطأت قليلاً من الرجفة مع عودة سمار العين، وبدأ تيار الحياة يدب في جسده وبعدها فتح عينيه، فصمت الجميع وبدأ مولانا في الحديث بصوت جهوري عكس حالة الضعف التي كان عليها وتلك المعاناة التي كان يعانيها فاعتقدت أنه شخص آخر أو أن شيئاً ما قد تبدل، وقال:

- أبشروا لقد كنتُ في حضرة الخضر وهو يُقرئكم السلام..

ارتفع صوت الحضور فرحاً مرددين في نفس الوقت:

- وعليكم السلام يا مولانا المعلم.

- لقد بشرني أنه اقرب ظهور أميركم وبه ستنتصرون على أهل البدعة والضلالة، الإخوان ومرشدكم.

ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل «الله أكبر الله أكبر».

- أعدوا أنفسكم لاستقباله بكثرة الذكر وتهذيب النفس والتدريب الجيد.

- إن الحبيب «ص» سيأتيني ليعطيني أماراته في اليوم الموعود وقد اقرب

- وهتف مولانا قوموا إلى الذكر «الله الله»

قام الجميع وقد التهب حماسهم بالبشرى وازدادت أذخنة الحشيش،

نظرت إلى الوجوه الذاكرة فلم أستطع أن أتابع سرعتها وشككت أن الحشيش ربما يكون مسؤولاً عن عدم قدرتي على الاستمرار في الملاحظة أو القدرة على التفكير، لكن على ما يبدو أن ما تلقيته من مفاجئات أفقدني القدرة على فعل تلك الأشياء وشعرت بشيء في نفسي كان أقوى مني، رفض كل ما قاله مولانا وشعرت بضيق في التنفس والاختناق ورحت أنفاس بصعوبة ثم فقدت الوعي.

لم أعرف كم طالت مدة تلك الإغماء لكنني علمت أنني أصبحت منعزلاً عن العالم، شاهدت رוחي عارية منكشمة تجلس في وضع القرفصاء على شط بحيرة بيضاء متجمدة تنعكس عليها أشعة غروب الشمس الذهبية، أخرجت رוחي رأسها من بين الأرجل ونظرت إلي وقالت:

- من أنا ومن أنت؟

لم أعرف بماذا أجيب. وشعرت بتيار من الأفكار المتصلة عن من أكون.

فقبل اليوم كنت لا أشك لحظة في معرفتي بذاتي فما كنت وما أريد أن أكون كان جلياً أما الآن.....!

وبعد الحذف والإضافة لوعيي لم أعد أعرف هل تلك الحياة حياتي هل أنا، أم أن هناك من شكلني كما أراد، ومع زفرة حارة مصحوبة بغصة كبيرة تبعثها صرخة آه....

نظرت إلى الروح مرة أخرى وقلت:

- الآن لم يعد لدي ما أثق فيه غير المرشد هو طريقي إلى الوصول لرضي ربي.

نظرت الروح إلي بحلق وقالت:

- هل تعتقد أن ما تحمله من أفكار عن المرشد صحيحة؟
- بالطبع صحيحة.
- ألا يوجد احتمال أن هذا الاعتقاد قد تم زراعته بعقلك؟
- لا لا يوجد أي احتمال في ذلك.
- هل أحببت؟
- ومع دمعة من عيني تساقطت قلت: نعم أحببت حباً صادقاً.
- حباً صادقاً!
- هل كان حقيقياً.

رغم علمي بأن ذلك السؤال سوف يُسأل إلا أنني أجهشت بالبكاء ولم أستطع أن أتحمل وشعرت بالصقيع الذي يلف روحي وسمعت اصطكاك أسناني من البرد لكن روحي عندئذ تنبّهت إلى صوت قادم من بعيد من أعماق أعماق البشر لأقدام تقترب أكثر فأكثر، ثم توقفت الخطوات وسمعت صوتاً ينادي مصحوباً بهزة لطيفة في كتفي..

سيدي سيدي استيقظ فقد أعددت الحمام لك، إن مولانا ينتظرك لتصلي
الفجر معه.

مع نهاية تلك الكلمات شاهدت روعي تتحرك باتجاهي وراحت تذوب
في جسدي ومع اقتراب الصوت عند تكراره أكثر فأكثر استطعت أن أتغلب
على رغبه داخلية لمواصله النوم فانترعت نفسي من لذة النوم وفتحت عيني
فقال الخادم:

- سيدي قد أعددت لك الحمام.

- شكرًا.

قمت من سريري بثقل مصحوب بوهن في جسدي، تحركت إلى الحمام
ومع دخولي الحمام شممت رائحة البانيو العطرة واختبرت الماء بأطراف
أصابعي، بعد نظري لوجهي في المرآة فكان باردًا لذيذًا، فتركت جسدي
ينساب داخل الماء بعد خلعي ملابستي التي كنت أرتديها مع دخولي الحضرة،
شعرت بخدرٍ لذيذ في جسدي غنيت أن أقضي ساعات الصباح في البانيو
حتى تلتئم روعي، وتساءلت كم يا ترى غبت عن الوعي؟، فأنا أشعر
أنني قد استغرقت بضع دقائق، عندئذ سمعت الخادم وهو ينقر على باب
الحمام وقال سيدي إن مولانا ينتظرك لصلاة الفجر معه فلا تتأخر..

أردت أن أعذر وأبقى في البانيو، لكن لم أستطع إلا أن أستجيب.

خرجت من البانيو بثقل كبير ولبست ثيابي على مهل رغم سماعي
لصوت المؤذن، وبعد أن انتهيت من اللبس توجهت إلى المسجد. ومع دخولي
تنبهت إلى عين مولانا التي تتابعني وشاهدت ابتسامة ترحيب لرؤيتي، لكن
لم أستطع أن أبادله نفس الابتسامة.

وبعد أن انتهينا من الصلاة قال مولانا:

- يبدو أنك لست في حالة جيدة، سأتركك تستريح وأراك في الثامنة صباحًا.

انصرفت من المسجد وأردت أن أخبر مولانا أنني لم يعد لي شغف بأن أعرف أي شيء.

ودخلت غرفتي وانتابني حالة من الحيرة وعدم القدرة على اتخاذ أي قرار أو القدرة على فعل أي شيء وتذكرت حديث الشيخ عندما وصف حالة مشابهة لحالتي الآن، وضحكاته عندما أخبرني أنه صك مبدأً جديداً وأسماه الاستحمار فلم أفهم ماذا يعني بهذا المبدأ، فراح يشرح بحماس شديد حتى يفهمني ولا يترك لي الفرصة لعدم الاقتناع فقال:

عندما يجد الحمار في مساره الذي اعتاد عليه حفرة كبيرة مفاجئة ويدرك أنه لن يستطيع أن يتخطاها ولا يستطيع العودة فيقف بجانب الحفرة غير مرتاح لأنه لم تعد لديه القدرة على الفعل أو القدرة على اتخاذ قرار فيتحرك بجانب الحفرة في اتجاهات متعددة لا يمكن في إحداها العودة إلى الخلف أو المغامرة في عبور الحفرة.

عندئذٍ أقررت أنني في حالة استحمار الآن، وخفت من فكرة أن أظل على تلك الحالة حتى مقابلة مولانا، فاتجهت متثاقلاً إلى السرير ومع مرور الوقت وبعد محاولات استطعت أن أتخذ قراراً بإغماض عيني ثم حاولت إقناع نفسي بالهدوء قليلاً.

وشيئاً فشيئاً بدأت حدة موجات الاكتئاب في التراجع، فأعطت بعض المساحة لعقلي كي يعمل وبدأ فيض الأفكار بطيئاً متعباً لكنه سرعان ما استعاد عافيته، وقفزت إلى عقلي فكرة لم أكن منتبهاً لها، قفزت أنا على إثرها من سريري

«مولانا هو أكبر تهديد للأمن القومي»

وبعد أن هدأت قليلاً قلت من هنا تبدأ القصة كلها وقد تنتهي، كل ما حدث لي كان من أجل أن أذهب إليه حتى يعرفوا مكانه، هكذا أراد أمن المرشد أن أكون الطعم، ولأن التحدي كان كبيراً استباحوني، وربما يكون مولانا نائب المرشد هو شريكه في تلك المؤامرة ولذلك قد تم التخلص منه.

هذا كل ما في الأمر، وما دامت خيانة سيادة اللواء لمولانا المرشد فإن التخلص من سيادة اللواء أصبح ضرورة دينية سوف أثاب عليها، في تلك اللحظة علمت لما خلقتني الله، فقد كنت دوماً أشعر أن لحياتي قيمة وأكثر أهمية مما أعتقد وأن الله يدخر لي شيئاً أو عملاً خلقت كي أؤديه، شعرت بتحول حالتني من التعب والإرهاق إلى همّة ونشاط وتحركت بعيداً عن سريري وكان علي إعداد خطة لقتل مولانا سيادة اللواء.

لا يهمني ما سيحدث لي بعد قتلي له، لأنني أعلم أنني لن أستطيع أن أخرج من هنا حياً دون دليل منهم لذلك حذفّت خطة النجاة والتفكير فيها.

- عندما أختلي بمولانا عليّ أن أقتله.

- لكن كيف؟

إنه خبير بفنون القتال ورغم تقدمه عني في العمر لكن ما زال يحظي بجاهزية بدنية وعقلية، رحت أفرك بيدي في ذقني محاولاً استجلاب الأفكار، لن أستطيع الحصول على أي آلة حادة.

اتجهت إلى سريري كي أجلس عليه وقلت عليّ أن أرتجل لأنني لن أستطيع الحصول على فرصة مشابهة فينغي ألا أخرج من هنا إلا وأنا قاتله. وضعت رأسي على السرير ولدي رغبة عارمة ألا أبداً في محاولة القتل إلا عندما أحصل على سر ذلك المبنى ٦٦ ولم أدرك أنني قد غصت في نوم عميق إلا عندما شعرت بيد الخادم تهز كتفي مصحوبة بصوت سيدي إن مولانا في انتظارك..

قمت مسرعاً وغسلت وجهي وشعرت بزوال الاكتئاب أو أي أثر له.

ثم تحركت إلى استراحة مولانا بمرافقة حارسه وأنا مضطرب المشاعر خائف.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- أهلاً حسن، أراك أفضل حالاً، لعلك قد اهتديت لحلّ.

نظرت مذهولاً إلى مولانا وقلت.

- لحل؟

- فقال نعم حل.

- عن أي شيء تتحدث سيادة اللواء؟

- حسن لو كنت مكانك لاضطربت مثلما اضطربت أفكارك وما كان هناك إلا شيئاً واحداً أفعله.

- نظرت إليه باهتمام

- فقال ببساطة أن تزيل مصدر الاضطراب.

- ماذا؟

- نظر مولانا إلى عيني مباشرة.

- وقال أن تقتلني.

نظرت إليه مذهولاً، فقد بدا كل شيء واضحاً وقد تعريت أمامه تماماً. وللحظات اعتصر الألم قلبي عن يقين مولانا بخيانتني له، لم أكن أخشى من العواقب بقدر حزني من إحساسي بخيانة الثقة التي أولاني إياها وقد كنت أنوي عند قتله أن أقتله من الخلف ولا أنظر إلى عينيه حتى لا أعيش ولو ثوانٍ بعده وإحساس بخيانة الثقة التي منحني إياها يلازم روحي.

لم أعرف ماذا أقول أو كيف أذفع عن نفسي ذلك الاتهام، تفاديت نظرة مباشرة إلى عيني من مولانا وقلت:

- ما قصة هذا الجيش الصوفي؟

- تعال معي.

صعدت خلفه درجات السلم ودخلت معه غرفة مكتبه وكانت حجرة كبيرة في أحد أركانها ترابيزة اجتماعات كبيرة وشاشة عرض فاستتجت أنه ربما يستخدمها في اجتماعاته وبها شاشة عرض متوسطة الحجم ومكتبة رصت الكتب فيها بعناية فهي مفهرسة نظيفة موضوعة بعناية، ومكتب عربي لا يضاهي جماله إلا مكتب مولانا المرشد، لكن هذا المكتب يطل مباشرة على تلة خضراء لم أكتشف وجودها من قبل، عليها نباتات لم أعرف ما هي تلك النباتات، لكن أريجها العطر لم أتذوقه أبدًا إلا هنا وقفت في وسط الحجرة مشدوها بما أرى، جلس مولانا على كرسي مكتبه ودعاني للجلوس أمامه فجلست ثم اعتدل ونظر إلى خزانة بجانب المكتب وفتحها بعدما أدخل الأرقام السرية ثم التقط شيئًا ملفوفًا مائلًا للخراط، كان ارتفاعه مساويًا تقريبًا لطوله البالغ مائة وتسعين سنتيمترًا وعندما ساعدته بفردها على مكتبه بلغ طولها ما يقارب ثلاثة أمتار أو يزيد، اكتشفت بعد ذلك أنها رسم كروكي للمبنى ٦٦ أردت أن أعترض على فعله لأنني أنا أريد الآن جوابًا على سؤالني لماذا الجيش الصوفي هذا؟

لكن قلت لنفسي أنا الآن لا أريد أن أعرف إلا ما سألتك عنه لا أريد معرفة أي شيء آخر، لكن صوته كان حادًا وقاطعًا.

وقال إن جواب الجيش الصوفي يبدأ من هنا من المبنى ٦٦، ازداد اندهاشي من تلك المفاجأة التي لم يكن مصدرها قراءة مولانا لأفكاره والرد عليها فقد اعتدت منهم على ذلك، لكن مفاجأتي من هل تعرض مولانا لمثل ما تعرضت له في ذلك المبنى! لكن ذلك ليس دافعًا لبناء جيش، على كل علي أن أنصت باهتمام وتنبهت بكل حواسي إلى ما سوف يخبرني به.

إن المبنى ٦٦ هو مبنى غير رسمي لجماعة الإخوان وأكثرها حماية وسرية لأنه يعتبر بيت الأسرار لها ولا يعرف الكثير من رجال الأمن عنه شيئًا وأراك قد بحثت عن أي معلومة عن المبنى لكنك كما أعتقد لم تجد، حتى إن القطاعات ذوات الرتبة أقل من لواء في جهاز أمن المرشد لا يعلمون عنه شيئًا ومعرفة من عرف تكون على أكثر تقدير سماعية.

- إذا كان ما تقول صحيحًا، فكيف يتم تأمينه؟

نظر إليّ مولانا نظرة أخرست لساني فقد تذكرت ما علمني إياه قديمًا أن السؤال هو رأس المعرفة فلا معرفة بلا سؤال لكن عليّ أن أؤجل كل سؤال حتى ينتهي المعلم من سرده.

عندئذ عاد إلى سرده بعدما انتهيت من أفكاري.

لكن أفراد مكتب الإرشاد كلما زاد ارتقائهم زادت معرفتهم بأسرار المبنى وكانت تمارس فيه طقوس الترقى والالتحاق بمستويات أعلى، لقد بنى هذا المبنى عام ٢٠٢٠ بأمر من المرشد الثاني وكان الهدف الظاهري عقد اجتماعات أعضاء مكتب الإرشاد العالمي في سرية تامة والحفاظ على سرية أعضاء المكتب، لكن ستظهر أهداف أخرى من المبنى مع تفقدنا للرسم الهندسي المخصص لبنائه.

وأشار بيديه إلى المخطط الهندسي فنظرت إليه.

لكنى صعقت ووقفت مشدوهاً للحظات ثم قلت لا يمكن أن يكون هذا الرسم صحيحًا.

نظر إليّ مولانا وقال: أعلم هول المفاجأة عليك، فأنت كنت تبحث عن مدخل أو مخرج على الرسم أو على أقل تقدير من أين دخلت وأين خرجت لكن لم تجد وهذا حقيقي.

- حقيقي!

- نعم حقيقي فلا مدخل أو مخرج من هذا المكان.

- أوجد مبنى بلا مدخل أو مخرج.

- نعم يوجد هذا المبنى.

- إذن كيف دخلت أنا وكيف خرجت؟

- ألا تعتقد أن الأمر بدا واضحًا بالنسبة إليك؟

- أنا لا أفهم.

إن الدخول والخروج يتم من خلال الحائط، كل حوائطه بإمكانها الحركة ودخول بعض الأجزاء في بعضها الآخر وإعطاء باب للدخول وآخر للخروج ويتم التحكم فيها عن طريق الكمبيوتر المركزي..

انتبهت جيدًا إليه عندما قال إن للحوائط استخدام آخر غير الحماية وقال انظر وأشار بيده إلى أكبر جزء في المبنى وقال:

إن تلك القاعة تسمى الصراط المستقيم وقد تم احتجازك فيها.

قلت متهكمًا: من الأجدر أن يسموها قاعة الظلمات.

تبسم مولانا وقال هي بالفعل كذلك لكن لاسم الصراط المستقيم مغزى،

أن كل عضو من أعضاء التنظيم عند خروجه يتلقى ورقه يحفظها عن ظهر قلب لأنها تعني له نجاته.

ماذا! أنا خرجت دون أن تكون معي ورقة مثل تلك.

إن كل ورقة يكتب عليها عدد الخطوات والاتجاه الذي عليه أن يسلكه مع مروره بتلك القاعة ومع ملامسته لمكان الخروج ينزاح جزء من الجدار على هيئة باب فيخرج العضو وقد نجا من الهلاك، أما الذين يشك المرشد في ولائهم فإن الخطوات التي حصل عليها والاتجاه يكون خاطئًا ويكون قد حُكم عليه بالهلاك جوعًا وخوفًا فكأنها صراط للمرور بين الحياة والموت،

هل فهمت الآن ما أعني أن المرشد الرابع قد سمح لك بالدخول والخروج.

فهمت أني كنت طعمًا لاصطيادك.

إذن هم بريئون من قتل مولانا نائب المرشد أو أنه لا يعمل معك.

بالطبع صديقي نائب المرشد لم يكن يعمل معي رغم معرفته بجيشي الصوفي وربما يكونوا هم من قتلوه أو غيرهم.

لو كانوا هم من أراد قتله لقتلوه داخل المبنى بكل بساطة ولن يجدوا مشقة في تفسير اختفائه.

ربما.. لكن لو علمت أن إدخال الأكواد السرية على الكمبيوتر المركزي المتحكم في المبنى مسؤولية المرشد ونائبه الأول وبهذا لن يستطيع المرشد أن يتخذ الأمر منفردًا، انظر إلى تلك الغرفة التي تبلغ ٦٦ مترًا طول و٦٦ مترًا عرض، إنها غرفة الأسرار أو قدس الأقداس بالنسبة لهذا المبنى وبها الكمبيوتر المركزي ولا يدخلها غير المرشد ونائبيه الأول والثاني وأعتقد أنها تحتوي على سرٍ ما لا أعرفه، لكن تم الترويج لهذا السر ويقولون إن إفشائه سيسبب كوارث عظيمة لكن صدقني فأنا لا أعرف هذا السر.

أما تلك القاعة فهي قاعة الترقى وهي قاعة تجمع بين الظلمة والنور، يمضي فيها المنضم حديثا بعد حلفانه القسم بأن يهب روحه وأمواله وأولاده في خدمة الدين ومولانا المرشد ثلاثة أيام وفي آخرها يتم اختبار ولائه حيث أنه في نهاية العزلة يعطى أمر من المرشد ويكون في طاعة الأمر هلاكه ومخالفته نجاته كما سيهين له، فإن اختار النجاة فهو هالك أو على أكثر تقدير يبعد عن الجماعة أما من يختار أن يطيع المرشد حتى لو كان فيه هلاكه فيصير عضوًا في مكتب الإرشاد. أما للأعضاء الذين سيتم ترقيةهم فإن الخلوة تمتد لأسابيع أو شهور وهي اعتزال كامل للعالم واختبارات في الطاعة، ثم يتبعه قسم لا أعرفه يدرك العضو بعدها أن حياته هي رهن للمرشد ولذلك يكون ولاءه الكامل له.

هل يدخل مولانا المرشد ونائبه مثل دخول الأعضاء من تلك الأبواب؟

إن دخول المرشد ونائبيه يعتبر من الأسرار التي يحصل عليها العضو عند ترقيته إلى مرتبة نائب مع السر الأعظم للجماعة الموجود في تلك الغرفة ربما يدخلون من أنفاق خاصة.

- من بنى هذا المبنى؟

كان سؤالاً مباشرًا من مولانا لي وعلمت أن هناك شيء ما خلف ذلك السؤال

ربما مهندسو سلاح المهندسين في الحرس الثوري.

إنهم مهندسين تابعين لوكالة المخابرات الأمريكية cia.

شعرت بشيء ما جعلني مرتاعاً من طريقة تفكيره كيف يفكر في ذلك وصرخت معترضاً «غير صحيح، ألا تعلم حجم العداء بيننا وبينهم وخطب مرشدنا وتأكيداته الدائم على أنها دولة الشر وأنها دولة تحارب الإسلام؟ لذلك كنا نقوم بإعدام أي كتاب ونحرص على عدم وصول أي معرفة منهم حتى إن القوانين تجرم محاولة الحصول على أي شيء منهم فإن حجم القطيعة بيننا وبينهم لا يشكك فيه إلا مغرض»

كان هذا اتهام مباشر لسيادة اللواء.

لكنه رد ساخراً وقال:

إذن قل لي، من أين حصلنا على التكنولوجيا المتطورة في هذا المبنى؟

ظلمت للحظات في حالة صمت لشعوري بأن أحد الثوابت التي قد تربيت عليها وتربى عليها جيل كامل قد انهارت مع مفارقة منطقية بسيطة، طوال الوقت كانت الحقيقة أمام عيني لم أستطع أن أكتشفها بمفردي، هل حماس تجهيز أنفسنا للمعركة الفاصلة بيننا وبينهم وشواهد بسيطة من عدم السماح لنا بالسفر إلى أوطانهم إلا في أضيق الحدود توحى بأن هناك استعداد متبادل لكلينا للمعركة الفاصلة؟

اقترب مني مولانا وربت على كتفي وقال رغم إيماني بحتمية المعركة الفاصلة إلا أن ما رأيته يجعلني في حيرة..

نظرت إليه أنا وقد زادت حيرتي ولم أستطع أن أنطق ونظرت إليه بذهول كيف يستطيع قراءة أفكاره بسهولة وبشكل دائم، أخذت روعي قشعريرة مع مرور رائحة الأزهار الجبلية محمولة على نسمة هواء لطيفة باردة، وكانت القشعريرة ناتجة عن سؤال نفسي:

هل يمتلك مولانا القدرة على قراءة الأفكار إلى هذا الحد، نظر إليّ مولانا مبتسماً فصدق قلبي بعنف شديد، فلم أقف يوماً عارياً مثلما أقف الآن لكن إن كان يقرأ أفكاري عليّ ألا أحتجز أي شيء في عقلي، عليّ أن أتحدث، فقلت ألا يمكن أن تكون أنت عميلاً للمخابرات؟، إن هذا يتسق مع ما نحن فيه الآن.

رد مولانا مبتسماً وقال لا أنا لست كذلك.

هل يجب عليّ أن أصدقك؟

نعم يجب أن تصدقني لأن حربي القادمة ضد العملاء.

وقفت أمامه بتحدٍ وقلت:

سوف أثبت لك الآن أنك عميل للمخابرات الأمريكية.

لم أستطع أن أكمل فقد كانت أول مرة أرى ذلك الغضب على وجه مولانا وقال بصوت عالٍ غضبان:

لقد نشأت مثلك في دولة المرشد ورأيت المرشد الإمام الثاني العظيم باني مصر الإسلامية، وكنت من أكثر المتحمسين بين أقراني الذين تربوا في بيوت إخوانية أسعى إلى إعلان مصر دولة إسلامية وكنت من أكثر المدافعين عنها وعن عودة دولة الخلافة ووضعت كل مهاراتي وإخلاصي في خدمة دولة الخلافة وفي رحلتي معهم كانت تشور بين الحين والحين بعض أسئلة اعتراضية كنت أقتلها في مهدها ولا أسمح لها بالنمو لأن إيماني بالإسلام كان ممزوجاً بدولة الإسلام تلك وكنت أظن في ذلك الوقت أن لا دين بلا دولة الدين، دولة الخلافة، «دولة المرشد»، حتى اكتشفت الخديعة.

في عام ٢٠٣٩ كانت دولة الخلافة في مصر تواجه تحدياً أمنياً من العلمانيين وتآمر الدول المحيطة بنا وما حدث في قطر قد دعا النظام الحاكم لإرسال بعثات لأمريكا منا لتعلم وسائل حديثة في الاستخبارات وكيفية الحصول على معلومة واستراتيجيات جديدة في الحفاظ على الأمن والسلم الداخلي وكنت أنا ونائب المرشد الذي قُتل أول من سافر.

سيادة اللواء هل هناك تفسير لما حدث في قطر غير الذي تعلمناه في الكتب؟، ألم يفسر مولانا المرشد الثالث الحدث وقال إنها إرادة الله وإن القطريين ارتكبوا من الآثام ولم يتوبوا عنها فاستحقوا عقاب الله فأفناهم جميعاً؟.

لقد حدث شيء جليل بالتزامن مع رحيل إنسان قطري عن الدنيا، بدأ رحيل الإسرائيليين عن فلسطين ووصلت ذروة الرحيل مداها عام ٢٠٤٠ لكن بعد رحيلهم الكامل عام ٢٠٤٣ تحولت أرض فلسطين أرض صحراوية جرداء وأضحت امتداد لصحراء سيناء وقد سئل مولانا المرشد عن ذلك فقال: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم".

لكن الأغرب أنه رغم موت القطريين المجهول السبب، لم يمّت أي من الجنود الأمريكيين الموجودين في قواعدهم الموجودة في قطر.

نظرت إليه بضيق شديد وقلت هل تعترض على إرادة الله يا مولانا؟

إن هؤلاء القوم لا بد أنهم ارتكبوا إثماً عظيماً وحتى لو حاولت أن تقنعني بعكس ذلك لن اقتنع.

أصيب مولانا بخيبة من ردّي لكنه خرج من هذا الحوار وقال:

ذهبت إلى أمريكا أنا ونائب المرشد (محمد عباس) وكنا ضابطين برتبة رائد، وكنا قد حظينا بترقية استثنائية تقديراً لجهودنا وتفانينا ولأننا أبناء قيادات إخوانية بارزة فمضمون ولائنا، وعلى الرغم من أي لم أكن أعرفه جيداً في ذلك الوقت، إلا أن حب وتقدير متبادل قد ربط بين قلوبنا.

نظرت إليه وهو يتحدث عن مولانا محمد عباس وأدركت إما أن يكون محمد عباس شريك أو شيء آخر وأن سيادة اللواء لا دخل له بمقتله.

كنا أول مصريين يُسمح لهم بالسفر إلى الخارج في مهمة دراسية منذ عام ٢٠١٨. وقد عرفنا بعد ذلك أننا كنا تجربة علمية تجربها الولايات المتحدة علينا لاستئناف عودة البعثات.

أردت أن أسأله كيف تكون تجربة علمية وكيف علمت بذلك؟

لكنني استشعرت بعض الحرج من كثرة أسئلتني فتركته يكمل ربما تأتي الإجابة.

وصلنا إلى أمريكا وكانت حركتنا مقيدة فلم يسمح لنا بدخول المدن الأمريكية وعلى الرغم من عدم دخولنا المدن الأمريكية ورؤية ما أصبحت عليه، إلا أن ما رآه كلانا قد سبب له صدمة حضارية كبيرة لأن ما رأيناه كان فارقًا تكنولوجياً رهيباً فكل ما نملكه الآن من تكنولوجيا صار تراثاً من الماضي هناك.

سيادة اللواء، أنا وغيري درسنا في أمريكا ولم نشهد ذلك.

نظر إلي بتبرم وقال إن الدراسة التي تمت علينا كانت من علماء نفس واجتماع وإنسانيات وكانت لدراسة المتغيرات التي تطرأ على كائن شبه بدائي عندما ينتقل إلى عالم متقدم، وقدرة هذا الكائن على اكتساب معارف جديدة وتقبله لها، وبعد عام تم الفصل بيننا أنا ومحمد عباس وأمضيت عامين آخرين لم ألتق به إلا في مصر بعد عودتنا وكان من نتائج تلك التجربة هو بناء ما يعرف بمدن البرش وبنيت في أوروبا أيضاً وتلك المدن تحمل أسماء مشابهة لمدنهم الحديثة لكنها مدن أقل في الفوارق التكنولوجية بكثير عن المدن الأصلية وأكبر بكثير عنا، بعد فراقنا أنا ومحمد عباس قضيت نصف عام وحيداً في مدينة أخرى غير التي كنا فيها، كنت ألتقى معارف شديدة التطور أو كنت أظن ذلك حتى قابلت مدرستي في البرمجة، سارة واشنطن،

صمت مولانا قليلاً وقد أصابه شروذ وترقرقت في عينيه دمعة لم يستطع سيادة اللواء لها منعاً وكانت تلك أول مرة أرى على وجه مولانا هذا الضعف وقلت لنفسي هل يحب مولانا مثلنا؟، هل يمتلك قلباً يعرف ذلك النوع من الحب؟!

عندئذٍ تذكرت حبيتي أو ما يسمى بحبيتي، تلك العاطفة تجاه ذلك الشخص الوهمي الذي قام رجال أمن المرشد بزرعه في عقلي لكن ما زلت أجد لذة في تذكره رغم أنهم قد أزالوا ذلك المؤثر، لكن على ما يبدو أن إثارة ما، ما زالت تعصف بوجداني. نظرت إليه مرة أخرى وهو يحفف دمعته وقلت أيفتقد حبيته إلى هذا الحد؟

معذرة..

كان صوته يحمل هذا الضعف الإنساني وهو يقول ذلك وقطع كلامه أي حديث داخلي.

لم تكن سارة تشبههم أو تشبه النساء، إنها حالة متفردة، أحببتها من أول لحظة وكأنها هبط حبها عليّ من السماء ولم أستطع له دفعًا وهي أحبتي أيضًا رغم كوننا من عالمين مختلفين، أحببت ذلك الكائن البدائي وبدافع من حبها لي أرادت أن تقرب الفوارق بيننا فعلمتني ما ليس مسموحًا لها أن تعلمني إياه وشجعها نهمي إلى المعرفة لدرجة أنني أتقنت البرمجة الكمومية بسرعة أكبر منهم واقتربت كثيرًا من علومهم الحديثة في التجسس، وفقتهم على ما يبدو في قدرتي على اختراق الأنظمة المعلوماتية المعقدة وقد أجرت لي اختبارًا كان من الممكن أن يكلفنا حياتنا لكنها أصرت على أن نفعله، إيمانًا منها بقدراتي وموهبتي، وهو اختراق أنظمة الحماية لدى CIA وهي أكثر الأنظمة خطورة وحماية، كان تدريبًا وجدت فيه صعوبة كبيرة لكنني نجحت وشيئا فشيئا أصبح الاختراق وحماية نفسي شيئا روتينيًا.

و ذات يوم قلت عليّ أن أكتشف ما المعلومات التي لديهم عن مصر أي جواسيسهم وما أمدوهم به من معلومات وما طبيعتها؟

صمت مولانا بأسلوب استعراضي وعلى الرغم من أني أعرف أنه سينطق في النهاية إلا أن تعابير وجهي ترجّته أن يكمل ماذا وجدت.

إن ما وجدته كان صادمًا وظللت لمدة كبيرة لا أستطيع النوم ولا الأكل وامتنعت لأيام عن رؤية سارة، جلست حبيسًا مكتئبًا لا قدرة لي على الكلام وقد أشرفت على الموت.

- ماذا وجدت؟

- إن المرشد الثاني كان عميلاً للمخابرات الأمريكية.

- كذب!

- هذا ما ظننت لكن ما وجدت من ملفات ومراسلات يثبت ذلك.

- قلت منفعلاً لا تصدقهم.

- إن كل مرشدينا يتم اختيارهم من واشنطن يا صديقي، إنهم قد ساعدوا في قيام دولة المرشد بل هم من أقاموا دولة المرشد.

- قلت وأنا ألوح بيدي رافضاً ما يقول، لا لا يمكن أن يكون ما تقول حقيقياً.

- ضحك مولانا وقال: كنت أظنك أكثر إيماناً مني بتزاهة الجماعة.

لم يعطني فرصة للحديث أو التعليق وقال:

- في مصر قامت ثورة.

- نعم ثورتنا المباركة عام ٢٠١٦.

بل كان هناك ثورة عام ٢٠١١ قادها مجموعة من الشباب المتهور ضد الفساد وضد الظلم ولأنها كانت ثورة مفاجئة لأمريكا، ساد الارتباك الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت ولأن لمصر أهمية كبيرة بالنسبة للأمريكان فخافت إن عارضت تلك الثورة، ونجحت فسوف تضيع مصر من تبعيتها إلى الأبد فوقفت موقف متململ في البداية لكن بعد تأكدها من أنها من القوة والقدرة أن تزيل أرجلها من على سدة الحكم وخوفاً من أن تصبح مصر دولة معادية، فوافقت عليها وأمرت رجلها أن يرحل عن الحكم. لكن بعد أن تأكدت أن نهر الثورة الذي لم تستطع أن تسيطر على فورانه عند المنبع ستستطيع أن تسيطر على مجراه عن طريق إيصال الأمور إلى البديل لحكم مبارك، وقد أعدتهم منذ زمن بعيد كاحتمال قائم، وهم الإخوان المسلمين فأوصلوهم إلى سدة الحكم ولم يخيب قادة الجماعة رجاء الإدارة الأمريكية فيهم، فقدموا من التنازلات والتعاون ما لم تكن تتوقع الإدارة الأمريكية كقربان للإدارة حتى

ثقف فيهم، لكن الشعب لم يكن مستعداً لقبول ذلك فثار الناس ثورة عظيمة مرة أخرى واقتلعوا الإخوان بمساعدة الجيش، ولأنها لم تتخيل أن يتم اقتلاع رجالها عن سدة الحكم بتلك السرعة فلم يكن الوقت كاف لإعداد بديل للإخوان ورغم ذلك لم تكن الإدارة الأمريكية مستعدة للتخلي عن حكم مصر فكانت الخطة واضحة بشكل جلي.

”عدم قيام ديمقراطية في مصر والدفع في اتجاه حكم ديكتاتوري حتى يتم إسقاطه بسهولة“

وإعادة تشكيل الجماعة مرة أخرى.

والبحث عن المخلص الذي سيقود الجماعة تلك كانت الخطة.

غير صحيح كيف يمكن قيادة نظام في الاتجاه الذي لا يريده وخاصة إذا كان لديه غطاء شعبي.

بان تورطه في كثير من الدم لأنه بيساطة سيحاكم إن أصبح حكمه ديمقراطياً ”ولا أخفيك أن ذلك الحاكم كان لديه ميل كبير للديكتاتورية فأضحى الأمر سهلاً“.

وبعدما أعادت الجماعة تشكيل نفسها في الخارج ثم تنظيم أنفسهم في الداخل عن طريق العمل السري الذي كانوا يجيدونه، ثم بحثت CIA عن رجلها المنشود عن طريق لورنس مصر ”تيمناً بلورنس العرب“ وقد كان هناك من يبحث عنهم.

قام مولانا بتشغيل شاشة العرض وقام بعرض صور تجمع مولانا المرشد الثاني قبل أن يلتحي مع رجل أجنبي وهي صور من زوايا مختلفة توضح بشكل جلي اجتماع الرجل مع الرجل في لقاءات مختلفة كثيرة ثم عرض صورة تبين اسم مولانا المرشد وعمله قبل أن يصبح مرشداً..

”السيد عباس ضابط برتبة عقيد في المخابرات العامة“ ثم عرض صورة توضح مراسم تنصيب مولانا المرشد الثاني وقال انظر إلى من يقف بجانبه،

لم أستطع أن أتبين الشكل جيدًا فقام بتقريب الصورة فهتفت وقلت رباه ما هذا إنه نفس الرجل الذي سميت لورنس مصر بلباس عربي وكأنه أمير من أمراء العرب يحضر مراسم التنصيب.

تمالك نفسك حتى تتلقى المفاجأة الأكبر، سأعرض عليك صورة أعلم أنك قد رأيتها كثيرًا.

قام بعرض صورة للنائب الأول لمولانا المرشد «علي ندا»، أتعرف من هذا؟ نعم إنني أعرفه، إنه النائب الأول للمرشد الثاني، عندئذ قام بتقريب الصورة ووضعها بجانب صورة لورنس مصر.. هل ترى تشابها؟
- لا.

جيد، لأن عملية التجميل كانت بارعة لكنها لم تستطع أن تغير لون العين أو حجمها، انظر..

مستحيل أن يكون ذلك التطابق إنه هو، هو.

سمعت زفرة من صدر مولانا، تلك كانت حقيقة الخديعة يا صديقي التي ربما يعلمها نواب المرشد قبل حصولهم على ذلك المنصب ويقسمون على السمع والطاعة.

هل رفض أحدهم ذلك؟

إن رفض ذلك السر بعد علمه به سُيقتل في غرفة الصراط.

هل قتل مولانا نائب المرشد لأنه رفض ذلك؟

ربما..

دارت احتمالات كثيرة في ذهني لكن كلها تدور ولن تخرج عن قتل أعضاء مكتب الإرشاد لمولانا نائب المرشد. عندئذ قفز إلى ذهني استنتاج لم أستطع له دفعًا ووجدته مناسبًا ونظرت إلى مولانا بنظرة تحيد وواجهته.

ألا يمكن أن تكون أنت الجاسوس وأن حبيبتك تلك قد جندتك وأنك عشت طوال عمرك على هذا الزيف وأن ما حصلت عليه من معلومات ربما هم من سمحوا لك بالحصول عليه وربما يكون زائفًا؟!

ربما يكون كلامك صحيحًا لكنك مُطالب بتفسير تكنولوجيا ذلك المبنى وعودة الإخوان إلى السلطة.

شعرت بحزنٍ شديد ومغصٍ كاد يقطع أمعائي إربًا، فوضعت يدي على بطني وأمسكت بالكرسي، فأمر مولانا الخادم بإحضار مشروب ساخن، قد هدا من ألمي، شعرت وكأنني أغرق أو أن عالمي الذي عشت عمري كله محاولاً الحفاظ عليه ومؤمناً بحتمية وجوده يغرق، ويتهاوى سرعًا، زادت حدة التقلصات مرة أخرى، فتجرعت من المشروب الذي أمامي مرة أخرى، كان هناك شيء بداخلي قلق لأول مرة، لا أصدق مولانا عندما يتحدث، نظرت إليه بعين يملؤها الشك في كل ما قال:

وقلت لماذا لم تتزوج سارة واشنطن؟

لأول مرة أرى تلثم مولانا وصمت قليلاً وأجاب بعدما أعد العدة على فعل شيء ما، هكذا قد فهمت.

قال لماذا؟

لأن سارة واشنطن لو أحببتك لتزوجتك، ما الذي يمنعها من أن تتزوجك إلا أن تكون أنت عميلها في مصر، وقد تم استخدامك لضرب الإسلام.

كنت أعلم ردك، انتظري خمس دقائق.

ثم خرج سرعًا ووقفت أنا بين جدران المكتب، تدور كل الاحتمالات الممكنة في رأسي وشعور بالذنب على إساءتي للأدب والتجرؤ عليه، هل سيقتلني..... لا.. كان بإمكانه أن يفعل ذلك دون أن ينسحب من المكتب ولم تمضي غير لحظات حتى دخل الخادم علي وقال تفضل معي.

عندئذٍ أيقنت بالنهاية وأن مولانا قد قرر أن ينهي حياتي لتجربي عليه ولكن ربما لم يرد أن يشاهد موتي.

مشيت مع الحارث وأحسست أن ثقلاً معلق في قدمي.

لم أكن أملك أي قوة داخلية تعينني على الحركة لشعور باقتراب الموت ولا أملك القوة لدفعه عن نفسي.

تحركت خلف الحارس متبعا خطواته، ورغم معرفتي بأنه يقودني إلى الموت إلا أنني تبعته، طاف برأسي ما علق من ذكريات عمري التي ما زالت ذاكرتي تحملها إلى أن انتهيت إلى أماني التي لم أحققها، وكنت أريد أن أحققها، هي أمنية واحدة كنت أدخر لها حياتي «كنت أريد أن أعرف، هل حبيبتني كانت شخصية حقيقية بغض النظر عن إن كانت أم لم تكن تعلم أنه قد تم استخدام صورتها واختلاق أحداث وفاتها، لأنها ربما إن كانت شخصية حقيقية، فربما تكون ما زلت حية»

- لا لا لا يمكن أن تكون حية لأنها.....

- ربما تكون حية.....

وترقرقت دمعة على خدي مسحتها بطرف ثيابي

- تفضل يا سيدي

- ماذا؟

- تفضل إن مولانا ينتظرك بداخل الخلوة، عليك أن تقرر الباب أولاً.

نظرت إليه ولسان حالي يطلب تفسيراً لعدم قرعه الباب فقال أنا لا أستطيع أن أتقدم أكثر من ذلك، تلك نهاية منزلتي. تقدمت بثاقل ولا أملك أي فكرة عما ينتظرنني خلف ذلك الباب وماذا قد أعد مولانا لي خلف هذا الباب.

ظننت أن الطريق إلى الخلوة قصير، لكن مع حركتي المتثاقلة اكتشفت عكس ذلك.

مع اقترابي أكثر وأكثر من الباب صارت ضربات قلبي مسموعة بوضوح متزايد وشعرت بتدفق الدماء إلى وجهي.

«ما الذي ينتظرني خلف الباب»

صار هذا السؤال الدائم لعقلي ولم يستطع عقلي أن يتخطاه ولو للحظات،

ومع وصولي للباب حملت يدي، خائفة القوى، على أن تقزع الباب فأصدر صوت ارتطامها بالباب صوتاً لم أسمع ولم أسمع له جواب من الناحية الأخرى من الباب، فوقفت للحظات محاولاً أن أستجمع بعض القوة لتستعملها يدي، وجاءت طرقاتي على الباب خافتة، لكنها أكثر قوة مما سبق ويبدو أن مولانا قد سمعها فوجدت الباب ينفتح وخلفه مولانا.

نظرت إلى مولانا وقلت: مولانا يفتح الباب بنفسه.

لا يوجد خادم هنا.

«يبدو أني في أكثر الأماكن قدسية في هذا المكان كله»

وانتهت من غفليتي على صوت مولانا:

«أنت، مرحباً بك في الخلوة»

ثم أشار لي بيده أن تفضل بالدخول واستطاعت ابتسامته أن تخفف بعض ما أعانيه من اضطراب، فدخلت وعينا تدور في المكان كله تحاول استكشافه ولبسطة المكان لم تأخذ عيني وقتاً كبيراً في استكشافه.

كانت الخلوة مكاناً فسيحاً جداً، متجدد الهواء، عالي السقف، قليل الأثاث، تملؤه الزخارف الإسلامية؛ أركانها أضافت إلى الجدران جمالاً لم اعتده، وكان الهواء المتجدد الذي لم أعرف مصدر انبعاثه يحمل روائح زهور جبلية منعشة ثم اكتشفت أن تلك الروائح تتغير بانتظام وتتابع سهل وكانت

الكميات الموجودة من تلك العطور محسوبة بدقه متناهية فلا تملها الروح أبداً.

وقعت عيني على شيء مختلف، إنه الجدار الغربي للخلوة، جدار من الخشب المزين والمنحوت عليه أسماء الله الحسنى، وكان للجدار الخشبي بابٌ يوجد في أقصى الشمال من الجدار الخشبي، مزخرف بالأحجار الكريمة وماء الذهب واللؤلؤ، يهرك بجماله، وتستطيع أن تستكشف بسهولة سلامة الذوق لدى صاحب الخلوة.

تفضل بالجلوس.

بتلك الجملة اختطفني مولانا من تأمل الخلوة.

جلست على أحد الكراسي القريبة منه وجلس بجانبه وقال مرة أخرى:

«أنت مرحب بك»

لم أفهم في البداية ما يعنيه مولانا بتلك العبارة، وظننت أنه يكررها حتى يبعث الطمأنينة إلى قلبي، لأنني قد دخلت إلى أكثر الأماكن قدسية وعلى ما يبدو أنه لم يسمح لغيري بالدخول إلى الخلوة.

لكن سمعت طرقاً خفيفاً صادراً من الباب الشمالي للركن الخشبي ثم انفتح الباب، كدت أن أقفز من مكاني، فضغط مولانا على يدي بيده ضغطة فهمت معناها أن اطمئن.

ومع انزياح الباب خرجت منه امرأة.

لم أتمالك نفسي فقفزت واقفاً ووقف معي مولانا احتراماً لتلك المرأة

وقال مبتسماً:

«زوجتي سارة واشنطن»

لم أستطع أن أبتلع ريقه ولا حتى أن أضم فكي المفتوحين.

جعل ذهولي هذا مولانا يتسم ابتسامة عريضة، وقال ألم أقل لك إنك مرحبٌ بك.

اقتربت سارة واشنطن منّا وقالت بلكنة انجليزية: "السلام عليكم".

لم أستطع أن أتحمك في شفتي حتى أرد السلام، لكن مولانا رد عني وقال: "و عليكم السلام"، تفضلوا.

وأشارت علينا بالجلوس.

انتظرناها حتى جلست أولاً ثم جلسنا.

وظللت للحظات أتأمل وجهها.

كانت امرأة وصلت توها للعقد الخامس من العمر لكنها ما زالت تحمل الكثير من جمال الشباب ونضارته، تنهدل بعض الخصلات البيضاء ممزوجة بشعرها الذهبي اللامع، متألّفة مع عينيها الزرقاوين شديدة الصفاء وخدودها الحمراء الصافية، فأضاف ذلك الخليط إلى جاذبيتها جاذبية، كانت امرأة جميلة بمعنى الكلمة لكن كانت تحمل روحاً آسرة.

- إن مولانا يحبك ويقدرك كثيراً.

قطعت عبارتها شرودي.

- نعم نعم وأنا أحبه وأقدره أيضاً.

نظرت إليّ بامتنان وقالت:

- أنا لم أنجب، فهل تكون أنت ابني؟ فإن مولانا يعتبرك ابناً له.

نظرت إليها بامتنان وتقدير بالغ وخفت من أن يكون مولانا قد أسر إليها من أني قد أردت قتله.

استمر الحديث معها لفترة غير قصيرة ولا طويلة.

كان الحديث معها ممتعاً دافئاً، شعرت منها بحنان أمومي بالغ وترك لنا مولانا الفرصة للتبادل أطراف الحديث في حرية تامة، وعلى ما يبدو أن مولانا قد أخبرها بكل ما يعرفه عني.

وقالت إن مولانا يقول عنك أنك ولد كثير الأسئلة، لكن لا أرى ذلك.

نعم أنا لا أسأل لأني أنعم بدفع أمومي افتقده منذ زمن كبير "الطمأنينة".

أنعم في حضرتها ببعض الطمأنينة لكن الوقت انقضى واستأذنت وقامت واستأذن مولانا مني للحظات وقام خلف أمي الجديدة، شعرت ببعض السعادة الداخلية التي زالت مع ما شاهدته للتو!

لقد مر مولانا من الحائط الخشبي بعد عبور سارة واشنطن للباب مخفياً خلف الجدار.

راودني شعور قوي أن أقوم وأمس ذلك الجدار أو أتبين إن كان فيه فتحات لا تستطيع عيني استيائها، لكن إن كنت أستطيع رؤية مولانا وهو يدخل من الجدار دون أن يفتح باب أو شق فيدخل فيه بجنبه لكنه دخل ب صدره ثم اختفي خلف الجدار، الذي عاد إلى وضعه الطبيعي، ودارت في عقلي علامات تعجب وأن أنقل عيني بين المكان الذي عبر منه والباب منتظراً خروجه من أيهما، ولم أستطع أن أجده تفسيراً للعلامات التعجب تلك.

لماذا أراد مولانا أن يستعرض أمامي تلك الكرامة فقد كان بإمكانه أن يدخل خلف سارة واشنطن؟!

إن مولانا لا يفعل شيئاً أبداً عن طريق الخطأ أو السهو.

هل كان يقصد من ذلك أنه مؤيد من قبل الله، وأن تلك المعجزة من الله بها عليه حتى أقنع بصواب ما هو عليه؟!

ونظرت للباب ولسان حالي يقول «إن ما عشت أو من به منذ صغري أقوى من أي معجزة»

نظرت إلى نفسي متعجباً فلم أكن معها يوماً صادقاً مثل هذا اليوم فأنا الآن
لا أفعل معها مثلما كنت أفعل طوال عمري، أن أبرر لكل خطأ، وأحاول أن
أشكك في كل ما يدعي الآخرون أو تحاول نفسي أن تؤمن به.

دوى فى تلك الغرفة صوت استغاثة وهرج ومرج كبيرين، رآته مع عودتها إليها، ورأت التفاف كل الموجودين من الملائكة حول الجسدين وهمهمات، استرقت هالة النظر من بين أحد الفواصل بين أحد الملكين المتحركين حول الجسدين. وجدتهم يحاولون تقديم إسعافات لجسد كبير السنافر.

وعادت إلى سؤالها هل يموت الميت؟

لقد صار جلياً أمامها أن الروح تموت.

ألا تشعر الروح بالضيق؟

ألا تشعر الروح بعذاب جهنم؟

ألن تشعر الروح بنعيم الجنة؟

إذن هي لم تنتقل من حالة إلى أخرى.

الروح سوف تموت.

لكن ما الحالة التي ستخرج من الروح عند موتها؟

لقد خرجت الروح من الجسد عند موته.

كانت الروح سر الحياة للجسد.

ما سر الحياة للروح التي إن غادرته ماتت الروح.

الروح لن تموت.....!

روح كبير السنافر تموت الآن.

وضعت يدها على رأسها محاولة إسكات ذلك الصراع الدائر فيها ونظرت إلى ما يفعلوه بكبير السنافر.

ورأت مصادفةً عضوه الذكري فشعرت ببعض الخجل، وبعد إلحاح من
وعيهما لرؤية ذلك الشيء، قالت مما أخجل، فأنا لا يراني أحد الآن، ولم
تستطع أن تقاوم شعورًا باسترقاق النظر مرة أخرى.

وبدا الاشمزاز واضحًا على وجهها.

وقالت بصوت هامس إن الأعضاء التناسلية تلك غير جذابة على الإطلاق
أو مثيرة جنسيًا حتى، هل تكون «الإثارة في عقولنا فقط»؟

أعتقد أنهم يخفون أعضائهم خلف أرتال من الثياب ليس خوفًا من
الإثارة لكن لقبحه، فلا أعتقد أنه مثير جنسيًا.

لكن من ربط بين الجنس والجسد العاري وظن أن الجسد العاري هو
مادة للإثارة الجنسية، كان مخطئًا.

إن العقل دومًا يبحث عن الأشياء المخفية وكل جزء من الجسد يتم
إخفائه يصبح مثيرًا جنسيًا لكن لو أصبحنا عراه فلن يكون الجسد أبدًا
مادة للإثارة، وتصبح الإثارة نابعة من العقل فقط عند الاحتياج والذي
يترجم حاجة الجسد لممارسة الجنس.

ابتسمت ابتسامة رقيقة لنفسها وقالت لقد أصبحت محللة نفسية.

هل ما أنا عليه من حالة الروح أعطاني الجرأة وجعلني أقوم بتقييم كل
الأمور التي كنت لا أستطيع أن أناقشها؟

لكن لماذا يكون معظم حديثي عن الجنس؟

هل لذلك علاقة بما عايشته من كبت؟

أضواء شاشة بفلاش متوهج وكانت الشاشة القريبة من كبير السنافر،
وحدث اضطراب كبير في الغرفة حول كبير السنافر.

ثم سمعت أحدهم يقول:

فقدناه!

لكن هناك حالة من الخوف والرغبة من أن مولانا قد يكون موصولاً بالله،

خرج مولانا في تلك اللحظة من الباب، فانتبعت.

ثم جلست بين يديه.

لم أسأله تفسير ما حدث، فلا يسأل المريد شيخه.

إنه ليس شيخي!

لا أدري....

لا أعرف لماذا لم أسأله. حاولت أن أتخلص من اضطرابي بالصمت متبهاً بكل جوارحي إلى ما يقوله مولانا، ربما أحظى بتفسير لما رأيت.

هل اطمأننت لصدق حديثي؟

من أنا حتى يهتم بي إلى هذه الدرجة ويثبت لي صدقه، لماذا أنا؟

فلديه من الرجال المؤمنين به الكثير ولديه شيخ العرب، لماذا كل هذا الاهتمام بي؟

لم تكن لدي إجابة على سؤاله، لأن في الحقيقة كان لدي سؤال، فقلت مسرعاً قبل أن يترسل في حديثه:

مولانا إنك قد مررت من الجدار.

ضحك مولانا بصوتٍ مسموع ولمدة طويلة وكانت تلك أول مرة أراه يضحك

وقال:

- إن هذا الجدار ليس حقيقياً ولا سارة واشنطن حقيقية أيضاً.

- نعم!!!!!!!

ليست حقيقية كما تعتقد أنت، لكنها حقيقية تماماً بالنسبة لي.

نظرت إليه وكل تعابير وجهي تستنكر ما يقول أو ما يدعي، وفي النهاية عجزت عن إدراك ما يقول، أردت في تلك اللحظة أن أضع يدي على كتفه حتى أتأكد أنني سليم العقل وأن ما ألمسه حقيقة.

فليس للعقل طريق للمعرفة إلا من خلال حواسه، ورغم أن الصوفيين يقولون أن المعرفة عن طريق القلب، لكنني أرى أنها عن طريق الحواس، فكيف لي أن أعرف دون أن أذوق، دون أن ألمس، دون أن أرى، دون أن أشم؟!

في تلك اللحظة سمعت صوت الشيخ الدرويش وهو يقول إن المعرفة الحقيقية بالقلب فقط، فكل ما تحدثت عنه هو خادع.

نظرت خلفي لأتبين مصدر الصوت فلم أجد الشيخ لكن عندما عدت بنظري إلى مولانا وجدته مبتسماً وأشار إلى قلبي.

ثم استطرد قائلاً:

- هل رأيتني وأنا أمر من الجدار؟

لم أنطق لكن ظللت ناظراً منصتاً إليه بكل جوارحي في سكوني حتى يكمل لكنه قال:

- هل صدقت عقلك فيما رأيت؟

- نعم، صدقت.

- أبداً ما رأيت أبداً، لم يكن حقيقة.

وضع يده على قلبي وقال:

إن القلب يرى عندما نسمح له بذلك، بدا وهو يتكلم كأحد أقطاب الصوفية الكبار.

- عندما يرى القلب فلا زيف، لأنه يرى جوهر كل موجود يا بني.

قلت متحرّجًا:

- إذن ما تفسير ما رأيت؟

- كان السحرة قديمًا مع ثورة الليزر، يستخدمون اختراعًا اسمه الهولوجراف وهو يقوم بنقل صورة الإنسان أو الأشياء في شكل ثلاثي الأبعاد، أي أنك لن تستطيع أن تميز بين الشخص وصورته إلا إذا قمت بلمسه، فكانوا يستخدمونه لنقل صورتهم ويضعوها فوق الماء، فيعتقد مشاهديهم أن هؤلاء السحرة يمشون فعليًا فوق الماء أو ينقلون برج إيفل أو يخفون تماثيل الحرية، أو يخترقون صور الصين العظيم، أو يضع أحد الأهرامات في مكان آخر غير مكانه.

- هل تريد أن تقول إن هذا الجدار هولوجراف؟

- نعم لكن الجهاز المستخدم مربوط بـ «سوبر كمبيوتر» لا يوجد له مثيل حتى في مبنى الإخوان السري المبنى ٦٦.

من أين حصلت عليه؟

كانت تعابير وجهي تتهمه اتهامًا واضحًا فقال:

- لقد حصلت عليه من سارة واشنطن قبل موتها.

وقفت أمامه مشدوهاً

- ماذا تقول؟

- ومن تكون تلك المرأة التي جلست أمامها وحدثتها؟

- إنها سارة واشنطن.

وضعت راحة يدي على وجهي وقلت هامسًا: ربي إن عقلي لن يستطيع أن يتحمل كل هذه الأحاجي.

- ألا تقول يا مولانا إن سارة واشنطن ماتت؟

- نعم ماتت.

- كيف تتحدث معنا وهي ميتة؟ لا تقل لي إنه الذكاء الصناعي!

- إنها هي.

- كيف تكون هي وهي ميتة؟

عندئذ تصاعد صوت لم أسمع له مثيلًا، ضعيفًا قويًا، جميلًا شجيًا هامسًا، صوت امرأة كدت أطرب له وأقع في معصية.

«يا حبيبي... الليل وسماه.. ونجومه وقمره..

وأنا وأنا..

يا حبيبي أنا، كلنا كلنا.. في الحب سوا..

والهوى.. آه منه الهوى»..

- هل هذا غنائها؟

- لا إن هذا الصوت لامرأة تدعى أم كلثوم، كانت مطربة قديمة.

- ومن قام بتشغيل الصوت؟

- سارة، إنها تحبها جدًا يا صديقي.

- هل يحب الميت أو يكره؟ وإن كانت طيفًا كيف قامت بتشغيل جهاز

الصوت؟ إن تشغيله يحتاج لشيء مادي.

- لأول مرة أرى مولانا مترددًا مرتبكًا في الحديث ويحاول أن يلجم الكلام،

ويحاول أن يطلقه، كان مرتبكًا لا يعرف كيف يبدأ، لكنه في نهاية الأمر وجد

طريقًا وقرر أن يتحدث.

- ما لم تره في الغرب يا صديقي، أن الحدود بين الحياة والموت أوضحت غير واضحة المعالم، وكما أن الفيروس بإمكانه اختراق تلك الحدود، بات الإنسان قادرًا على تخطيها. لكن لا يفعلها كل الناس هناك.

- أنا لا أفهم يا مولانا ما تقول.

- سارة شعرت أن هناك من يلاحقها، ثم علمت أنها أوضحت كارتًا محروقًا يجب التخلص منه، وقبل أن تسألني أنت هل تم قتلها من أجل جبهاتي؟

بعد فترة من الصمت قال:

- لن أستطيع أن أدعي أن هذا الأمر صحيح، لأنها لم تصارحني، لأن الأمر يخص أمن بلادها، وصمت مرة أخرى. وقبل أن يتفرع منه الكلام ويدخل في أشياء تخص الأمن ويتبعد عن الحدود الفاصلة بين الموت والحياة سألتها بإصرار:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

لا أدري سبب هذا الإلحاح.

انتبهت إلى من يحدثني بتلك النبذة الحادة فوجدت أن هذا الصوت صادر من عقلي ولم يرحم حالي فيتوقف، وعندما نظرت إليه خجلًا لكنه ظل مستمرًا في تأنيبه لي وقال:

ألم تدرك بعد أن حبيبتك هي وهم تم زراعته في وعيك؟ أما زلت أسير تلك الخدعة؟ تريد أن تعرف كيف يمكن إعادة الميت للحياة؟ ربما كان بإمكانك أن تفعل هذا مع هالة فتعيدها إلى الحياة، لم تدرك بعد أن هالة شخصية غير حقيقية، ربما هي نبت خيال عقل مضمحل، من قيادات أمن المرشد، ثم قام بزراعته في وعيك. أردت أن أخبره بكل ما لم أعتقد أنه سيفهمها لذلك أثرت الصمت.

لكن لم يصنبي الفتور لسماع مولانا، فأنصت له باهتمام بالغ عندما بدأ يتحدث بثاقل وقال:

كانوا يستخدمون برنامجاً شديد التطور مع بعض المجرمين الخطرين، اسمه
(Real Person) أشخاص حقيقيون!

كانوا يبدأون عن طريق هذا البرنامج، الموجود على سوبر كمبيوتر، بنسخ وعي هذا الشخص، ثم يقوم البرنامج بعمل صورة طبق الأصل من هذا الشخص، أقوالاً وأفعالاً، ولن تستطيع ولن يستطيع الشخص الذي يراهم أن يفرق بينهم في الأفعال أو الشكل أو التغير العمري أو الأحداث التي سوف يصنعها في المستقبل إن تعرض لنفس الظروف، حتى الأمراض وأثرها ستظهر عليه، بإمكانك أن تقول تطابق تام.

فقلت مازحاً:

- هل إذا مات، يموت التطابق التام أيضاً؟

- نعم يموت.

- لماذا لم تمت سارة واشنطن مع سارة واشنطن؟

- أعرف ذكائك وما الذي تريده بسؤالك، لكن دعني أكمل، كانت سارة من مبرمجي ذلك البرنامج ومع شعورها بقرب النهاية، أمرتني بمغادرة أمريكا إن قتلت، لأنهم سيقومون بتصفيتي آجلاً أو عاجلاً. وبنفس الطريقة التي زرعت بها عنواني في عقلك عن طريق البرمجة العقلية ولم يستطع أحد غيرك استخراج المعلومات وأنت لن تستطيع حتى استخراجها، إن لم يكن لديك إرادة حقيقية، قامت بزرع معلومات في عقلي ثم علمتني أيضاً تلك الطريقة وعلمتني كيف أمحوها.

ثم نظر مبتسماً وخفض صوته، كأنما يقول لي سراً، وقال حاولت كثيراً وأنا في أمريكا أن أستخرج تلك المعلومات من رأسي وأعرف طبيعتها لكنني لم أستطع.

وعاد مولانا إلى وضعية الجلوس العادية، بعدما أفضى إلى بسره وقال:

- قبل نهاية رحلتي، تم بالفعل قتل سارة واشنطن، ولم يكونوا بحاجة إلى إعادتها إلى الحياة، فتم دفنها.

- أتقول أن بإمكانهم إعادة الموتى إلى الحياة؟

- سمعت ذلك، لكنني لم أر أي من العائدين إلى الحياة.

شاهدت على وجهه تعجل في أن يحكي قصته، فلم أسأله مرة أخرى، وتركته يكمل لأنني كنت متشوق إلى أن أعرف.

عدت إلى مصر على عجل وطلب مولانا المرشد مثولي بين يديه، وكانت جلسة غير ودودة، ورغم أن أبي كان من قيادات الإخوان البارزين، وعضو مكتب الإرشاد، إلا أنه تم استبعادني من مجموعة أمن المرشد إلى أمن النظام، وعلمت أن هناك شيء يحاك ضدي في الظلام، وبات النظام مكشوفاً لي بعلاقته الوطيدة بأمريكا، عكس ما يدعي وأكد لي ما توصلت إليه من معلومات، ومع مرور الوقت وهدوء مخاوفي، هاجت مشاعري بشكل لا يصدق وكأنها كانت جبيسة الخوف والقلق، واشتقت بصدق إلى معرفة ما تركت لي من معلومات، وكما حصلت أنت على ما أودعته أنا في عقلك، حصلت أنا على ما أودعته هي في عقلي.

تذكرت تلك اللحظة، كانت تساوي في متعتها متعة ممارسة العادة السرية أول مرة. أليس كذلك؟

تبسمت حياء ولم أرد لكن مولانا استطرد وقال:

- كان عنواناً ذهبت إليه فوجدت سوبر كمبيوتر واسطوانة مكتوب عليها هذه أنا.

كانت عيناى مفتوحة بذهول واضح فمولانا لم يكذب أبداً ولما عساه أن يكذب لكنه قال:

تلك النظرة ليست شيئاً أمام ذهولي، فكيف استطاعت أن توصل تلك الأجهزة المتطورة إلى مصر، كيف خرجت بها من أمريكا، إنها لم تتركني يوم لأكثر من ١٦ ساعة، فساءلت هل ما مررت به كان وهماً زائفاً وأن سارة واشنطن لم تمت؟ وكل ما مررت به كان محاولة لاستخدامي وتحويللي جاسوس؟ نظرت إليه منتظراً أن يكمل توضيحه فقال:

أصدقك القول أنا لم أصدق ما قالته لي سارة واشنطن عند خروجها من الجهاز وتوضيحها لي الأمر ونحت ضغط الحب أقنعها أني أصدق ما تقول، لكنني لم أصدق.

- أعلم أنك تود معرفة أشياء كثيرة.

- كيف خرجت سارة واشنطن من الكمبيوتر؟

- ما الذي قالته لي وأقنعها أني مصدق؟!

- وكيف نقلت تلك الأجهزة؟

- وهل تأكدت أنا من صحة كلامها أم ماذا وكيف؟

- إنك نسيت يا مولانا سؤالاً أهم، هل سارة واشنطن تعتبرها حقيقية؟

- لنبدأ بجواب أسئلتني ثم أجيب على سؤالك .

بعدما قمت بتشغيل الكمبيوتر ثم وضعت فيه الاسطوانة شعرت بيدين تربت على ظهري بحنان بالغ ثم همست في أذني وقالت:

”لم تتركني كل تلك المدة، اشتقت إليك كثيراً وبدلال المحب أكملت أم تراك نسييتي؟“

رغم معرفتي لصوتها وذوبان قلبي وإحساسي بحنان يديها على كتفي، إلا أننى فزعت أول الأمر ولم أستطع أن ألثفت، فطبيعة المكان كان كهفاً مهجوراً، كنت قد خبرتها يوماً في مرحلة من حياتي أثناء رحلة لي في الصحراء

الشرقية، وجدت كهفًا قضيت فيه بضعة أيام، وقامت باستخدام برنامج يشبه «جوجل إرث» عندنا لكنه أكثر تقدمًا بشكل كبير، يجعلها ترى الأماكن وكأنها مشاهدة حقيقية وصمتت للحظات وقالت «أرى روعي تسكن هذا الكهف».

شعرت أن روحها هي من يربت على كتفي، شعرت بخوف شديد طغى على أحاسيس الحب لكنها قالت:

“أنا سارة”

وصمت مرة أخرى وكأنه يتذكر، لكنني كنت في حالة لهفة لمعرفة ما الذي يحدث عندما وجد الحبيب حبيبه بعد انقضاء الأمل.

خرج مولانا عن صمته وقال:

في تلك اللحظة لم أستطع أن أقاوم، ولم أستجمع شجاعتي بل لم أجد عقلي، فكل أمر صدر من قلبي فهو منبع الحب والخوف وكان الحب، بل كان العشق، بل أنه النور، نور الحب، الجزء في الكل، والكل في الجزء، والحب نور قمت تحسستها، ضممتها إلى قلبي، لا أدري.

ورأيت دموع مولانا مرة أخرى وتساءلت هل تبكي لحظة فراق أم فرحة قرب يا مولانا فقال بل لحظة حب شفتني جعلتني أصير جزءًا من العالم والعالم جزء مني.

مع كلماته تلك لم أشعر بإشفاق عليه بل حسد مقارنة بحالي.

وأكمل مولانا كلامه.

لا أدري كم قضينا على تلك الحال، إلى أن انتبهت أن دموعي تجلجل وجهها فمسحته، وشعرت بأصابعي تحترق طبقات وجهها، ففزعت وشعرت هي بفزعني، فمررت يدها على قلبي محاولة تهدئتي، وقالت هذا أقصى ما

استطعت أن أفعله من تطوير للبرنامج والحاسوب أيضًا، فحولت الطيف إلى كيان شبه مادي، لكنني معها استطعنا إعادة البرمجة بصورة أفضل، فأضحت حقيقة أو ربما لن نستطيع أن تميز بينها وبين سارة حتى وإن اختبرتها بيولوجيًا فهي تمتلك نفس المؤثرات، مثل اللمس ودرجة الحرارة، وزدنا على الإنسان العادي واستطعنا أن نبطئ من عجلة الزمن ومروره لكن وعيها وعقلها أصبح أكثر تطورًا من ذي قبل وأضحت كيان فيزيقي حقيقي أو هكذا سيبدو إلينا.

- لكنك مررت من الحائط!

- نعم مررت من الحائط لأن الحائط هولوغراف فقط.

ثم صمت مولانا وكأنه يريد أن يخبرني بشيء ما ولا يعرف كيف يقوله، ثم تنهد وقال بحزن

- طالما بقى الجهاز بقيت فهو ما تستمد منه حياتها.

وشعرت بالاسى وقلت

- إذن يومًا ما ستموت مثلنا.

- يومًا ما.

لم أترك الفرصة لخيالي أن يبحر في تلك الجملة الحزينه التى قطعت خيط الاحداث . حتى لا يضيع حرف على عقلي مما سيقول مولانا، عندئذٍ أطرقت:

لم يهدأ فزعي رغم محاولتها الحسيّة بتهدئتي، ولا تحسبني قاسي القلب كما أبدو، لكن فزعي زاد عندما رأيت قطرات دموعي على الأرض وعلى وجهها في أن واحد، لم أعرف أنها مؤثرات بصرية يصنعها ذلك البرنامج العبقري، ولم أهدأ إلا عندما أخبرتني بذلك، ومع ولوج الهدوء إلى روحي والسكينة، وبعدها بدأت حديثها، تأكدت تمامًا أن سارة واشنطن لم تخدعني وأنتني لست جاسوسًا يعمل لحساب منظمة ما ضد مصلحة بلاده، بل هي محبة أرادت أن تمضي كل حياتها مع من أحببت وظننت أني سوف أفاجئها بسؤالني:

- سارة كيف جئتِ إلى هنا؟

- «ضحكت ثم قالت عن طريق entanglement»

- ماذا تعنين؟

- «أعني التشاكل»

- أعرف الترجمة العربية!

”التشاكل هي ظاهرة فيزيائية حيرت علماء الفيزياء الكمية لأن عن طريقها نستطيع أن ننقل الأشياء في اللازم، بمعنى إذا وجدت حالة التشاكل فإنك تستطيع تنقل الأشياء بين مكانين، الجزئيات على سطحيهما في حالة التشاكل تلك ما أن تدخل البوابة الأولى حتى تخرج من الثانية مهما كانت المسافة، حتى لو كانت بين كوكبين تبلغ المسافة بينهم ملايين السنين الضوئية، فإن التشاكل ينقلك بينهم فما أن تدخل البوابة الأولى حتى تخرج من الثانية“

أتريدون أن أقول إنك نقلت تلك الأشياء عن طريق تلك الظاهرة الفيزيائية؟

”نعم والأمر الجيد أن عملية النقل بتلك الطريقة لا يمكن تتبعها، لذلك تم تطويرها وأضحت وسيلة الاتصال بين جواسيس CIA وأعضائها بعد فهمها جيداً من قبل علماء الفيزياء“

شردت قليلاً وقلت لنفسي أليس من الممكن أن تكون حوادث القتل تلك حدثت بتلك الطريقة، أليس من الممكن أن من قام بزرع قصة الحب الخيالية رجالاً يتنقلون بين الأماكن بتلك الطريقة، لكن انتزعت نفسي من شرودي وقلت :

أنا لم أسمع عن ذلك أبداً يا مولانا، أليست الفيزياء دراستها حرام وتم منع تدريسها مع الفلسفة وعلوم أخرى تدعوا للانحلال الأخلاقي.

نظر مولانا إليّ بضجر مستنكرًا ما قلت وقال:

- انظر إلى حالنا الآن أيرضيك ما وصلنا إليه من أجل فهم توراتي لدينا؟

- ماذا تقول يا مولانا؟ واستغفرت الله خوفًا من أن يصب علينا عذابه.

- أقول إن التخلف يوجد في نظرتنا نحن إلى الدين وليس ما عليه الدين.

شعرت بضيق من كلامه وهو ضيق يظهر أثره دومًا في صدري كلما اقترب أحدهم من تلك المنطقة. وخوفًا من أن أدخل في عراك فكري ونترك الموضوع الأساسي، قلت:

- إذن لماذا لم تصدقها؟

ظلمت متشككًا، وبين رغبة في تصديقها، وعقل غير مقتنع تمامًا بما تقول، لكن عملي معها على تطوير البرنامج الخاص بها ثم إطلاعي على أكثر الملفات سرية بعد ذلك، عن طريق اختراقي لها بمساعدة سارة، واستطعت أن أرى الكثير وتعلمت أن ما يحكى لنا من غرائب ربما تكون حكايات أكثر واقعية مما نعتقد وأستطيع أن أقول لك بثقة تامة أن العالم ليس كما يبدو لنا.

- هل رؤيتك للعالم بتلك الطريقة دفعك لتلك العزلة الصوفية؟

إن ما مررت به مع سارة كان على مدى عقود يا بني، لكن دعني أقول لك ما الذي دفعني لذلك.

كانت شكوكي في النظام مجرد شكوك، ربما يكون رأس النظام هو من يكون عليه شبهات، لكن ربما يظل النظام جيدًا وقادر على إصلاح أخطائه، ثم التقيت سارة، كما أخبرتك، وظلمت أذهب إليها، وظلمت جنديًا من النظام، لكن بذور الشك في كل شيء كانت تنبت في روحي، كل من كانت تحوّلهم قدسية مع المعلومات تعرفوا، وكنت مثلك ومثل أي إخواني مؤمن بالجماعة، كنت أتمس المعاذير وأبرر لهم حتى أنام أنا مرتاح الضمير، لا تؤرقني ثورة الندم ولكن كانت ثور موجات من الرفض داخلي كلما قرأت شيئًا ما مغاير لاعتقادي، لكن لحظة صدق واحدة مع الذات بعد كل ما عرفته، قررت أن أقرأ عن الإخوان وللإخوان كتبٌ قديمة كنت قد صادرتها قديمًا

ولسبب ما لم أقم بإعدامها وأخرى جديدة بعيداً عن تلك الحالة القدسية وأنهم منزهون عن الخطأ.

اكتشفت بعد قراءة متأنية وعلمية، أن المشكلة في النظام وليس في الأفراد فقط، فإطار النظام لا يسمح إلا بما وصلنا إليه ولذلك كنت في حالة بحث عن إطار أوسع.

وقام مولانا من مكانه وقمت أنا أيضاً، فوضع يده على كتفي وقال:

- أما آن الأوان أن تكون معنا؟

- سيدي أنا لم أصل لما وصلت أنت إليه، ورغم شكوك دبت في قلبي إلا أنني ما زلت إخوانياً وأرى أن النظام يمكن إصلاحه.

- هل تأذن لي يا سيدي بالرحيل لأنني قد حصلت على ما أريد؟ وعرفت ما أردت معرفته فعلياً أن أذهب.

- ألم تدرك أن ما حدث هناك ربما لم يكن حقيقياً؟

- ربما، لكن هناك نائب مولانا المرشد قد قُتل وعلي أن أمنع مقتل.

- يا صديقي لقد أصبحت من المطلوبين، ومع خروجك من هنا ستغامر بحياتك.

- ربما، لكن هناك شيئاً بداخلي يدفعني إلى الرحيل.

- لك ما تريد، فلتذهب كي تستريح قليلاً وحينما تنتهي قوة الحماية التي سترافقك من إعداد خطة العودة إلى القاهرة، ستذهب.

- شكرًا لك سيدي.

ومع اقترابي من باب الخروج من الخلوة شعرت بأن مولانا يريد أن يخبرني بشيء، وتساءلت، رجل بحجم مولانا وقوته لا يستطيع أن يخبرني بما يريد، وعندئذ تهادى صوت مولانا رقيقاً إلى أذني:

- حسن.

التفت إليه .

- سأخبرك بشيء ما قبل رحيلك .

فخرجت من عند مولانا وأنا في شوق إلى أن أعرف ما الذي يريد مولانا وجعله متحرراً بتلك الطريقة .

ذهبت إلى سريري مباشرة، لقد كنت محتاجاً إلى أن أضع جسدي عليه وأترك روحي طليقة وأخلد في نوم هادئ .

- لماذا أعود؟

إن رحيلي عن هنا لأني لن أكون متوافقاً مع أفكار الصوفيين، لأني لست صوفياً وما زلت أراهم فئة ضالة، لكن ما الذي يجب عليّ فعله بعد عودتي للقاهرة، فسوف أعيش مطاردًا، وسوف يتم تصفيتي، هل عليّ أن أعود لأحصل على إجابات في قضية مقتل مولانا نائب المرشد؟

- لمن أعطيها، إن كان رأس النظام هو الفاعل، وضعت يدي على عيني محاولاً الإبقاء على النوم قبل رحيله .

لقد فاجأني مولانا بحبه هذا، أي عاشق أنت يا مولانا، لماذا سمعته باهتمام مضاعف، هل لأني أردت أن أعيدها إلى الحياة، شعرت بخفقان قلبي لكنني حاولت أن أكتم أحاسيسي حتى لا أتلقي اللوم من عقلي مرة أخرى .

- انتبهت إلى أنني أصبحت أخاف .

- هل أنا بهذا الضعف، أم أن الحب مارس الأعباء عليّ؟

- هل أستطيع إعادتها وتكون حية مثل سارة واشنطن؟

- إن سارة كانت إنسانة حقيقية ولها قصة حياة وتفكير واضح .

بدأ حافز ما يتسلل ببطء إلى وعيي، عليّ أن أذهب إلى شقتها وأن أستعيد روحها وأبحث عن كل شيء يشي عنها، كل معلومة، كل أقصوصة، ثم أقوم بخلقها على الكمبيوتر، لكن هل تعرفني؟ وهل إن رأيتني ستحبني مثلما أحبها أم أجبرها على حبي؟

عليّ أن أضع حبي على وعيها ويكون جزءاً من كيائها مثلما تم معي. أحسست أن قلبي لا يشعر بسعادة لهذا الأمر، وروحي ترفض.

لكن صرخت في روحي بعنف وقلت لها أنا من سيخلقها مرة أخرى، لذا يجب عليها أن تحبني، هذا حقّي، وأغلقت هذا الصراع الداخلي.

نظرت إلى سقف الغرفة مبتسماً سعيداً بما توصلت إليه ومن حالة السكون التي حظيت بها.

شعرت بسعادة غامرة وفرح لم أستوعب مثيله، طاف بذهني مذكرتها وما خطت يدها وتلك الليلة التي قضيتها في شقتها وملابسها المرتبة بعناية ورائحة روحها.

ما زلت واهم وتريد أن تعيش في كذبة.

- قد تكون كذبة، لكن خلف كل كذبه ربما تكون هناك حقيقة.

- ربما كانت هالة شخصية حقيقية ربما، وتم اختلاق القصص حولها.

- إذن إن كنت ضابط في أمن المرشد ورأيت تلك المذكرة فهل تركها؟

وإن كنت ضابط تسعى خلف شيء ما معها، ولم تكن قد تواجدت إلا في أماكن قليلة قبل وفاتها، وسيارتها هي الأهم على وجه التحديد، فهل يتم إهمال التفتيش فيها، والأغرب بكل أجهزة كشف المعادن التي يملكونها لم يعثروا على المعدن وعثرت عليه أنت، أليس هذا غريباً؟

كانت تلك الكلمات كل ما أذكر من ذلك الحديث الذي دار بيني وبين عقلي قبل دخولي مرحلة النوم العميق، وكانت آخر كلماتي التي بعثت في الأمل "ربما يكون كل ما تقوله صحيح، لكن لدي حدث يخبرني أن المصادفة قد لعبت دورًا، ولا أخفيك سرًا أنني ما زلت أشعر أن روحها ما زالت حية"

استيقظت على نداء الخادم:

- سيدي، لقد تم تجهيز كل شيء ومولانا ينتظرك لتناول الشاي معه.

- حسنًا، كم تبلغ الساعة الآن؟

- إنها السادسة.

- لقد نمت مدة طويلة.

- نعم سيدي.

- شكرًا لك.

- كان شكري له على حسن تعامله معي في الأيام السابقة وأنى قد آلفته.

كان مولانا ينتظرنى في الحديقة، فدعاني للجلوس على الكرسي المقابل له، وكنت في لهفة لمعرفة ما يريد مني، وقبل أن يبدأ الحديث، قام الخادم بصب الشاي الذي بدا متلألئًا مع أشعة شمس الغروب الذهبية، ومع هبوب ريح رقيقة عانقت وجه الزهور، فحملت الريح الرقيقة عبق الزهور إلى أنفي.

كان أبيضًا بطعم الريح فبدا كمشهد سحري رائع الجمال فنقلت نظري إلى زهور الحديقة وانتبهت رغم مروري عليها قبل ذلك إلا أنها أول مرة أراها.

- أما زلت مصممًا على السفر؟

- انتبهت إلى سؤال مولانا الودود.

- نعم سأسافر.

- أعلم حجم المخاطر ولا توجد أي حماية لديك هناك.

- نعم أدرك ذلك.

تلك السيارات ومجموعة المقاتلين هؤلاء سيقومون بتوصيلك حتى أبواب القاهرة.

كانت سيارات دفع رباعي قادرة على السير فوق رمال الصحراء الشرقية ومدقاتها الوعرة بسهولة.

- إن سارة ترسل إليك تحيتها وحبها.

نظرت له بامتنان وتقدير وشعرت أنه يريد أن يقول شيء لكنه متحرج، حاولت أن أشجعه فمال عليّ وقال بصوت خفيض:

- هل أستطيع أن أطلب منك أن تعود ذات يوم؟

- لماذا؟

- مع عودتك سأعد العدة لرحيلي.

نظرت إليه باستغراب شديد وإلى ما يقول..

كنت أتمنى أن تبقى بالقرب مني وأن تحكم مصر بعدي إن مكن الله لنا ذلك، لكن كل ما أطلبه منك كأب أن تعود كي تفعل شيئاً واحداً، أن تحررني أنا وسارة من هذا الواقع وأن تضعنا على شبكة المعلومات.

فنظرت إلى ما يقوله باستغراب كبير.

- فقال أفهم أنك تتصور أنني سأصير إلى ما صارت إليه سارة وأعيش في مثل تلك الحالة، لكن راودتني فكرة أنه إن أجلاً أو عاجلاً سيتم إيقاف الجهاز وعندها لن نكون وسننتهي، لذلك طورنا برنامجاً لنكون أحياء على شبكة الإنترنت للأبد.

- فأريد منك أن تطلق البرنامج بشكل صحيح من على السوبر كمبيوتر هذا.

- ألن تستطيع أن تطلقه أنت؟

- لا لأنني يجب أن أكون متصلاً بالجهاز حتى يتم نقل وعيي.

نظرتُ إليه باستغراب شديد، فأنا لا أفهم، لكنه أكمل.

- وإن أتيت أنت وأنا قد مت فإن سارة ستعلمك ما عليك فعله.

- هل ستأتي؟

صمت قليلاً، وكانت كل خلية من خلاياي تقول لا لن أتى لكن خجلي منه جعلني أعده أني سأعود؟

ركبت السيارة بعدما ودعت مولانا، وتحركت معي خمس سيارات محملة برجال القوات الخاصة لدى مولانا، وتحركت السيارات بطريقة منتظمة كتحرك رتل عسكري، كنت مضطرب الذهن فقد ألقى حديث مولانا في نفسي كثيرًا من الرهبة والاضطراب، هل يدرك حقيقة ما يقول؟

هل الواقع الصوفي الذي يعيشه جعله لا يدرك الحواجز الواضحة بين الحياة والموت؟

- هل يظن نفسه بعد موته أنه سيظل حيًا؟

حاولت أن أتفلسف «استغفر الله العظيم» وقلت ربما تكون نومة الإنسان هي ميتة وكل استيقاظ هي حياة جديدة، وقلت كما تقول هالة في مذكراتها أن الذي يجعل حياة الإنسان مستمرة استمرار الوعي، حقيقة لم أفهم ما خطت يدها إلى الآن فهي ربما تقصد أن الإنسان عندما يقوم من نومه لو فقد الذاكرة وانقطع وعيه فهو قد مات، لم يمت بالنسبة لي لكنه مات بالنسبة إلى نفسه.

- هل تقصدين ذلك يا هالة؟

إذن مولانا عندما يقوم بإطلاق وعيه على شبكة الإنترنت ثم يتجسد في أي مكان شاء وفي أي زمان شاء هو لم يعد حيًا بالنسبة لي، لكن بالنسبة لنفسه هل ما زال حيًا؟ لقد استطاع أن يتخلص من ثقل جسده لكن وعيه ما زال متصلًا لكن كيف سيحاسب يوم القيامة، هل سيرافقه الشيطان داخل الانترنت كي يضلله أم سيتركه «استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم».

حاولت أنا أن أطرد الشيطان من عقلي ربما هو الذي يُدخل في رأسي تلك الوسوس الآن حتى يضللني عن طريق الحق..

لكن هل يكون هذا ما حدثني عنه الشيخ الدرويش من أني سوف أشاهد أحياء الموتى، هل كان يقصد ذلك؟ صمت قليلاً ثم نظرت إلى الجبال التي تحيط بهذا المكان الذي يقطنه مولانا وجيشه، فبدت كقلعة أسطورية عندما لفها الشفق الأحمر بسكونه وجلاله، لقد أثارت في نفسي خلال وقت قصير بحاراً هائجة من الأفكار، ربما يتطلب الأمر إصلاح نفسي منها سنوات، وعلى الرغم من ذلك وتلك المدة القصيرة، إلا أن شيئاً لم أستطع تفسيره، وهي موجة الحزن الجاثمة فوق صدري ورغبة قوية قاومتها في البقاء والحنين إلى المكان والألفة معه، وشيئاً فشيئاً تضائل حجم تلك الجبال وتاهت في وسط الصحراء المترامية الأطراف، ومع غياب الشمس راحت درجات الحرارة تتناقص فأعطاني إحساساً بالانتعاش امتزج بكل أحاسيسي المضطربة المحبة الخائفة المفارقة، فأغلقت عيني قليلاً محاولاً أن أحتضن تلك الحالة التي شعرت فيها باستمتاع غريب.

اصطدمت أصابعي بالأجندة التي تحمل مذكرات هالة، فتحسستها دون أن أفتح عيني فشعرت وكأنني أمس هالة فزادت متعتي متعة أخرى. أردت أن تطول تلك اللحظة التي قلما تحدث في حياتي.

لكن قلقي من ألا تستمر تلك اللحظات سرعان ما أخرجني منها بسرعة وتنبهت إلى موجات الليل قد بدأت بتديد آخر ما تبقى للنهار من أمل في أن يظل حياً. وكان صوت محركات السيارات يبدد الصمت فأعطى مشهداً غير متناسب مع الصحراء فأغلقت زجاج السيارة فعزل الصوت تماماً، فبدأ المشهد مختلفاً وبدأت الصحراء تشي بجهاها، شيئاً فشيئاً تحسست الأجندة مرة أخرى وكنت في شوق لكي أكمل قراءة ما كتبت لكن خفت من حديثها، فقلبي لا يحتمل أشياء مثل التي تتحدث عنها، ويتطلب الأمر القراءة كثيراً من الجهد النفسي وحالتي النفسية لا تسمح لي الآن بذلك فانكمشت في مقعدي بعدما أبعدتُ أنا ملي عن مذكراتها ونظرت إلى السماء الصافية ففتحت الشباك وأخرجت يدي اليمنى من النافذة محاولاً أن أتحد مرة أخرى مع

الصحراء، وأن أصير جزءاً من روحها لكنني لا أعرف كيف، أو كيف يصير هؤلاء الصوفيين جزءاً منها لكنني لم أشأ أن أشغل بالي بتلك الأسئلة فعلياً أن أسكن كسكون الصحراء، هذا كل ما أحتاج إليه، وأغلقت عيني ولكنني لم أستطع أن أجعل روحي حرة طليقة فهي لم تكن يوماً حرة طليقة ثم فتحت عيني متذوقاً ريحاً حامضاً بلون ثمار النارج، لم أستطع احتماها فأغلقت زجاج سيارتي واكتفيت بالنظر إلى السماء الصافية فوقي والنجوم متجاوزة منيرة كحبات اللؤلؤ وتذكرت حلمي الصغير أن آخذ سلة وأصعد للسماء وأقطف تلك النجوم وأضعها في السلة، العجيب أني ظللت على حلمي هذا ومصدقاً أن تلك النجوم مصاييح كمصاييح الإضاءة حتى علمت أنها شمس مثل شمسنا وربما أكبر منها أو أصغر، لكن ما زلت أحلم بقطفها كلها شاهدت إشراقها في المساء.

أغمضت عيني رغم تمنعي بجمال السماء وفتحتها ونظرت إلى الصحراء ووضعت يدي على مقبض الزجاج لفتحها ثم عدلت عن ذلك، عندئذ أيقنت أني في حالة اضطراب كبيرة، هل أنا خائف؟، لم أستطع أن أحدد مشاعري، يبدو أنها خليط من خوف وحنين.

وضع حسن رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه، لم يستطع أن يُقيي روحه القلقة يقظة مراقبة، لكنها دون قدرة منه على منعها استراحت فشخصت عيناه ولم تعد إلا عندما استراحت، فعادت للعين حياتها مع توقف صوت المحرك، كان ذلك مع أول ضوء للصباح، كانت تلك أول مرة يشاهد فيها ضوء الصباح وهو يمتزج بروحه مع الصحراء ويمحلان نفس الملامح، لكن أكثر ما أدهش حسن هي رقصة الامتزاج بينهما وكانت رقصة صوفية بامتياز فالجزء يتكامل مع الكل وبعد لحظات أفاق حسن من ذلك السحر، لم يستطع حسن أن يدرك أن التعب الذي ألم بروحه بالأمس كان بسبب أن الصحراء حاولت أن تطوي روحه في روحها لكن روحه قاومت فبدأ القلق واضحاً مما أصابها بالتعب.

اقترب رئيس الحرس المرافق لحسن وقال سنستريح هنا حتى أذان العصر. ثم دعاه لصلاة الصبح وتناول طعام الإفطار.

كانت السيارات قد توقفت أمام مغارة ألفت بظلالها أمام مدخلها فافترش الرجال بعد الصلاة بابها، وبعد تناولنا الفطور أعدوا الحسن مجلسًا.

بعدما نام الرجال عدا أحدهم جلس في أعلى نقطه للحراسة. وجد حسن فرصة في أن يختلي بنفسه، لكنه لم يجد في نفسه جهدًا للتفكير أو مناقشة ما تعرض له أو استكمال بداية الخطة التي سوف يعمل عليها فأرجأ التفكير فيما بعد وراح يلاحظ الصحراء، فهي لم تكن ساكنة كما كان يعتقد، بل هي مفعمة بالحياة لكن دون ضجيج، فيها هي الشمس ترسم مع حركة السحاب لوحات من الظلال التي بسبب حرارة الصيف ما إن تظهر حتى تختفي دون انتظار لمشاهد، وشعر بأن روح البرودة الصادرة من فوهة المغارة راحت تنكمش مع تمدد حرارة الشمس لكن صار إحساسه بامتزاج البرودة مع الحرارة أكثر إمتاعًا من طعم ريح الزنبق الأبيض، وضعت خنفس الصحراء حملها في جزع شجرة الشوك الوحيدة الموجودة في وسط حشائش الصحراء أمامه، ففرك عينيه غير مصدق ما رأى، فقد رأى رفق الخنفس بجزع الشجرة وظل الشجرة يحمي الخنفس.

ففرك عينيه غير مصدق ما يرى لأن ما يراه شيء معجز، وبعد برهة انتبه إلى عينيه المثبتة على جزع الشجرة وعقله السارح في الفراغ، استغرب حسن من كل ما يعتريه ونظراته المختلفة للأشياء وكيف استطاع أن يلاحظ ذلك، واعتبرته سعادة لقدرة على إدراك المتغيرات التي تطرأ على نفسه، لكنه لم يستطع أن يدرك بعد أن روحه قد مست من روح الصحراء.

بدأت حرارة الصيف في الزيادة واختفت لوحات الشمس من على رمال الصحراء وبدأت مرحلة الثبات لا حياة الكل سكن حتى النبات ما عاد يهتز وكأنه يعاني الاختناق، لكن حرارة الشمس بالنسبة إلى حسن ما زالت محتملة ولذيذة وسلمته إلى غفوة رغم قصرها، إلا أنها منحت جرعة كبيرة من القوة والقدرة على التحمل، فقام وألقى نظرة على الحارس الذي اتخذ نقطة مخفية عن الأنظار وعالية، فوجده مستيقظًا متابعًا كصقر لأقل حركة. فعاد حسن إلى مجلسه ببطء وتأن خوفًا من أن يوقظ الحراس النائمين وكان ذلك غريبًا على حسن أيضًا فما كان يأبه لراحة العاملين معه..

بعدما جلس اعتراه شوق في قراءة ما كتبته هالة وسماع صوتها وكان شوقه أكثر من خوفه من قراءة ما تكتب. فأخرج الأجندة وتحسسها وشعر أنه يتحسس روحها ثم قلب في صفحاتها على غير هدى، ووقعت عيناه على ما كان يصبو إليه، إنها رسالة من رسائلها لكنها غير التي كانت ترسلها إلى أمها ففرك في عينيه غير مصدق أنها رسالة كتبتها إلى حبيبها، ومع دقائق قلبه التي سمعها نابغة عن خوف إنها ربما قد أحبت ويقضي ذلك على آخر أمل لديه في أنها لم تحب، لكن عنوان الرسالة كان واضحاً ولا يدع مجالاً لأي تكهنات.

حبيبي انتظرتك بالأمس كثيراً، لماذا لم تأت لقد وضعت لك عطر هيرا الذي أخبرتني أنه يمتزج بروحي. كامتزاج الأرض بنفس الصباح مع بزوغ النور، حبيبي وجدت قلبي يغني لك أغنية الحب، ألم تسمعها؟ كانت ضرباته تزداد مع اقتراب لقاءك يا حبيبي ألم تعلم بأنك كنت حلمي الذي أحلمه كل يوم، فأنت المخلص لروحي من بين ذرات الجسد الفاني إلى فضاء الدنيا الرحب، شعر حسن بألم يعتصر قلبه لكن مع متابعة القراءة بدأ الألم في التبدل شيئاً فشيئاً.

أخبرت عنك أُمي بالأمس وسألتها هل حتماً ستوجد في عالمي ذات يوم، انتظرك مهما طال غيابك وسأظل انتظرك مهما طال العمر، كان شعور حسن بمشاعر مضطربة، فبين فرح عارم وبين ألم وغصة تلاها حيرة.

وتساءل هل ذلك كان جزءاً من التلاعب بعقلي؟ لكن أمنية من قلبه جعلته يحاول أن يتناسى ذلك السؤال، لكنه تذكر قسوته السابقة وقال أنا الذي لم انتظرك يوم، ولم يشكل الحب في حياتي ضرورة ملحة واعتقدت أني لو أحببت فلن يشكل الحب يوماً حدثاً فارقاً في حياتي بل كنت أهزأ من كل المحبين ويزعجني ضعفهم، فأنا لم أبحث أو أنتظر الحب يوماً أو أنتظر مجيئك رغم أنك كنتِ تنتظرين مجيئي.

لكني أحبك، أحبك حباً تخطى حدود المنطق، لم ألتقيك يوماً لكني أحببتك، لم أرك لكني لمست روحك تحسستها شممت عطرها أحببتها وعشقتها، لكن لم أبحث عنك يوماً مع أنك ظللتِ تنتظرين مجيئي طوال العمر، ومن أجلك عاقبني القدر، فعندما هزّ الحب قلبي ذهبت أنت، وزفر هواء يحمل كل الوجع ومع دمعة تحدرت من عينيه لم يستطع لها منعاً، ومسحها مسرعاً ونظر بحركة غريزية حوله كي يطمئن إلى عدم رؤية أحد لتلك الدمعة..

وضع يده على الأرض وقلب في الحصوات المجاورة ليديه، لكن شعر بقلق مفاجئ اعتراه، فرفع يده عن تلك الحصوات ونظر في الصحراء الممتدة بلا انتهاء وشعر بزوال حالة القلق المفاجئة التي اعترته فأخذ نفسًا عميقًا واستراح قليلًا، ومصادفة لامست يدها حصى الصحراء فشعر بهجوم من القلق، فنظر غير مصدق لما يحدث لأنه عندما رفع يديه مسرعًا شعر بزوال القلق وعندما لامست يدها الحصى مرة أخرى شعر بقلق مضاعف، عندئذ اعتدل ليقوم من مقامه، لكن تصاعد صوت مكتوم يشق طبقات الهواء المستقرة المتراسة التي تحاول أن تمنع مرور الصوت فبدأ مكتومًا يحاول أن يشق طريقه، ورغم قوته واندفاعه ورقة الهواء، إلا أن الأمر بدا شديد الصعوبة، ولم يمض غير لحظات حتى بدأ الصوت واضحًا.

مع اقتراب المصدر فقد كان صوت طائرتين هيلكوبتر تطيران على ارتفاع منخفض، ودارت الأحداث أمام عيني حسن بالعرض البطيء، فقد شاهد الحراس المرافقين يفتحون أعينهم وحاولوا القيام من أماكنهم لاتخاذ مواقع دفاعية لكن رئيسهم أشار عليهم بالسكينة فلم يحركوا ساكنًا، اقتربت الطائرتان منهم أكثر وأكثر، ظهر التوتر على الوجوه أكثر، ودار تساؤل في عقل حسن، من أين أتوا وكيف انشقت عنهم السماء وإلى أين يتجهون، هل هي محاولة للبحث عنهم أم أنها دورية روتينية للجيش لتأمين الصحراء، وحتى إن كان ذلك الاستنتاج صحيح فهم في خطر شديد وصار الصوت أكثر قوة واقترابًا، ويبدو أنها قادمة من الجانب الغربي أي أنها ستمر عليهم مباشرة إن كانت متجهة إلى الشرق وبدأ التوتر واضحًا على الرجال بجانبه.

رغم أن التغيرات على الوجوه ما زالت سريعة بل في منتهى السرعة متفاعلة مع الموقف، لكن عين حسن ما زالت ترى الانفعالات تلك بطريقة العرض البطيء هذا، فتحولت عضلات الوجه من القلق إلى الملح وتغير لون الوجه من الأحمر القاني نتيجة اندفاع الدم المفاجئ إلى الأحمر المختلط بلون الزرقة نتيجة الخوف الشديد الذي يمنع وصول الأوكسجين بصورة كافية إلى المخ، كانت أول مرة يرى حسن فيها ذلك العرض المبهر لتلك المؤثرات على وجوه البشر، فقد كان يرى الخوف على الوجوه، كان يرصده بل كان يتلذذ به عندما تنهار أكثر القلوب صلابة رعبًا أمام وسائل

تعذيبه، وتتحول وجوههم من بين تلك الحالتين وكانت عاداته أن يتلاعب بتلك القلوب المرعوبة فينقلها من حال إلى حال ثم يعود بها إلى حالتها الأولى، لكن لم يستطع يوماً أن يرى تلك اللوحة التي ترسم على الوجوه باستخدام لونين لا أكثر، الأزرق والأحمر، لم يره طوال حياته لكن ما رآه في تلك اللحظات السريعة لم يشاهده طوال حياته ومرّ سؤال على عقله كان سريعاً من كلمة واحدة، لماذا؟

ولم يكن لديه تفسير غير أنه ربما يمر بتلك الحالة معهم الآن.

لكن حسن والكل شخصت أبصارهم فجأة مع اقتراب خيال الطائرتين من خيال الحارس أعلى التبة الصغيرة ثم امتزاجهما فراح الرسام يرسم على الأرض بفرشاة الخوف صورة ولا أقسى لعذاب الروح الإنسانية عندما يطعنها رمح الخوف، وهل هناك شيء أقسى على الروح من سياط الخوف. ثم مرت الطائرات موازية لهم.

كانت قريبة ومنخفضة وفي الجهة الأخرى من التبة، ربما رأتهم وربما لم تراهم لكن حجم الرعب الذي عانوا منه كان كبيراً لدرجة أنهم ظلوا على حالة الذهول للحظات. استفاقوا بعدها على صوت القائد.

حمداً لله ثم تحولوا بعدها إلى خلية نحل تعرف ما يجب أن تفعل بعد أمر واحد من القائد بأنهم سيرحلون الآن، مما أثار إعجاب حسن وأيقن أنهم مدربين على مستوى عالٍ. ولم تمض غير لحظات قليلة حتى أعلم قائد الحرس، حسن بأنهم مستعدون للتحرك الآن وأخبره أيضاً أنهم سيقومون بخطة تمويه ستجعلهم يمضون وقتاً أكثر في الصحراء وربما يصلون القاهرة مع طلوع الفجر. لم يعترض حسن أو يبدي أي امتعاض.

لكن حسن أصيب بالدهشة مع بداية خطة التمويه فلم يراهم يتدارسون خطة التمويه أو يتفقدون على نقطة البدء لكن في نقطة ما انقسم الرتل المتحرك إلى رتلين وأخذوا طريقين مختلفين ولاحظ أن الانقسام حدث مع بداية المدق. وبعد لحظات قصيره اختفت السيارات الأخرى عن عين حسن.

ومضى كل في طريقه، ورغم دقة تلك المجموعة التي معه إلا أن قلقاً واضحاً انتاب روحه خوفاً من مفاجآت الصحراء.

فقدناه

قالها بلغة عربية صحيحة.

وأصدر أحد الأجهزة أزيزًا، نظرت إليه فوجدت عبارة الموت التام مكتوبة على شاشته.

وقفت هالة مشدوهة للحظات أمام تلك العبارة "الموت التام".

هل هناك موت تام وموت غير تام؟

هل لدى هؤلاء الملائكة مفهوم للموت يختلف عما نفهم!

الذي أعرفه أن الموت هو الموت، فلا موت كامل أو موت غير كامل، ربما يقصدون أن الروح قد ماتت أيضًا، إذن إن ماتت الروح إلى شيء قد تحولت إن كانت الروح هي سر الحياة للجسد، إذن ما سر الحياة في الروح وقبل أن تخرج من شرودها قالت ما الموت وما الحياة؟

دارت تلك الأسئلة في رأسها بسرعة كبيرة ونظرت إلى جسد كبير السنافر الراقد وحوله الملائكة التي كانت تحاول إعادته إلى الحياة وإعداد الجسد كي يكون جاهزًا لاستقبال الروح مرة أخرى، ليعيش حياة أبدية بلا نهاية لكن الملائكة أعلنت الموت الكامل أي إعلان موت الروح.

وكانت الوجوه حول الجثة في حالة من الذهول الشديد والجزع، ورأت دمعات تخرج من عيني الملك الرئيس ونظرت إليه هالة وقالت أتعرفه؟ أكنت رفيقًا له؟ كان سؤالًا مباشرًا إلى الملك الرئيس. وهل تبكي الملائكة؟ ألدنيا قلب ومشاعر مثلنا؟، أنا لا أبكي ولا حتى أشعر بالأسى فليس لدى قلب ينبض، هل للملائكة قلب؟ فأنا طيف مثلهم وليس لي قلب.

وقالت ألا يفترض أن يكون هؤلاء الملائكة بشرًا؟

ربما يكونوا بشر و يحملون رغم اختلاف ألوانهم التي توحى أنهم ليسوا عرب، لمحة ملائكية.

تركت هالة تأملاتها ونظرت إلى جسد كبير السنافر الممزق، وقالت إن حالة الجسد لم تتغير منذ أن شاهدته، فلا معنى للحديث عن حالات الموت المختلفة، وتهلل وجه هالة كمن يكتشف اكتشافًا جديدًا وقالت لنفسها، إذن لابد أنهم ملائكة بالفعل وأنهم ربما كانوا يتحدثون عن الروح وإن الموت الكامل هو موت الروح، نظرت هالة إلى نفسها بإعجاب وإلى صدق استنتاجاتها وتحرق شوقًا إلى سؤال الملائكة هؤلاء عن سر الحياة في الروح.

ثم نقلت نظرها إلى جسدها كمن أرادت أن تثبت شيئًا، وقالت إن جسدي هذا ميت وكل مؤشرات الحيوية مماثلة لنفس مؤشرات جسد كبير السنافر، لكن لم يكتب هذا الجهاز عني تلك العبارة «الموت الكامل».

لماذا لم يكتب؟

لأنني أنا الروح ما زلت حية.

وصمتت قليلاً هل سأموت أيضًا؟ ثم سألت نفسها مرة أخرى هل تلك الأجهزة لدى هؤلاء الملائكة تختبر موت الروح عن طريق الجسد؟

إذن ماذا يفعلون عندما يتحلل الجسد؟

وبعد لحظات من الصمت أدركت أن عليها شيئًا واحدًا يجب أن تفعله هو محاولة الهروب منهم ومن الجسد.

وعليها أن تكمل أحلامها المبتورة.

لكن كيف تهرب؟ فقد حاولت مرة وفشلت فهناك شيء ما منعها من الهروب بل جذبها ولم يتركها هل هو الجسد أم هم؟ عليها أن تكتشف ذلك.

وابتعدت عن الجسد وابتعدت عن الملائكة وأرادت أن تخرج من طرف الغرفة الآخر المواجه للشباك لكن في تلك اللحظة أصدر الجهاز المتصل بها أزيزًا تحذيريًا، فعلمت أن هذا الجهاز ربما يكون المسؤول عن ربطها بالجسد، وذلك عن طريق إصداره إنذارًا للملائكة في حالة رحيلها.

في تلك اللحظة عادت هالة إلى الجسد فقد علمت الأمر وعليها أن تصبر وتحل تلك المشكلة.

توجه كبير الملائكة في الغرفة إلى جسد هالة ونظر إلى الشاشة المتصلة بالدماع ورأى ضعف الإشارة فقام بغرس حقنة بمنتهى السرعة في جسدها وقال هامسًا:

حتمًا لن تتبخري فأنت آخر أمل لدينا.

نظرت إليه هالة بتحدٍ، إلى من تتحدث ومن هذا الذي سيتبخر؟ ونظرت إلى الواقفين حوله فوجدتهم متبهرين إلى ما يقول رغم أنه لا يتوجه إليهم بالحديث الذي أصابهم بحماسة واهتمام بجسد هالة، فالتفوا حول الجسد يعملون كخلية نحل وما هي إلا لحظات حتى تغير كل شيء حول الجسد، فقاموا بوضعها في أنبوب زجاجي آخر وضعوا فيه سائل أكثر كثافة امتلاءً تمامًا وقد علق الجسد في المنتصف ونظرت هالة إلى الجسد وقالت:

أترون لو كان فيه حياة لمات الجسد مختنقًا!

ولم يجيبها أحد ربما لم يسمعها أحد، بل ولم يلتفتوا إليها لأنهم كانوا منهمكين في إعداد الأنبوب ونظرت هالة باستغراب إلى ما يفعلون، فقد نزعوا عن جسدها كل المجسات التي تقوم بدراسة المؤشرات الحيوية للجسد وتأكدت أن الجسد قد مات، وظنت أن تلك فرصة جيدة للهروب، فلن يخبر الجسد أحدًا تلك المرة، واتجهت بسرعة إلى الباب، وقبل أن تخرق الباب صدر أزيزًا آخرًا فعلمت أنها ستعود إلى الجسد، فرجعت تجر قدميها متجهة إلى الأنبوب المحتوي على جسدها ونظرت إلى الأنبوب مطولاً محاولاً استكشاف المجسات المتصلة بالجسد ثم فكرت عينيها براحتيها ربما تقوم بتنشيطها لترى أكثر أو تكتشف أشياء لم تكتشفها من قبل وقد تكون متصلة بالجسد

لكن لم تجد أي شيء يدل على اتصالها بالجسد. إذن ليس أمامها إلا استنتاج واحد فقط، أن الأنبوب المحتوي على الجسد يحتوي على أجهزة استشعار كهرومغناطيسية، وسمعت الملاك الجالس على جهاز اعتقدت أنه كمبيوتر، يقول لكبير الملائكة انتهيت من برجة أنبوب الرحم.

حسنًا «أجاب كبير الملائكة»

ثم ضغط على زر موجود على شاشة هولوغرافية متكونة أمامه فتحرك أنبوب صغير على هيئة زراع حاملاً حقنة ليحقن بها الجسد داخل أنبوب الرحم.

شعرت هالة بعد غرس الدواء في الجسد بخدرٍ لذيذ وحرية أكثر في الابتعاد عن الجسد وأدركت أن الفرصة سانحة كي تتحرر من الجسد وتهرب.

لكن حب المعرفة والتطلع جعلها تقف كي ترى ما يفعلون بالجسد، فبعد لحظات من إعطاءها لتلك الحقنة قاموا بإخراج الجسد من الأنبوب، وكأنه أصبح صالحًا لشيء ما ثم وضعوه على سرير يشبه إلى حد ما سرير العمليات الجراحية، لكن كان يتم التحكم فيه عن طريق الشاشات الافتراضية أمامهم التي كانت كميكروسكوب اليكتروني شديد التطور، وميكروسكوبات جراحية و مشارط من الليزر.

انتابها شعور بالفرح مما ترى لأنهم لم يعالجوا الجسد ولم يستأصلوا بعض التشوهات ويتركوا بعضها، بل راحوا ييترون كل ما طاله الحرق من زراع إلى رجل ثم إلى الخلايا التالفة التي طالها الحرق عن طريق الميكروسكوبات الالكترونية، التي يشاهدون عن طريقها أدق تفاصيل الخلايا ورغم بشاعة منظر الإنسان وهو يتر أجزاءه إلا أن رؤية الخلايا وأجزائها بهذا الوضوح أدهشها تمامًا وقالت لنفسها «بالفعل هناك أشياء كثيرة لا يمكن رؤيتها إلا في الآخرة».

ظلت تتابع بشغف ما يفعله الملائكة بجسدها وكانوا مهرة إلى حد لم تراه من قبل، فيستخلصون الخلايا الميتة والمحترقة من بين تلك الخلايا الحية وكانوا فريق متناغم إلى أقصى حد ويعلمون ما يفعلون وكالعادة لم تشعر بالوقت وكم أخذوا من وقت حتى انتهوا، ومع إنهاء ما فعلوا شعرت بحزن رهيب على ما تبقى من جسدها، فقد أزالوا الكثير من الجلد ونظرت إلى تلك الأجزاء العارية من الجلد واستعجبت من مهارتهم، فلم تتضرر تلك العضلات التي تحت ذلك الجلد، وتأكدت من أنها سلخت باحتراف كبير، ولم يتبقى من الجسد غير الزراع الأيسر والرجل اليسرى ومنبت الزراع الأيمن ومنبت الرجل اليمنى، لقد أزالوا اللحم والعظم.

حمداً لله أنني مت ولم أرى جسدي هكذا. كل تلك الكلمات دارت في عقلها ثم صمتت للحظات قبل أن تقرر الرحيل، وقبل أن تخرج من حالتها، شاهدت الملائكة العلماء يقومون بإعادة الجسد مرة أخرى إلى أنبوب الرحم وشاهدت سائل آخر أكثر كثافة وشفافية من السائل الأول.

- لماذا؟

- لماذا يفعلون ذلك ألم ينتهوا منه؟

- ما فائدة ما تم؟

ثم نقلت نظرها إلى الشاشة الرئيسة التي يقف رئيس الملائكة أمامها، وشاهدت الجسد على الشاشة والسائل اللزج هذا يملأ الأنبوب تماماً، والجسد عالق في المنتصف. شعرت هالة بزيادة الخدر وأصبح يؤثر عليها، وشعرت بثقل رأسها، وظنت أن ملاك النوم يبحث عنها أكثر من بحثها الآن عن الحرية، وزاد شعورها بالنوم مع رحيل الملائكة من الغرفة، وأرادت أن ترحل معهم، ونظرت إلى الباب نظرة طويلة ثم قالت لنفسها:

إن الباب هو سبيل الخروج فإن أردت الرحيل على أن أرحل عن طريق الباب.

ولم تستطع أن تدفع النوم عن نفسها فأضحى الهاجس المسيطر عليها؛ أين تنام؟

أرادت أن تطير وتلتصق بالسقف ولم تستحسن تلك الفكرة، فقررت النوم بجانب الأنبوب.

وقبل أن تنام شعرت أنها تريد أن تسأل، هل تنام الروح؟ ولم تستطع أن تجيب لأنها نامت بالفعل.

كانت خطوات الملاك المتابع لحالتها على الأرض لا تكاد تدركها الأذان المرهفة لكن أدركتها أذن هالة، فاستيقظت، وشعرت بحالة من النشاط الكبير وقوة بدنية كبيرة فابتسمت لنفسها ابتسامة رقيقة ثم تابعت بنظرها الملاك الواقف أمام أنبوب الرحم عاكفًا زراعيه، هادئًا، وعلى وجهه آثار طمأنينة، مما جعلها تتحرك بهدوء باتجاه الملاك ونظرت إلى ما ينظر إلى داخل الأنبوب، إلى ذلك الجسد العالق داخل السائل وقد حدث لها ما يشبه الانبهار ونظرت غير مصدقة ما تراه.

واتجهت للملاك سائلة، هل هذا حقيقي؟

ولم تمهل الملاك حتى يجيب وسألته سؤال ثان:

لماذا لم يتاح ذلك في الدنيا؟ وبكل حق سألت الملاك مرة أخرى، لماذا لم تتيحوا ذلك العلم لنا؟ نظر إليها الملاك وابتسم ابتسامة رقيقة ثم عاد ونظر باهتمام إلى أنبوب الرحم ونظرت إليه وهو يقوم بفتح الشاشة الهولوجرافية أمامه، ويتابع عليها ما يحدث ميكروسكوبياً، نظرت هالة هي الأخرى إلى الشاشة التقديرية التي ينظر فيها الملاك فأصابها الدهشة لما ترى وراحت تنقل نظرها مرة تلو أخرى بين الأنبوب والشاشة الافتراضية أمام الملاك ثم قالت، رباه هل هذا حقيقي؟

هل هذا ممكن؟

توجهت إلى الملاك بالسؤال مباشرة لكنه لم يجب، بل لم يعرها أي اهتمام ولم تتبه هي الأخرى إلى جوابه، أو عدم جوابه، بل كانت منتبهة بكل حواسها إلى ما يحدث، وتنقل نظرها بين الشاشة والأنبوب المحتوي على الجسد، فقد كانت ترى صورة بطيئة على الشاشة لعملية بناء خلايا جسدها الذي يوجد في الأنبوب، وكانت المادة اللزجة التي ظنت أنها نانوكمبيوتر هي بالفعل الموجودة على المناطق المتورة من الجسد والمناطق التي تم إزالة الجلد من عليها.

تقوم تلك المادة بإعادة البناء للخلايا من جديد. وشعرت هالة أنها كتلميذ يعرف إجابة سؤال كان صعباً فأرادت أن تثبت لأستاذها أنها العبقريّة الوحيدة الموجودة داخل الفصل، فهتفت بكل ما فيها أنها طريقة السمندل ولم تمهل الملاك حتى يؤكد أو ينفي صحة ما تقول لكنها استطردت:

إن ما يحدث في الأنبوب مثل ما يحدث مع السمندل عندما يقطع أحد أطرافه فإنه يستعيدها مرة أخرى بعملية بناء مشابهة تقوم بها الخلايا الجنينية في السمندل.

هل تقوم تلك الكمبيوترات النانومترية بإعادة تعريف الخلايا الجسدية وجعلها خلايا جنينية؟

وانتظرت جواباً من الملاك المعلم يؤكد تفوقها، لكنه لم يجب، بل لم يلتفت إليها، فقد كان منهمكاً في المتابعة والعمل وبعد لحظات انصرف وأغلق الباب من خلفه، كانت فرصة ذهبية للرحيل، لكنها أجلت تلك الخطوة إلى ما بعد انتهاء تلك التجربة المثيرة، وقفت في نفس المكان الذي كان يقف فيه الملاك لتتظر من نفس المكان، ظنت أنه المكان المناسب للمشاهدة وحاولت أن تبحث عن مصدر الشاشة التقديرية التي كان يقف أمامها، فلم تجد، فدار في عقلها فكرة أن حركات يد الملاك في الفراغ ربما تكون هي من أوجد تلك الشاشة ثم قامت بنفس تلك الحركات عليها توجد الشاشة، لكن الشاشة لم تظهر، ونظرت إلى نفسها بكسوف بالغ وقالت معذرة يا أمي أعلم أنك لو رأيته الآن لنهزئيني.

وتخيلت أمها وهي تقول لها بصوتها، ما الفارق بينك وبين الحكومة؟

فدائماً ما كانت تنتقد الحكومة أنها لا تفكر بأسلوب علمي في حل مشاكلها وأنا الآن اتبع هوسي ولم أفكر بأسلوب علمي وظننت أن الشاشة تملأ الفراغ ويمكن توليدها متى شئت.

معذرة يا أمي، وبحثت عن مصدر الشاشة مرة أخرى فلم تجد، لكنها وجدت ضالتها في الشاشة الافتراضية الكبيرة التي كان كبير الملائكة يتابع حالة الجسد منها، ثم راحت تنقل نظرها بين الشاشة والأنبوب كما فعل الملاك، لكن بتلقائية دون أن تدري، فهي تراقب بكل حواسها، ما يتم مع الجسد، لكن استرعاها ملحوظة مهمة فرغم أنها لا تعرف معنى الوقت وهي في تلك الحالة وأدركت أن الوقت الذي يمر بها ربما يكون غير مقدار الوقت الذي تقيسه الساعات فهي روح، والروح بالتأكيد لها وقت مختلف، لكن ملحوظتها أن معدل نمو الجسد سريعاً جداً بالنسبة لما تعتقد وما رآته عند حيوان السمندل، فقد انتهت عملية بناء العظام في الزراع والقدم المتورتين وكان النمو مشهد لا يصدق، فقد كانت القدم تنمو أمام عينيها كزهرة بيضاء خرجت لتوها من الأرض بسرعة، ثم تفتحت معلنة أنها مستعدة للحياة، ورغم فرحها لما ترى إلا أنها شعرت بحزن عميق لأن البشرية لا تملك مثل هذا العلم.

وبإحساس العالم قالت:

علي أن أعرف هذا السر العلمي ثم أقوم بنقله لأي معمل أو ربما أهتم عالم وآتيه في المنام وأخبره كي يقوم من نومه صارخاً فرحاً، وجدتها وجدتها وقبل أن اختار هذا العالم علي أن أقوم بالخطوة الأولى وأحاول أن أحصل على السر وهو ما يجب أن أفعله قبل مغادرة تلك الغرفة والرحيل عنها إلى الأبد. ثم لفت المعمل بسرعة متحركة في أرجاء الغرفة سعيدة ثم اقتربت من الجسد وشاهدت كيف تحولت القطع المنزوعة من الجلد بفعل الانفجار أو التي أزالوها، إلى جلد نضر وكأنه بشرة أطفال جميلة بل وبقية البشرة التي لم تتضرر شعرت أنها قد تجددت أيضاً وأخذت منظر شديد الجمال والقوة.

أحست بسعادة، لا تدري مصدرها لأنها تعلم أن هذا الجسد لم يعد ينتمي إليها أو تنتمي إليه، لكن ما يحدث فيه الآن هو شيء مثير، ثم راحت بنهم طالب العلم الحقيقي تبحث عن معلومة، لم يكن هناك ورق متروك من الملائكة تستطيع قراءته، لم تعرف من أين تبدأ وإلى أين تنتهي، وقالت سأتعرف على الأجهزة الموجودة في هذا المكان.

كانت أجهزة لم ترى مثلها في مصر أو في ألمانيا.

ما تلك الأجهزة وعلى أي مبدأ علمي قد بنيت؟ وهل سيتاح للبشرية أن تمتلك تلك الأجهزة يوماً؟، كانت تلك الخواطر تدور في ذهنها وهي غارقة في البحث، حاولت أن تختبر الشاشة الرئيسة، ربما تكون كمبيوتر مخزن عليه معلومات وكانت في تعاملها مع الشاشة كطفل يرى شيء غريب، فمدت يدها واقتربت من الشاشة، وقبل أن تصل يدها إلى الشاشة أعادتها سرعة وحاولت أن تقوم مرة أخرى بتلك الفعلة واقتربت أكثر وارتعشت يدها، وقررت أن تكمل مهما تكن العواقب وقالت لو حدث أي تغيير ربما ستصدر تلك الشاشة إنذاراً يتم استدعاء الفريق الملائكي على إثره،..... لا يهم.

وواصلت تمديدها ورغم أنها كانت ترتعش إلا أنها واصلت ولا مست الشاشة، العجيب أنه لم يحدث أي تغير، فقد اخترقت يدها الشاشة بكل سهولة وبذلت جهداً في محاولة السيطرة على يدها حتى تلامس تلك الأيقونة الواضحة على الشاشة لكنها وبالفعل أصابتها، لكنها لم تستجب، حاولت مرة أخرى ونظرت إلى الباب خائفة من دخول أحد الملائكة عليها وهي تعبث بأجهزتهم ولا شك أنهم سيتهمونها بالسرقة.

لكن لماذا لا تستجيب تلك الشاشة؟

حاولت مرة تلو أخرى أن تقوم بذلك الأمر، لكن الشاشة لم تبد أي استجابة، وبعد شعور بالإحباط استسلمت لأحد احتمالين أن الشاشة ربما تكون مغلقة برمز سري أو أن تلك الشاشة مصممة كي تتعامل مع خلايا اللمس الملائكية فقط ولا تستجيب لأيدينا.

- وقالت لما لا أسألكم؟ هل سيجيبونني؟ لو كانوا علماء حقيقيين ما منعوا علمهم. إذن إن كان عندهم هذا العلم فلما حجبوه عن البشر حتى الآن، أليس من حقنا أن نعالج بهذا العلم في الدنيا؟ أمن العدل أن يولد إنسان بلا زراع أو قدم ويعيش طوال عمره معذب وهناك من يمتلك علماً يستطيع به أن يحمل عن الناس عذابهم؟ أليس اسمهم ملائكة ويحملون الطيبة في قلوبهم، وإلا كانوا شياطين؟ أربا لم يجدوا طريقة لإيصال تلك العلوم إلى البشر.

إذن إن كانوا كذلك، عليهم أن يجيبوني بل ويعطوني أسرار تلك العلوم ثم أنقلها أنا للبشر.

هل سأستوعب كل تلك العلوم؟ وشردت قليلاً، سوف تكون مهمة ثقيلة علي، لكن علي تحملها، أو ربما هم يمتلكون علماً يتمكنون من خلاله زرع تلك المعرفة في وعيي.

وظهر التصميم والجد على ملامح وجهها بعد هذا الحوار الداخلي، وأضحت متأهبة لمقابلة الملائكة والحديث معهم وراحت تعد خطة لطرح أفكارها عليهم وتضعهم في موقف منطقي لا يستطيعون معه رفض طلبها. ثم فركت جبهتها بيدها مع تساؤل تعجبت كيف لم يخطر ببالها من قبل.

- هل يراها الملائكة؟

- بالطبع يرونني.

لم يبد منهم أي دليل على رؤيتي، لا لقد نظرت لي الملاك الأخير لكنه لم يعقب، إن العلماء لا يتحدثون كثيراً ولا يأبهون لما حولهم إلا إن أثرهم بأسئلتك.

- لكن أأكون التجاهل إلى تلك الدرجة، سنرى؟

ووقفت أمام أنبوب الرحم لتتابع ما يحدث للجسد من تغيرات عن قرب، كانت سرعة البناء التي تقوم بها تلك المواد عالية جدًا لدرجة أن حالة استطاعت أن تلاحظ ذلك رغم افتقارها لحاسة الزمن، ولم يمض وقت كبير، وذلك بإحساسها هي الزمني لذلك فوجئت عندما أتمت تلك المواد بناء الجسد بالكامل، ووقفت حالة أمام الأنبوب والدهشة تملأ وجهها ورغم أنها كانت ترى عملية البناء رأي العين، إلا أنها ظلت غير مصدقة للحظات ما تراه الآن داخل الأنبوب، فقد عاد الجسد المبتورة بعض أعضائه، والمهلهل إلى اكتماله، واكتسب نضارة على نضارته وزاد بهاؤه وظهرت بشكل جلي محاسنه ومفاتنه، فلفت عينها هذا الاكتمال وبهرها ذاك الجمال، التصقت بالأنبوب فرحة غير مدركة ما يحدث حولها إلا أن دخول الملائكة مسرعين ومعهم رئيسهم وقبل أن تستفيق كانوا قد التفوا حولها هي وأنبوب الرحم، لكن لم يعرفها أي واحد منها أي اهتمام فقد كانوا يحملون في عقولهم مهمة لا بد من إنجازها، لذا كانوا مشغولين عنها، وبعدما استحضروا كل شاشاتهم الافتراضية أمامهم، بدأ العمل، فقد بدأ السائل في الانزياح خارج الأنبوب، ثم انفتح الأنبوب وخرج الجسد كخروج طفل من الرحم، وما أن استقر الجسد على السرير حتى تم إزالة ما علق عليه من سوائل، ثم قاموا بإيصال أنبوب إلى الرأس.

تحركت حالة باتجاه رئيس المجموعة الملائكية ورغم أنها مصممة على سؤاله إلا أنها مضت متثاقلة تحت تأثير خوف من أن يعنفها أو يرد عليها بطريقة غير مريحة تسبب لها كثير من الإحراج، لكن الرغبة الملحة في التعلم كانت أقوى، وقفت حالة بجانبه ثم حاولت أن تلفت انتباهه، كانت الكلمات ما تكاد أن تخرج من شفيتها حتى تتبخر، فلا يسمعها أحد ولم تسمع حتى نفسها، كان تجهمه وكانت أول مرة تلاحظه على تلك الحالة فأضحى مصدر قلق لها مضاعف، لكنها في لحظة شجاعة كانت قد اتخذت قرارًا واحدًا أن تتحدث معه، لذا اقتربت منه لدرجة أنها وقفت أمام الشاشة وحاولت أن تتكلم لكنه كان قد غادر مكانه متجهًا إلى السرير الذي يرقد عليه الجسد، ولم يلتفت إليها حتى، لكنها لم تغضب منه لأنه كان مشغولاً بالجسد، ثم قام بحقن الجسد عن طريق الأنبوب.

كانت فرصة طيبة لها أن تلاحظ رئيس الطاقم الملائكي وتتعلم منه، فاقتربت لتشاهد وتتعلم واستكانت هالة جانب الجسد، مبهورة بهذا التناغم بين الفريق ورئيس الطاقم الملائكي فهم يتحركون بلا أخطاء، ثم عاد مسرعًا إلى الشاشة الرئيسية، أعطى بعض الأوامر ثم اختلف لون السائل في الأنبوب، ثم عاد إلى الجسد وكان الآخرون يعملون على كل جزء في الجسد ومنهم من يقف على شاشته ليعطى الأوامر للأجهزة المتصلة بالجسد، وبعد وقت قصير ظهرت ابتسامة على الوجوه توحى بالنجاح ثم قاموا برفع كل الأنابيب المتصلة بالجسد، ووقف كبير الطاقم الملائكي أمام الجسد مبتسمًا وقال لقد اكتمل جمال الجسد. شعرت هالة بشيء من الانتهاك، نتيجة نظرات هذا الملاك للجسد.

أرادت أن تصرخ فيه حتى تردعه، لكنه لم يترك لها فرصة، بل مال على الجسد ومرر يده على وجهها، شعرت ببعض الخنو. وقالت له هامسة شكرًا.

لكنها سرعان ما تغيرت حالتها وأصابها ذهول عندما رأتها يمرر يده على صدرها العاري، ووركيها، ثم مرر يده على كل جزء في جسدها وما أن انتهى حتى قال للفريق رائع بعد استعمال الليزر لن تشعر باختلاف في البشرة أو في اللمس واللون، علينا أن نعطيها لونًا واحدًا فتوجه الملاك إلى شاشته ثم أعطى أمرًا تحرك على إثره زراع ليزر، مر على الجسد كله معطيا إياه مسحة من اللون البرونزي فزاد من بهائه وجماله حسنًا وروعة.

فهتف أحدهم رائع، إن هذا الجسد يشبه أساطير الجمال ملكات مصر القديمة.

نظرت إليه هالة نظرة امتنان لأنها رأت أن نظرتة للجسد لم تكن نظرة تحمل أي معنى جنسي لكن كانت نظرة فنان يرى لوحة لفنان آخر فأدهشه كل هذا القدر من الجمال.

اقتربت هالة بفخر من جسدها العاري، لم تحجل منه، كانت تلك أول مرة تشعر بحب حقيقي لجسدها ولامت نفسها لأنها لم تكن تنظر إليه تلك النظرة قبل وفاتها.

وطاف سؤال بعقلها لماذا ترمم الملائكة الجسد وتعيده إلى نضارته وجماله؟

إن كان سيتحلل فلما تقوم بذلك، وقبل أن تسمع إجابة، شعرت بانجذاب كبير تجاه الجسد وقوة تدفعها للاقتراب، نظرت إلى السائل الذي تم حقن الجسد به وأيقنت أنه تأثير هذا السائل. ازدادت قوة الانجذاب ونظرت إلى كبير الطاقم وقد تحولت نظرته إلى الجسد والملاحظة وقالت راجيةً أرجوكم لا تربطوني به، إنه كان يكتبني، أنا أريد أن أطوف بالعالم، أريد أن ألهو، أرقص، أتعرى، أريد أن أفعل ما أريد، اقتربت من الجسد أكثر وأكثر. حاولت أن تدفعه عنها بيديها لكن يديها غاصت فيه وراحت تتلاشى شيئاً فشيئاً ولم يتبقى منها غير صرخة رفض.

- من أنتم؟

قالت بصوت واهن غاضب للوجوه التي تحديق فيها باسمه.

لكنهم لم يجيبوها وراحوا يلقون التهاني على بعضهم البعض.

انتبهت هالة إلى جسدها العاري فحاولت أن تميل جانباً عن العيون وضمت وركيها ووضعت يدها على فرجها محاولة أن تداريه.

تحدث إليها كبيرهم بلغة إنجليزية، لكنه أدرك أنها ليست في حالة للاستيعاب فحدثها بلغة عربية سليمة وقال لا تتحركي يا عزيزتي واهدئي وإلا ستصابين بإصابات بالغة وتم حقنها بمادة مهدأة، استرخت بعدها هالة وراحت في نوم عميق.

وظلت أسئلة عالقة بذهنها.

- من أنتم؟

- أين أنا؟

وبرغم أن الأجواء كانت مستقرة إلا أن حسن والطاقم المرافق لم يتخلوا عن حذرهم، ورغم توترهم إلا أن ردود أفعالهم كانت هادئة ونظر سائق سيارة حسن إلى حسن نظرة ملؤها التقدير والاحترام وشيء من الحب، وأن فراقه سيرك وحشة في نفسه، فهم حسن كل تلك الرسائل فعلم أنه قد اقترب من القاهرة فقال حسن للسائق:

- هل وصلنا؟

- نصف ساعة وسنكون على أبواب القاهرة.

لم يكن هذا نوع من التخمين لكن يبدو أنها علامات على الطريق تعطيهم المسافة والوقت كانوا قد تدربوا عليها، فطن حسن لذلك.

لكنه لم يعقب أو يسأل، بل أنصت لمخاوفه وشعر بثقل كبير على قلبه وعدم قدرة على الإتيان بأي فعل وشعر بحالة من عدم القدرة على التفكير. هموم وأمنيات وقلة حيلة.

كانت القاهرة تبدو من بعيد شاحبة كثيبة فلا تتنفس ولا حركة ولا ارتفاع وانخفاض في الصدر دال على الحياة. فطن حسن أن ما يراه لصورة القاهرة هو انعكاس نفسي لأنه ولأول مرة يراها على تلك الحالة فطن أنها انعكاس لنفسه، لكنها حقيقة القاهرة التي لم يكن يراها فقد أضحت مدينه بلا روح.

توقفت السيارات وترجل كل الحراس وتقدمهم القائد لوداع حسن، كانوا قد توقفوا عند الأبواب الشرقية لمدينة القاهرة ورغم أنهم لم يتبادلوا الأحاديث إلا أن حالة من المشقة الناتجة عن الفراق ظهرت على كل الرجال وظهرت على حسن حين الوداع، لم يجد حسن تفسير مناسب لتلك الظاهرة إلا أنها تحدث لكل الناس الذين يربطهم مصير مشترك وتتناهم نفس المخاطر، يشعرون بحالة من الود، وعند الفراق يجدون مشقة نفسية.

وقال قائد الحرس سنعود مسرعين حتى لا ينكشف أمرك، هل تعلم أين أنت ؟

كان حسن يعلم جيداً أين يكون ويعلم أن مكانه هذا بعيد عن قلب القاهرة وأن الحركة ستتطلب كثير من الجهد وهو غير مستعد له وخاصة بعد المعاناة التي لاقاها في تلك الرحلة، وقبل أن يفترقوا أخرج الحراس من إحدى السيارات دراجة بخارية وقال القائد:

ربما تحتاجها حتى تستطيع الوصول إلى المكان الذي تريد، لأننا بعيدين جداً.

شكرهم حسن وتحركوا، كانت الصورة لمن يشاهد من بعيد لضوءين يتحركان في اتجاهين متعاكسين، أحدهما قوي والآخر ضعيف، لكنها يشقان ظلام الصمت، كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً ولم يعد أمام حسن الكثير من الوقت لأن القاهرة ستفيق من ثباتها العميق وتدب فيها الحياة مع أذان الفجر، فالكمل ملتزم أن يستيقظ حتى يصلي الفجر في جماعة وإلا لن ترحمهم سيات شرطة الأمر بالمعروف، لذا كان عليه أن يدخل القاهرة مسرعاً.

كان لدى حسن مكان آمن يستطيع أن يختبئ فيه لكنه قرر أن يذهب إلى مكان واحد ظن أنه سيجد فيه الراحة، إنه شقة هالة.

ورغم علمه أن هالة كانت من خيال رجال أمن المرشد وأن ذهابه إلى هناك ربما يكون نهاية حياته إن تم القبض عليه، لكن شيئاً ما لم يستطع تفسيره ضغط عليه بشدة فلم يستطع الفكك منه ويدعوه إلى الذهاب إلى بيتها حتى لو كلفه الأمر حياته.

انطلق حسن بأقصى سرعة مغلقاً ذلك الحديث الداخلي. كان يعلم أماكن الدوريات الشرطية ومواعيدها بدقة لذلك استطاع أن يصل إلى المكان الذي يريد بسهولة، ترك الدراجة بعيداً عن المكان، في مكان لا يلفت أي انتباه، دار حول العمارة التي توجد بها شقة هالة، فلم يجد أي أثر لمتابع أو مراقب، وأدرك أنه لا يوجد كمين أممي، ربما لم يتوقعوا عودته أو أنه قد حقق ما أرادوا وعلموا مكان مولانا، لذلك لم يعد هناك حاجة إليه، هذا هو الأمر

ببساطة، فتح باب الشقة دون أن يحدث ضجيج وبسرعة كبيرة دلف إلى الشقة ثم أغلق الباب من خلفه وتسلسل على أطراف أنامله وكانت كل عضلاته مستنفرة ومستعدة لدخول قتال لا ينتهي إلا بموته أو موت خصمه، لكن مر الأمر بسلام ولم يكن هناك أي أثر لما اعتقد، فهدأت نفسه وظهرت على وجهه آثار ابتسامة.

أضاء حسن النور الخافت وخلع ملابسه وتعرى تمامًا، شعر بحرية وجوده في مكان ينتمي إليه، ذهب إلى الحمام مباشرة وملأ البانيو، كانت آثار الصحراء مطبوعة على جسده فبين المسام الجلدية يوجد رمل ناعم مختلط بالعرق مسببًا لزوجة للجسد تجعل هم العقل الوحيد هو التخلص منها، وبأقصى سرعة، لذا نزل حسن البانيو عقب امتلاؤه.

أراح رأسه مستسلمًا لمتعة راحة الجسد عن طريق الاستحمام، لم يكن يتوي أن يفكر أو أن يترك الفرصة لعقله أن يفكر، لأنه منهك وأراد أن يستريح، شاهد نفسه في المرأة وقال يجب أن أتركك ترتاح قليلًا فأنت في حاجة إلى الراحة، وقبل أن يتوقع داخل ذاته لاحظت عيناه نقوش بخط أبيض رفيع لم تلاحظه عيناه من قبل عندما كان في تلك الشقة، هل هناك من يدرك أنني سأعود فكتب تلك النقوش كرسالة لي، أم أنها قديمة ولم ألاحظها، اقترب حسن فوجد مكتوبًا "فالرجل الشرقي لا يفهم الشعر والشعور لا يعرف المرأة إلا فوق السرير،....." هي حتمًا كتابات لهالة لكن لماذا تلك الكلمات كتبتها على المرأة؟ هل تريد أن تكون تلك الكلمات دستورها فتركتها على المرأة؟، لأنها حتمًا ستقف أمام المرأة كل يوم أكثر من مرة ومع كل مرة ستقرأها فلا تنسى، هل كانت تلك الكلمات من وحي خيالها؟، ثم دقق النظر لعله يجد إجابة ووجد بالفعل كلمة نزار ممهورة تحت الكلمات كأنها إمضاء، إذن هي كلمات هذا الرجل نزار، لماذا لم أشاهد تلك الأشياء مع بحثي الدقيق المرة السابقة، إذن لم يكن بحثي دقيقًا ومط شفتيه ولم يبدو عليه أي انفعال، ولم يكن لديه أي جهد للتفتيش الآن، كان متعبًا لكن عين الخبير الأمني لا تستجيب لأوامر عقله وتهدأ، لكنها راحت تبحث في المكان، وكان خلف باب الحمام ركن لم يلاحظه حسن من قبل، وكان هذا الركن مخصص لملابسها التي لم يصبها دور الغسيل.

كانت أشياء شديدة الوضوح، لماذا لم تراها من قبل يا حسن؟

قال لنفسه تلك العبارة ثم اتجه مباشرة وأخرج كل ما فيها من ملابس ويبدو أنها كانت هدية السماء له، فرائحة جسدها فيها، فحمل ملابسها ثم جلس على سريرها عارياً ورغم نهمه لشم رائحتها كلها إلا أنه خشي أن تضيق التفاصيل أو يتأخر في المرور على كل القطع فاختار أن يمر مروراً سريعاً على كل ملابسها التي كانت ترتديها وكان محمّاً فكل قطعة لها رائحة خاصة وكان أكثرهم مزاجية وجمالاً هو القطعة السفلية للمناطق الداخلية والتي أخبرت عن تلك الرائحة العجربة المتصاعدة عن أنثى تامة الأنوثة، عاد إلى كل جزء من ملابسها وشمه وترك تلك الرائحة تتسلل إلى روحه وترك بصمتها عليها وكانت كل قطعه تتطبع بجزء من روحها إلى أن اكتملت مع اكتمال تحفتها الأخيرة على أنفه، شعر حسن أنها أمامه واقتربت منه ثم جلست بدلال الأنثى على طرف السرير القريب، رأى ابتسامتها على وجهها وشعر حسن أنها حقيقة أراد أن يقترب ويلمسها لكنه خاف أن يقترب فيدرك عقله عن طريق حاسة اللمس ضلال عينيه التي تراها، فاستكان وقال حتى وإن لم تكن حقيقة فوجودها الآن يسبب لي السعادة، ثم وضع يده على كتفه متمسكاً أثر الجرح الذي تم استخراج جهاز الإرسال منه وخشي أن يكون موجوداً، ومع الإدراك والخوف خرج حسن من حالة الوجود مع هالة، فتلاشت، شعر بحالة من الحزن فاستكان وتكور على نفسه، وقال مشجعاً حتماً ستأتيني في منامي، وقال محدثاً نفسه حتماً هي حقيقة ولم تكن من خيال الجهاز، لكن حبي لها رغم أنه ما زال مستمراً إلا أنه كان من صنع الجهاز وأسلم نفسه للنوم على أمل أن يراها في منامه وكانت أمنية صادقة.

لكنه استيقظ من نومه ولم يراها، لكن جسده كان مرتاحاً جداً نتيجة هذا القسط الكبير من النوم، وشعور داخلي أن روحها كانت ترعاه حتى استيقظ، نظر في ساعته فوجد أنه باستطاعته المكوث، فما زال هناك متسع من الوقت حتى ينتهي الناس من صلاة العشاء، وبعدها بقليل تدخل القاهرة في حالة من الثبات العميق انتظاراً لمجيء الفجر.

قام حسن من سريره ببطء، أراد أن يشعر أنه في بيته، وليس هناك ما يقلقه ثم ذهب إلى البانيو وانزاح داخل الماء، شعر براحة تسري من أطرافه ويمتد أثرها إلى رأسه، فشعر بانتعاشه رغم حالة القلق التي تتاب عقله، فهو لا يعرف من أين يبدأ ولم يكن لديه خطة ولا حتى معلومة عما حدث في اليومين الماضيين ولن يستطيع بالطبع الذهاب إلى مكتبه أو الاتصال برئيسه، ألتقط حسن وهو شارد الذهن الشامبو الموجود بجانبه وأعادته مرة أخرى إلى مكانه ورغم شروده هذا إلا أن عينيه استطاعت أن تلاحظ أن هناك شيء غير اعتيادي فقام وبحث في الشقة كلها عندئذ أدرك أن الشقة قد خضعت للتفتيش مرة أخرى، لكن خبرته أخبرته أن طريقة التفتيش كانت مختلفة تلك المرة وكانت طريقة البحث تؤكد أن البحث هذه المرة كان عن شيء دقيق أيضاً، كان هذا لا يعدو استنتاج ولم يكن هناك حاجة للاسترسال في الأفكار، لم يكن يتوقع أن يكون الشيء الدقيق هو الخاتم، فليس هناك احتمال آخر، فتهلل وجهه فرحاً...

فإن كان هذا الاحتمال صحيح فستكون حالة قصة حقيقية، أو يكون فيها من الحقيقة الكثير وهو أنها شخصية حقيقية وهم جعلوني أحبها؟

- لكن لماذا؟

وبعد صمت استعادت ذاكرته كل ما حدث تلقائياً في الأيام الماضية، وفرك جبهته وقال وهو يغتم، لم يكن مولانا هو المقصود بعملية البحث فقط، فإن هذا الجهاز منذ مدة وهو في جسدي، إن الأمر مرتبط بهالة وقد تركوا لي مذكراتها.

الآن فهمت فإن وجود المذكرة لم يكن عبثاً أو قصوراً منهم، قد كان شيئاً ما يقلقني لكن هجوم العاطفة كان أكبر من أي منطق أحتمك إليه، فقد كانت هي المقصودة لا مولانا بالأساس، لكن لماذا؟ ما المميز فيها حتى يفعل أمن المرشد ذلك؟ لا شيء. لقد قرأت ملفها هي امرأة عادية لا تنتمي إلى أي تنظيم يهدد دولتنا رغم أن أمها كانت تنتمي لتنظيم علماني ضد الدولة الإسلامية لا شيء في ملفها غير عادي، لماذا هي؟ إنه هذا الخاتم.

وأعتقد أن الجهة الأخرى غير أمن المرشد، هي من اختطفت الجثتين وهي من قامت بالبحث، في هذه المرة قام حسن من فوره واتجه إلى المرأة ثم ترك رقم الهاتف ورسم تحته الخاتم، واستعد للرحيل عن شقته لأن عليه أن يترك رقم الهاتف في مكان آخر، في سيارة الدكتور هالة ورغم معرفته أن السيارة لن يتم رفعها كالعادة من إدارة السير (المرور) حتى لو ظلت عشر سنوات في مكانها هذا فلن يلتفتوا إليها، سأذهب إلى السيارة ثم أتوجه إلى المكان الآمن للحصول على الموبيل والانتظار، كان هذا المكان قد اتخذته حسن ليكون مكاناً آمناً يلجأ إليه إن حدث أمر ما يستدعي الاختباء ووضع به موبيل لم يستعمله من قبل، عليه أن يشتري مؤن تكفيه، للم حسن نفسه وراح يشم شقتها ويشم ملابسها، ثم أغلق عينيه وراح يشم رائحتها وملأ رثيه من رائحتها ثم انصرف مسرعاً.

كانت شوارع القاهرة خالية تماماً من المارة على الرغم أن الساعة لم تبلغ الثامنة وكان هذا وقتاً مثاليًا بالنسبة لحسن وأي متحرك متخفي تحت ستار الليل وقبل أن تأخذ دوريات الشرطة مواقعها.

لم يكن وصول حسن إلى السيارة صعباً ولم يتطلب منه الكثير من التخفي وقبل أن يقطع الشارع ويقرب من السيارة تفقد حسن المكان جيداً وبعدما اطمئن لعدم وجود دوريات مراقبة قريبة أو أي فرد متخفي من أمن النظام، قطع الشارع واقترب لكن مع اقترابه تنامى إلى مسامعه أصوات همهمات مكتومة مصحوبة بحركة مستمرة واهتزاز داخل السيارة وأدرك حسن أن الصوت الصادر هو صوت بشري فجمدت أطرافه عن الحركة ثم حاول أن يختبئ، لكن صوت طقطقة باب السيارة جعلته يتراجع عن فكرة الاختباء، لأنه أدرك أنه لص، لذا لن يكلف نفسه عناء الاختباء وسيكون جميلاً أن يتركه ينصرف، لكن مع اقترابه أكثر سمع صوت أنشوي مصحوباً بهمهمة رجل أيضاً فأدرك أنها يرتكبان إثماً وقرر أن يسلمهما لشرطة الأمر المعروف، ثم تراجع مسرعاً عن تلك الفكرة خوفاً من افتضاح أمره لكنه لم يطق صبر الانتظار فأراد أن يخفيهما حتى ينصرفا لأنهما حتما سيخافا من افتضاح أمرهما أو من العقاب وهو على يقين دون أن يراهم أنهما من أطفال الشوارع فمن غيرهم سيغامر ويمارس الجنس في الشارع؟ فلا يوجد عاقل يفعل ذلك غير

أطفال الشوارع حصيلة الرزيلة، وحزن حسن على تأله النفسي عندما قرأ رسالة سرية كان مولانا المرشد الثاني عام ٢٠٢٠ فقد أصدر أمراً بالتخلص من أطفال الشوارع وكان القرار نابغاً من خوفه من أن يندسوا في المجتمع فيلوثوا طهره وبعد حملات إعدام تفتق ذهن أحد رجال النظام بأن يتم الاستفادة منهم كقطع غيار بشرية ولأن عمليات زراعة الأعضاء محرمة في بلد الخلافة فقد كانت تباع إلى الدول الغربية وأضحت مصدر دخل جيد وكادت أن تنتهي ظاهرة أطفال الشوارع وكان يتم جمعهم في أماكن رعاية خاصة حتى يتم الاعتناء بهم، وتصبح أعضاؤهم جيدة أي يصبحوا منتجاً جيداً، لكن بدأت تلك الظاهرة في العودة مع ظهور بدائل في الغرب عن طريق الاستنساخ وعدم رضا مولانا المرشد الثالث بعض الشيء عن عمليات الإعدام. اقترب حسن أكثر من السيارة وراح يسترق السمع حتى يتحقق من الأمر وألصق أذنه بجانب السيارة فسمعها تهمس: اعطني إياه في يدي فأنا لا أراه..

فقال الرجل: لا أستطيع، المكان ضيق سأمرره لك من الخلف، حاولي أن تلتقطيه.

قال حسن لنفسه «سفلة» وبعد لحظات قال ما أعذب صوت تلك الفتاة، ويدافع غير محسوب أراد أن يتلصص ليرى صاحبة الصوت، تفاجأ أنهم ليسوا في الوضع الذي اعتقد، فقد كانوا متباعدين وكانوا منهمكين في فك بعض أجزاء السيارة، كانا لصّين للسيارات من أطفال الشوارع لكن محتويات تلك السيارة لا تساوي الكثير وأنصت مرة أخرى على همسها وهي تقول: انتهيت، هلا تمرر لي الكشاف؟

وقف حسن مشدوهاً للذبوبة الصوت وجماله وقال كيف لفتاة شارع أن تحمل تلك الذبوبة ولم تلوثها قاذورات الشارع ومرارة الاحتياج، تلصص حسن مرة أخرى على صاحبة الصوت وأعطاه الضوء الصادر من الكشاف القدرة على استجلاء الأمور ورؤيتهم لكنهم لم يروه لأنهم كانوا منهمكين فيما يفعلون، وجدهم يرتدون ملابس غالية الثمن لا تتلاءم مع كونهم لصوص سيارات.

إنهم ليسوا بالصوفسيات إنهم يبحثون عن شيء ما، إنهم يبحثون عن الخاتم وتهلل وجهه فرحاً، وتحرك مبتعداً عنهم وراح يراقبهم من بعيد..

ولم يطل انتظاره فقد خرجوا من السيارة ورغم أن خيبة الأمل كانت بادية على وجوههم إلا أنهم تحركوا بسرعة بعدما اطمئنوا من عدم وجود من يتبعهم.

حاول حسن أن يستبين ملامحهم لكن كانت الإضاءة ضعيفة وكانوا يتحركون مسرعين باتجاه السيارة وأداروا محركها بسرعة كبيرة، ولم يكن أمام حسن من خيار فإن ضاعوا منه لن يستطيع الوصول إليهم بسهولة وقبل أن ينطلقوا وقف حسن بجانب الشباك، وكان قد أخرج الخاتم وألصقه بزجاج نافذة السائق وأشار الرجل إلى حسن بالركوب فركب وأخرج الرجل بخاخة وتوجه بها إلى وجه حسن، والذي أدرك أنه لن يكون على ما يرام، وربما يتخلصون منه بعد حصولهم على الخاتم في أقرب شارع جانبي فما كان منه وقبل أن يصل رذاذ البخاخة إلى وجهه إن ابتلع الخاتم.

ابتسم الرجل وقال إن هذا الرجل واسع الحيلة.

من هذا الرجل ومن أين أتى وكيف حصل على الخاتم؟

كانت تلك أسئلة طرحتها السيدة على الرجل الذي كان معها؟

نظر إليها الرجل وقال حتماً سنعرف؟

نظرت إليه وقالت لماذا يبدو هكذا؟ وما تلك المادة؟

نظر الرجل إلى حسن في مرآة السيارة وقال مبتسماً: إنه تأثير الهوكس..

ماذا؟

إنها مادة غير ضارة للإنسان وليس لها أي تأثير، وتتركه في حالة الشلل تلك غير واع بما يحيط به وتتركه في حالة طبيعية فلا يتم اكتشاف الأمر إذا ما تعرضنا لأي توقيف من قبل الشرطة، لكن هذا الرجل حالته غير طبيعية.

نظر الرجل بدقة في المرأة ثم ابتسم وقال هل تعرفك؟

نظرت إلى الرجل وقالت لا أعرف، لكن وجهه مألوف، لا أعرف أين رأيته.

إن نظرتك تلك تدل أنه كان يبحث عنك، سنعرف، وأخرج موبايله والتقط صورة له وقال سأرسلها وأعقب ذلك باتصال.

نعم لقد حصلنا على الخاتم، إنه في أمعاء ذلك الرجل الذي أرسلت صورته، هل أحضره أم أتركه؟

على كل الأحوال ستحضره، هكذا رد محدثه.

متى سيفيق؟

إن مفعول تلك المادة يمتد ٢٠ ساعة أو تتم الإفاقة عن طريق مادة أنتي هوكس

أنا لم أسمع عن تلك المادة من قبل.

الهوكس والأنتي هوكس هما مادتان تم اختراعهما من قبل جماعتنا.

سألت نفسها لماذا ينظر لي هكذا، وحاولت أن تتذكر أين التقت به أو أين رأيته. ودققت النظر في وجهه مرة أخرى محاولة أن تقرأ الرسالة البادية على وجهه وقالت كان يريد أن يقول شيئاً لي يبدو أنه يعرفني.

لكن من هو ومن أين أتى وأي صدفة ألقته به في طريقنا؟ وكيف عرف أننا نبحث عن الخاتم؟ وهل هو لا يتبع أي هيئة أم أننا مراقبين وكان وجوده طبيعياً لأنه يراقبنا ونظرت يميناً ويساراً في الطريق المظلم الممتد بلا نهاية أمامها، ونظرت خلف زجاج السيارة علها تشاهد من يتابعهم، لكن لم تكتشف أي مراقب لهم وقالت:

ستيف؟

نظر إليها الرجل

- لا يوجد من يتبعنا؟

- صحيح.

- أليس هذا غريباً؟

- ربما.

- هل يحمل هذا الرجل جهاز تتبع؟

- لا.

- كيف عرفت؟

- عندما التقطت له صورة.

- ماذا؟

- إن هذا الموبيل به خاصية اكتشاف أي جهاز إرسال أو استقبال آخر.

وحتى لو كان يحمل جهاز تتبع إن هذه السيارة بها جهاز (يستطيع الشوشرة على أي إشارة وتشفر اتصالنا فلا يستطيع أي جهاز التقاط ترددنا غير تلك المنطقة التي نقصد اتصالنا بها فقط)

بدأت السيارة في مواجهة تحديات الأرض الوعرة بعدما انحرفت عن الطريق الرئيسي إلى مدق جبلي وعمر، التفتت إلى حسن التفاتة سريعة ورغم نظرتة المعبرة إليها إلا أنها عادت إلى وضعها الطبيعي لأن السيارة لم تخفف من سرعتها وخافت من ارتطام رأسها بأجزاء السيارة.

مضت السيارة في طريقها ولم يكن هناك من يتبع خطاها، إلا أن قائدها لم يخفف من سرعته رغم وعورة الطريق، وظل محتفظاً بجديته رغم روحه المرحّة لقد كان الأمر خطيراً على ما يبدو.

- نظرت إليه وقالت هل سيأخذ ملين؟

- نحن نحتاج إلى ملين قوي.

ابتسم ابتسامة جادة وقال:

- استعمال الملينيات لاستخراج الأشياء من المعدة أصبح من مخلفات الماضي، سنعطيه كبسولة عبارة عن كمبيوتر منزلق ستكشف الخاتم وتقوم بإخراجه دون أي أثر جانبي وسيتم ذلك وهو تحت تأثير المخدر.

مرت لحظات ورن جرس الموبيل فقطع حديثه ونظر في الرسالة التي وصلت، وبعد أن قرأها نظر إلى حسن في المرأة يتفحصه مما دعاها لسؤاله:

- ما الأمر؟

- فقال إن هذا الرجل ضابط في الأمن الوطني.

- كيف عرفتم؟

- لقد تلقى تدريباً في أمريكا.

- فقالت إذن نحن ملاحقون الآن وهناك من يراقبنا.

- قال بكل ثقة، لا.

- ماذا؟ وعلى وجهها كان أكثر من علامة استفهام.

- إن هذا الرجل من أكثر المطلوبين لدى أمن المرشد.

- نظرت إليه متسائلة، ماذا؟

- مط شفتيه دون إجابة، حتماً سنعرف عندما يفيق.

- عاد إليها هدوئها وقالت ربما.

- فقال إن هذا يفسر سر نظرته تلك لك، فهو غير مصدق أنه يراك مرة

أخرى.

- نظرت إلى حسن نظرة فاحصة واعتقدت أن نظرته تحمل أكثر من ذلك، لكنها لم تشأ أن تتحدث في هذا الأمر أكثر من ذلك.

- لكنها قالت متسائلة، ضابط من الأمن الوطني يحمل شيئاً يريد النظام بشدة وربما يكون سبب انهيار هذا النظام فلا يعطيه له لكن يبحث عنا ويعطيه لنا؟

- ربما تكون هناك بعض الإجابات حالما نصل.

صمتت وراحت تراقب الظلام الممتد بلا انتهاء أمامها وكان الضوء الصادر من مصابيح السيارة هو ما استطاع أن يفك رموز الليل شيئاً فشيئاً.

وقبل أن تغوص في أعماقها للبحث عن أجوبة بعد رحلة صمت، كانت السيارة قد وصلت إلى المكان الذي يقيمون فيه.

كان بقية الفريق في حالة انتظار وكانت غرفة العمليات معدة لاستقبال حسن وبعد لحظات قليلة استطاعت الكبسولة أن تستخرج الخاتم فالتقطه ستيف بملقاط خاص وتم وضعه في مطهر.

اتصل ستيف بالرئيس وقال لقد حصلنا على الخاتم هل نقوم بإيقاظ حسن الآن؟

- نعم أيقظوه.

كانت عملية الإيقاظ من السهولة التي جعلتها برغم خبرتها الطبية لا تصدق ما ترى لأنها اعتادت أن ترى الآثار الجانبية للمخدر بعد الجراحة وقد كانت عملية الإفاقة منه مرهقة ومعقدة مصحوبة بآثار جانبية تترك أثرها على الروح فتصيبها بوهن ربما يصيب الجسد بحالة موت كامل! أطرقت السمع في وعيها وانكفأت على الداخل في رحلة بحث عن أصل تلك الكلمة ومعناها وأين سمعت تلك العبارة؟ الموت الكامل.

وبعد لحظات من الصمت لم يقطعها إلا إشارة من يد حسن لها تدعوها للاقترب فتحركت باتجاهه وكانت لحظة مهيبة تمر على حسن وراح يفرك في عينيه محاولاً استيعاب ما يراه، شاهد ستيف ورفاقه ذلك فابتسموا وراحوا يراقبون اندفاع دماء الخجل على صفحات وجهها الخمرى المائل للبياض وكانت جميلة فلا تمل العين من النظر إليها ومع مسيرة من أربع أو خمس خطوات دارت في ذهنها وذهنه أحاديث وكلمات لكن هل كان الكلام على نفس الموجة ونفس التردد ربما لا فهي لا تعرف لماذا ينظر إليها بتلك الطريقة ولم تجد تفسير مع تحول نظراته من شخص مذهول وغير متأكد لما يرى إلى شوق عارم.

وما أن وصلت إليه حتى أطبق على يديها بقوة ثم اعتدل في جلسته وقال:

- هل هناك من يعبت بعقلي الآن؟

نظر الجميع إليه ولم تفارق الابتسامة وجوههم ولم يتتاب أحدهم أي قلق من رد فعل غير محسوب من قبل حسن الذي لم يمهلهم إجابة سؤاله فباغتها بسؤال آخر:

- هل أنت الدكتور هالة؟

أومأت برأسها إيجاباً وقالت نعم.

لم يسمع حسن يوماً صوتاً أعذب مما سمع الآن ونظر إليها ثم أطبق عينيه مختزناً موجات الشوق وقال لنفسه في حديث داخلي أيا ما يكون حتى لو لم تكوني حقيقة فسوف أستمتع بلحظة القرب منك الآن.

شعرت هي بضغطه من يده على يديها عندئذ سمع حسن صوت يأتي من خلفه يقول إنها هي وكما تقولون هي بشحمها ولحمها دون نقصان.

نظر حسن إلى مصدر الصوت فرأى رجل ذو وجه ملائكي باسم، وملامح غريبة واضحة لكن متى دخل هذا الرجل الغرفة؟ سؤال جال في ذهن حسن، وخاصة أنه عندما استيقظ نظر في كل أنحاء الغرفة ليستكشفها جيداً ولم يكن فيها غير هالة والرجل الذي كان معها وقد عرف أنه عالم ضمن الفريق ويدعى ستيف وشخصين آخرين. وتلك الأجهزة الموجودة حوله التي أدهشته فهي لا تشبه أي جهاز رآه من قبل ولا حتى في أفلام الخيال العلمي ولا حتى تلك الأجهزة الحديثة التي يملكها مولانا، ولم يستطع حسن رغم بعده عن النظام وربما غضب النظام عليه واعتباره مارق من أن يكتم غصة في حلقه وقال لنفسه هل الأمن القومي مخترق إلى هذا الحد كل هذه الأجهزة مع هؤلاء ومع مولانا أناس يتحركون بمتتهى الحرية يدخلون ويخرجون من القاهرة، فالقاهرة تختلف تماماً عن الصعيد، لتركز كل الأجهزة الأمنية فيها، إن أجهزتنا الأمنية كنت أحسبها قوية، كنت أعتقد أن ما يحدث خلف الجدران نعرفه، لكن بعد يومين اكتشفت أننا ضعفاء للغاية، لكن كيف سيطر الجهاز الأمني على الناس وهو أضعف من أن يحمي حدوده

يبدو أن كل الدكتاتوريات لا تحمي حدودها جيدًا، قال لنفسه تلك العبارة حتى يتخلص من الألم النفسي والنقد تجاه ذاته، وعاد إلى سؤاله الأول لماذا لم أنتبه إليهم عند دخولهم أم أن هناك مدخل آخر غير الباب أم أنا لا أعيش الآن في العالم الحقيقي؟. أم أن هالة أسكرتني بسحرها وبشرتها شديدة الجمال تلك، لم أكن أتصور أنها بهذا الجمال وكأن الزمن لم يكن له أي أثر عليها، بشرة أطفال ولون مميز سبحانه من أبدع، حتى وإن لم يكن هذا العالم حقيقي فأنا الآن في حضرة الجمال والحب، لكن قلبه ما زال يحمل أمنية لم يستطع لها دفعًا وهي أن يكون ما يراه حقيقًا، تحدث حسن إلى محدثه بلغة عامية وقال ازاي؟

رأى ابتسامة على وجوههم فاعتدل حسن، ووجد في نفسه القوة فجلس ثم قام واتجه إلى هالة واقرب منها كثيرًا وكاد جسده يلامس جسدها وتجاهل دفقات الدم المُعَبَّر عن الخجل البادي على وجه هالة، ووضع يده على يديها ثم ضغط عليها وقال نعم إنها هي، أستطيع أن ألمس روحها، واتجه بنظره إلى الرجل الذي حدثه مع اعتقاد صائب من حسن أنه رئيس الفريق الموجود، وقال ألم تمت هالة؟

قال الرئيس لقد ماتت على حسب تعريفكم للموت لكنها بالنسبة لنا لم تمت وما زالت حية.

صمت حسن مذهولًا مما يسمع وقال في نفسه وهل للموت تعريف غير خروج الروح! لكنه لم يعقب وترك الرجل الذي اعتقد أنه الرئيس كي يكمل..

فقال الرئيس والذي يدعي هولاند لقد أصبحت الحالات التي تدعون أنها ماتت في بلادكم فهي حالات سهلة العلاج في بلادنا.

فقال حسن هل تدعون أنكم من سكان الأرض؟

ضحك هولاند وقال نحن من أمريكا وأوروبا ولدينا مجموعات من كل البلاد.

تعجب حسن من قول هولاند، وسأله من أنتم؟

هولاند: نحن "أبناء غايا"، أي أبناء الأرض في اللغة العربية ولدينا هدف واحد، وهو إنقاذ أمتنا الأرض والإبقاء عليها كإرث مشترك بيننا وبين كل الكائنات.

نظر إليه حسن محاولاً استيعاب ما يحدث، فنظر إليهم حسن وقال جميعكم مقبوض عليكم.

قهقه هولاند وقال لماذا أيها الرائد حسن؟

لأنكم السبب في كل ما حدث في القاهرة من قتل وتدمير.

هولاند لم تكن نحن الفاعلين يا صديقي لكنها الإدارة الحاكمة للمخابرات الأمريكية وهم من قتلوا أيضًا نائب المرشد وكانوا وراء تفجير فيلا الدكتور عبد الرحمن، فقال حسن متلهفًا أين الدكتور عبد الرحمن؟

لقد مات، قال هولاند تلك العبارة متأثرًا ورأى حسن صدق مشاعره، لكن حسن قال ألم تكن حالته مماثلة؟

لا لقد تضرر أكثر من حالة ووصل إلى مرحلة الموت الكامل.

نظر إلى حالة وقال هل تم دفنه؟

هولاند: نعم ولكننا احتفظنا منه بعينة من حمضه النووي داخل هذا، ورمى به إلى الرائد حسن ونظر حسن إلى ما التقطته يده بذهول، فقد كان خاتمًا مماثلًا للخاتم الذي كان معه، علم حسن الآن أن الخاتم الذي تدور الحرب حوله يحتوي على عينة من حمض نووي لشخص ما وقفز سؤالان إلى ذهنه في لمح البصر، من صاحب هذا الحمض النووي والذي على ما يبدو أن له أهمية تفوق توقعاتي، لكن السؤال الأهم، لماذا بشكل أوضح، في أي شيء سيتم استخدامه؟

سمعت هالة عبارة الموت الكامل وشعرت أن تلك الكلمة تنبع من مكان ما بداخلها وشعرت رغم عدم معرفتها بمعناها أن تلك الكلمة مألوفة لديها وتمنت أن تسأل هولاند عنها.

وسمعت حسن يسأل، ما الذي يدعوني لتصديقكم وأنكم لم تقتلوا نائب المرشد؟ نظرت هالة إليه بضيق وقالت سيظل رجال الأمن مهما فعلوا لا يفكرون إلا في اتجاه واحد، ظننت أنك مختلف وربما ستسأل عن معنى الموت الكامل.

قال هولاند، لقد كان نائب المرشد شخصاً منفتح العقل. وكان لديه حلم في أن تتغير مصر والعالم وقد اطلع على ما اطلع عليه الآخرون لكنه لم يرَضْ وقد شكل تهديداً كبيراً وخاصة مع ازدياد شعبية الرجل وحب الناس له، وعلى الرغم من أن المصريين أصبحوا لا يملكون عقلية نقدية فلا يرون إلا ما يرى مرشدهم إلا أن نائب المرشد كان يمتلك عقلية نقدية.

- فقال حسن بصوت حائق، وما الذي رآه بعيداً عن مرشدنا؟

- فقال هولاند لقد درست في أمريكا لمدة عام أليس كذلك؟

- حسن: نعم.

- إذن صف لي أمريكا..

راح حسن يسرد ويصف المدن التي أقام فيها أو زارها بطريقة مذهلة جعلت هولاند يقاطعه بإعجاب شديد لذاكرته، وضغط على ريموت كونترول كان يحمله فظهرت شاشة افتراضية فضغط مرة أخرى وقال أليست تلك أمريكا؟ نظر حسن إلى صورة حية تعرض على الشاشة وقال نعم تلك هي أمريكا.

فقال هولاند لم تعد هذه أمريكا، إن هذه مدن الترانزيت للعرب والأفارقة والآسيويين واللاتينيين، لكن أمريكا هي هذه، وضغط مرة أخرى على الريموت فتم نقل صورة حية ونظر إلى حسن وعلى ما يبدو أن حسن لم يكن هو المشدود فقط، بل هالة هي الأخرى وفركت في عينيها وقالت، أليس ذلك ما كنا نراه في أفلام الخيال العلمي؟

لا إن الحقيقة الآن تخطت ما كنتم تشاهدونه في أفلام الخيال العلمي، كان ذلك رد ستيف.

هذا غير حقيقي كان ذلك رد فعل حسن رغم أنه لم ينطق ولكن كان هذا باديًا على وجهه فلم يجتهد أحدهم في تفسيره، فقال له هولاند، انظر إلى تلك الأجهزة من حولك هل شاهدت مثلها حتى في أفلام الخيال العلمي؟

نظر حسن مجددًا إلى الأجهزة وربط ما يراه الآن بما رآه عند مولانا وتذكر هالة وتقرير الوفاة وحديث عن تمزق الجسد تمامًا، وأنها الآن حية ترزق

لم يجب حسن

وقال لنفسه إن كان ما يقال الآن صحيحًا، إذن ما الجدوى أن تفعل أمريكا معنا ذلك؟

وانتبه هولاند لهالة وهي تسأله لماذا ومتى؟ لقد كنت في ألمانيا ولم أشاهد أي تغيير، أم إن تلك الثورة العلمية لم تدخل حتى ألمانيا؟

فقال هولاند إن ثورة السوبر كوندكتور والنانو تكنولوجي قد غيرت وجه الحياة في أمريكا وأوروبا وأستراليا وقد بني في أمريكا وأوروبا مدن الترانزيت تلك لعدم إيقاظ العالم.

- لماذا ومتى....؟

نظر لهالة وأكمل حديثه.. إن أردتم أن تعرفوا فيجب أن تتحملوا قصة تبدو مملة لأنني أنا من سيرويها لكم، وقال بدلال هل تتحملون؟

ابتسم حسن ابتسامة باهتة تعني أنه لا وقت للتدلل هذا وأي شيء ستقوله سوف أسمعه.

نظر هولاند إلى تلهفهم وأعجبه ذلك فأراد أن يزيده أكثر، فقال إنه المستعمر الأبيض؟ ونظر إلى وجه هالة الذي أصيب على ما يبدو بخيبة أمل وأصيب بالفرح نتيجة ذلك لأنه علم أنها ضد نظرية المؤامرة ونظر إلى وجه حسن فوجد أنه متقبل ما يقول وعلم أن حسن رغم عمله كمحقق إلا أن نشأته الإخوانية وفرت البيئة الذهنية لتقبل نظرية المؤامرة وحتى يشعر بالنصر قرر أن يبهر هالة.

فقال مرة أخرى وأعاد نفس الجملة، إنه الرجل الأبيض الذي يريد الأرض الجديدة لنفسه وقام بحرب إبادة مستمرة وستستمر بعد رحيله لتلك الأرض الجديدة، يبدو أن هولاند قد أصاب مبتغاه فقد رأى نظرات الذهول والتساؤل على وجوههم وبتأنٍ راح يتفرس وجوههم ويقرأ سطورها.

وكانت ملامح حسن تقول، أي أرض جديدة يقصد، وعن أي حرب يتحدث فلا أمريكا أو الرجل الأبيض قام بشن أي حرب علينا بل على العكس لم يعد لها أي قاعدة عسكرية في الوطن العربي.

إنه العام ١٩٨٧ استيقظت الإدارة الأمريكية على خبر مرعب أن الأرض عام ٢٠٩١ لن تكون صالحة للحياة فقد اكتشف تلسكوب هبل نيزكًا كبيرًا يتحرك وبسرعة.

هالة أكملت الجملة مفاجئة: في اتجاه الأرض؟

لا في اتجاه القمر سيصطدم به اصطدامًا مباشرًا عام ٢٠٩٠ وسيمزق هذا الاصطدام القمر وبعدها ستبدأ معاناة الأرض لأن الصخور الناتجة عن الاصطدام ستملأ سماء الأرض بمليارات الشظايا المشتعلة ذات الأحجام المختلفة وستفني مدن كاملة وتتبعها غبار الاصطدام الذي ربما سيخنق الحياة كاملة لكل الكائنات الحية ولغياب القمر سيحدث موجات من الزلازل العنيفة والمستمرة لغياب القمر تلوها موجات مائية عملاقة متتابة أيضًا، ولن يبقى أي كائن حي استطاع النجاة مما سبق أن ينجو بعد ذلك

وقال بأسى: قليلون هم من فهموا أهمية القمر بالنسبة للأرض فهو ضمانه لاستمرارية الحياة على هذا الكوكب، وعند علم الإدارة الأمريكية بذلك، وكان رئيس الدولة في ذلك الوقت رجل يتصف بالذكاء يدعى جورج بوش الأب وأمر لجنة مصغرة من العلماء بوضع تصور ووضع تقرير أمام الإدارة فكان التقرير يقول إن احتمالية بقاء حياة على الأرض تقترب من الصفر وصلاحيه الكوكب للحياة بعد الاصطدام تقترب من الصفر، فشكل لجنة أخرى من العلماء أكبر ومتنوعة كي تضع استراتيجية للرحيل عن الأرض، وصمت قليلاً وابتلع ريقه فرأى لهفة حسن وهالة إلى أن يكمل، فقال إن أول نقطة في الاستراتيجية هي إبقاء الأمر سرّاً قدر الإمكان وتولي قسم العمليات القذرة تنفيذ عملية الإعدام فيمن تشك في محاولته معرفة السر أو محاولة كشفه.

وكانت النقطة الثانية تدبير موارد الطاقة اللازمة للرحيل وكانت نقطة في منتهى الأهمية لأنها ستحدد العدد الذي سيستطيعون نقله وكانت النقطة الثالثة هي إيجاد كوكب بديل لأمنّا الأرض. وبدأت في تحديد من سيتم نقله وقد تحدد أن يكونوا من أمريكا وأوروبا، واجتمع كل المختصين من تلك الدول وتم التحديد أكثر، واتفقوا على أن من سيتم نقله عند إيجاد كوكب هم الجنس الأبيض فقط، رأيتم أنانية الرجل الأبيض! وقف حسن مرتاباً في كل ما سمع وأصابته الحيرة لكن كيف يتحدث هولاند عن أنانية الرجل الأبيض وهو أبيض، لكن هولاند لم يمهله لأفكاره وأكمل.. وبدأت خطوات الاستيلاء على مصادر الطاقة، من حرب من غير داع فشككت لغزاً غير مفهوم وهي حرب العراق والكويت حيث استيقظ العالم على غزو عراقي للكويت وبعدها بدأت أمريكا وحلفاؤها بوضع أيديهم على خزان الطاقة العظيم في تلك المنطقة وما تلاها من تربيّات كانت قاسية على الإنسان وأيضاً على أمنّا الأرض في نفس الوقت، وامتدت رحى الحروب من أقصى الأرض إلى أقصاها وكان دور الأمريكي الأوربي فيها هو تأجيحها وإعطاء الطرفين كميات شبه متساوية من السلاح فلا تحسم الحروب ولا تنتهي، فوضى عارمة اجتاحت الأرض وأضحى البقاء على قيد الحياة لهذا الإنسان كل مبتغاه. ورغم ذلك كان هذا الدفع محسوباً ومقدراً من تلك القوى واستغلال نتائجه.

قال حسن لنفسه إن هذا الحديث يفتقد للمصداقية لأنه كلام معمم، إنه يتحدث عن الرجل الأبيض فماذا عن السود في أمريكا، أو ليس في الإمكان أن ينقلب السحر على الساحر ويحاربون أمريكا وأوروبا؟

فقال هولاند بالطبع كادت الأمور تخرج عن السيطرة كما حدث في ثورة يناير، القوة الصاعدة في بعض الدول مثل الصين وعودة روسيا كقوة، وكذلك السود في أمريكا وأمريكا الجنوبية. ولن أستطيع أن أخبرك كيف تم الانتهاء من كل الأمم لكن دعني أشرح لك ما تم مع مصر والعرب..

فقاطعه حسن وقال، كنا نسمع أن الأوروبيين والأمريكان كشعوب لديهم ضمير إنساني رفيع، فكيف ارتضى ذلك الضمير تلك الأمور؟

أخذ هولاند نفساً عميقاً وقال بصوت يملؤه الحزن: إنه الخوف أو إشاعة الخوف بين الناس.

نظر حسن إلى هولاند غير مصدق وقال: هل الخوف يفعل كل ذلك؟

فقال هولاند: نعم إشاعة الخوف تفعل كل ذلك وأكثر ثم واصل حديثه محتدًا وقال إن الحضارة العالمية منذ بدأت حتى الآن هي حضارة الخوف.

فقد خلق الإنسان القديم إلهًا ثم عبده كي يحميه من خوفه وأوجد السحر كي يتغلب على خوفه، إن كل طقوسه القديمة والحديثة هي طقوس خائف والخوف دفعه لتكوين مجموعات ثم طورها إلى قبائل ثم إلى شعوب ثم قسم الأرض إلى أوطان وأقام حواجز وهمية لا تراها إلا في الخرائط، ثم أقام حروبًا وأنفق وما زال ينفق على السلاح، إنه الخوف.. ثم نظر إلى وجه حسن الذي بدأ في الهدوء والتصديق، فأكمل هولاند قائلاً إنه الخوف الذي جعل الغرب يقتل هؤلاء البشر حتى لا يشاركوه الأرض الجديدة، وعندما تطلق موجات الخوف تصل للمتلقي بصور كثيرة.. الأمن الاستقرار، الجشع، الحسد، الكره، العبادة، الكذب، التضليل، السعادة الزائفة، القلق ثم قال بحماس وكأنها نظرية هو من أطلقها: الخوف نقيض الحرية وقبل أن يتحدث عن المجال المنبثق من إطلاق الحرية كما تحدث عن الانبثاق الذي حدث من الخوف.

قاطعہ حسن وقال أنتم لم تستطيعوا السيطرة على مصر وتعامل معكم منذ الثورة الإسلامية الند للند، وقد حققنا ضدكم انتصارات عديدة فليس هناك إسرائيل أو قواعد أمريكية في المنطقة العربية؟

فقال هولاند أين قطر؟

صمت حسن لأن هولاند يسأل عن معلوم.

فاستطرد هولاند وقال لم يكن في العالم أكثر من المنطقة العربية انبطاحاً وتجاوباً مع المشروع الغربي وخاصة مصر.

فتذمر حسن مما يقول هولاند.

فقال هولاند: لا تغضب من الحقيقة.

فقال حسن إنها ليست الحقيقة لقد كنا الدولة الوحيدة التي قطعت علاقاتها مع أوروبا والدولة التي تناصب أمريكا العداوة وكان مرشدنا يقول عنكم بكل صراحة إنكم دولة الشر، عندئذ تذكر حديث مولانا عن مولاه المرشد لأمريكا فتلعثم، ولم يكمل وتاهت منه الأفكار مثل أن المسلمين دائماً في حالة حرب وعداء للصليبية وعداء دائم لليهودية ولأن المرشد ممثل للإسلام والمسلمين فإن العداوة بين المرشد والغرب هو عداء قائم والبديهي الذي لا يسمح أن ندعي أن المرشد في حالة موالاته لهم لكنه أفاق على صوت هولاند وهو يقول إنها المصلحة.

ونظر إلى عيني حسن مباشرة وقال إنها المصلحة هي القادرة على جمع كل المتناقضات التي لا يستطيع العقل الطبيعي أن يتقبل حدوثها، لذلك أنت غاضب لأن عقلك لن يتقبل تلك المتناقضات دون الأخذ في الاعتبار مفهوم المصلحة.

وأكمل هولاند الذي على ما يبدو أنه قد خن ما دار في عقل حسن أثناء شروده فجواب عليه ثم عاد إلى ما كان يتحدث عنه، وقال: عام ٢٠٠٩ قاموا بالخطوة الثانية وهي إرسال مسبار لاكتشاف الكواكب الشبيهة بالأرض والتي توجد عليها حياة أو تكون صالحة للحياة فيها وفي تلك الأثناء عمل

علماء الفيزياء النظرية على حل مشكلة السفر عبر الزمن عن طريق الأنفاق الزمنية، لأن تلك الكواكب ستكون على بعد سنوات ضوئية كبيرة حتى لو امتلكنها مركبة تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء فلن تتحمل أجسادنا تلك السرعة أو أعمارنا تلك المسافة، لأن تلك الرحلة ربما تأخذ ألف عام أو يزيد بمركبة تتحرك بسرعة الضوء.

وكان هذان التحديان الكبيران هما إيجاد كوكب، ثم تطوير الفيزياء لكي نستطيع السفر.

ومع اندلاع الثورة المصرية الثانية التي لم يكن مسموحًا بها، تم اكتشاف الكوكب كبلر ٢٢ بي الذي من الممكن أن تسميه توأم الأرض فيحيط به غلاف جوي مناسب وعامه ٢٩٠ يومًا وبه يابسة وماء ودرجة حرارته تبلغ ٢٢ درجة مئوية أي أنه كوكب مثالي لكنه يبعد ٦٠٠ سنة ضوئية فردد حسن بصوت خفيض مذهولاً ٦٠٠ سنة بسرعة الضوء ومع عام ٢٠٢٠ توصل العلماء إلى حلول لمشكلة الانتقال الزمني عبر الأنفاق الزمنية بل واستطاعوا أن يختبروا أجهزة النقل المكاني القائمة على مبدأ التشاكل والتي تستطيع نقل الأشياء مع ثبات الزمن، لكن تلك الأجهزة حتى الآن لا تستطيع نقل الأشياء الكبيرة لذلك يتم تفكيكها وبناء مصانع للتجميع هناك على كوكب كبلر ٢٢ بي، ولأن عملية نقل الأشياء وجمع المعلومات ودراسة الكوكب دراسة دقيقة وسبل تكييف الإعاشة وبحسابات بسيطة فإن نقل ما يحتاجون إليه بتلك الأجهزة سوف يستغرق وقتًا أطول مما هو متاح أمامهم، وأضحى الوقت حرج أمام السياسيين وخاصة أن دراسات العلماء أكدت خلو هذا الكوكب من الوقود الأحفوري فأصيوا بانفعال شديد واضطروا إلى إشراك الروسين في الأمر، ومع انفعالهم ووجود مبرر أخلاقي مناسب لضمايرهم تجاه تدمير الكوكب وما عليه، فكان في عام ٢٠٢٢ أن اعترض أحد أمراء قطر على استمرار وجود القاعدة الأمريكية في الأراضي القطرية، وخافت الإدارة الحاكمة من تنامي تلك النزعة الاستقلالية داخل الأسرة الحاكمة. فاتخذت الإدارة القرار دون رادع أخلاقي وكان مشهدًا محيرًا ومأساويًا فقد تساقط القطريون رجلاً تلو الآخر دون حرب.

دون سبب انتبه حسن بكل جوارحه إلى ما سيقوله هولاند وتذكر نقاشًا دار حول ذلك الأمر بينه وبين مولانا في الصعيد.

- أكمل هولاند: لقد استخدموا فيروس هيكس المعدل.

- فقالت هالة: أتقول إن الفيروس كان يقتل القطريين دون الأمريكيين أو الجنسيات الأخرى؟

- فقال هولاند بصوت الواثق: نعم لقد حدث ذلك.

- فقالت هالة كيف؟

- فقال هولاند إن هذا الفيروس مخلق وتم إضافة معلومات عليه ليهاجم ال (دي إن إيه) القطري فقط، وكأنه نانو كمبيوتر.

وسأل حسن نفسه لما برر مولانا المرشد وفاة القطريين بأنه غضب من الله؟

وشعر بغصة في حلقه وألم مكتوم في قلبه عندما بدأ يشعر أن المرشد ربما يكون مواليًا للغرب على عكس ما هو معلن وعلى الرغم أن سيادة اللواء قدم أدلة لكن حسن لم يأخذها على محمل الجد. وصارح نفسه أنه لم يستطع أن يأخذها على محمل الجد وربما تكون الحقيقة ماثلة أمام أعيننا لكننا لا نستطيع أن نتقبلها أو نلتفت إليها، وشعر بضيق شديد وعدم قدرة على التنفس، ولكن كان عليه أن يصغى فقال هولاند: ثم بدأ الصراع العنيف في كل بقاع الأرض فقد تم وضع أسباب الصراع بين الشعوب والطوائف بين الممالك وتم تغذية تلك النار بكل أدواتها فارتدت البلاد المتحضرة عن حضارتها، وكان الرجل الأبيض يعد العدة للرحيل.

- فقالت هالة الرجل الأبيض؟

- هل تقصد الأوروبيين والأمريكان البيض؟

- هولاند: بل الرجال البيض في روسيا أيضًا الجنس الأبيض في كل مكان.

- ماذا فعلوا مع السود في أمريكا؟

- تنهد هولاند وقال بمرارة لقد استعمل سلاح الخوف وتم بذر البذرة في إنجلترا ثم أمريكا وهي قتل السود على يد أحد الضباط.

أعقبها مظاهرات مع إهمال القانون وإشاعة بذور التعصب وترك مساحة للفكر اليميني المتطرف، بدأت مراحل الخوف تلاها الكره والاصطفاف ضد الآخر وتم حصر السود في أماكن الجيتو ثم التهجير الممنهج لهم في اتجاه المكسيك وأمريكا اللاتينية، وقال بصوت متهدج، ولك أن تعلم كم الفظائع التي ارتكبت، فقالت هالة إن ما تقوله ضد الليبرالية وكنا نقرأ أن تلك المجتمعات لديها قيم ليبرالية أصيلة.

هولاند: كل ذلك ينهار مع الخوف وزفر زفرة توحى أنه أراد أن ينتهي من الحديث في ذلك الأمر، وأكمل على مضض وقال بعد التقدم الذي أحرزوه في بوابات النقل المكاني ودراسة هذا الكوكب جيدًا وتحديد ما ينقصهم من معادن وثروات ليقوموا بتخزينها وخاصة الطاقة وساعدتهم ثورة النانو تكنولوجيا في طرق تخزين الطاقة، وهم الآن يستنزفون طاقة الأرض بلا رادع أخلاقي حتى الغابات يحولون أشجارها إلى طاقة، كل شيء يستنزفونه ويتصاعد في المقابل غاز ثاني أكسيد الكربون وزادت حمضية المحيطات بشكل لا يصدق وربما يا صديقي لن تبلغ الحياة على الأرض ميعاد الاصطدام ربما ستفنى الحياة قبل الاصطدام.

فقال حسن بكل ضيق إن كان فناننا حتميًا كما فهمت، فما الذي تريدونه منا؟

نريدكم أن تستيقظوا كعرب من غفوتكم وتلحقوا بركب الرجل الأبيض الذي يريد أن يؤسس عالمًا جديدًا بلا عرق غير عرقه.

إذن لماذا تقومون بتبنيها نحن دون الأمم الأخرى،، بل نحن نقوم الآن بما هو أكبر من التبني سيدي وإن ظللت معنا لبعض الوقت ستتعرف على بعض أنشطتنا ربما نستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه؟

- فقال حسن أليس من الممكن أن يكون هذا اليوم هو يوم القيامة؟ إذن لا مفر منه.

- ضحك هولاند وقال إن العالم كله سيبقى حتى إن الكوكب سيبقى، لكن الحياة ربما تنتهي من عليه ولن تنتهي الحياة كلياً ربما تستطيع بعض الكائنات النجاة مثل الكائنات الدقيقة، وقال متسائلاً: يقال إن هناك معركة ستقوم في آخر الزمان بين اليهود وأتباع المسيح وتدعي هر مجدون.

- فقال حسن مصححاً بل بين المسلمين واليهود.

- فقال هولاند لقد رحل اليهود إلى أمريكا وسيغادرون الكوكب أيضاً مع المغادرين، شعر حسن أن هناك وخزة في صدره وضيق في التنفس.

- فقال بصوت اتركونا في ضلالنا، ارحلوا لا نريدكم وسنموت أيا ما تكون الميتة سنرضى.

- فقال: هولاند محتدداً إن مصر قدرها أنها أول قطعة في الدومينو إذا أضأت فستضيء بعدها بعض الأفطار حتى في إفريقيا هناك من سيتأثر.

- فقال حسن: وبعد أن نتعلم هل سنستطيع أن نبني أجهزة النقل المكاني تلك؟

- فقال هولاند: إننا لدينا المعرفة لذلك ونستطيع أن ننقلكم غداً.

- فقال حسن: لم كل هذا العناء إن كان النقل جاهز؟

- فقال هولاند: إنك لم تفهم بعد، هل تريدون أن تكونوا عبيداً لدى الرجل الأبيض بعد انتقالكم؟ أو يتم وضعكم في متحف للتاريخ الطبيعي؟

- ماذا؟

- ألم تسمع عن القبائل البدائية في إفريقيا أو تلك المكتشفة في غابات الأمازون،

- فقال حسن نعم وكنت أتمنى زيارتها.

- لماذا تراها بدائية؟

-

لتلك الأسباب هم ينظرون إليكم على أنكم كائنات بدائية ويتم التعامل معكم على هذا الأساس في مدن الترانزيت، فالفروق بينكم وبين الإنسان البدائي أقل من الفروق بينكم وبين الإنسان الأبيض.

شعر حسن ببعض المرارة لكنه لم يستطع أن يتخيل تلك الفروق التكنولوجية. فحاول هولاند أن يسوق أدلة أخرى فقال:

هل تعلم ما المكان الذي يجب أن تهبط به؟ وهل تعلم ما هي ثروات هذا الكوكب؟ ما الذي تحتاجه وكيف ستوفر مواردك واحتياجاتك الأساسية؟ هل تعرف كيف تستنبت النباتات هناك؟، وليس هناك حيوانات فكيف ستدبر البروتين والغذاء؟ وكيف ستحصل على الماء؟ وكيف ستؤمن موردا من المياه العذبة؟، وهل سيرتك الرجل الأبيض إن تقاطعت الأرض التي أنتم عليها مع الأرض التي يملكها الرجل الأبيض؟

هل تعرف النظم الاجتماعية الجديدة لهذا الكوكب التي سيفرضها الرجل الأبيض وهل تلك النظم ستتلاءم معكم؟

شعر حسن بعدم الفهم للعبارة الأخيرة؛ مقصدها ومغزاها.

- فقال حسن هل لديكم خطة لإيقاظ المصريين كما تدعون؟

- فقال هولاند نعم وأخرج الخاتم من جيبه وقال هذه أول الخطوات.

- وضع حسن يده على بطنه متحسّسا وقال هل أخرجتموه؟

- فابتسم ستيف وقال نعم إنه هو.

- فقال حسن ساخرًا، هل هذا مصباح علاء الدين؟

- فقال هولاند إنه حسن البناء.

- فقال حسن لا تسخر من مرشدنا.

وسكت الجميع وتحفز حسن.

فقال هولاند مرة أخرى إن حسن البناء داخل هذا الخاتم.

- فقال حسن بسخرية هل تقول إن حسن البناء داخل هذا الخاتم محبوس فيه؟

- فقال هولاند بجدية وصرامة نعم.

نظر حسن إلى هالة نظرة طويلة كانت لها معانٍ كبيرة.

- فقال هولاند إن داخل هذا الخاتم (دي إن إيه) حسن البناء وسنقوم باستنباته مرة أخرى، نظر حسن إلى هالة مرة أخرى ولسان حاله يقول هل تصدقن هذا؟ ففهمت هالة وابتسمت له ابتسامة رقيقة كي تخفف من توتره.

- فقال حسن هل قمتم باستنبات هالة؟

- فقال هولاند استنبتنا بعض أجزائها المدمرة.

- فاقرب حسن منها وراح يشتمها ليرى هل ما زالت تحظى بروحها؟

- فقال هولاند إن وعيها كما هو لم يمس؟

لكن وعي حسن البناء غير ذلك، لكن بما لدينا من معلومات عنه ومحفزات الوعي سنضيف إليه أجزاء أخرى ليصبح لدينا ربما أكثر من ثلاثة أرباع وعيه الحقيقي الذي كان يحمله.

- فقال حسن وكيف تعرفون أن هذا الـ (دي إن إيه) هو لمولانا المرشد؟

- فقال هولاند لأن أبناء غايا هم من حفظوا (دي إن إيه) في هذا الخاتم.

- فقال حسن متبرماً يبدو أنك لم تفهم ما أقصده يا سيدي، أليس من الممكن أن يكون ما احتفظتم به (دي إن إيه) لشخص آخر؟

- فقال هولاند ربما يكون كلامك مضبوطاً لكننا تحرينا أقصى قدر من الدقة لأننا في عام ٢٠١٨ استطعنا الوصول إلى مقبرة حسن البناء ومما تبقى من رفاتة استطعنا استخلاص عدد اثنين (دي إن إيه) كاملين بدون نقص، ثم وضعناه في تلك المادة التي هي اختراع لأبناء غايا والتي لا يمكن اختراقها بالأشعة السينية لتصوير ما بها أو إتلافه وهي الخاتم الذي تحمله، لكن

حدث أن استطاعت وكالة المخابرات الأمريكية الحصول على الخاتمين وتم الاحتفاظ بأحدهما في مصر في المبنى ٦٦ والآخر لديها ولأنه لا يمكن إتلافه فما من طريقة لعدم وصولنا إليه إلا الاحتفاظ به في أماكن شديدة السرية والأمان وكان من الطبيعي ألا يتم وضع الخاتمين في مكان واحد.

وبعد معرفتنا بمكان الخاتمين أصابنا بعض الإحباط لأن الوصول إليهما مستحيلًا مع كل إجراءات الأمان الموجودة بالمبنيين لكن مع وجود شخص مثل نائب المرشد؟

- قال حسن مفزوعًا هل مولانا محمد عباس كان عميلًا لديكم؟

قال هولاند محتدًا ليس لدينا عملاء، إننا مجموعة من العلماء في مختلف التخصصات وكان فضيلة الشيخ رجل متفتح قارئ وذكي عكس الإخوان. شعر حسن بإهانة لكنه لم يعقب وقرأها هولاند في عينيه فأراد أن يخفف عنه فقال أقصد أن الإخوان يصابون بفيروسات العقل منذ الصغر، عن طريق الآباء.

- فقال حسن ماذا؟ ونظر إلى هالة محاولاً الاستعانة بها.

وفطن هولاند إلى تلك النظرة.

وشعر حسن بنظرة هولاند تخترق أعماقه وتنفذ إلى داخله وتكتشف ضعفه ومحاولته الاستعانة ببني جلدته في الرد على ما يقوله هولاند، ووصول حسن إلى مرحلة الضيق في التنفس وهي حالة ترافق ذلك الذي لا يجد ما يدافع به عما يعتقد ووقوفه موقع المدافع دون أسلحة، ونظر حسن إلى هولاند وأراد أن ينقل دفة الحديث،

- وقال بصوت متحرج كيف ساعدكم مولانا نائب المرشد ومن قتله؟

- ومن أطلق الصاروخ على الدكتور هالة والدكتور عبد الرحمن أم أن لا علاقة لهذا بذلك وأن هناك أمر آخر؟

فقال هولاند إن الكمبيوتر المركزي متصل اتصالاً مباشراً مع الكمبيوتر المركزي في الوكالة، وعندما قام السيد محمد عباس بتعطيل الجهاز انتشر فيروس سيرون ليملاً الغرفة وهو نانو كمبيوتر يهاجم كل من هو في حدود الغرفة أما التأمينات الخارجية للمبنى فهي معقدة كثيراً، أبسطها أن كل من هو حول المبنى سيتم مراقبة بصمته الحرارية.

أراد حسن سؤال هولاند عن معنى البصمة الحرارية لكنه خاف من أن يفقد تسلسل الأفكار لدى هولاند، ثم انتبه إلى ما يقول،

وكان نائب المرشد يعرف الزمن بدقة فعطل الجهاز وانصرف ودخل نوير غرفة الأسرار وكان الخاتم هو سرها الأعظم وحصل على الخاتم لكن لأن هذا الفيروس يتم تغيير بيناته والمعلومات التي يملكها دورياً فقد كان من الصعوبة إيقافه لكن إن لم نستطع إيقافه فقد نستطيع أن نبطئ مفعوله بعض الوقت وهذا ما حدث مع نوير فقد أوصل الخاتم إلى حالة.

- أين ذهب؟

- مات.

- أين جثته؟

فقال هولاند بأسى إن هذا الفيروس يقوم بتحليل الجسد إلى مكوناته الأولية ويستهلك تلك الطاقة.

- مكوناته الأولية!

نعم مكوناته الأولية فهو يقوم بتفكيك الروابط بين الجزيئات المكونة للخلية فتفكك الخلية إلى جزيئات وذرات.

- فقال حسن لهالة هل هذا ممكن الحدوث؟

فمطت هالة شفيتها وقالت ربما، وهذا التفسير الوحيد لدي لاختفاء جثة برفيسور نوير، وقبل أن يعقب هولاند عاجله حسن بسؤال:

- إن كان هذا ما تتوقعون حدوثه لهذا العالم فلما لم ينتظره أحد منكم؟

كان هذا سيكشف المجموعة الموجودة في مصر بالكامل، لكننا كنا نراقب الموقف نحن أيضًا، وكان هذا جزءًا من الفوضى المحسوبة وكان هناك من سيلقي الدكتوراة هالة وسيحصل منها على الخاتم فور خروجها من عند الدكتور عبد الرحمن، لكنه قتل أيضًا في الهجوم على الدكتوراة هالة.

- فقال حسن مستنكرًا لم يكن هناك إلا جثتان!

بل ثلاث، لكننا حصلنا على جثة زميلنا قبل وصول أي أحد إلى المكان وكانت الفوضى الحرارية غطاء لنا، واطمئنا على أن الدكتوراة هالة لم تغادر الحياة.

- ما تلك البصمة الحرارية فأنا لم أسمع عنها؟

إن كل جسد يقوم بإنتاج الطاقة واستهلاكها وينتج كميًا مميزًا من الطاقة يتم تسجيلها على القمر الصناعي ككود حراري يتم مراقبة الإنسان وتتبعه عن طريقها ومن الممكن استرجاع الأحداث التي قام بها في الماضي عن طريق التتبع الحراري لك من خلال هذا الكود.

فقال حسن مازحًا وفي النهاية ما أنا إلا كود، فقال هولاند بجدية نعم إننا أكواد ولكن كان هناك فارق كبير في المعرفة بين المزحة والحقيقة.

- لكن هالة خرجت عن صمتها وقالت اختفى، أهذا كل شيء؟

أدرك هولاند أنها لا تتحدث عن برفسور نوير فقط لكن أيضًا عن هذا الذي مات وكان مكلف بلقائها، فقال لا تنزعجي هالة إن كل أبناء غايا تم نسخ وعيهم والاحتفاظ به وكذلك نسخة من الحامض النووي لهم لذلك من مات سيعود وكأنه استيقظ من نومه.

- أو مات هالة برأسها موافقة وسعيدة بها يقول.

لم يستوعب حسن ما يسمع لكنه شعر بعدم الارتياح لكنه لم يعقب خشية أن يظهر بمظهر الأحمق أو يضع الكلام في غير محله، لكن عقل حسن الأمني كان يعمل في تحليل كل ما يقال حتى وإن كان تركيزه في اتجاه آخر وفوجئ

بسؤال يتنقل من تلايف عقله إلى هولاند فقال:

- هل تعقبوا الكود الحراري لهالة؟

- فقال هولاند نعم، فقال حسن:

- هل تغير هذا الكود بعد إجراء العملية لها؟

فطن هولاند إلى ما يرمى إليه حسن، وقال باسمًا لا لم يتغير، لكن قد تحكمنا فيه وهي في طريقها إلى فيلا الدكتور عبد الرحمن لاستعادة الخاتم.

فقال حسن أليس من الممكن أنهم يتعقبوني أنا وخاصة أنى لم أواجه مشاكل أمنية في دخولي أو خروجي من القاهرة وأنا المكلف بفك رموز تلك القضية؟، ولم يكمل حسن فقد شاهد الذعر على وجه هولاند ورفاقه وإحساسهم أنهم الآن في المصيدة وأن هناك من تلاعب بهم، فقال هولاند سننطلق الآن إلى الموقع التبادلي ولم ينهي هولاند عبارته حتى دوى انفجار اهتزت له الأرض من تحت أقدامهم فانطلقوا مسرعين خلف هولاند الذي على ما يبدو أنه كان يعي ما يفعل، فقال حسن هل سنترك تلك الأجهزة خلفنا؟، لكن لم يسمع أي تعقيب لأن صوت حسن قد تاه في دوى الانفجارات واهتزاز الأرض من تحت أقدامهم، ورغم ذلك لم يكف عقل حسن عن التساؤل فقال:

لماذا لم تقتحم المكان مجموعات قتالية؟ هل لأنهم لا يريدون أن يصل الخاتم إلى يد أي أحد؟ وصمت قليلاً وحاول أن يستجمع أنفاسه واكتشف أنه يسبق هالة فترك تساؤله وراح يتلفت عليها لمساعدتها، لأنها وقفت هي الأخرى لتلتقط أنفاسها فحاول أن يبتسم لها مشجعاً، والآن أدرك لماذا لم تقم القوات بالاقترحام فقد شاهد هولاند وهو يختفي من أمامه في لحظة وأدرك حسن بنظرة الخبير أن العثور عليهم من قبل القوات مستحيل لذلك لن يستخدموا قوات لمداهمة المكان، لم يكن لديه الكثير من الوقت للإبحار في تساؤلاته التي لا تنتهي، فالتقط يد هالة وجرى كي يلحق بهم.

لولا ذاكرته الجيدة لتاه هو وهي فقد كان الموقع التبادلي جزء من مغارة متشعبة وكان الموقع الرئيس به فتحات كثيرة لم يستطع حسن أن يعدها لكنها

كثيرة جدًا جدًا ودخل حسن وهالة الباب الصحيح لكنه شاهد مرة أخرى اختفاء جسد آخر عالم، فلم يدع لهالة أو لنفسه الفرصة كي يستريح أو يتباطئ لأنه يعلم خطورة الموقف فزاد من سرعته وسرعة هالة التي لم يفلت يديها خوفًا من أن تضيع ودخل في مكان أكثر اتساعًا وأكثر طولًا وانتهى بعديد من الأبواب وأبطأ هولاند من سرعته معطيا الفرصة للجميع بالنقاط أنفاسهم والتقاط المتأخر منهم وكان حسن وهالة آخر الواصلين فاستقبلهم بابتسامة، وقال الآن زال بعض الخطر وكانت أصوات الانفجارات قد بعدت كثيرًا وصارت أصوات الانفجارات وهنة مكتومة فأدرك حسن أنهم يجتنبون الآن في مكان يكاد يكون مفصولًا عن المكان الأول أو يكاد يكون معزولًا عنه فقال حسن لقد تركنا الأجهزة، فقال هولاند لا يهم لأن الموقع التبادلي يحتوي على نسخة من تلك الأجهزة، فقال حسن كيف تحفظ تلك الممرات فأشار هولاند إلى الساعة التي يرتديها أنها تحتوي على خريطة للمكان وقال حسن لما لا تبدو مثل ساعات المستقبل؟ إنها تبدو قديمة الطراز.

فقال هولاند ملاحظة جيدة، إنها كذلك حتى لا يتم الدخول إليها أو اختراقها. أوما حسن برأسه موافقًا فقال هولاند لنكمل سيرنا، كانت الأذان تلتقط تلك الانفجارات المكتومة، ولكن من اتجاهات متعددة فقطن حسن أنهم يغلقون مداخل ومخارج ذلك المكان حتى يضمنوا عدم خروج أي كائن حي واختناقه تمامًا وأدرك أن هذا العمل قد يستغرق بعض الوقت فقال هل للموقع التبادلي هذا أي مخارج غير معروفة ولا يمكن اكتشافها فقال هولاند نعم إن لهذا الموقع التبادلي مخرج غير معروف قد طوره المهربين وبعدهم الإرهابيين قديمًا ونحن قد طورناه أيضًا، لكن لا أستطيع أن أجزم أنهم لن يكتشفوه. فتوقف حسن عن متابعة الحركة وقال لا تستطيع أن تجزم؟

فقال هولاند علينا أن نتابع السير واستطرد نعم، لا أستطيع أن أجزم فعلى حسب معرفتي ومعرفة أبناء غايا، لا يوجد جهاز يستطيع رصد هذا المخرج الآن لكن العلم يتطور يوميًا تطورًا مذهلاً ربما يدعك حيرانًا، لذا فلست متأكدًا، وجذب حسن من يده وقال علينا أن نكمل سيرنا لا وقت لدينا وانطلقوا مرة أخرى. مضى كثير من الوقت مصحوبًا بحركة مستمرة وجريان لا يتوقف من أعضاء الفريق ورغم شعورهم بالإرهاق إلا أنهم لم

يخففوا من سرعتهم، ورغم توقع حسن المصحوب بأفكار عن العلماء من أنهم لا يمارسون الرياضة، لذا فقدرتهم على التحمل على هذا الأداء الرياضي ستنهار، لكن لم يشتكي أي منهم ولم يخففوا حتى من سرعتهم، وأصابه هو فقط كثير من التعب، عندئذ لاحظ حركة يد هولاند الموحية بتخفيف السرعة، وتلاشت أو كادت أصوات الانفجارات أن تتلاشى وتلاشت معها الاهتزازات الأرضية، فكان أمام حسن افتراضين أساسيين؛ أن تلك القوات أنهت عملها أو أنهم ابتعدوا بقدر كاف عن مراكز تلك الانفجارات.

انعطف الفريق مع نهاية الممر إلى اليسار وتوقف الفريق أمام كتلة صخرية انزاحت مع ضغطه من يد هولاند على زر في ساعته، نظر حسن باهتمام إلى تلك الصخرة إنها طبيعية إلى حد لا يصدق ولا يستطيع أحد -حتى وإن كان مدرباً- أن يجد الفارق بين تلك الصخرة والصخور المحيطة، لهذا باب هذه المغارة مخفي، وانتابه شعور بالراحة، وما إن دخل حتى شك أنه يوجد داخل جبل أو في بطن الجبل، وشعر أنه يمثل في أحد أفلام الخيال العلمي وهذا ما ألقته تلك الأجهزة المعدة والمجهز بها المكان في روعه، فهي أجهزة لم ير مثلها من قبل لكنها، ربما لا تكون أجهزة فهي لا تشبه تلك الأجهزة في المغارة السابقة لكن محدثه يخبره أنها أجهزة، وراح يتلمسها واجتاحه شعور شبيه لنفسه بشعور "أليس عند دخولها أول مرة بلاد العجائب".

وتذكر ملابس حصوله على هذا الشريط، شريط أليس في بلاد العجائب، فقد كان هذا الشريط هو أحد المضبوطات التي ضبطها عند أحد العلمانيين كبار السن. وتذكر حالة الألم التي اعتلت وجه هذا العجوز، عند وصولنا إليه وضبطنا له وتذكر حالة الانتشاء التي راودته مع حزن الشيخ عندما قام بإتلاف الشريط وتآلم الشيخ بشدة، ولم يستطع حسن أن يدرك سر تآلم الشيخ المحرم إلى الآن، عندما شاهد نفسه في موقف أليس هذا، عاد مسرعاً من أفكاره فقد كان كل ما يشاهده ممتع ومدهش، لكنه انتبه على سؤال مفاجئ وجهته هالة إلى هولاند وقالت:

ما الذي يملكه مولانا فضيلة المرشد الأول وسيغير هذا العالم من حولنا؟

فقال هولاند بكل ثقة سيهدم الفكرة.

نظر حسن مشدوها ولم يعقب، لكن وعيه يرفض كل ما يسمع، حقيقة الأمر أن ما يراه من أجهزة وما مر به شيء مفارق. لكن هل بوسعهم إعادة الموتى، ورن صوت الدرويش في أذنه وهو يقول له ستشاهد أحياء الموتى.

فقالت هالة محتده أي فكرة سيهدمها رجل رحل عن عالمنا منذ زمن بعيد لا يعي عن عالمنا شيء.

فقال ستيف ساخرًا:

لا يوجد فارق كبير بين عالمكم وعالمه، فلم يتطور المجتمع كثيرًا لا ثقافيًا ولا اجتماعيًا ولا اقتصاديًا، بل أقول بصدق المقارنة لقد حدث ردة و مشكلتنا الرئيسية كيف نقنعه أنه العام ٢٠٦٥.

فركت في رأسها وقالت هولاند الذي أفهمه أنه سيتم استنساخ مولانا حسن البناء.

لكن الشخص الناتج سيكون شبيه مولانا فقط وليس هو، فقال هولاند سأريكم شيء وفتح خزانة وأخرج منها كتب تصفح حسن عناوينها «مذكرات الدعوة والداعية، المرأة المسلمة، تحديد النسل، المأثورات، مباحث في علوم الحديث، السلام في الإسلام، ومجموعة رسائل بعنوان رسالة في الانتخابات، رسالة في التعاليم، مقاصد القرآن الكريم» وتعجب حسن وقال مستحيل فأنا لم أدرس تلك الكتب وقال بحزم هي غير صحيحة.

فقال هولاند إن ما يتم تدريسه فقط هو الرسالة، وهي عبارة عن مأثورات ثم المنهج والتعاليم ثم المقاصد.

فقال حسن نعم.

فقال هولاند هي عناوين لما ألفه حسن البناء، لكن ما كتب كان مختلفًا عما درست إن ما كتبه مولانا بين يديك.

فقال حسن مستحيل، فقال هولاند أعلم ما الذي جعلها مستحيل، انظر إلى الرسالة التي تدرسها عنه، تدرسون الرسالة وشرحاتها وفقهها وأعتقد

أن كل علوم الدين عندكم قامت على تلك الرسالة وصارت من المقدسات ومادام النص، أي نص حظي بالتقديس فأضحى له مجال لا يمكن اختراقه لأن اختراقه يتطلب الكثير من الشجاعة التي لا يمتلكها الكثيرون ويتبادر إلى الذهن أن ذلك النص محفوظ لا يمسه عيب.

فقال حسن محتدًا ربما أنفهم كل ما تقول وكل ما سيحدث، لكن أحذرك من الاقتراب من الرسالة لأنها منة، من الله، من بها على مولانا حسن البناء واصطفاه بها ثم نظر إلى هالة مذكرا إياها ومستعينا بها على صدق كلامه من أنها منة وأن مولانا كان يعد لها وقال:

ألا تذكرين كيف وقاه الله شر المس حتى لا يدعي أحد أنها من عمل الشيطان، أو أن الشيطان شارك فيها؟ ألا تذكرين عندما كان طفلاً صغيراً وهو ذاهب إلى المسجد لصلاة الفجر فحاول الشيطان أن يقطع طريقه ويمسه فأرسل الله إليه من يحميه من الشيطان؟، ثم توجه معاتباً إلى هالة وقال أليس كذلك؟، ألم ندرس ذلك؟ ألم نؤمن بذلك؟ التقط هولاند طرف الكلام من حسن وقال:

لذلك صار من المستحيل يا صديقي أن يصدق الناس بعد أن صار للرسالة كل هذه العلوم المصاحبة وهذه القدسية، مستحيل أن يصدق أي إنسان في مصر أنها ليست من عمل حسن البناء، بل من المستحيل أن يصدق أي شخص أنها ليست منة من الله، وتلك واحدة من أسباب عودة حسن البناء في نقض الفكرة.

فقال حسن مستوضحاً من هالة وكأنه أراد أن يتأكد، لكن هولاند أدرك أن له هدف آخر من سؤاله، هل ما سيتم إنتاجه سيكون مولانا حسن البناء بالضبط؟ هل سيحمل نفس الروح؟

فقالت هالة سيحمل نفس الشكل ونفس الملامح لكن ربما ليس نفس الوعي.

لكن هولاند علق مسرعاً فقال:

أعلم ما ترمي إليه من سؤالك سيدي، إن ما لدينا عن حسن البناء هو حقيقي، انظر إلى تواريخ الكتب التي بين يديك، انظر إلى توقيع نائب المرشد عليها لاعتماد صدقتها، لأنه أوضح لنا أن لديه نفس النسخ، وصدقني يا صديقي إننا لم نعتمد ولا يجوز اعتمادنا على تلك المصادر فقط لأن عملية تكوين الوعي شديدة التعقيد ووظيفتنا هي إدخال المعلومة فقط وتقوم أجهزة الوعي بإعداد الوعي، ولو نظرت إلى وعيك هل تذكر كل شيء مر بك منذ صغرك؟ هل تذكر كل شيء مر بك منذ عام؟ هناك نقاط في وعينا شديدة الوضوح وأشياء خافتة وأخرى غير مرئية وتلك هي الفراغات في الذاكرة عن قصة حياتنا فكل المعرفة عن الدين لدى حسن البناء وحفظه للقرآن أضفناها وتلك المعرفة السياسية أضفناها وحواراته ومناقشاته والحوادث صغیرها وكبیرها في حياته وكل ما قبل عنه أضفناه كل من هو قريب منه أو من كان له معرفة به أضفناه دون حذف أو إضافة وحفزنا عقله للعودة إلى طريقة التفكير التي كان يتهجها ثم أضفنا بعض الأشياء عن عصرنا ونظام الحكم في مصر الآن والأنظمة في العالم الآن وما يحيط بالناس من مخاطر، كل هذا أضفناه في جهاز الوعي وهو جهاز شديد الذكاء سيستخلص وعي البناء الحقيقي كقصة متصلة، حتى الفراغات غير المرئية هو سيكملها بما يتوافق مع شخصية مولانا وصدقني لو كان مولانا حياً وجلس مع مولانا الجديد وكان هناك متابع لرودود أفعالهم وطريقة تفكيرهم فلن يستطيع ذلك المتابع أن يتبين الفارق بينهم فلهم نفس الطابع، نفس ردود الأفعال، نفس المهارة، نفس المزاج، نفس المعرفة، حتى إن أحدهما لن يشك أن الآخر صورة حقيقية منه عندئذ يمكنك القول إنهما يحملان نفس الروح، وابتسم هولاند وهو ينهي عبارته.

لكن حسن لم يتسم وقال من أين حصلت على تلك المصادر فقال انظر وأخرج كتب «التربية الحضارية عند الإمام البناء تأليف سيد دسوقي، معالم المشروع الحضاري للدكتور محمد عمارة، التربية الإسلامية عند حسن البناء ليوسف القرضاوي، حسن البناء الرجل القرآني لـ «روبير جاكسون» هذا ما قالوه عنه وهناك الكثير حتى الكتابات التي ضده، ثم حصلنا على

مطبوعات عنه من المخابرات البريطانية والأمريكية والفرنسية حتى الألمانية كل من كان له اتصال بمصر في ذلك الوقت.

فقال حسن لم يكن للمخابرات الأمريكية نشاط في مصر في ذلك الوقت؟
ابتسم هولاند وقال لقد نقلت المخابرات البريطانية ملفات الجماعة إلى المخابرات الأمريكية هذا ما كنت أقصده.

هز حسن رأسه.

وقال لقد قام جهاز الوعي بإعداد الوعي لمولانا المرشد بطريقة حية ومع اكتمال جسده وبلوغه المرحلة العمرية التي كان عليها قبل مقتله سنقوم بحقن الوعي في عقله.

بدا أن حسن لم يستطع أن يتخيل ما يقصده هولاند لكنه لم يعقب، وما أن لاذ الجميع بالصمت حتى تصاعدت موجات من الشك في الناتج، فهو لن يكون مولانا حسن البناء، لأنهم سيصنعونه كما يريدون فإن الخير لم يأت يوماً من الغرب، قرأ ستيف ذلك في عيني حسن، فوضع يديه على كتفي حسن وقال صديقي سأثبت لك أن ما نقوله عن مولانا الإمام صواب وأن ما تدرسه عنه ليس حقيقياً وقال أليس في اعتقادك أن الإنجيل قد حُرف؟
- قال حسن بحماس نعم.

قال إن تعاليم المسيح كانت واحدة، لكن كل واحد من أتباعه أخذها وفسرها بطريقة ثم جعلها في كتاب وادعى أنها الحقيقة وأنها التعاليم الصحيحة من المسيح فألقى على كلامه قدسية بربطها بالمسيح وصاروا هم بالضرورة مقدسين وربما رسل.

فقال هولاند وربما لم يقلل المسيح شيء مما حملته تلامذته وربما قال وربما تم الحذف والإضافة.

- وقال ستيف ربما.

شعر حسن بإحباط.

- فقال هولاند إن الحقيقة تبرز مع عشورنا لمخطوطات قبل المسيح وبعد المسيح وزمن المسيح والعقل.

- فقال حسن وهل هناك مخطوطات تؤرخ لذلك الزمن؟

- فقال ستيف نعم مخطوطات البحر الميت، ألم تسمع بها أو تقرأ عنها؟

مط حسن شفتيه وقال إن الحديث مع العلماء رغم ثراءه إلا أنه لا يروى ظمأً. وظل على حالة القلق والشك ولكنه خرج بقرار وهو، دعنا نرى، إن لم يعجبني فسأنهي الوضع، وسمع هولاند يقول للفريق لا وقت لدينا يجب أن نبدأ، واصطحب ستيف وهالة حسن إلى غرفته وقال ستيف لا بد أنك متعب، هذه حجرة نومك وبإمكانك أن تتجول في كل مكان وأن تحصل على أي معلومة تريد، إننا أبناء المصادر المفتوحة "أبناء غايا، أبناء الأرض".

كان حسن في حاجة ماسة إلى الجلوس مع ذاته أكثر من الراحة، ثم ابتسم ابتسامة باهته لهالة وستيف وهو يفارقهما ثم زفر وهو يغلق الباب خلفه.

ونظر إلى سقف الغرفة متخبطاً سقفاً وسقف الجبل الذي يعلوه وقال مناجياً ربه:

لماذا يا رب؟ إن قلبي لا يحتمل، أظل طوال عمري جاهلاً ثم تكشف لي كل ذلك، كل ذلك في يومين اثنين رأيت ما لم أره طوال عمري، يا رب رأيت ما لم أعتقد بوجوده يوماً، آه..... كنت أتمنى أن أستمري في جهلي يا رب إن الجهل حلو،

يا رب لم أفكر أبداً أن يكون العالم هكذا، يا رب لم أفكر يوماً ولم أعلم يوماً أن مصر هكذا، هل رأى مولانا نائب المرشد كل ذلك فتغير؟

أم أنا من خلقت العصاة، فعذبتنى بمعرفتي قبل أن ألقاك، ربي أعلم أنك خلقتني متقلب، متطرف الأفكار؛ شديدها.

ثم وضع يده على رأسه وجلس على سريريه وقال باكيًا:

- هل تراك تعاقبني على اقتدائي بالشيخ؟

يا رب أنت تعلم بما حل بي وأنا أعلم أنك من تختبرني، يا رب إنك تعلم أنهم يروني التقى الورع، وأنت تعلم ما أعلم، أي لست التقى الورع، عكس ما يبدو، فكم زنييت وكم قتلت لكني قتلت لك هم كانوا أعدائك وأعلم يا رب أنك قد جازيتني خيرًا من أجل ذلك لكن غضبك مني من أجل استماعي لهم وتأثري بهم حتى ما كانوا يروونه ما زلت أذكره، لا أدري لم احتفظت ذاكرتي بترهاتهم، يا رب هم من بدلوا ديني فقد كان كلامهم يمس العقل، وربما يا رب هم من أهّلوني كي اتبع ذلك الشيخ يا رب يا رب أنا الضعيف فلا تشمتهم بي.

شعر حسن أنه في تلك اللحظة ضعيف وهش وقال أعلم يا رب إن كل الذين ماتوا من التعذيب، كانوا قد أساءوا إليك وعذبتهم حتى الموت من أجل ديني حتى يظل عاليًا، نعم كنت أشعر بلذة التعذيب، وأحيانًا كنت أعذبهم خوفًا مما يقولون، ولقد قرأ خوفي أحدهم وقال إنك ضعيف تحاول يامعانك في تعذيبني أن تسكتني وتتغلب على مخاوفك، إنني أقوى منك.

- بل أنت أضعف، أنا من يملك أن يتركك تتكلم وأنا من يملك قتلك الآن.

- إنك تشبث بسوطك، انظر بداخلك أنت عبد يريد أن يتمرد لكنك تخاف.

- مما أخاف؟ أنا السيد قلت لك، أنا من يملك روحك وسأجعلك تندم.

- انصت إلى ذاتك ربما تسمعها جيدًا، إنك تخشى أن يمر كلامي على عقلك أقول لك انظر إلى القلقة داخلك وموجات الاختناق المتصاعدة من داخلك في اتجاه قلبك كي تخنقه، إنك تتغلب على ضعفك في كتم صوتي.
- ههههه أنا أتلذذ الآن بتعذيبك كل ما تقول ترهات.

ونظرت إليه وهو يصرخ ويقول أنت عبد لهؤلاء الجنرالات، أنت عبد لهؤلاء الأباطرة الذين يريدون أن يكونوا أسياد جزء صغير في الكون يسمى الأرض، كبير هو حقدهم المتبادل، ونحن أيها العبد من يدفع الثمن بدمائه.

لماذا أتذكر تلك الكلمات الآن وما علاقتها بهذا الشيخ، ربما تكون تلك الكلمات دون أن أدري هي ما قادتنى إلى الاندفاع خلف الشيخ، فهو حدثني بنفس اللسان، نعم بنفس اللسان لكنه يرتدي نفس ما أرتدي، هل كانت لحظة هروب من ضعفي أم أنها لحظة يقين؟، لا يا ربي سامحني أنا لا أقصد ما أقول، شعر حسن بضعفه الشديد وخوفه الأشد فارغم على سريره محاولاً أن يكتم أي صوت يصدر من عقله، لكنه لم يستطع، فصرف ذهنه إلى شيء آخر وقال كيف تكون حدودنا مستباحة إلى هذه الدرجة؟ كيف يدخل هؤلاء بكل تلك الأجهزة؟ بل يجهزون المغارة مغارتين بكل تلك المعدات شديدة التطور. أين كنا ولماذا لم نكتشفهم؟ ما الذي يحدث في الجنوب؟ كيف استطاع مولانا أن يقطع تلك الأرض؟ إننا لا نسيطر على شيء. هل يا ترى هناك من يعلم؟ هل مولانا المرشد يعلم أم أن التقرير يقول له دوماً كل شيء مستتب؟ مط حسن شفثيه وكأنها إشارة توحى بعدم الاهتمام.

ثم تذكر شيء في منتهى الأهمية وقام واقفاً ولام نفسه وقال كيف لم أتذكر أن أسأله ذلك السؤال كيف؟

لقد تفرعت بنا موجات الحديث، ولم أفهم خطتهم الكاملة، فكيف لمولانا حسن البناء أن يهدم الفكرة؟ هل سيقول فقط أن تلك الكتب ليست كتبتي وقد حرقتم فيها؟ أعتقد أن هذا غير كاف ربما ما زال في جعبتهم ما لم يوضحوه، أراد مغادرة الحجرة والتوجه إلى هولاند لسؤاله لكن هولاند ربما يكون مشغولاً الآن لذا سأسأله غداً، هذا ما أسره لنفسه.

وقبل أن ينام قال ساخرًا كنت أظن أننا نعلم كيف يتنفس الناس خلف الجدران

الجميع يعمل كخليفة نحل الكل يعرف دوره في المعمل حتى هالة، كان العمل رغم بساطته وهو زرع بذرة الحياة في تربتها الخصبة، إلا أن أعداد البذرة والتربة كان يحتاج إلى المزيد من العمل والجهد، ومع قرب انتهاء العمل وزرع جينوم حسن البناء في وسطه كي ينبت حسن البناء، وقفت هالة متألمة معنى الحياة، ونظرت إلى فريق العلماء الذين يعملون في سعادة بالغة. من أين تنبع تلك السعادة والاستمتاع بالعمل؟، وقالت يا لروعة المعرفة ومتعتها.

- لكن من أين حصلت أنا على المعرفة؟

استوقفها هذا السؤال.

فهي بالفعل تعرف ما تقوم به من عمل لم تطلع عليه من قبل فمن أين أتتها تلك المعرفة العلمية الدقيقة والمهارة.

- اقترب منها ستيف وقال برفق ما بك يا بلقيس؟

- التفتت إليه وقالت بلقيس؟

فقال

- بلقيس.....

- كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

بلقيس.....

- كانت أطول النخلات في أرض العراق

- كانت إذا تمشي.....

- ترافقها طواويس.....

- وتتبعها أيائل.....

- فقالت بابتسامة ما أجمل هذا الشعر أنت تكتب شعراً بالعربية؟

- ابتسم وقال لست أنا يا بلقيس، إنه شعر لشاعر عظيم اسمه نزار

قباني.

حاولت أن تفتش عنه في ذاكرتها لكنها لم تجد له أي أثر، وقالت أنا لم أقرأ له ولم أسمع به يوماً.... بل قرأت له وتذكرت ما كتبه أمها على المرأة.

فقال بالطبع في نظام مثل نظام المرشد لن تجدي أي ذكر لشاعر ينشد الحرية وينتقد الموروث الذي تم تغليفه بسياج مقدس.

هل تحفظ قصائد أخرى له؟

الكثير بعد أن تنتهي ونستريح سوف أقرأ لك من أشعاره، نظرت إليه باسمة وقالت سأنتظر تكملة الحوار.

حاول حسن أن يتغلب على كل ما يعتريه من أفكار وينام، إلا أنه لم يستطع أن يخلد للنوم وشعر بالجوع فقام من مقامه كي يبحث عن طعام وإجابة لسؤاله، فخرج من غرفته فوجد أحد أفراد المجموعة يخرج من المعمل.

فقال حسن له هل انتهيتم؟

فقال نعم لماذا لم تنام؟

أراد حسن أن يخبره أنه جائع لكنه في تلك اللحظة انزاح باب المعمل وخرج الفريق كاملاً وكانوا مستبشرين ورحبوا بحسن ودعوه إلى تناول الطعام فلم يعترض حسن على الدعوى وتحرك معهم، وظن حسن أنه ربما يستطيع سؤال هولاند.

فقال هولاند هل تعتقد أن مولانا حين يأتي ويقول أنني لم أكتب تلك الأشياء ستهدم الفكرة؟

ربما لم تستوعبوا ما نحن فيه.

ابتسم هولاند وهم بالكلام.

هنا استعداد حسن لاستطرد هولاند الطويل وغير الممل لأن حسن اكتشف أن هولاند بإجابته الطويلة يفسر دون أن يدري أسئلة أخرى في وجدان حسن لذلك انتبه له بكل جوارحه على الرغم من تعبته.

لاحظ هولاند اهتمام حسن فشر بسعادة وقال قبل أن يبدأ، انظر، وانشق من ساعته شاشة ثلاثية الأبعاد انفصلت عن الساعة لتكون أمامهم مباشرة وقال اقرأ تلك البرقية، إنها من المخابرات البريطانية ويبدو عليها أنها شديدة القدم وكان مكتوب عليها «لقد تم التخلص منه» بتاريخ الثاني عشر من فبراير ١٩٤٩ وعلق هولاند قائلاً خرجت تلك البرقية من مكتب المندوب السامي معلنة مقتل حسن البنا.

فقال حسن هل تقصد أن المخابرات البريطانية كان لها دور في ذلك الأمر؟

فقال هولاند بصوت قاطع نعم.

ثم استطرد: هذا دأب أجهزة المخابرات كلها تصنع العميل ثم بعد فترة يقدمونه إلى المذبح ثم يسكرون من دمه، فالأجهزة الأمنية بلا أخلاق لأنها صناعة الخوف، فباسم الأمن القومي تنتهك كل الحرمات ولا قدسية لأي شيء ونظر إلى حسن بتحدٍ وقال كل رجال الأمن بلا أخلاق.

شعر حسن بالحرج من كلام هولاند ولم يستنكر ما قاله هولاند وبرغم قسوة الكلمات رأى حسن أنها تمس كبد الحقيقة التي كان يراها منذ يومين مهنة مقدسة، فلولاها ما وجد الوطن وكان خروجه منها على طريقة الشيخ نمرود

على ذاته فقط، لا تمرد على الأمن ودون إرادة منه، تذكر ما ارتكبه من جرائم متنوعة باسم الأمن القومي من حرق للكتب وتدمير حيوات كثيرة عن طريق القتل والتعذيب أو تفتيق التهم وقبل أن يقول شيء سمع حالة تسأل لماذا جندته ولماذا قتلته؟

بعد زوال الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ أصبح الوضع في مصر والعالم الإسلامي شديد الخطورة بالنسبة لإنجلترا فبعد زوال الرأس لن تستطيع أن تأمن التصرفات العشوائية للجسد، ومع تنامي التقارب بين حزب الوفد والبلشيفيين رغم الاختلاف الأيدولوجي وفي ظل تراجع الأفكار الدينية وانتشار الأفكار الشيوعية في مصر مما زاد الوضع إرباكاً، فكان حرياً بإنجلترا أن تخلق تياراً عاماً يحمل أيدولوجيا مغايرة وكان الطرف التاريخي في صالح

بريطانيا فزوال الخلافة أوجد خواء في النفوس جعل من وجود الخليفة أمراً متمماً بالنسبة لتيار عريض يظن أن إيمانه يتم مع تمام الخليفة، حتى وإن كان فاسقاً، وكانت ظاهرة مرصودة لعلماء الحرب النفسية وأشارت إلى أن أكثر القطاعات قلقاً بسبب هذا الأمر هم الشباب، وكان البحث عن شخص له همة محمد ابن عبد الوهاب صنيعتهم في الجزيرة العربية، ولا أخفيك أن مصر كانت حبل بشباب يرون في أنفسهم أن الله قد اختارهم لهذا الظرف التاريخي، رغم نبل الفكرة إلا أن الاندفاع قد يوقعهم في مأزق نفسي رهيب ويخلق فيهم حالة فصام ما بين نبل تلك الفكرة وتحالفهم مع الشيطان في سبيل تحقيقها.

انزعج حسن من ذلك الوصف وبدأ على وجهه علامات الانزعاج فقال هولاند، لا تنزعج إن لديهم المبرر النفسي لفعل ذلك، وربما يظل هذا المأزق غير ظاهر للنفس لكنه موجود وجود اللهب تحت الرماد، لكن سيظهر ذات يوم بعد أن تتعري النفس مع توقف الدافع أو هدوء جريانه، فتشكل ألم نفسي كبير، كما حدث مع حسن البنا في آخر حياته، وكان على الإنجليز البحث عن هذا الشاب وتبلور لديهم رؤيا للرسالة التي سيحملها وبدأ بحثهم في الأزهر ودار العلوم وفي عام ١٩٢٧ وجدوا ضالته في حسن البنا وكان عن طريق أمنية له كتبها عن مشروعه بعد التخرج، قال فيها أتمنى أن أكون مرشداً أقضي النهار في تعليم الشباب والليل في تعليم الآباء تارة وبالخطب والمحاورة وأخرى بالتأليف والكتابة وثالثة بالتجول والسياحة بعد الدراسة ورغم أن كثيراً من الشباب كان له ذات الميول إلا أن حسن البنا فاقهم في بعض المواصفات، أهمها أنه شرع في إنشاء جماعات وفشل، وكان يمتلك مقومات الزعامة وكذلك عظم الإرادة وضحالة العلم وكان هذا هو المنشود في رجلهم، وبدلاً من أن يتم تعيينه في القاهرة تم تعيينه في الإسماعيلية ليكون بعيداً عن الأمن السياسي.

وكانت الفكرة جذابة وهي قائمة على دعامتين، هما الخلافة والحكم بما أنزل الله ثم تم تدريبه على إنشاء الجماعة وعمل هيكل تنظيمي وإدارته وأعطوه المال اللازم لذلك وهو مبلغ خمسمائة جنيه مصرياً وكان مبلغاً كبيراً جداً في ذلك الوقت وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية في الترويج له والتبشير

به في كل الأماكن عن طريق عملائهم حتى وصلوا إلى البلاط الملكي أيضًا وكانت الفكرة جذابة جدًا وكانت الدعاية لها على مستوى من الدقة مما جعل للجماعة في وقت وجيز فروع وأتباع في كل ربوع مصر وفي خارج مصر أيضًا وحرصوا ألا يتداخل عمل جماعة الإخوان مع أتباع محمد بن عبد الوهاب، ثم مع نمو الجماعة شعر حسن البنا بقوته فاصطدم مع الدولة المصرية تارة وانتظر عون الإنجليز فلم يجدهم وكانت تلك نقطة فاصلة في حياته، لأنه أدرك أنهم يريدونه بطلاً شعبياً فقط لا حاكماً. ومع تسرب الحلم الذي آمن هو به، رغم علمه أنهم من صنعوه. فتغير وأصبح عنيفاً ومال إلى المخابرات الألمانية التي ساعدته في إنشاء التنظيم السري لمحاربة الإنجليز، لكن حسن البنا كان له هدف آخر هو تصفية حساباته مع القادة السياسيين ثم السيطرة على الحكم ثم طرد الإنجليز وإعلان نفسه خليفة لمصر والعالم الإسلامي، لكن الحلم يتبخر مرة أخرى لا لضعفه ولكن لإدراكه زيف أفكاره، وكان هناك شيء يرفض في داخله كل ما يحدث، ومع صراع داخلي كاد أن ينتزعه انتزاعاً من نفسه قرر حسن البنا قراراً صعباً ألا وهو فك الجماعة واعتذاره للناس عن كل الأخطاء التي ارتكبها وسيعلن ذلك للناس عامة، وبدأ بالفعل أولى خطوات الاعتراف وأبلغ الأقربين منه من قادة الجماعة الذين أبلغوا أجهزة المخابرات التي يعملون معها وأبلغوا حتى السرايا التي كانت تستخدم للحد من نفوذ حزب الوفد في السلطة والشيوعيين في الشارع.

لا أخفيك سرًا لقد كان الإخوان هم البديل الآمن لكل من هو في السلطة، وكل من هو يريد تغيير السلطة في ذلك الزمن وفي الأزمنة اللاحقة، فحاولوا مراجعته وإقناعه بالعدول عن ذلك لكنه على ما يبدو لم يستطع أن يتحمل الصراع النفسي الذي يعيش فيه، فرفض الإنصات إليهم وعلموا من طول ملازمته أنه سيهدم الجماعة من الأساس ثم علموا أنه قد حدد ميعاد مع الإذاعة ليلقى عليهم بياناً هاماً وساعده الوفديين على بلوغ غايته بعدما تنامى إلى مسامعهم ذلك العراك الدائر داخل الجماعة وخارجها، وتم قتله رمياً بالرصاص وهو متوجه إلى الإذاعة وفرت السيارة التي كانت تحمل رقم ٤٩٧٩ والتابعة للبوليس السياسي وكان على متنها عضوان من التنظيم الخاص الذي أنشأه حسن البنا بنفسه ليكون العصا الغليظة التي يعاقب بها أعدائه

ونواه لجيش الخلافة، لكن حسن البناء لم يمت نتيجة تلك الإصابة، وتم نقله إلى القصر العيني، وشعر حسن البناء بدنو أجله وأنه راحل، وطافت في ذهنه فكرة عبقرية بأن يخبر مصطفى النحاس ويطلب منه أن يسجل له ويقوم هو بإذاعته ويخبر الناس بهذا الأمر، لكن البوليس السياسي لم يسمح بوصول تلك الرسالة إلى مصطفى النحاس ومات حسن البناء ولديه الإرادة لحل تلك الجماعة والاعتذار إلى الناس عما قامت به الجماعة من أعمال، عندئذٍ نظر هولاند إلى حسن وقال هل علمت الآن لماذا حسن البناء؟ صمت حسن ولم يعلق.

فقدف هولاند بالخاتم إلى حسن وقال إنه لك، هدية من أبناء غايا لك يا حسن،

نظر حسن إلى الخاتم وقلب فيه.

فقال هولاند مبتسماً ما زال حسن البناء بداخله ولن تستطيع ولن تستطيع أي أحد إخراجه أو تدميره.

فقال حسن وماذا عنكم؟

لقد حصلنا عليه.

كيف؟ وكانت البديهة تقول إن الخاتم لم يفتح أو ربما له أكواد سرية

فقال هولاند لقد تم مسح الخاتم بالأشعة الرقمية وهي أكواد من الأشعة السينية خاصة ببناء، وهي الوحيدة القادرة على مسح هذا الخاتم واختراق مادته وأراد أن يثبت لحسن أنها مادة ذات طبيعة مختلفة فقال له تعالى هات الخاتم ثم ادخله مع ملعقة في فرن رومكورف وقال هذا الفرن تصل الحرارة بداخله لأكثر من عشرين ألف درجة انظر ووضع الخاتم والمعلقة بداخله انصهرت الملعقة تمامًا لكنه التقط الخاتم ووضع في يده دون أن يتأثر بحرارته ثم رماه إلى حسن الذي التقطه ولم يكن هناك أي أثر حراري عليه فقال انظر لم تتغير درجة حرارته، ثم استطرد لا يوجد هناك من يستطيع أن يتلفه أو الحصول على ما به من معلومة إلا أبناء غايا.

ولقد تم نسخه عندنا على جهاز الكمبيوتر وتم إرسال الشفرة الوراثية إلى الجهاز المركزي، أي لو فشلت تلك العملية هنا سنتجه في أي مكان في العالم هل هذا ممكن؟ توجه حسن بسؤاله هذا إلى هالة التي أجابت بسرعة وثقه نعم.

وقال هولاند بفخر إن نجحت التجربة سيكون لدينا بعد عشرة أيام حسن البناء وقال مبهجاً استعدوا لاستقبال مولانا.

قال استيف إنني أشعر بجوع شديد تذكر حسن جوعه وقال أنا أيضاً جوعان فقال هولاند هيا لنأكل. التف الجميع حول المائدة بعد تحضير الطعام ورغم بساطته إلا أنه كان شهياً وجلس حسن قبالة هالة وما أن وقعت عينيه عليها حتى احتاجت عواطفه بشكل جعله يزفر وحاول أن ينقل عينيه بعيداً عنها لكنها فاجأته بابتسامة فبدت أسنانها الناصعة كاللؤلؤ مصدر للنور في عينيه وبدأ وجهها كملاك يشع نور، ربت ستيف على كتفه وقال يبدو أنك ستحب الإقامة معنا في الأيام القادمة، وبعيداً عن تلميحات استيف شعر حسن أن هناك شيء ما سيربطه بهذا المكان وبهذه المجموعة من أبناء غايا على الرغم من أنهم مجموعة من العلماء، وأراد حسن أن يخرج من حالته تلك فتوجه إلى هولاند بسؤال هل سنخرج بعد عشرة أيام؟

قال هولاند ربما بعدها يوم أو يومين.

هل تعتقد أن من هاجمنا اطمئن إلى أننا لن نستطيع أن نخرج أحياء من هنا؟ فقال ستيف لا.

فقال حسن هل قاموا بتطويق الجبل من الخارج وسينتظرون خروجنا. ضحك هولاند وقال إن تطويق الجبل فكرة قديمة جداً للمراقبة، يا صديقي من أين جاءت الطائرات التي دكت الجبل أو الطائرة التي حاولت قتل هالة؟ هل كان هناك من يراقب هالة؟ فقال حسن لا.

فقال هولاند بل كان هناك من يراقبها ويراقبك عن طريق البصمة الحرارية لذلك سيتم مراقبة الجبل عن طريق الأقمار الصناعية، فأى تغير حراري في المنطقة سيتم رصده وما هي إلا لحظات ستجد الطائرات فوق رؤوسنا.

- فقال حسن هل هي قريبة إلى هذا الحد؟

- فقال هولاند نعم هناك حاملة طائرات معلقة على ارتفاع عشرين ألف قدم فوق مصر مباشرة.

شعر حسن بالاندهاش لأن حدود علمه أن حاملة الطائرات هي سفن عملاقة في البحر.

فقال هولاند هي حاملة طائرات من الألياف الكربونية والسوبر كوندكتور المعدل للتفاعل مع المجال الجاذب للأرض فيساعده في الارتفاع والحركة دون استخدام لأي محركات دفع، والطائرات التي على متنها تصل سرعتها إلى السرعة النسبية ويقودها طيارين آليين لديهم دقة في الإصابة تصل إلى العلامة الكاملة لذلك نحن هدف سهل، شعر حسن بإرهاقهم وإرهاق بدا على هالة فأشفق أن يستمر في الأسئلة فترهق هالة أكثر من ذلك فشكرهم وعلى ما يبدو كان الجميع في حاجة إلى النوم فقاموا مسرعين حتى هالة كل إلى غرفة نومه، لكن حسن لم يستطع أن يمنع عقله من التساؤل.

هل لديهم خطة للرحيل؟ ما هي نسبة نجاحها؟ إن لم يكن لديهم خطة للهرب والموت مصيرهم، فما الجدوى مما يفعلون؟، دخل الغرفة وضع رأسه على المخدة وأغلق عينيه ثم فتحها مرة أخرى.

وقال هل نامت هالة؟ هل فكرت في قبل نومها؟ هل تذكرت وجهي وابتسمت؟

هل من الممكن أن تحبني؟ هل من الممكن أن تتجاوز تاريخي الأمني؟ على كل أنا أحبها. هل ستسأل عن سر نظراتي الغريبة لها؟ هل من الممكن أن تعتبر ما أنا فيه حباً أم لا؟

ثم أغلق عينيه وبكى بكاءً خفيفاً أو دمعة خرجت من عينيه فمسحها وقال: كنت عزيز البكاء ما الذي قد حدث لي، هذا غير طبيعي يبدو أنني في عالم غير حقيقي وأنا غارق في الأحلام لا أكثر، ربما ما زال جسدي مستلقي على مكتبي غارق في غيوبته أو نمت غصباً عني أم تراني في غيوبة وتم نقلي إلى المستشفى وأنا غارق في داخل عقلي، فلا يمكن لبشر أن تقع له كل تلك

الأحداث في بضع أيام فقط، وما هذا التغير الذي طرأ عليّ، هل أنا الذي يتبع هذا الشيخ ويخرج مما هو فيه؟ وأي أسطورة دعنتني للرحيل إلى مولانا وما الذي شاهدته هناك من أدوات المستحيل؟ ثم أقابل درويشاً يقرأ الزمن ثم أنا هنا متحدثاً كل العالم لأرى حبيتي التي افترضت في بداية حلمي أنها ماتت ثم أجد من يعيدها إلى الحياة بعد رحيلها والأعجب أن أحب دون أن أرى حبيتي أحبها من صورة، مجرد صورة، هل هذا حقيقي؟.

أبدأً أظنني غارق داخل ذاتي وكل ما يفترضه عقلي، هو محاولة للخروج مما أنا فيه ربما يكون داخلي عدم اقتناع بعالم المرشد رغم إخلاصي وهذا العلم الذي نسجه عقلي هو صوت التمرد، لكنني لا أريد ذلك أنا لا أريد أن أخرج من حظيرة الإيمان، يا من أنتم حولي لا تدعوني أشرك وأخرج من حظيرة الإيمان.

وبعد لحظات من الصمت صاح أرجوكم إن كنتم تسمعونني انزعوا عني خراطيم الحياة دعوني أموت على دعوة الإخوان، أنا لا أريد أن أعيش في هذا الكابوس الذي تختفي فيه الفواصل بين الحياة والموت، وصمت مرة أخرى وقال هل أصبت بسكتة دماغية فلا أستطيع أن أتخطى حواجز عقلي الذي سقطت بداخله ولن أستطيع العودة.

آه كم هذا مؤلم أرجوكم يا الله لا تطيل بقائي في تلك الحالة أرجوكم يا رب اقبض روحي وهي طيبة لا تترك عقلي يفسدها.

لا يدري ما الذي أيقظه لكنه استيقظ، ونظر إلى سريريه بعجب شديد فهو حظي براحة ونوم جيد وتعجب فكيف نام في الأساس مع كل تلك الأفكار، وخرج من غرفته فوجدهم مستيقظين لكنه رآهم يرتدون زياً موحداً خلافاً لما رآهم عليه بالأمس واقترب منه ستيف وقال له استعد كي نلحق بالصباح.

فقال حسن هل سنخرج؟ لكن ستيف كان مسرعاً فلم يجبه، لكن فليب أتاه بلباس مشابه للذي يرتدونه وقال عليك أن ترتدي هذا وما هي إلا لحظات حتى ارتداه واتجه مع فليب إلى غرفة وما أن دخلها حتى اندهش

لأنه دخل غرفة بها مركبة فضائية جاهزة للانطلاق، فقال الجميع بصوت يملؤه البهجة والأمل أسرع حتى لا يفوتنا الشروق كان الجميع يجلسون في مقاعدهم خلف هولاند الذي على ما يبدو سيتولى القيادة وجلس حسن خلف هالة ونظرت إليه بابتسامة وقالت له صباح مشرق سيادة الرائد ونظر حسن إليها ببلادة وشرود لكنها لم تستطع أن تطيل النظر إلى وجهه مع تعالي صوت هولاند الذي صاح قائلاً هل الجميع مستعد؟

فنهفوا في صوت واحد نعم نحن مستعدون وتشبثوا بمقاعدهم استعداداً للانطلاق وبدأت الحركة بسرعة كبيرة ودخلوا نفق مظلم ينتهي بضوء ساطع وما هي إلا ثوان حتى بلغوه لكنه لم يكن ضوءاً ساطعاً لكنه نور ساكن، سكون يبعث على الدفء في القلب، سكون راهب في محرابه متلذذاً بطعم السكينة، التي سرعان ما تنقضي بإيقاع بطيء يميل إلى التسارع مع دخول الزمن وراحت النباتات تتحرر من سكونها شيئاً فشيئاً مع دخول الشمس ومعها إكسير الحياة فبدأت الحياة تدب في الأرض بعدما نشرت عليهم من إكسيرها، وكانت تلك أول مرة يلاحظ حسن فيها تلك الأشياء فبدأ وكأنه زائر يتعرف على كوكب جديد وكانت المركبة تعلو بهم وتهبط بين الهضاب والجبال والسفوح في رحلتها التي تطارد فيها شعاع الشمس، فاجتاح أعضاء الفريق شعور بالمتعة وراحت الطبيعة تلقي عليهم من فيض جمالها فبشت الزهور عطرها داخل المركبة وفي تلك الأثناء أراد حسن أن يضيف إلى متعته متعة قربت على كتف هالة التي التفتت إليه وكانت من الحسن أن ظننها أنها ليست من الإنس لكنها من حور الجنة التي تمنى يوماً أن يموت في سبيل الله حتى يرى جمالهم.

نزلت المركبة في سهل غني بالنباتات المزهرة وخرج الجميع يركض في السهل وتفرقوا، فاقرب حسن من هالة لكن روح الخجل جعلت الدماء تندفع بشكل ملاحظ، فنظرت إليه هالة وقالت بود، هل كنت تعرفني قبل أن تبحث في تلك القضية؟ فقال حسن لا، وأراد أن يقول أنا أنتظرُك منذ الأزل وإن حبك نزل في قلبي ولم أستطع أن تخلص منه أو أصده، وإني عشت طوال عمري أبحث عنك.

لكن نظراتك لي تقول إنك تعرفني منذ زمن طويل.

- ربما لأنك كنت لغز واختفائك كان لغز وكنت أبحث عن حل.

- وهل حللت اللغز الآن؟

- أتصدقين أن كل شيء ازداد تعقيدًا أكثر من ذي قبل؟، وأستطيع أن أقول لك الآن أنك كنت بداية اللغز.

- ابتسمت هالة وقالت أننا متزوج؟

- لا

- عندك كام سنة؟

- ٣٣ سنة

- عارفة بسبب قضيتك انتي، تحولت من صياد طوال عمري إلى طريد

انزعجت هالة من ذلك التوصيف، لذا لم يكمل حسن لكنه نقل الكلام في اتجاه آخر وقال ممكن سؤال؟

- اتفضل

- هو احنا موجودين حقًا؟ هل ما أمر به الآن حقيقي؟ هل أنا معك الآن أم إنك فرضية عقلية؟

- أمسكت هالة يده ووضعتها في يديها وقالت بدلال أننا حاسس بإيدي؟

- ثم مررت يده على وجه الأزهار وقالت هل تشعر بملمسها؟

- فقال نعم.

وبتصرف مباغت حملت يده من على وجه الزهر ووضعتة على خدها.

- وقالت لا تتعجل، تحسس وجهي.

- فراح يحرك أنامله وهو غير مصدق ما يحدث، إنها هي بملمسها برائحها يا الله ما هذا الذي أنا فيه؟

- فقالت هل تشعر بدفء خدي؟

فأوما برأسه إيجابا.

- فقالت إن كل ما تراه حقيقي على الرغم من أننا لسنا فيه بأجسادنا.

انتفض حسن مما تقول وبدأت علامات عدم الفهم على وجهه تظهر فقرأتها هالة بمنتهى السهولة.

- قالت بحماس واضح أننا بتحس بالألم عن طريق جسدك ولا عقلك؟

- جسدي طبعاً.

- فقالت خطأ طبعاً.

- فقال خطأ.

- نعم خطأ لأن الجسد مستقبل أما مفسر الألم هو العقل وقالت كيف نرى؟

- فقال نرى بالعين.

فقالت لا لأن العينين تنقل المؤثرات البصرية إلى العقل وهو من يبصر وكذلك السمع والشم تنقلها الأعضاء إلى العقل الذي يعيها ويفسرها.

ويبدو أن حسن قد استوعب ما تقوله فقال إذن الجسد هو ناقل للمؤثرات إلى العقل.

فقالت نعم هو كذلك فما رأيك إن استطعنا أن نوصل تلك المؤثرات إلى العقل دون المرور بالجسد، هل تستطيع أن تقول إن تلك الأشياء غير حقيقية؟، صمت حسن وقبل أن يبدأ رحلة السرحان في داخل ذاته، قالت إنك تشعر أن كل شيء حقيقي رغم أننا لسنا بأجسادنا، لكن هل يمكن أن تدعي أنه حقيقي أو غير حقيقي؟

شعر حسن بضيق شديد.

فقالت إن شعورك بالضيق هو أمر طبيعي.

عندئذ سمعوا صوت هولاند ينادي على الجميع استعدادا للعودة وبعد أن تجمعوا ركبوا المركبة التي تحركت في عكس اتجاه الطريق وتحركوا من النور إلى نفق مظلم وما هي إلا لحظات حتى وصلوا إلى الغرفة التي انطلقوا منها، وقبل أن يخرجوا من المركبة قال هولاند بأداء مسرحي:

سأدعوكم غدا إلى شروق في غابات أستراليا ونيوزيلندا التي لم يطلها يد التخريب حتى الآن على يد العالم الحديث.

نظرت هالة إلى حسن بابتسامة وقالت سأسبقك إلى الغابة غداً ونكمل حديثك الفلسفي.

- لكن حسن لم يجيبها وظل شاردًا إلى أن هزته.

فقال أنا أعرف أنك لم تتزوجي لكن جمالك شيء من خيال لماذا ظللت كل تلك المدة دون زواج؟ أكنت تتظرين فارس أحلامك؟

- فقالت لا ببساطة لم يأت أحد إلى خاطبًا.

نظر بذهول إليها فقالت:

ببساطة السيرة الذاتية لأهلي كانت تخيف الناس من الاقتراب منا، وقبل أن يسأل فتذكر أنها من أسرة ضد الدولة، أسرة علمانية والعياذ بالله فمن يريد أن ينشئ أولاده بعيدًا عن تعاليم الدين متشربين مبادئ الكفر، مط حسن شفته مبدئياً تفهمه لما قالت.

فيه مشكلة كنت أريد أن أقول لك عنها وأرجو أن تسامحيني.

لم تنطق بإيجاب أو موافقة لكنه أكمل وقال:

لقد قرأت أجندتك التي تحتوي على مذكراتك.

شعرت هالة باشمزاز ونظرت إليه بتجهم.

فقال حسن لا تغضبي مني كنت أبحث عن أي خيط يرشدني إليك تلك طبيعة عملي، قامت هالة من أمامه وقالت معذرة سألحق بالفريق لدي الكثير الذي أتعلمه منهم.

ظل حسن متابعًا لها إلى أن اختفت من أمامه، وقام هو إلى غرفته وشعر أنه كسحابة صيف خفيفة لكنها لا تطال السماء ولا ماؤها يروي الأرض.

شعرت هالة دون أن تلتفت بعيني حسن تراقبها. لا تدري هل كانت سعيدة أم غير ذلك لكن وجود حسن باعث لأسئلة كثيرة، ورغم أنه رجل أمن إلا أنه مضطرب النفس استنتجت أنه ربما تعرض لأحداث غريبة وعميقة على ما يحمله من معتقدات أو أن بداخله شيء ما يرفض ما هو عليه من حال، وقفت قبل أن تدخل من باب العمل، وقفت لمتنص ابتسامة كان لها مذاقًا حلواً، ربما كانت ابتسامتها وليدة إحساسها كأثنى بالاهتمام، اهتمام رجل بها غير طامح في جسدها، إن نظراته لها لا تصحبها عاطفة جنسية كان بإمكانها أن تفسر ذلك كأني أثنى تقرأ النظرات بمتهى السهولة، وتلك فحاسة وضعها الله فيها، وهي لم تقف لتساءل إن كان يجبها أم لا لكنها وقفت للانتشاء بتلك النظرات ثم دخلت من باب العمل.

كان حسن أيضًا قد وصل إلى غرفته، وكان يشعر بقوة في بدنه، ربما لأنه نام نومًا جيدًا بالأمس، لكن ما هي إلا لحظة من جلوسه على السرير حتى بدا ألم الذنب يظهر على وجهه. لماذا انتابه ذلك الألم؟، إن كل ما حوله كفر وربما هو اختبار من الله لقوة إيمانه وقام لسبب غير معلوم ليتفقد الحيطان، حيطان غرفته كانت ذات لون سماوي وضوء لا يدري ما مصدره وتيار هواء لطيف يحمل على فترات متباعدة طعم الفانيليا المختلط بالحليب الثلج فكان منعشًا ولا يرى له مصدرًا واطافت في رأسه العديد من الأسئلة حول الرحلة العجيبة التي عاد منها الآن.

ركب مركبة ثم أخبرته هالة أن جسده لم يفارق المركبة لكن روحه هي من تتحرك رغم أنه شعر شعورًا حقيقيًا بكل شيء حتى لمستها، والله هذا ليس من صنع بشر فمن يستطيع أن ينحت في الجبل بتلك الدقة؟ ليس هناك تفسير لكل ما حولنا حتى رجوع هالة من الموت إلا تفسير واحد أنهم يستخدمون

الجن وشعر بغصة في حلقه، ولم تكن تلك الغصة ناتجة من استنتاج لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، لكن لأن حبيته بدأت في اتباع طريقهم، هل هي تعلم وباعت دينها، هو يعلم علم اليقين أن شروط التعلم عند السحرة أن تخرج عن دينها وتكفر والعياذ بالله برب العزة وبكل ألم الدنيا من خوفه عليها قال هل كفرت هالة؟ هل أمنت عذاب الله؟، أم أنهم أقنعوها أنه نوع متقدم من العلم فصدقتهم حتى تنغمس، عندئذ سيعلمونها الحقيقة وعندها تكون قد انغمست في الكفر ولن تستطيع العودة إلى الله أم أنهم سحروها، عندئذ كان عليه أن يختبر ذلك فاستجمع إيمانه وتضرعه إلى الله وراح يتلو آيات فك السحر، وكانت المفاجأة أنه ما إن قرأ حتى رأى الحوائط تهتز، وتضرع إلى الله بمتتهى القوة من قلبه وهو يواصل القراءة أن يعطيه القدرة على إنقاذ حبيته فهو لن يبدأ حتى يطرد الجن من هذا المكان وشعر مع الاهتزازات العنيفة أنه يمتلك القوة لفعل ذلك وجرى وهو يقرأ «ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله»

إلى الباب وكاد الباب أن يتحطم من حركة الحوائط يبدو أن بيوت السحر ضعيفة كيبت العنكبوت، فتهاتوت بسرعة وكاد حسن أن يموت محتجزاً وضغطت الحوائط على الباب مغلقة إياه، لكنه استطاع أن يفتحه قبل أن يتحطم وخرج ومع خروجه جرى في اتجاه العمل كان لا ينوي إلا على شيء واحد هو خطف حبيته، والخروج بها، وإنه يعلم أنها لن تكون سعيدة لأنها تحت تأثير السحر وربما ستحضر قراءته العفريت الذي يلبس جسدها فيقاومه لكنه شعر الآن بمقاومة من قوى خفية تحاول أن تمنعه من الحركة والقراءة فراح يردد بكل ما يستطيع وبأقصى علو للصوت المصحوب باليقين من نصر الله "اجتئمت به السحر إن الله سيبيطله" وراح يقاوم مخاوفه ويطرد وسوسات الشيطان من داخله وقلبه ضارع إلى الله كي يعطيه القوة.

يا الله يا الله نطق لسانه بها، وشعر أن هناك قوة جبارة تحاول أن تسكته تحاول أن تمنعه، وشعر أنه سيفقد الوعي، فقال يا الله يا الله اعطني القوة يا الله، كاد أن يصل إلى العمل لكن قدرته على التنفس أصبحت صعبة والحوائط بعضها قد انهار خلفه لكنه قد قارب العمل، إنه قد وصل يا الله يا الله شعر أن باب العمل سيتحطم، استطاع في تلك اللحظات أن يرى ما بداخل

المعمل، إنه يراهم، شعر برغم القوة التي تعتصره أن الله معه فالحوائط التي صنعها السحر بينه وبين المعمل تختفي من تلقاء نفسها وشاهدهم في حالة فزع شديد فهو يراهم ورأي هالة وهي تنهارى وتسقط مغشياً عليها ففرح لأنه سيحملها لا أكثر ويرحل مبتعداً عن هؤلاء السحرة، كاد أن يصل، وشعر مع اقترابه من معقل السحر أن قلبه يكاد يتحطم وقدرته على التنفس أصبحت منعدمة لكنه يقاوم من أجلها، يقاوم تلك الستارة وحائط الظلام الذي بدأ يغشي عقله وحاول أن ينطق وينادي يا الله يا الله لكن لسانه قد توقف وسقط أرضاً.....

كان الجميع يشاهد حسن منذ أن خرج من غرفته في كاميرات المراقبة وهو يجري فانتاب هالة شيء من الجزع والقلق عليه.

لكن بقية العلماء الموجددين في الغرفة لم يبد عليهم أي شيء وكأن الأمر عادي جداً، وعندما سقط حسن قبالة الباب شعرت هالة بحالة من الخوف عليه فربت ستيف على كتفها كي يطمئنها وما إن وصل إليه هولاند حتى فحصه وبابتسامة قال لها لا تقلقي إن هذا ما يحدث عادة مع استقبال عقله لمؤثرات ليس مصدرها حواس الجسد فتنتابه هلاوس رافضة أو تقاوم المستقبلات الجديدة مثلما يفعل الجسد عندما يتم زراعة عضو فإنه عن طريق المناعة سيرفضه.

لماذا لم تحدث لي تلك الحالة؟

لأننا أعددناك لاستقبال تلك الأشياء وزودناك بمعرفة كثيرة وعلوم كثيرة،

وبعد أن أعطى حسن حقنة نقلوه إلى غرفته وقال هولاند سيصحو غداً مستعداً للخروج معنا في رحلة الغد.

اطمأنت هالة عليه وتركته مع دانتي الذي سيعد عقله لتقبل مستقبلات خارجة عن الجسد.

كان قطار الشروق يوشك أن ينطلق، كان الجميع في انتظار قدوم حسن مع ستيف لكن ولسبب لم تعلمه هالة كان التوترباديا عليها فحاول هولاند بابتسامته الرقيقة أن يطمئنها على الرغم أنها مرت عليه قبل نومها كي تطمئن عليه، عندئذٍ ظهر ستيف ومعه حسن في حالة من القوة لم تشي بما حدث معه بالأمس.

وصاح حسن هل ستنطلقون من دوني؟، شعرت هالة بحالة من الاستغراب لكنها اطمأنت أنه بخير وقابلته بابتسامة جعلت قلبه يتراقص فرحاً ولم يشأ أن يتحدث فيما حدث له بالأمس ولم يكن هناك وقت لذلك لأن هولاند صاح هل الجميع جاهزون؟ فردد الجميع بكل حيوية نعم جاهزون.

وقبل أن تنطلق المركبة مصحوبة بلحظات الصمت وأخر ما تبقى من صيحات هولاند، وكما هو الحال دائماً الكلام المحتجز قبل الصمت والذي تريد أن تقوله في اللحظة النهائية، قالت هالة بسرعة كبيرة بصوت هامس متلاحق أقلقتني عليك واندفعت الدماء مع اندفاع المركبة واندفعت معها موجات الفرح في قلبه ولم يدر هل خروجه المختلف هذه المرة كان مصدرًا لأحاسيس الجمال التي تتباه أم لأنه خروج مختلف فعلاً، وكأنه صار ومضة مألوفة بين الظلام والنور.

حطت المركبة في قلب الغابة، وكان الوقت السابق مباشرة لاستعداد الشمس للخروج والجلوس على عرشها باعثة الحياة وكانت الغابة في حالة من السكون في انتظار للحياة التي فقدتها مع الغروب، كان الجميع في حالة ترقب حتى أعضاء الفريق الهابط في الغابة، ولم تطل الشمس من تدللها لأنها تعرف أنها الوحيدة وتعرف أنها واهبة الحياة وبدونها فلا حياة على هذا الكوكب ونظرت هالة إلى قرص الشمس المتصاعد وكان حسن يتتبع نظراتها إلى قرص الشمس الذي بدا أنه شروق مختلف عما رآه من قبل فالشمس أكبر حجماً، وبعد لحظات من الصمت بدأت النباتات تهتز سعادة بعد عودة الروح إليها ونثرت عطرها.

فقال حسن هامساً لأول مرة أعرف مصدر نفس الصباح. كان الجميع في حالة انتشاء من السعادة.

وقال هولاند الآن سنفترق، أنتم أبناء الأرض وهي تدعوكم للمرح. أنا سأذهب إلى نيوزيلندا، أنتم أحرار من أراد البقاء هنا ومن يريد أن يكون معي له ذلك، نظرت هالة إلى حسن باسمة وقالت هل تريد الذهاب؟ فقال حسن هل ستبقين هنا؟ فقالت نعم، فقال سأبقى معك.

فقالت تعالى معي سنتنزه في نهر موراي عند التقائه بنهر دارلنج أعتقد أنه سيثير الجبال بداخلك.

دهش حسن من معلوماتها فهو لم يسمع عن تلك الأنهار يومًا ولا يعتقد أنها سافرت إليها ذات يوم، وملفها لا يحمل تلك المعلومات، على كل أنا معك.

أوما حسن موافقًا لكن كيف سنذهب قالت إننا لسنا بعيدين عن النهر وسنكمل طريقنا سباحة فقال أنا لا أجد السباحة، استغربت من قوله رجل أمن ولا يعرف السباحة كان لسان حالها يقول ذلك، فقال أمضيت سنوات عمري كلها وكانت السباحة أكبر مخاوفي، ولا أقرب من الماء إلا بما تقتضيه الضرورة ونحن لسنا صيادين حتى نختلط بالماء، أما أمر التنزه على الشواطئ في الصيف فقد كانت عادة أبطلها مولانا الأمام، لكن أين تعلمت السباحة؟

أنا لم أتعلم السباحة، وما هي إلا لحظات حتى وصلوا إلى الشاطئ، شاطئ نهر موراي ومع تبدي الشاطئ ظهر أيضًا زورق وكان بداخله مايوه لكل منهم فقالت سأرتدي المايوه الخاص بي خلف الشجرة، وأنت ارتدي مايوهك في الزورق وما أن انتهت حتى عادت إلى الزورق وكانت أشعة الشمس تنعكس على جسد حسن البرونزي اللون فاختلطت الأشعة بعضلاته المقتولة فبدأ كواحد من محاربين مصر القديمة وكانت تبدو هي كأثني تامة الأنوثة بجسد مشوق مرسومة مفاتنه بريشة فنان فما تراها وإلا تقول سبحان من أبدع بيديه هذا الجمال اللامتناهي. وقف حسن للحظات أمامها مفتونًا وانتبه إلى ابتسامتها الرقيقة وقال متسائلًا:

- من أين أحضرت تلك الأشياء هل أحضرتوها مسبقاً؟

- فقالت لا إنها هنا منذ أن تحركنا في اتجاه النهر.

- لم يفهم أو لم يستوعب ما قالت.

- فقالت إننا من يصنع هذا العالم.

- فقال هل تلك الغابات ليست موجودة أو وجودنا فيها غير حقيقي الآن؟

- فقالت إطلاقاً إننا بالفعل في غابات استراليا حقيقة لكن بإمكاننا أن نضيف إليها بعض الأشياء.

- ركبوا الزورق وتحرك حاملاً إياهم.

- قال لها حسن هل هذا الماء حقيقي؟

اغترفت يديها بعض الماء ونثرته عليه وحاول أن يداري وجهه لكن رزاز الماء قد وصل إلى وجهه وجسده فشعر بقشعريرة وقبل أن تصل يدهاء للماء لكي ينثر بعضه عليها كما فعلت، كانت قد انسلت داخل الماء دون أن تحدث صوتاً من الجهة الأخرى، وعاد حاملاً الماء لينثره عليها، لكنه لم يجدها. بحث عنها في الماء لكنه لم يجدها، راح يراقب النهر متنقلاً بعينه بين أمواجه وضافه لعل جسدها يظهر فيلتقطه، ومع تلك الأفكار شعر بالرعب عليها وصار تجوال عينيه أسرع وأكثر اضطراباً فقد كان يدرك أنها حتماً لا تعوم ولا توجد امرأة في مصر تستطيع السباحة، واقشعر جسده مرة أخرى نتيجة رزاز الماء المتناثر عليه الآتي من خلفه فالتفت فوجد عروس النهر مبتسمة وتسبح برشاقة جميلة.

- فقال أنا لم أر امرأة في مصر تحيد السباحة أين تعلمت ذلك؟

- فقالت إنه أول يوم لي في السباحة.

نظر إليها غير مصدق، لكن قسمات وجهها لا تبوح إلا بصديق حديثها وأنها لا تدعي، وكان عمله كرجل أمن يوفر له الخبرة اللازمة في معرفة إن كان من أمامه يكذب أو أنه صادق، كان يعرف دون استخدام جهاز كشف الكذب وهو يعلم صدقها الآن لكن سباحتها مبهرة كمن تعلمت السباحة منذ زمن بعيد.

- وقال هذا غير حقيقي.

- فقالت له انزل.

- هغرق.

- انزل هتقوم.

- تردد حسن فقالت أنتا خايف من الموت؟

صمت حسن للحظات وكرجل شرقي لا يريد أن يهزم أمام امرأته حتى لو كلفه ذلك حياته فرمى بنفسه في النهر.

لكنه بالفعل لم يستطع السباحة فغرق وتابعت ضربات يده ورجله في الماء بكل عنف وبشكل غير منتظم ومع شعور بالاختناق تزداد عشوائيته أكثر وراح يتجرع جرعات من الماء على غير إرادة منه وغاص بسرعة للقاع وغاصت هالة خلفه ونجحت في التقاطه ثم جذبته وبمتهى السهولة وأخرجت رأسه من الماء فزفر زفيراً شديداً وبدأ يسعل محاولاً إخراج بعض الماء الذي نجح في الدخول إلى الرئة، ثم وضعت يديه على الزورق فتشبث به وحاول أن يخرج لكنها بحركة رقيقة منعه فوضع رأسه على الزورق وكانت تلك أول مرة في حياته يختبر ماء النهر أو البحر وشعر بخفة جسده على الماء فسكن قليلاً وهدأت أنفاسه ومع هدوء حمله الماء أكثر وأكثر فقالت له نظم حركات ساقيك ومع تنفيذ ما قالت شعر أن الماء بدأ يستجيب له أكثر وأكثر.

- فقالت عليك أن تؤمن أنك تستطيع العوم.

نظر إليها وقال تطلبين من رجل في يومين وجد كل ما يؤمن به على المحك وصار متشككًا وشاكًا في كل شيء حتى وجوده!

فقالت عليك أن تؤمن أنك تستطيع، ونظم حركة يدك مع قدمك وستستطيع هذا كل ما فعلت أنا.

بدت على وجهه علامات التصديق فاقتربت منه برفق وحررت يده فلم يقاوم ثم تركتها فغاص مباشرة لكن الغريب أنه لم يحرك يديه أو رجليه فأدركت أنه لم يؤمن إيمانًا مطلقًا بما تقول فالتقطته، لكن الزورق كان قد ابتعد بفعل سرعة الأمواج المتزايدة فاحتضنته واقترب من جسدها وشم أنفاسها في تلك الأثناء لم يحرك لا قدمًا ولا ذراعًا، إنه كان في حالة سكر، لم يعد خائف من الموت.

وشعر بلذة الحب، وإن أكن منصفًا فقد تذوقها بفمه الآن، لذة لا تنبع أبدًا من أحاسيس جنسية فهو راهب في محراب الحب تتلذذ كل خلية من خلاياه المتحدة مع الوجود اتحادًا مشوبًا بالأمل، بالقلق، بالخوف، بالرجاء، بالسكينة، أنه الآن يشارك ذرات الأرض روحها أنه في وحدة مع الوجود وصار جسده أكثر خفة فقالت فأنصت فخرج مما هو فيه والتفت إليها وشعر هو أن الماء قد حمله أكثر وأكثر فقال هامسًا أشعر أن الماء يحملني أكثر من ذي قبل.

فقالت حرّك زراعيك بانتظام مع قدميك وبرفق ولا تجعل الأرض تشعر أنك نشاز فيها فتخلص منك.

- تشعر الأرض! هل تشعر الأرض؟ هل هي حية؟

- فقالت بحماس طبعًا أمتا الأرض حية وتشعر بنا.

- قال حسن كيف تكون حية؟

- فقالت هالة هذا يعتمد على تعريفك للحياة.

- فقال حسن هل هناك تعريف غير الذي نعرفه عن الحياة؟

- فقالت قل إذن ما الذي تعرفه..

- فقال حسن ال.....

وصمت وشعر أنه في ورطة لأنه اكتشف أنه لا يعرف معنى الحياة ولأول مرة يفكر في شيء كهذا.

فقالت إن هذا السؤال شديد الصعوبة، وكثير من الفلاسفة قد حار في معنى له لكنني أقتنع بتعريف أبناء غايا للحياة.

- فقال بتلهف قولي لي..

- فقالت التنظيم.

- فنظر غير مقتنع وقال بتعجب، التنظيم!

نعم التنظيم وقالتها بشكل قاطع فالجزئيات العشوائية عندما تنتظم يصبح لها معنى آخر وهذا نصف الحياة، النصف الآخر أن هذا الجزء المنتظم إن استطاع تأمين مورد دائم للطاقة فسوف يستهلكه وذلك للتغلب على القصور الحراري.

فقال كدتُ أن أفهم، لكن مع قولك القصور الحراري طار من ذهني كل ما تقولين فأنا لا أفهم ما معنى القصور الحراري للكون.

فقالت ربما يكون شرحه صعباً وخاصة أنه يرتبط بالفيزياء.

فقال لقد كنت أحب الفيزياء والرياضيات في الثانوية، فنظرت إليه باستغراب وكأنها تستنكر ما تسمع ولسان حالها يقول فما الداعي لسلوكك طريق الأمن هذا وترك طريق العلوم!

فقال بأسى، أحلام قديمة، تفهمت هالة ما يقول وراحت تكمل.. انظر إلى الفيروس، فهو المتنقل بسهولة بين الحياة والموت هو تنظيم من الأحماس الأمنية. هذا التنظيم عندما يستطيع تدبر مصدر الطاقة وهو العائل يصير حياً وتُبدد منه الطاقة في عمليات عديدة مثل الانقسام والأبيض لكن وجود مصدر الطاقة يعطيه استمرارية الحياة، أما عندما لا يكون هناك عائل له فإنه يتحول إلى تنظيم ليس لديه طاقة وذلك منتصف الطريق للحالة الحية.

استعجبَ حسن من حديثها وقال إذن السيارة هي كائن حيّ، بمعنى عميق ربما، لكن السيارة ليس لديها إرادة الحصول على الطاقة.

شعر حسن بحيرتها فأراد أن يزيد من ارتباكها وكأن شيئاً داخلياً يجعله سعيداً بارتباكها، فقال من هذا المنطلق بإمكاننا القول إن الأرض هي الأخرى حية.

لكنها جاوبت هذه المرة بحماس كبير، نعم إنها حية، ونحن أبنائها، كل المخلوقات أبنائها، فمن رحمها خرجنا وإلى جوفها نعود لكنها لسبب ما، تكره الخائفين، لذا يجب أن تعرف كيف تكون شجاعاً. أثارت انتباهه تلك الكلمات.

فقالت إن الأرض تشعر بخوفنا عندما تشعر بعدم تناغمنا معها، فالخوف يولد حركات غير منتظمة، تلك الحركات تعني الخوف، فتخاف علينا فتستعيدنا في جوفها وهذا ما نطلق عليه الموت، هو بالنسبة لنا الموت لكن بالنسبة لها هو الاستعادة أما عندما نتناغم فتصبح حركاتنا منتظمة متناغمة، فلا تموت حتى ولو كنت بين فكي قاتل، وقالت انظر إلى الماء، اشعر معه بالتناغم، لا تخف، حرر يديك، حرر عقلك، اشعر بالتناغم مع الماء ستجد يديك ورجليك يتحركان بهدوء وانتظام، ستجد الماء يحملك، رغم أنك تستهلك طاقة أقل، إلا أنه سيحملك، أما عندما تخاف ستفقد التناغم مع الماء وستجد أن حركاتك صارت عشوائية غير منتظمة ورغم أنك تبذل جهداً أكبر إلا أنك لن تحيا، فلن يحملك الماء.

فقال تقولين لي أن أقف أمام أسد غير خائف ولن يأكلني؟

فقالت بكل حزم نعم وبكل حزم قالت لا تخف.

حاول حسن أن يقنع نفسه أنه لا يخاف من الماء، شعرت هي بطمأنينة فحررته شيئاً فشيئاً وقالت دع جسديك يتحرك فهو يعرف ما يجب أن يفعل، لا تفكر.. وهدوء تركته بعدما اطمأنت إليه.

فعلاً يسبح، حمله الماء وكلتا يديه ورجليه تحركتا بانتظام دون أمر منه،
إنهما يعرفان ما يجب فعله، ساعده تيار الماء على تقليل الجهد المبذول فشعر
بشعور طائر يتعلم الطيران أول مرة ويعانق جناحاه الهواء الطلق، إنه يسبح
مثله في الفضاء ومع زيادة سرعة التيار وتطاير الرزاز واختلاطه بالهواء،
راح حسن يستنشق الهواء الرطب الذي كان بطعم ريح زهر الليمون وملاً
رئتيه واستنشق، فشعر أنه يتناول إكسير السعادة، فراح يصرخ سعادة وفرحاً
فسبحت هالة على ظهرها كي تشاهد مظاهر الفرح، فقلّدها وسبح على
ظهره فوجد أنه صار أخف وجهه صار أقل وزاد استمتاعه أكثر وأكثر.
شاهد الشمس وشعر أنها تبسم وتشاركه الفرح.. انقلب على بطنه، حمل
بعض الماء فوق راحته ونثرها على هالة التي بادلتها فعلاً بفعل، فشعرا
بسعادة وجمال ثم أراد أن يأخذ المبادرة فاستخدم ساعديه حتى يسبقها،
وبعد لحظات تجاوزها لكنها لم تلحق به بل ناغشته في السباق حتى يتذوق
انتصاره، وراحت تتأمل ضفاف النهر وبين الحين والحين تنقل نظرها إليه
حتى تطمئن عليه وتعود لضفاف النهر مرة أخرى ثم تعود إليه، ووجدته
بعد لحظات يسبح وهو غارق في أفكاره، إنه اعتاد الأمر وعاد ليفتش داخل
ذاته وإلى أسئلته، ووجدت أن الماء قد زاد من سرعته بشكل كبير فعلمت أن
هناك أمراً فأسرعت للحاق به وقالت، حسن استعد للمغامرة.

نظر إليها بابتسامة عريضة وتساءل عن المغامرة، وقالت إننا نقرب من
الشلال وأمسكت بيديه وأمسك بيدها وصرخا بصوت مختلط، بصوت
الشلال الهادر وطارا في الهواء، فاختر شيئاً آخر وقال لنفسه إن لم يكن هناك
متعة في الحياة غير هذه اللحظة، سأشكر الله عليها، إنها قمة النشوة الحسية
التي عاشها وقليل في الحياة من يتذوقها، إنها لحظات تعني الحياة، عندئذٍ
اصطدمت أقدامهم بسطح الماء فتركا جسديهما ليتناغما مع الطبيعة فانسلا
داخل الماء بسلاسة كبيرة، فذاقوا متعة تُضاف إلى لذة المتعة التي كان يشعر
بها.

وما أن أخرجا رأسيهما من الماء حتى ابتسما ابتسامة مختلطة بالصياح وشعرا
دون اتفاق بحنين إلى الأرض، فاتجها إلى الشاطئ ولا مسا بقدميهما الشاطئ في
نفس الوقت، ثم رميا بجسديهما تحت أشعة الشمس.

ووضعت ذراعها على جبينها وأطرق هو لصوت الغابة وسمعها وشعر أن حديثها مألوف ولا تستطيع أذنه أن تنكره، ما كل هذا الجمال في الحياة، ونظر إليها بعينين يملؤهما الحب والامتنان والشكر لها فتبسمت وقالت هيا لكي نرتدي ملابسنا، وأشارت إلى الزورق الخاص بهما وقد قذفه الموج إلى الشاطئ، وقبل أن تقوم قال لها..

”إن الحديث مع المختلفين عني رغم أنه يحطم أشياء بداخلي، إلا أنه يشعرني بلذة لا أعرف مصدرها“ تدفني دومًا دون إرادة لاستثارة المختلف حتى أشعر بمزيد من اللذة، فهل أنا مازوخي؟“

تبسمت وصمتت قليلاً ثم قالت هيا، سأريك جنة عدن علينا أن نرتدي ملابسنا أولاً، واتجهوا إلى الزورق، فقال مازحاً هل هناك جنة أخرى غير التي نعرفها؟

فقالت أمنا الأرض هي الجنة، ونيوزيلاند هي تحفتها.

هل بإمكاننا؟ فقالت نعم سأستدعي هولاند وما هي إلا لحظات حتى ظهرت المركبة وقابلهما هولاند بابتسامة تدل على الاستمتاع، ركبا وانطلقا وما هي إلا لحظات حتى أسقطهما هولاند وسط الغابات، انزلا في الجنة، كانت كلماته قبل أن يسقطا، كانت الغابات والأشجار في حالة من الجمال فبدت وكأنها تتغنى بألوانها المختلفة والزاهية وملاحظة حيواناتها الجرابية المختلفة عن حيوانات القارات الأخرى، ثم ذهبوا إلى المحيط لملاحظة الغروب، غروب الشمس واختفائها داخل المحيط مع وعد منها بالعودة ومعها إكسير الحياة، وكانت الغابة توشي بأنها ستستريح الآن استعداداً للحياة غداً مع أول ضوء للشمس، فلا تحتاج إلى من يزعجها الآن، نظر حسن إلى الشمس وهي تنزل مبتسمة داخل الماء مودعة له، فقال حسن طوال عمري، لم أشعر بتلك السعادة وأشعر الآن أن ما كنت أشعر به طوال عمري من سعادة كان شعوراً زائفاً ثم أكمل متفلسفاً بابتسامة.. يبدو أن السعادة شعور جماعي ولن تحدث إلا بالتناغم بيننا وبين كل ما حولنا من أبناء الأرض والأرض نفسها وابتسم وقال أليس كذلك؟

ضحكت ثم قامت ووقفت بملابسها الواسعة الفضفاضة فاتحة ذراعيها محاولة احتضان آخر نفس للشمس قبل اختفائها.

ووقف حسن خلفها يلتمس ما تلمس، فبدا كعاشقين يؤديان صلاتهما في محراب اللذة، ولم يقطع صلاتهما الممتدة مع الأرض غير صوت هولاند مؤذنا بالرحيل ومع جلوس الجميع نظر هولاند إلى العاشقين وقال غامزاً بعينه سنكون في الأمازون غداً.

كان الجميع في حالة من التعب والإعياء فقال هولاند سنستريح قليلاً ونعود لتناول العشاء، رأت هالة أن في ذلك فرصة للراحة والاستحمام لكنها قضت معظم وقتها في التفكير في حسن. وسألت لماذا يشغل بالي وأهتم به «لا لا أنا لا أحبه» لكن هو شخص ينقلب بسرعة من النقيض إلى النقيض بسرعة كبيرة، هناك أشياء داخلية تسبب له صراخاً دائماً، وخوفاً لا يستطيع أن يصارح نفسه به، هو غير مقتنع بكل ما يحمله وعيه من قيم، لكنه خائف من أن يفتش داخل نفسه يريد أن يستمر في إيمانه بها، وما أن يقترب هو من تلك النقطة ربما يصبح وحشاً مسعوراً ينكل بمن استثاره خوفاً من أن يوقظ تلك القلاقل عنده أو إنه يتحول إلى النقيض في محاولة للهروب، لا أعتقد أن هذا سبب اهتمامي به، هل لأنه يشبهني! فهو الشرقي الوحيد هنا أم تراني أشفق على بؤس منه وكان يمسني من الجهل وعدم المعرفة قبل التحاقني بهؤلاء! فما وضع في رأسي من معرفة بطريقتهم فاق ما تعلمته طيلة حياتي حتى دراستي في الخارج، أشعر وأن عقلي انتقل إلى مستوى من الإدراك والمعرفة لا أعني كيف وصل إليها في مدة قصيرة جداً، أتمنى أن يشاركنا حسن لأن العلم لديهم متاح لكل البشر حتى وإن كانت خلفيته أمنية، فإن فلسفتهم هي «العلم والمعرفة حق الإنسان، والحياة حق كل أبناء الأرض»، فلا علم تختص به الدول الكبرى دون غيرها أو أبحاث خاصة بالدول الكبرى دون غيرها، العلم حق للجميع فلا أسرار فيه، المصادر المفتوحة والقنوات المفتوحة، ما أعظم الغاية! إنها ليست الاهتمام بالإنسان فقط إنها الأرض وكل ما على الأرض، إنها إرث مشترك لكل الكائنات، ليت حسن يدرك ذلك.

أنهى حسن استحمامه ثم أوى إلى سريريه لينال قسطاً من الراحة، لم يستطع أن يكبح ابتسامة المتعة التي يشعر بها وراح يفكر في اللحظة التي لمس جسده فيه جسدها. وسأل نفسه لماذا لم ينتصب ذكري كما كان ينتصب عندما أقرب من النساء، وعلى الرغم من أنني كنت أعرفهم كان ينتصب من مجرد الحديث معهم بصوت خافت أو أشعر بنعومة تلك المرأة، كنت أشعر باحتياج شديد، أما الآن أشعر بلذّة فاقت بكثير جدّاً لذّة الجنس، لذّة الملائكة، أستغفر الله العظيم.. شعر بغضب من نفسه لأنه ذكر اسم الملائكة في شيء كهذا، لكن هؤلاء القوم هم ملائكة..... أم أنهم.. وصمت لحظة.. هناك شيء مقلق من هؤلاء، هل يتم خداعنا أنا وهالة، ربما يكون العالم قد تقدم فعلاً تقدماً مذهلاً وتكون تلك طرق خداع حديثة، لكن ما الذي يريدونه منا إن كانوا يخدعوننا؟ سؤال ذكي فقد حصلوا على الخاتم، هل يريدون أن نكون في محيط مولانا عندما يعود إلى الحياة؟، ربما تكون تلك هي الفائدة الوحيدة، مطّ شفتيه، لا يهم، لكن ألا يمكن أن يكون هؤلاء جزءاً من الاستعمار الغربي المعادي للإسلام وأنهم ليسوا في عدا مع الغرب وأن ما يُحدثونا عنه في أنهم يريدون خيراً للعالم وأنهم ضد تلك الحكومات الغربية التي تخدع شعوبها أيضاً، إنما هم عملاء لها وأننا دون أن ندري سنكون سبيلاً في هدم الدين.

شعر بانقباض شديد في صدره وشعر بحيرة شديدة فقام من مقامه ثم اتخذ قراراً واتجه إلى غرفة الطعام في انتظار مجيء هالة، كان قلقاً، هكذا رآته هالة من بعيد، لاحظته دون أن ينتبه لها، اقتربت منه مبتسمة وقالت هل أنت جائع؟

- قال لا.

- قالت إذن لماذا جئت مبكراً؟

- قال هل أنت جائعة؟ قالت لا.

- قال لماذا جئت مبكرة، لماذا لم تأخذي قسطاً من الراحة؟

- لم تستطع أن تبوح لماذا جاءت مبكراً، فصمتت.

- فقال حسن ألا تعتقدين أن ما يقوم به أبناء غايا هنا في مصر على درجة عالية من الخطورة على مصالح العالم المتقدم؟

قالت صحيح لأن الحكومات الحالية لا تريد ذلك.

- قال إذن لماذا نحن في أمان شديد؟ ألا يوجد أجهزة استخبارات تبحث عنا؟

- ضحكت هالة وقالت ألم يدمروا المغارة من قبل؟

- فقال حسن أي جهاز أمني ليس لديه تأكيد مطلق.

قالت إنه تم تجهيز المغارات واستخدام أجهزة تمويه حديثة لخداع للأجهزة الأمنية منذ أعوام مضت، لذلك أنت تشعر بأمان الآن.

فقال هناك احتمال يجب أن تضعيه في حسابك، واقترب منها هامساً وقال
ألا يمكن أن يكون ذلك مؤامرة ويكون هؤلاء جزءاً من أجهزة استخباراتية
عالمية وتابعين للصهيونية العالمية والماسونية؟

فقالت بضجر وضيق، مؤامرة! طوال سنوات عمري لم أسمع غير تلك
الكلمة وطوال عمري وعمر أُمِّي لم نسمعها إلا عندما يكون هناك شر يريد
الحاكم أن يفعله أو أمر خطير يريد الحاكم أن يخفيه، سيدي لو كانت هناك
مؤامرة لكتم أتمم المؤامرة، لقد أجهضتم حراك وطن نحو المستقبل.

أراد حسن أن يقول شيئاً وأضحت نظراته أكثر قلقاً فعقله يكتشف زيف
الحقيقة التي عاش طوال عمره يدافع عنها ويعتبرها الحقيقة المطلقة، هو
الآن يقاوم.

وشعرت ببعض القلق لأن بعض العقول وحتى التي تعتبر نفسها ذكية،
عندما تكتشف زيف القضية التي عاش طوال عمره يعتنقها ويعتبر نفسه
خط دفاع أول لها ويكتشف أن الواقع يخالف تماماً لما كان يعيشه في الماضي،
ولا تستطيع القفز إلى المستقبل عندئذ تميل إلى التخلص من الحاضر، وتصبح
في عدااء شديد معه، حتى لا يبقى أمامها إلا أن تعيش فيما اعتادت عليه.

فقالت عليك أن تهدأ قليلاً دع الأيام تثبت لك أن ما نفعله ربما يكون
صواباً فلا تستعجل الأمور إنها ليست مؤامرة، ثم ابتسمت وأكملت، ألا

تريد أن نتعشى سوياً؟

- فقال لست جائعاً، سأذهب إلى الغرفة كي أستريح قليلاً.

- فقالت وأنا سأذهب إلى المعمل.

شعر حسن وهو يتركها بعنف ضربات قلبه فالتفت إليها، كانت تراقب خطواته وابتسمت فشعر بفرح وسعادة بالغة.

دخل غرفته فجلس ثم اتكأ على سريره منتظراً العشاء، شعر أن الدقائق تمر بثقل شديد على قلبه، نظر في الغرفة وكأنها يراها لأول مرة فقد اكتشف مكتبة على هيئة أرفف زجاجية أو مادة شفافة شبيهة بالزجاج تحمل فوقها كتباً، متى وضعت! لم أشاهدها بالأمس، اقترب حسن من رف الكتب، بعضها يعرفه فقد قام بإحراقه، حاول أن يلتقط كتاباً وتراجع عن تلك الفكرة، حاول أن يجلس وجلس لكنه قام مرة أخرى إلى المكتبة عندئذ التقطت يده كتاب يسمى أسطورة الإطار لفيلسوف العلم كارل بوبر، تذكر ذلك التذليل لاسم الفيلسوف عندما كان يحرق أحد كتبه ونادى الرجل، أرجوك لا تحرق ذلك الكتاب إنه لفيلسوف العلم كارل بوبر، لكنني حرقت، هرطقات كلها، قرأ أول صفحة وأسلمه للذي بعدها وشعر أنه بدأ يتحسس طريقاً آخر غير الذي اعتاد عليه فهو يواصل القراءة دون تأفف.. لماذا؟

فهو لم يكن يستطيع أن يدير دفتي الكتاب حتى أنه كان يكرهها ويشعر بشعور منفرد وهو يحملها، لكنه الآن يبحر فيها.

سمع حسن دوي انفجار عنيف، شعر بارتجاج الجبل من حوله، فخرج مسرعاً من غرفته ليستكشف الأمر ويرى هالة، فوجدهم يهرولون من المعمل في اتجاه غرفة الطعام.

مرت لحظات من الصمت ثم دوى انفجار آخر كان أقرب وأشد فاقتربت هالة غريزياً من حسن الذي وضع يده على كتفها غريزياً ونظر حسن إلى هولاند الذي بدا عليه قلق كبير.

- فقال حسن هل اكتشفوا أمرنا؟

- فقال هولاند لا أعتقد ذلك لأنهم لو اكتشفوا أمرنا لكان هناك إصابة مباشرة

- لكنهم قريبون.

- فقال حسن هل سيتحمل الجبل؟

- فقال هولاند إذا أصابتنا تلك الصواريخ إصابة مباشرة فقد نموت لأنها خارقة للصخور.

- فقالت هالة قلقه، أليس لدينا أي خيار إلا انتظار الموت؟

- فقال حسن هل من الممكن أن نستعلم الأمر؟

- فقال هولاند كيف؟

فقال حسن أن تتصلوا مع مجموعتكم في الخارج، ربما يكون لديهم أية إجابة، ابتسم هولاند، سيكون صاروخاً محملاً بالإجابة لأن أي تغيير في المجال الكهرومغناطيسي أو الحراري هنا سيكتشفونه. وربما كانت رسالتنا القصيرة لمجموعتنا الأم عن الحامض النووي لمولانا هو ما كشف أننا ربما نكون أحياء، فتم التعامل معنا الآن.

دوي انفجار أكبر وأقرب جداً، وكان أقرب للمعمل من غرفتهم تلك فجري هولاند مسرعاً لكن لم يتبعه أحد وبعد لحظات من الترقب والانتظار وابتعاد دوي القنابل عاد هولاند مبتسماً وقال ما زال مولانا بخير ولم يتضرر المعمل.

فرح الجميع لكن فرحة هالة كانت أكبر بكثير وقالت حمداً لله.

ومع ابتعاد أصوات الانفجارات ظهر الاطمئنان على الجميع فدعاهم هولاند لتناول العشاء.

بدأوا في تناول طعامهم لكن الصمت كان يلف الجميع على غير العادة فلا أسئلة مشاركة أو أشياء يتحدثون عنها وكأنهم في انتظار سقوط صاروخ فوق رؤوسهم، لكن ستيف قطع الصمت قائلاً.. هناك خطب ما في القاهرة، فنظر الجميع إليه باهتمام وكأنهم في حالة انتظار لمن سيتكلم، فقال متداركاً، يبدو أن ما قاموا به عملية تنظيف لا استهداف، وإشارتنا إلى أبناء غايا لم يكتشفوها، وأنهم يقومون بإغلاق مخارج ومداخل الجبل.

- هل هناك احتمالية أنهم أغلقوا المنافذ جميعها؟

- قال ستيف ربما.

- فقال حسن أليس لديكم مخرجاً سرياً؟

- فقال ستيف لدينا بالطبع لكن ربما يكون قد تضرر مصادفة.

- فقالت هالة أليس لديكم طريقة لاكتشاف ذلك؟

- فقال هولاند أي حركة خارج المحيط حتى وإن استخدمنا تكنولوجيا التخفي يعرضنا لخطر كبير قبل أن ننتهي.

- فقالت يجب أن نتحرى كي لا نضيف للمعذبين معذباً جديداً.

- فقال هولاند لن نغامر الآن، لدينا ثمانية أيام لا أكثر ونرحل وحتماً سنجد طريقاً للخروج وتكون مغامرة واحدة لتقليل المخاطر، اطمأن حسن لهذا الرأي لكن هالة لم تطمأن.

- قال حسن ما الحدث الذي ترجع حدوثه في القاهرة؟

فقال إن مصر على شفى حرب أهلية، ربما بدأت ويبدو أن الأسطول الأمريكي سيتابعها باهتمام، لأنهم يريدون تغيير النظام القائم، بنظام آخر وفي أثناء وصول النظام الآخر حتى تضمن ولائه أو على أقل تقدير يكون ضعيفاً، لذا ستحدث فوضى تستهلك الكثير من الوقت ونظرتكم إلى المستقبل وهي تعلم ما نفعول ولديها احتمال بالطبع أن نصل إلى ما نريد وخاصة بعد حصولنا على الحامض النووي لمولانا فهي لا تريد أن يلتفت أحد إلى حسن البناء وأفضل طريقة هي الفوضى.

فقال هالة لم نسمع عن أي قلاقل في مصر فكلها لون واحد.

فقال هولاند هذا صحيح ولكن كانت الإدارة العامة في أمريكا في غاية الذكاء في التخطيط، لذلك فهي قد دعمت جنرالاً منشقاً في أقصى صعيد مصر يحمل منهجاً صوفياً، دعمته بعتاد قوي، حتى يستطيع أن يغير بالقوة نظام الحكم الحالي، وكان الذكاء أن يتم ترتيب ذلك في الصعيد حتى يكون بعيداً عن أذرع الدولة الأمنية حتى لا يتم وأد التجربة ليبنى جيش الخلاص.

- قال حسن مستنكراً لقد قابلته وهو ليس عميلاً.

- فقال ستيف إنه ليس عميلاً لكنه يفعل ما يريدونه في مخططهم.

- فقال حسن محتدماً إنه يريد التقدم ويرفض ما نحن فيه.

- فقال ستيف يا صديقي كثير من المصائب تتم بحسن نية وغياب العقل.

- غضب حسن وقال مولانا الجنرال من أعقل الناس.

فقال ستيف سيدخل حرباً وهو لا يمتلك أدواتها وهي السلاح فكل ما لديه جيد ليبدأ حرباً، ويستولي على عدد من المدن لكن هل يستطيع أن ينهي الحرب، إنه لا يمتلك القوة لفعل ذلك، وخاصة أن أمريكا ستعطي السلاح للجانبين حتى تطيل وقت الحرب والفوضى في وقت أنتم في حاجة لكل ثانية وكذلك استنزاف لثرواتكم ودماء كثيرة سوف تراق وأراواح تزهق.

- فقال حسن ربما ليس هناك طريق آخر.

ضحك ستيف، أليس ما نفعله طريق مختلف، لكن أبسط الأفكار لدى الإنسان هي إعلان الحرب لتغيير الواقع.

- وهل تتوقع أن ما تفعلونه سينجح وسيغير الواقع.

قال هولاند هناك تجربة مهمة فعلها المصريون قديماً في عام ٢٠١١ ثاروا وأنهاوا حكم ديكتاتور دون أن يحملوا سلاحاً وكذلك عام ٢٠١٣ ثاروا وأنهاوا حكم الإخوان، إن الشعوب إذا تحركت فإن الحاكم مهما كانت عدته وأدواته لا يستطيع أن يوقفها أبداً.

قال ستيف بصوت مشرق هل انتهيت من طعامكم؟، بالفعل انتهى الجميع، فقال هولاند إذن هيا بنا إلى العمل، كانت الدعوة موجهة إلى حسن أيضًا فرحب بالدعوة وقام معهم، كان العمل يشغل مساحة عرضية كبيرة ويحتوي على أجهزة كثيرة بالطبع حسن لا يعرفها، فضلاً عن أنها بالنسبة لغيره هي أجهزة من المستقبل وكانت حوائط العمل كالعادة منحوتة بعناية، جيدة التهوية، ينتهي العمل بغرفة مظلمة ويبدو أنها على قدر ما من الأهمية لأن هالة مالت عليه وقالت غرفة الرحم، لم يفهم حسن ما معنى ذلك لكنه ظل صامتًا للحظات مشدوهاً بما يرى لكن حتمًا سيسألها حيث أن هذا الاسم له مغزى، بدأوا في النقاش في العلم وحاولوا أن يتحدثوا بالعربية وكانت الصعوبة بادية من الجهد المبذول خاصة في ترجمة المصطلح، لكن لماذا يفعلون ذلك، لماذا لم يتحدثوا بالإنجليزية، كانوا يتحدثون في النظرية الموحدة حلم القدم.

وما زالت ورغم كل ما حققوه من تقدم إلا أن تلك النظرية لم يستطيعوا أن يبدعوها وهل ستكون بداية جديدة للفيزياء أم نهايتها!

وكان تيفيز هو أكثرهم تفاؤلاً بذلك، ويبدو أن الفيزياء هي تخصصه الأساسي لكن لماذا قرر حسن ذلك ربما يكون مجرد حدث، فهم يمتلكون ذات المعرفة لكن يختلفون فيما يقترحون من أفكار حولها وكانت هالة تميل عليه لتبسيط المصطلحات ووجد حسن ذلك جميلاً وممتعاً لكن من أين أتت هي الأخرى بتلك المعرفة المتقدمة؟

ومع الاستطراد وكثافة النقاش، استعمل حسن عقله لتخيل أو تقريب تلك الأفكار بالخيال، عندئذ غيروا دفة الموضوع، وتحدثوا في تاريخ العلم وقاموا بتعريف الفترة السابقة للعام ١٩٠٠ وما كانت عليه المعرفة في تلك الفترة في علم الفيزياء والطب والهندسة والرياضيات والكيمياء والتطور، وكيف كان الحديث بين العلماء في ذلك الوقت عن أنهم وصلوا لنهاية العلم فلا شيء يستتجونه لكن تجربتين اثنتين طورتا العالم وأنتجتا العقول النابهة، الفيزياء الكمية رافقها صدور النظرية النسبية عن طريق أينشتين الذي ما زال يُعرف أنه أعظم عقلية علمية في التاريخ، وانطلقت الفيزياء وانطلقت كل العلوم خلفها وتطورت الحياة، وكانت من أفضل ما قالوا، وشعر حسن بشغف

شديد، وانتبه بكل جوارحه عندما بدأوا في تقمص دور العلماء السابقين وهم يستتجون نظرياتهم تلك الصعوبات التي تقابلهم ومحاولتهم القفز إلى الحل وهي لحظة الإبداع، شعر حسن أن هناك آفاقًا تفتح في عقله وأضاف ذلك له متعة جديدة وقربته من أبناء غايا أكثر، وأثارت في ذهنه أسئلة كثيرة ومحاولات للاستنتاج وتخيل نفسه في موقف العالم هذا أو ذاك وهو يواجه المشكلة العلمية ومهارته في حلها وهي لحظة الإبداع. وما أن انتهوا وذهب كل منهم إلى غرفته للنوم استعدادًا لرحلة الأمازون التي أكد عليها هولاند مرارًا وبأسلوب مشوق جعل حسن يتمنى أن يخرج النهار حتى يلحق بتلك الرحلة، لكنه جلس مع هالة فقال لها لأول مرة أعرف لماذا طالب العلم لا يشبع، ابتسمت هالة، ونظرت له بنظرة غير الذي عهدتها وشعر بفرح شديد وصارت ضربات قلبه مسموعة لأذنه بوضوح، ورأت دماء الخجل تندفع إلى وجهه وكان منظرها ممتعًا فلا أجمل من أن ترى نافورة الدماء تلك وهي تندفع إلى الوجه فتمسحه بلمسة ملائكية، وشعرت هي بخجل فودعته وقامت، وقالت مودعة، سنلتقي غدًا في غابات الأمازون أجمل غابات الدنيا فهي تحوي ٤٠٠٠٠٠ نوع من النباتات.

فقال لدي سؤال هل من الممكن، فعادت وقالت بدلال أسأل..

- فقال على ماذا تحتوي غرفة الرحم؟

- فقالت بسعادة هي غرفة استنبات مولانا، عندما نعود غدًا من الأمازون، سأجعلك تشاهدها.

استيقظ حسن مبكرًا قبل موعد الرحيل وقبل استيقاظ الفريق ذهب إلى غرفة الانتظار، فوجد ستيف جالسًا، وقابله ستيف بابتسامة، وقال هل تناول معي القهوة الفرنسية؟

- فقال حسن أنا لم أتناول القهوة الفرنسية من قبل.

- فقال ستيف إنها خليط من القهوة والنسكافيه والحليب والكاكاو والفانيليا.

- فقال حسن ضاحكًا هل تحتوي على كل ذلك؟

- فقال ستيف باسمًا، ثقافة شعب!

وأوما حسن موافقًا على تناولها فأعدها ستيف بمتهى التلذذ وكأنه فنان يقوم برسم لوحة ما، فانهمك فيها وذاب وعيه فيها، وبعد أن أعدها قال باسمًا هناك طرق كثيرة لإعدادها لكن هذا هو المتاح، ارتشف حسن رشفة فقال ستيف بتلهف، ما رأيك؟

- فقال حسن لقد أحببت مذاقها.

- فضحك ستيف وقال إنك رجل منفتح على العالم.

- فقال حسن وهل بقى هناك عالم!

فقال ستيف لا تكن سوداويًا، سترى جمال الأرض اليوم، وأكمل بشكل مسرحي، سنبدأ من البرازيل وفوق الجبل سنقف بمحاذاة الشمس يا حسن ثم ارتشف رشفة من قهوته ومد حسن يده ليلتقط كوب القهوة، كي يرشف رشفة هو الآخر، لكن يده لم تلتقط غير الهواء، فضحك ستيف وكانت عيناه تنظر خلف حسن فنظر حسن إلى ما ينظر له ستيف فوجد هالة وعلى شفيتها أثر القهوة وترتشف رشفة أخرى، وضحك حسن وضحكت هالة وضحك ستيف مما بعث بموجة من التفاؤل.

فقالت هالة، إنه لذيذ سنتقاسمه معًا يا حسن، ونظر حسن إليها وقد خطفه جمال شفيتها وإشراقه عينيها، وقال سنتقاسمه بحق الله فقالت بأداء تمثيلي بحق الله، ونظر إليهم ستيف غير مدرك مدلول تلك العبارة رغم أنه يعرف العربية، توافد الجميع حتى هولاند، الذي قال مبتسمًا، هيا ندرك الشروق من فوق جبل «رورايا».

فقال ستيف لحسن أقدم جبل في التاريخ، سنحلق من فوقه مباشرة إلى الأمازون، جلس الجميع في المركبة وقال هولاند، مستعدون للانطلاق؟ وهتف الجميع نعم!!!!!!م.

وكالعادة كان السكون يلف الجبل وبدا الجبل كشيخ عجوز متوحد حكيم
وشعر حسن بجلاله، عندئذ اقترب من الحافة فشر بالرهبة عندما رأى
السحاب يسري من تحته، عندئذ شقت الشمس ستر السحاب وخرجت
كجنين شق برأسه فرج أمه معلناً خروجه للحياة.

وما إن خرجت حتى توقفت أمامهم، وقفت بقرصها الذهبي وشم حسن
بل تذوق حسن طعم ريحها الدافئ والمختلط برذاذ بارد فأصابته انتعاشة
انسابت إلى روحه، وما أن علت قليلاً حتى أنارت أحد الشلالات الذي رد
تحيتها فعكس الضوء على وجوههم في مشهد بديع وتساعد هدير الماء بعدما
استعاد الشلال روح الحياة من الشمس.

اتجه الفريق إلى الشلال فقال هولاند، من أراد أن يتذوق ماء لم تطله يد
التلوث، انتشر الجميع حول الشلال وملاً حسن يديه بالماء وشرب، وكان
طعم الماء طيباً جداً وشربت هالة من يديه.

قال هولاند بعد أن شربوا، الآن سنركب الخفاش ونطلق وبعدها أعدوا
المحرك وبعد أن ربطوا الأحزمة واقتربوا من الحافة وانطلقوا مع الصباح
فرحاً، وخالط الخفاش السحاب ولامس الهواء أجسادهم مباشرة ووجوههم.

فقال هالة فرحة، الطيران دون طيارة كان حلمي الذي لم أتوقع أن يتحقق

فقال ستيف ذلك من أحلام الإنسان الحر، قام حسن بفرد زراعيه محاولاً
أن يحتوي بذراعيه ذلك الهواء.

كان الهواء محملاً بكميات كبيرة من الأكسجين فانتابتهم السعادة، فقال
تيفيز سعادة الأكسجين، فقال ستيف إن معدلات الأكسجين هنا كبيرة
فالأمازون رئة العالم، كنت أتمنى أن أكون موجوداً في الغابات من ٢٠٠ عام
قبل أن تمتد إليها يد التدمير، بدت تظهر من بعيد أجزاء قاحلة على تخوم
الغابة الكثيفة وعند الوصول إلى تلك المنطقة، المنطقة القاحلة، قال هولاند
استعدوا للهبوط.

اتجهوا بعد ذلك إلى الغابة الكثيفة ومع دخولهم الغابة الكثيفة شعروا باختناق ناتج عن الرطوبة، ظهر بعض التوتر على وجه حسن عندما شاهد بعض الأشكال الغريبة للحياة التي لم يعرفها من قبل، عندئذ أوحى إليه هولاند بالهدوء هامساً في أذنه، اهدأ لأنك في أخطر غابة على وجه الأرض، إما أن تصير جزءاً منها ويصير لديك تردد مشابه لتردها أو تلفظك فتبتلعك أمعاء أحد حيواناتها، ضغطت هالة بيدها على يديه في محاولة منها لتهدئته.

- فقال هولاند بهمس، راقب بهدوء.

- فقال حسن لقد جئت لأستمع بالحياة لا كي أراقب في هدوء.

أشار هولاند لحسن بيده في اتجاه شيء ما فنظر حسن، وكان المكان الذي يشير إليه حسن قريباً من حسن، وجد حسن بجانبه ضفدع أخضر اللون يقف على ورقة خضراء جعلت العين لا تلتقطه بسهولة ولولا إشارة هولاند لما شاهدتها حسن، كان الضفدع جميل ولامع، أشار هولاند إلى حسن أن يلتقطه فاقرب حسن بهدوء من الضفدع وهو يركز نظره عليه حتى لا يقفز بعيداً، لكن عندما اقرب أكثر اندهش من هيئة الضفدع فقد كان شفافاً لدرجة أن حسن رأى أعضاء الضفدع الداخلية، فحاول حسن قبل أن يلتقط الضفدع أن ينقل دهشته إلى هولاند فنظر إليه فوجد هولاند مبتسماً، وقال هولاند بصوت هامس إنه الضفدع الزجاجي وهو لا يوجد في أي مكان في العالم إلا هنا في الأمازون إنه من خصوصيات تلك الغابة.

واصل أبناء الأرض حركتهم حتى وصلوا إلى غدير ماء ينتهي ببركة حولها نباتات نمت حول البركة وفيها لكن المنظر كان جميلاً بل رائع الجمال، وتمددت عينا حسن حول المكان وفي المكان محاولة أن تخزن صورة عامة للمكان، فوجد مجموعة من الفئران تتناول بعض الثمار الساقطة من الأشجار العالية المحيطة بالمكان وكان ككل الناس يشعر بنفور داخلي من تلك القوارض القذرة خاصة فئران المجاري، إلا أنه راح يراقب تلك الفئران فقد كانت منسجمة مع البيئة، ورغم طبيعتها الحذرة إلا أنها لم تكن تعباً بالفريق، واصطدمت رجل هالة بأحد الجذوع وكادت أن تسقط إلا أن ستيف التقطها، وأحدث صوت الاصطدام اضطراباً التقطته إذن الفئران فاضطربت

هي الأخرى وفزعت، عندئذٍ ظهر عنكبوت عملاق كأن الغابة انشقت عنه فجأة وانقض على أكثر الفئران فزعا وغرس سمه فيه والتقطه ومضى مبتعدا وابتلعت الغابة مرة أخرى، لم يكن أعضاء الفريق قد التفتوا إلى ما رآه حسن، فلم يستطع أن يشاركهم الدهشة، هل كان كلام هولاند صحيحا فعندما فقد الفأر تناغمه نتيجة خوفه ابتلعت الأرض.

وتحرك ذهنه مستعيذا مشاهد كانت مخزنة في الذاكرة عندما كان يشاهد برامج عالم الحيوان، التي كان مغرما بها في صغره، ومشاهد محددة إن أردنا الدقة فقد حاولت الأسود اصطياد جاموس فقامت بتكتيك الهجوم وكان التكتيك واضحا هو إخافة الجاموس حتى تخرج عن تناغمها مع أمنا الأرض وبعدئذ تنقض على أكثرها خوفاً وهو أكثرها بعدا عن التناغم، وبالفعل استطاعت الأسود افتراس أحدهم ومن شدة خوفه استسلم منهزما وفي تلك اللحظات هدأ قطيع الجاموس للحظة فعاد له التناغم وعاد إلى الأسود وأنقذ ذلك الجاموس من بين أنيابهم، عندئذٍ فلسف حسن الأمور ووضع نظرية جديدة.

وقال لنفسه بثقة "أعرف كيف تتناغم مع أمنا الأرض وستفعل أي شيء".

وراح يتذكر أحد المضبوطات التي كان أحد الليبراليين يحتفظ بها ضمن كتبه إنها لمجموعة من كهنة شاولين وهم يفعلون أفعالا غريبة ورغم شدة خطورتها إلا أنها بهدوء شديد وكأنهم لا ينظرون إلى ما ينظرون أو يرون إلى ما لا نرى، شعر حسن بفرح شديد إلى ما توصل إليه، وأعجب بنفسه، عندئذٍ حاول أن يصل إلى هالة ويخبرها بما توصل إليه، لكن هالة وأعضاء الفريق كانوا منصتين إلى شرح هولاند وخططه وخطط أبناء غايا لإعادة تلك الغابة التي تضررت بشدة من المستعمر الأبيض الذي يحول أشجارها إلى طاقة سيستخدمها في الكوكب الجديد وهم سيقومون بتخزين ما يرونه من نباتات وكثافة تلك النباتات في الغابة والمخلوقات التي بها، لإعادتها بنفس الكثافة والحيوانات في المناطق التي خلت من الغابة وهي مساحات شاسعة، وراحوا يتنقلون وبسرعة وبأدوات لم يرها حسن من قبل لكنه استنتج أنها كاميرات للتسجيل، ونظر في شاشة الكاميرا التي تحملها هالة فرأى أنها تسجل أشياء وحيوانات مختبئة لا تدرکها العين ربما هذه الكائنات تحت الأرض وفوقها

وخلف الأشجار وفوقها، كل ما لا نشاهده موجود على الشاشة.

شعر بمتعة النظر والتنقل بين ما يراه على الشاشة وبين الغابة وراحوا ينتقلون من مكان لآخر، كانت مناظر الغابة خلابة جميلة سحرت حسن فهو لم يشهد هذا الجمال من قبل، وحاول أن ينقل إحساسه لهالة التي كانت منشغلة تمامًا بما تفعل ومصغية تمامًا لصوت واحد، للمعرفة التي تصدر من أي عضو من أعضاء الفريق، وبدأت الشمس في إرسال رسائل الغروب فظهر شعاع ذهبي تسلل من بين الأوراق من الناحية الغربية، وفطن هولاند للرسالة وقال علينا أن نستعد للرحيل عن الغابة لكن حسن لسبب ما شعر بضيق في قلبه، وهو يعرف سبب ذلك، لأنه لم يحظَ بحديث خاص أو اقتراب من حبيبته كما حدث بالأمس.

بدأت المركبة في التحرك، كان الجميع في حالة من الفرح والسعادة لكن حسن لم يستطع أن يقاوم ذلك الضيق، وما أن وصلوا حتى ذهبوا إلى غرفهم استعدادًا للعشاء والعمل في المختبر.

بعدما اغتسل حسن جلس على سريريه مضطرب النفس وكانت مشاعره هائجة عنيفة كموجة بحر في شتاء عنيف الريح لم يستطع كبجها، فوضع رأسه تحت المخدة ثم تكوم على نفسه وبعد لحظات راح في نوم عميق.

لم يوقظه إلا هزة رقيقة على كتفه أفاق على إثرها، فوجد وجهًا باسماً، ففرك عينيه حتى يستطيع أن يدرك الحقيقة التي يراها، وحاول أن يخبر عدم وجوده في عالم الأحلام، فقام معتدلاً ثم أمسك يد هالة حتى يتبين الحقيقة لكنه أمسكها برفق، وقالت لقد تأخرت على العشاء.

- فقال كيف نمت !

- مطت هالة شفتيها، وقالت هل نسيت موعدنا بعد العشاء؟

- نظر إلى هالة مستغرباً أي ميعاد؟

- فقالت ألم نتفق أن أصبحك لغرفة الرحم؟

- فتهلل وجهه وقال بلى صحيح، وقام من سريريه مسرعاً وقال سأغسل وجهي والتحق بكم، فقالت لا تتأخر.

وما أن تناولوا العشاء حتى جلسوا في حلقة شبه مستديرة، تفهم حسن أنها حلقة سمر وغناء وتمثيل بالعربية وباللغات المحلية لبلدانهم ورووا شعراً العنتره وامرئ القيس وأحمد شوقي، وقام ستيف بقراءة قصائد، نزار قباني، وانتقلوا إلى الأحاجي وكان حسن مستعداً لإبهارهم لأنه كان يعشق فك الأحاجي لكنه لم يستطع أن يفك أي أحجية وشعر باليأس مما دفع ستيف إلى أن يشجعه فقال له بشكل مباشر، ما هو مجموع الأرقام من "١-٩٩"؟ لكن حسن لم يستطع أن يصل إلى جواب في الوقت المحدد، فقال هولاندها نرقص، عندئذ انبعثت موسيقى إفريقية فقاموا جميعاً حتى هالة، لكن حسن ظل على حالته مقاوماً رغبة جسده في أن يرقص، لأنه لم يستطع أن يتخطى حاجزاً ما داخلياً، منع روحه من الانطلاق.

عندئذ شاهد ماركو يقترب من هالة ويهمس في أذنها، أنصت حسن حتى يسمع ما يقول أو ربما ركز متخطياً صوت الموسيقى واستطاع أن يسمع ماركو وهو يقول لها لا تقيدي جسدك اتركي روحك تتشي بالموسيقى وعندما يهتز جسدك لا تمنعه هو يعرف كيف يتناغم، أراد حسن أن يقوم ويغمض عينيه حتى تمس الموسيقى روحه ويترك جسده كي يرقص، لكن شيئاً ما منعه، ونظر إلى هالة فوجدها أغمضت عينيها ويبدو أن الموسيقى قد اختلطت بروحها فتغيرت اهتزازة الجسد، لقد صار متناغماً إلى أقصى حد وعادت إلى ذاكرته ذكرى انتشائه عند مولانا، وكان الحشيش هو الذي حرر ذلك القيد الذي يمنعه الآن من النهوض، حاول حسن أن يتحرر من قيده وحاول مراراً ولكن على ما يبدو كان القيد أكبر من أن تتخطاه روحه المقيدة، ومع امتلاء الجميع بقبس الموسيقى وشعور أرواحهم بالطمأنينة وميلها إلى الهدوء فجلسوا للراحة ونظرت هالة إلى حسن بود متسائلة عما منعه فشر بحرج، فهددته بنظرة أخرى فابتسم لها فاقتربت منه وراحت تحدثه ويحدثها، عندئذ استأذن الجميع منها بالذهاب إلى غرفهم لتلمس الراحة استعداداً للغد.

كانت ملائكية الوجه ساحرة العينين ذات شفاه لم يعرف كيف يشبهها لكن كانت أروع ما رأى هي مثل شفتي أنجلينا جولي لكنه لم يكن يعرف سيدة الجمال أنجلينا جولي، أراد حسن أن يقوم ويراقصها، ذاب فيها واقترب على

صوت الموسيقى الكلاسيكية وترك روحه تنتشي بالجمال والموسيقى، فتهايل جسداهما، لم يدر كم استغرق في حلمه لكنه استيقظ منه على تلك الابتسامة من شفيتها الساحرتين، فانتبه على سؤال، هل أعيش في حلم هو حقاً حلم الرقص أم في حلم الابتسامة! لم يعرف عقله أين يوجد الخط الفاصل ما بين الحقيقة والحلم، ويبدو أن السؤال هو عنوان الحقيقة لدى العقل، فاستيقظ من حالته إلى سؤال يحمل معنى الخوف، هل تفرقنا كما جمعتنا يد الأقدار؟ إنه الخوف مرة أخرى، عندئذ فقد التناغم فابتعدت هالة بعد أن اكتشفت حالتها وقامت مستأذنه وقالت أشعر بحاجتي إلى النوم وبعض الراحة فتفهم طلبها لكنه لم يكن يشعر بحاجته إلى النوم، وقبل أن تمضي، قال أين سنذهب غداً؟ فقالت لن نشاهد الشروق في الخارج غداً لأن لدينا أعمالاً كثيرة في غرفة الرحم، كان لحسن رغبة في أن يدخل غرفة الرحم الآن كما وعدته لكنه لم يرد أن يشق عليها وسيتظر للغد.

استيقظ حسن مبكراً راجياً أن يسبقهم كي يعد القهوة الفرنسية له ولها، وقام بخلط المقادير وأعدّها بمهارة ولم ينتظر مجيئها طويلاً لأنها كانت أول الواصلين فأعطاهما فنجان القهوة وقالت ألا تريد أن تشاركني فنجانك مرة أخرى؟

ابتسم حسن..

توالى أعضاء الفريق بالحضور لتناول فطورهم وما هي إلا لحظات حتى حضروا جميعاً وبعدما تناولوا فطورهم، قاموا إلى المعمل، وكان هناك أعمال كثيرة ونقاشات كثيرة، وبدأ لحسن أنهم أصحاب تخصصات مختلفة، واستطاع أن يستنتج أن هالة ربما تحمل تخصصاً قريباً من تخصص هولاند وبدأت العلاقة بينهما كعلاقة التلميذ من الأستاذ، كان استنتاج حسن ناتجاً من تلك النقاشات التي كانت تدور بينهما وكان هولاند يطلعها على أبحاث نقل المعرفة إلى العقل، ودار بينهم نقاش لم يستطع حسن أن يفهم أي شيء وكان المعمل يعج بحركة من الفعل والتعلم وكان يشاهد شاشات افتراضية تفتح ثم تطوى مع تحرك أصحابها، وبعد وقت ليس طويلاً دعاه هولاند للاقتراب فاقترب حسن ودعاه هولاند للنظر إلى الشاشة وقال هولاند شارحاً أن تلك الشاشة ترصد غرفة الرحم من الداخل وترصد أنبوب

الرحم أو الرحم إن أردت أن تسميه بدقه وجمال حسن بنظره في كل أرجاء الغرفة فأشار هولاند إلى جزء ما من الغرفة يظهر على الشاشة، وقال انظر إلى ذلك الأنبوب، ماذا بداخله، فنظر حسن إلى الجسد الذي بداخله لقد كان جسداً يافعاً، فقال هولاند انظر إليه ألا تعتقد أنه يشبه شخصاً تعرفه؟

- فقال حسن إنه يشبه مولانا.

- فقال هولاند نعم إنه مولانا وهو الآن في طور الشباب.

ثم أعطى بعض الأوامر للأجهزة على شاشة الكمبيوتر فتحركت محاقن مجهرية بحقن جسد مولانا.

- وقال هولاند ابتداء من الغد سيكون بإمكاننا زيارة مولانا.

- لكن حسن لم يفهم ماذا يقصد هولاند.

فقالت هالة بإمكاننا الاقتراب من الأنبوب ابتداء من الغد، وبإمكاننا رؤية مولانا عياناً وليس على الشاشات. ويبدو أن كليهما في شوق لرؤية مولانا وانتظرا أن تمر ساعات يومهم بسرعة حتى تصل للغد، ويبدو أن رغبة هالة الشديدة لرؤية مولانا أفقدتها الرغبة، في الطعام والحديث، وذهبت إلى غرفتها، ولم تخرج ومضت الساعات، على حسن ثقيلة على نفسه وتحملها بشوق محترق، وكان النوم هو دواء الزمن الناجز، وعلى ما يبدو أن حسن وهالة لم يكونا في انتظار رؤية مولانا بل كل أعضاء الفريق، وتحركوا جميعاً ومعهم هالة وحسن إلى المعمل والشوق بادٍ عليهم وكان لكل واحد منهم سبباً لهذا الشوق، وكان شوق هالة وحسن مختلفاً عنهم وكان مختلفاً عندهما أيضاً.

دخل الجميع إلى غرفة الرحم، والتفوا حول أنبوب الرحم الذي يحتوي على جسد مولانا ونظر حسن بتمعن، وكان مولانا قد غادر العشرينيات واستطاع حسن أن يلاحظ ذلك، ونظر إلى هولاند لينقل له استنتاجه فوجده يقول إن معدل تغير عمر مولانا سيبدأ في الانكماش ولن يقفز قفزات كبيرة ابتداء من الغد، وعندما يكمل الأربعين من عمره سيخرج من الأنبوب، نقل حسن نظره إلى هالة ليرى ردة فعلها، فوجدها تقف ناظرة إلى وجه

مولانا الصوفي كعاشقة في محراب الحب، وشعر ببعض الغيرة فكتمها، عندئذٍ مالت هالة على الأنبوب وطبعت قبله على الموضع الموجود فيه رأس مولانا، وانتاب حسن بركان من الغيرة وأصبح صدره مرجلاً لم يحتمل الجمر فعلى ما بداخله قاذفاً الغطاء معلناً الانفجار، فقال أنا سأذهب إلى غرفتي وخرج مسرعاً دون أن ينظر إلى عيني أي أحد منهم، عندئذٍ شعر بضعف شديد انتاب كل عضلاته وتكوم على سريرته ونام.

شعر حسن بيد تحاول أن توقظه ويبدو أنها فشلت من قبل في إيقاظه فهزته بعنف، فتح حسن عينيه فوجد ستيف الذي قال هل أنت متعب، فقال حسن نعم كنت أشعر ببعض التعب.

- فقال ستيف ألن تستطيع أن تخرج معنا وتلحق بالشروق؟

- فقال هل نمت طويلاً جداً إلى تلك الدرجة؟

- فقال ستيف صحيح لقد نمت طويلاً.

- فقال أين ستذهبون؟

- فقال هولاند، الهند.

شعر حسن بتعب وعدم الرغبة في الخروج وحاول الاستئذان لكن هالة دخلت الغرفة وقابلت حسن مبتسمة وقالت هيا أيها الكسول.

فقام حسن لكنه لم يتخلَّ عن كآبته التي زادت عندما وصل إلى الهند لأن ما رآه عكس ما كان يتوقعه فالأرض جرداء متصحرة قاحلة وكانت هناك آثار لمجرى الأنهار والأغاديير والشلالات، وكانت الرائحة المنتشرة رائحة الكبريت المختلط بريح الرماد المتخلف عن الحرق، في تلك الأثناء سعدت الشمس من مرقدتها لكنها هذه المرة لم تكن تحمل روح الحياة بل غضب على تلك الأرض التي لم يحترم الإنسان ابنها الحياة فيها، فلم تسمع إلا فحيح الموت الصادر من رياح السموم، وشعروا بهجوم الشمس فهربوا إلى المركبة احتساء من غضبها، كان الجميع في حالة من الحزن، لم يخرجهم منها إلا صوت هولاند.. وماذا كنتم تعتقدون.

- فقال ستيف لم تكن نتخيل أن الوضع بتلك البشاعة.

- فقال هولاند هل يجب علينا أن نياس، شعر حسن بحزنهم واستتج
أن تلك الغابة تم اجتثاثها منذ وقت قريب لكن أين الحيوانات، فقال لـ
ستيف، أين الحيوانات؟

- فقال ستيف تحولوا مثل الأخشاب إلى طاقة.

فقال هل لدى الغرب القدرة على تحويل تلك المساحات الشاسعة إلى
طاقة؟ فقال هولاند إنك لن تستطيع أن تتخيل ما وصلت إليه التكنولوجيا
الآن.

نظر هولاند للجميع وقال بالتأكيد أبناء غايا في كل مكان يعملون على
معالجة ذلك ويبدو أنهم لم يتصلوا بنا لسرية ما نحن فيه، لكن علينا أن
نقوم بدورنا ونفعل مثل ما يفعلون الآن ونستغل وقتنا ونتج بذور الحياة،
فقالت هالة لحسن، سيتجون الجين الجرثومة الذي سيتج الحياة.

شعر بحيرة أكثر.. فقالت سيقومون بإنتاج الجينة لكل نبات ثم وضعها
في غطاء يجعل منها جرثومة صالحة للحياة ما إن تجد الأرض حتى تنبت،
وإن لم يكن هناك ماء عند الزرع فإن غطاء الجرثومة سيمتص الماء من الهواء
وبذلك يكون لدى النبتة ما يكفي من الماء، وبعد ذلك يقومون بتوجيه
السحاب إلى تلك المنطقة حتى تمطر في ذلك المكان، تحركت المركبة، وبسرعة
تدخل غرفة الرحم قال حسن لنفسه إنه ما زال جنينا حتى ترى مولانا، وقبل أن
فهو ما زال جنينًا، هي حتما لا تحب مولانا، ربما تكون روحها معلقة به،
أو ربما يكون اهتمامها اهتمام عالم بتجربته، لكن شيطان الوسوسة أخبره أن
العلماء الآخرين لا يحملون نفس اهتمامها رغم أنها تجربتهم بالأساس، لكن
حسن لم يمهل شيطان الوسوسة كثيرًا، وكعادة الإخوان أوجد مبررًا لها،
وقال ربما لأنها تجربتها الأولى وهي تجربة مذهلة على أية حال، لكن عليّ
أن انتظر، بالقطع شعورها تجاه مولانا هو ليس شعور بالحب أبدًا فأنا لا
أستطيع أن أتخيل ذلك.

ذهب حسن إلى طعام العشاء مبكرًا منتظرًا عودتهم من المعمل فهو لم يشهد أي فرد من الفريق منذ عودتهم من الهند، فكان أمامهم عملاً كبيرًا وكثيرًا لذا لم يغادروا المعمل، كانوا ملتزمين بمواعيد الطعام، لذا لم يطل انتظار حسن لهم طويلاً فقد وصل هولاند وحوله جوقة العلماء يتناقشون، وتهللت وجوههم عند رؤية حسن لكنه لم يرَ هالة، أين هي، هل ما زالت في المعمل تؤدي عملها أم تراها ما زالت في حجرة الرحم، لكن هالة ظهرت الآن آتية من غرفتها مشرقة كالقمر استقبلها حسن بابتسامة فأحضرت طعامها وجلست بجانبه، وقالت بصوت خافت، وحشتني يا حسن.

لم ينطق حسن، بل صعدت الدماء إلى وجهه دفقة واحدة، نظر إليها بعينين يملؤهما العشق، قرأتها لكنها لم تعلق بل انتقلت إلى سؤال مباشر لحسن، هل تعتقد أن مولانا يحمل روحًا صوفية؟

فقال بضيق، لما تقولين ذلك؟

فقالت أنا أشعر بها، شعر أن هناك حجرًا موضوعًا على قلبه، لكنه لن يقوم ويتحرك إلى غرفته حتى يفرغ فيها طاقة الحزن التي تعتريه فهو بجانبها مهما تكون، لكنها لم تتوقف طوال الليل عن الحديث عن مولانا، ومع اقتراب موعد الانصراف إلى غرفهم قالت وهي تقوم سأذهب قبل أن أنام إلى غرفة الرحم، لو أردت أن تصطحبني سأكون سعيدة.

لم يستطع أن يرفض لها هذا الطلب، وذهبا سويًا لكنها جلست بين يدي مولانا وانصرفت عن حسن وانصرفت عن الدنيا كلها، وشعر حسن كأن حديثًا هامسًا يدور بينها وبين مولانا، ربما هو يشعر بها وتشعر به، لكنها لم تشعر بانصراف حسن من المعمل، ومرت الأيام ولم يكن حسن يشاهدها إلا على فترات متباعدة وكان عندما يشتد به الشوق يذهب إلى المعمل كي يراها، ثم يعود إلى حجرته.

كان يومًا عصيبًا، الكل في غرفة الرحم يعملون كخلية نحل، وكان حسن موجودًا أيضًا لأنه يومًا عظيمًا.

كان فريق العلماء يعمل كخلية نحل، الكل يعرف دوره ويؤديه بمهارة وكانوا مقسمين كمجموعات كل مجموعة لها قائد، مما أبهر حسن الذي كان ينتظر أهم حدث، ورغم قلقه واختلاط مشاعره إلا أنه كان يسترق النظر لهالة، ويتجول بنظره في كل أنحاء الغرفة لمتابعة كل الفرق عندئذ بدأ عمل فريق الوعي، ونظر حسن باهتمام إلى جسد مولانا في الأنبوب الذي تم التعامل معه بأشياء كثيرة والخاصة بإعداده للخروج من الرحم، تأكد حسن أنهم فريق الوعي عندما بدأت هالة ضوئية تقترب من رأسه ولبستها كطاقية، بل هالة ضوئية حول رأس ملاك، هكذا بدا أمام حسن لكن ملاك بلا حياة، لم يكن جسد مولانا يأتي بأي حركة وكان الفاصل بينه وبين الجسد الميت هو إيمان هؤلاء الأشخاص أنه حي، وكانت الشاشة أمام هولاند عليها كل شيء وكانت هي الشاشة الرئيسة، ولم يكن مع هولاند سوى هالة فاقترب حسن منهم ونظر خلال الشاشة وشاهد كيف يتم تنزيل الوعي في رأس مولانا، ونقل حسن نظرة بين الشاشة والأنبوب وطاف بذهنه سؤال ولو كان الوقت يسمح لسأل هولاند لماذا يحدث هذا الذي يراه فقد كان يرى شيئًا عجبًا فمع تحميل الوعي المتدرج لرأس مولانا شاهد الجسد وكأن الحياة تدب فيه تدريجيًا وكأن الروح تدخل الجسد، وما إن أنزلوا الوعي إلى الجسد حتى أخرجوه من الأنبوب وكانت إجراءات النقل تتم ميكانيكيًا فتم تفريغ الأنبوب من السائل وتحرك مكبس ونقل الجسد الذي خرج من الأنبوب جافًا إلى سريرته واتصل أنبوب يحمل الأكسجين بفمه وتم حقن مولانا بمادة محفزة للذهن حتى يكون جاهزًا للإفاقة، واستخدموا صواعق كهربية للإفاقة، واسيقظ مولانا، وانتظر حسن سؤال مولانا الذي يتوقعه.. من أنتم؟

عندئذ سأل هولاند كيف حالك يا مولانا؟ فقال بصوت خافت حمداً لله،
عندئذ تم إيصال خرطوم التغذية إلى ذراعه، بعد ذلك أعطوه مهدئاً فنام،
وخرج الفريق من المعمل حتى هالة، تاركين

مولانا في استجمامه غاطاً في نومه، انفصل حسن عن الجميع وذهب إلى
غرفته ولم يجلس كي يستمع إلى تقييمهم لحالة مولانا، لكن هالة جلست
حتى تتعلم.

دخل حسن مشدوهاً إلى غرفته، فقد كان وقع تلك التجربة على قلبه شديداً
جداً، ومرة أخرى يقع في تلك المعضلة، الفواصل بين الحياة والموت وقدرة
الإنسان على تخطي تلك الحواجز، هاهم دون أب وأم أوجدوا الحياة، هاهم
يستعيدون من مات إن أرادوا وكأنهم سحرة، فقد كان أقصى حلم للسحرة
قديمًا أن يعيدوا الحياة للموتى، ولأنهم يعلمون أنهم لن يستطيعوا أن يتحدوا
الموت فكانوا يتحايلون باستدعاء الأرواح، الآن يجعلها هؤلاء القوم باستخدام
العلم شيئاً عادياً في تحدٍ لكهنوت الموت. وتذكر كلمات الشيخ الدرويش بأنه
سيشاهد أحياء الموتى. هل كان يقصد ما يراه الآن أم أن ما مرَّ به سابقاً لا
أعتقد أن هناك نبوءة تستطيع أن تتوقع ما حدث.

جلس حسن برهة لم يدر إن كانت كبيرة أو صغيرة بغير تفكير.

لكنه عاد مرة أخرى وسأل نفسه، هناك شيء ما أسرني عند اقترابي من
مولانا «إنها الهالة الصوفية التي تملأ المكان حول مولانا» لماذا لم أشعر بها
إلا عندما تم زرع الوعي في عقله. وتذكر حديث هالة عن تلك الهالة لكنه
لم يصدقها ومط شفتيه وقال لنفسه مستغرباً كيف شعرت بها قبلي، وما سرّ
هذا الصفاء في مولانا حسن البناء، نام حسن لكن قبل أن ينام كان لديه رغبة
كبيرة في رؤية مولانا، فنام على أمل أن يسمحوا له برؤية مولانا غداً.

حاول النوم لكن السؤال كان ملحاً، فخرج من غرفته ربما يجد أحد أعضاء
الفريق ليسأله هل بإمكانه أن يرى مولانا غداً؟ أو بالأحرى متى يستطيع أن
يرى مولانا ويتحدث إليه؟

كان يتمنى أن يقابل هالة، حتى يتحدث معها عن مولانا فربما ما زالت تحمل نفس الشوق للحديث عنه.

خرج حسن فوجدهم جميعًا يتناقشون في العلم، شعر حسن بحسد شديد لهم، إنه العلم لو ظلوا يتحدثون فيه طوال عمرهم ما انتهوا، كان هذا انطباعه عن العلم فمن أدمنه لا يشبع منه، تبسموا حينما أبصروه وتهلل وجه هالة فجلس بجانبها..

- فنظر إلى هولاند سائلًا، متى نستطيع رؤية مولانا،

- فقال هولاند غداً.

- فقال حسن هل سنستطيع أن نتحدث معه؟

- فقال هولاند نعم بإمكاننا ذلك، وقال مستطردًا وبعد غد ربما نستطيع الرحيل، انتهت أسئلة حسن لهولاند، وقاموا إلى أسرتهم لينالوا قسطًا من الراحة لكن هالة ظلت جالسة ولم ترحل،

- فقال حسن كيف يكون لروح مولانا كل هذا الصفاء؟

- فقالت بل تملك روحه كثير من القلق.

أفرغه ردها.

- فقال أنا لم أشعر بذلك.

- فقالت لأنك رأيته كما تريد أن تراه.

شعر حسن ببعض الإحراج لأنه لم يفهم ما تقول وأراد أن يغير دفة الحوار

- فقال أليس من الممكن ألا يكون لدى مولانا رغبة في العودة إلى الحياة،

- مطت هالة شفيتها وقالت ممكن آه ويمكن لا.

أليس هذا اعتداء على اختيار مولانا، ألسنا أنانيين بأن نعيد إنسانًا للحياة دون اختيار منه وربما يكون هو رافض لذلك وارتاح بالموت؟

شعرت هالة بتغير كبير عند حسن فهو يفسف الأمور. فقالت ما احنا جينا للحياة من غير ما نتسأل،

راح في صمت عميق ورأى الإرهاق في عينيها فأشفق عليها وتركها تعود إلى غرفتها وغادر إلى غرفته في انتظار الغد، لكنها ذهبت إليه لم تركه يستيقظ منفردًا وهزت كتفه برفق ففتح عينيه فوجدها مائلة عليه متهدلة الشعور كعروس بحر أثقلها الشوق إلى الماء، هكذا رآها فقام من سريره معتدلاً ونظر إليها غير مصدق.

فقالت صباح الخير يا حسن، بصوت لم يسمع حسن أعذب منه وخرجت مسرعة، فارتدى حسن ملابسه مسرعاً بعدما اغتسل حتى يدرك هالة، فوجد الجميع في انتظاره لتناول الإفطار معهم، ويتبع الفطار استقبال اللحظة الفريدة، عند إيقاظ مولانا، فشكرهم حسن أنهم لم يحرموه من تلك اللحظة،

التف الجميع حول مولانا ويهدوء شديد وضع هولاند يده على كتف حسن البنا وقال بصوت خفيض مصحوب بهزة رقيقه.. مولانا.....

استيقظ مولانا ليجد تلك العيون الباسمة وقال له هولاند السلام عليكم يا مولانا وقال حسن البنا عليكم السلام بروفيسور هولاند، ضغط حسن على يد هالة مستفسراً، فأومأت له برأسها، نعم، فهي تعلم ما أراد أن يستفسر عنه، أراد مولانا أن يعتدل من مرقده فساعدته هولاند وبعدما اعتدل قام وأرشده ستيف إلى الحمام وقال هولاند سننتظرك حالما تنتهي، وما أن انتهى حتى أعدوا له طعام الفطور، تناوله مولانا على مهلٍ وشعر بفيض من القوة يحتاج جسده وراح يعتمد على نفسه، وحالما انتهى من فطوره حتى نظر إليهم وقال لهم مداعباً: أين موضع الرصاص في جسدي؟

فقال هولاند كان بإمكاننا أن نترك لك ندبات على جسدك تدل على أماكن الرصاص لكننا تركناك تستمتع بجسدك، ابتسم مولانا شاكرًا لهم، لم ينطق حسن بل ظل مراقباً لمولانا مسحوراً بروحه العذبة وهالته التي تملأ المكان،

وتم نقل مولانا إلى غرفته ثم أعطوه مهدئاً ومغذيات عن طريق محاقن مجهرية وتركوه ليرتاح مع دعوة له على الغداء مع كل الموجودين احتفالاً به، ثم اتجهوا إلى المعمل واتجه هو إلى غرفته وقبل أن يغادر هالة، قال: هل قرأت كتباً لكارل بوبر؟ نظرت لحسن فرجة.. وقالت: هل استطعت أن تقرأ له؟

كان سؤالها رغم قسوته إلا أن حسن تفهمه فقال لها: نعم قرأت له كتابين. افرقا على اتفاق بمناقشة أفكار فيلسوف العلم.

جلس الجميع حول مولانا حسن البنّا وهم يتناولون طعام الغداء معه احتفالاً به.

وكان لدى مولانا رغبة في الحديث فترك ليتحدث، وراح يحكي عن جمال مصر في فترة العشرينيات وكيف كانت تلك الحقبة الليبرالية تسير حنقه وروى كيف كان ينظر إلى تلك الفترة وشعوره بحاجة المجتمع له فقد كان يظن أن المجتمع قد وصل إلى مرحلة من الانحلال وخاصة في مدينتي القاهرة والإسكندرية يستدعي غضب الله، وظن أنه مكلف من قبل الله بهداية هؤلاء الناس وأنه ليجد أن هدايتهم واجب وأن الله سيعاقبه في الآخرة لتركه كل هذا الفساد دون تغييره أو إنكاره، وقال بعد صمت إنه أخطأ وأدرك في نهاية حياته أنه أخطأ وراح يروي عن طفولته كيف كانت وعن عدم قدرته على حفظ القرآن الكريم كاملاً.

نظر حسن إلى مولانا باندھاش شديد فالرجل يحكي عن حياته بحلوها ومرها ويحكي عن كل شيء ولم يتحرج أن يتحدث عن أخطائه التي لم يتحرج منها، ولم يحاول أن يخفيها ولم ينكرها ولم يبررها وكانت حكاياته عن أخطائه نابعة من ثقة في أنه سيأتي يوم ما وسيصلحها، وكان يعلم دوره جيداً في التأثير على مصر في سنين حياته، فدعوته انتشرت كانتشار النار في الهشيم، وروى كيف ارتد المجتمع من الحضارة والتفكير في المستقبل إلى التفكير في الماضي، وروى أنه خاض صداماً ومهادنة مع قوى المستقبل التي كان لها أسئلة عن المستقبل، وهادن السلطة التي استعملته واستعملها وذلك لإجبار المجتمع على العيش في الماضي، واستطرد بأسى ما حدث..

فبعد ظهور دعوته انحدر المجتمع انحدارًا كبيرًا وكادت عجلة المستقبل أن تتوقف أو هي في طريقها إلى التوقف وقال: علمت بعد وفاتي وعلمت الآن أين نحن، وأين العالم بفضل دعوتي. وبعدها انتهى من حديثه أخبروه أنهم يستعدون للخروج من هذا المكان غدًا لمقابلة العالم، وأن عليهم تجهيزه صحيًا، لذا سيذهب إلى غرفته ويكملون العلاج اللازم، حتى يصير جسده قادرًا غدًا على تحمل الأعباء، فأعطوه مهدأ ونام، فبدأوا العمل على جسده وما أن انتهوا، خرجوا وأخبروا حسن أن بإمكانه أن يدخل غرفة مولانا والإقامة فيها إن أراد، لأن مولانا سيستيقظ غدًا عافيًا قويًا متعافيًا، وهم سيذهبون إلى المعمل لتجهيز جرثومات الحياة ووضعها في المركبة التي ستتحرك للهند بعد رحيلهم، وستنشرها هناك يعقبها رسالة من نفس المكان بتقرير وافٍ عن كل ما حدث خلال فترة إقامتهم في المغارة، هم يعلمون أن أجهزة المخابرات ستلتقط الرسالة ولن يستطيعوا أن يفكوا شفرتها وسيعاملون مع المغارة وهذا سيعطيهم وقتًا كبيرًا للهروب لأنهم سيضبطون الرسائل تلك كي تصدر بعد رحيلهم ب ٢٤ ساعة.

كان الجميع مستعدين نفسيًا وذهنيًا وبدنيًا للرحيل، حتى مولانا الذي استيقظ بحالة صحية جيدة جدًا لم يتوقعها حسن، ولم يحزموا حقائبهم لأنهم لن يصحبوا أي شيء معهم وكل ما في المغارة سيركوه، وكان الليل في خارج المغارة قد حل، عندئذ قاموا بارتداء لباسٍ يخفي جسدَهم كله من أعلى رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم فبدوا ككائنات فضائية، عندئذ ارتدوا فوقها ملابس عادية فاستفسر حسن عن ذلك اللباس فقالوا إن له وظيفتان، هي إخفاء الأثر الحراري للجسد أو تغيير البصمة الحرارية له، فقال كيف ستتفهم؟ فقال هولاند عندما ترتديه ستعرف.

أخذ حسن لباسه ولباس مولانا وساعد مولانا في ارتداء ملبسه بعدما وضع حسن الغطاء على رأسه الذي لم يكن به منفذ ولا حتى للعينين لكن أمام العينين جزء شفاف لا يحجب الرؤيا، وعندما ارتدى حسن ذلك الجزء لم يخشع كما كان يعتقد بل تنفس بطريقة طبيعية.. من أين يدخل الهواء؟، ولم يشعر بأي احتباس حراري داخل ذلك اللباس لذا لم يشعر بضيق كما

كان يعتقد، وبعد أن ساعد حسن مولانا في ارتداء ذلك اللباس شعر حسن أن لديه وظيفة جديدة هي حماية مولانا وأن يكون حارساً شخصياً له، واطمئن حسن على حالة، وبعد أن اطمئن هولاند على الجميع لم يكن أمامهم إلا الرحيل الآن.

تحركوا خلف ستيف الذي سيقود الفريق للخروج، خرجوا من المغارة إلى النفق الذي تضرر بالفعل، وكان تجاوز الصخور وتجاوز بعض المناطق الضيقة، أمراً مجهداً وكان النفق طويلاً لكن الضربات لم تنجح في إغلاقه حمداً لله هكذا قالها هولاند بعفوية لنفسه، ولم يتخيل حسن أن يكون هناك أنفاق تمتد بهذا الطول، وأصابه الإجهاد ونظر إلى مولانا فوجده يسير دون أن تشتكي عينيه أي إجهاد، وتمنى أن ينتهي النفق قبل أن يصاب مولانا بإجهاد، وكان في سيره ينقل عينيه بين مولانا والطريق، واقترب من هولاند وسأله هل بقي الكثير؟

فقال هولاند عشر دقائق ونصل إلى نهاية النفق، فرجع حسن وسار بجانب مولانا. وأراد أن يطمئنه أن النفق كاد أن ينتهي، لكن مولانا لم يشتك،

فسار حسن بجانبه صامتاً. وكان هولاند دقيقاً جداً فقد وصلوا إلى نهاية النفق في الوقت المحدد، وقف الفريق بعدما أصدر ستيف إشارة بالتوقف لكن حسن اكتشف أن النفق لم ينتهِ كما توقع، فما زال ممتداً في نفس الاتجاه لكن ستيف ضغط على زر في ساعته فظهرت شاشة افتراضية صغيرة أدخل عليها أرقاماً سرية لم يستطع حسن أن يتبينها. عندئذ انزاح سقف في أعلى النفق، وظهرت السماء فشعر الجميع بالراحة، ومع خروج آخر فرد من أعضاء الفريق، تحرك السقف مرة أخرى. وعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه وكأن شيئاً لم يكن و كان الغطاء متلائماً مع الطبيعة فلا فروق تستطيع العين أن تدركها واختبرها حسن فبعد رجوع الغطاء إلى وضعه الأساسي راح حسن يطرق عليه بحذائه لكنه لم يسمع صوتاً مختلفاً كما توقع وتجهول بعينه وكانت أرضاً صحراوية ممتدة لا صخور حولها ولا أي غطاء، فابتسم حسن وقال ربها أفضل اختفاء هو الاختفاء الظاهر، ومضوا لم يزدوا من سرعتهم

ولم يخففوا وما زال ستيف يقود المسيرة، كانت السماء سوداء مليئة بالنجوم وكان الليل حالك السواد لكن أعينهم قد تكيفت وكان باستطاعتهم رؤية أحدهم الآخر، وزاد تعب حسن وبدأ التعب يحل على مولانا أيضًا وظهر هذا في مشيته، لكنه لم يشتك، عندئذٍ شعر حسن بتغير الأرض التي يمشون عليها، فسمع صوت اصطدام حذائه بالحصى، فخفف من اصطدام رجله بالحصى ليس خوفًا من أن يتهدى الصوت إلى أذن أي متربص، لكن لم يشأ أن يتصاعد أي صوت حتى لا يكون نشازًا مع صوت الليل والصحراء وروحها الصوفية، والتي صار بوسعه أن يلمسها ويشم رائحتها.

لم يدرك حسن أن هناك من يمشي تحت وطأت هذا الليل في الصحراء الممتدة المظلمة غير متناغم فلا يصبح متاحًا له إلا أن يحتمي بالذات العليا أو يترك فريسة ينهشه الخوف.

قال ستيف أمامنا خمسة عشر كيلومتر، ونصل إلى مكان السيارة، فيجب أن نسرع الخطى قليلًا، لم تكن كلمات ستيف المشجعة بقرب الوصول كافية لحسن كي يتغلب على حاجته للماء فشعوره بالظمأ ومعرفة بعدم وجود ماء جعل الأمر ملحًا على عقله، وحاول أن ينقل ذهنه إلى مكان آخر فحاول أن يفكر في حالة وعن حالهما بعد انتهاء تلك المهمة.

هل بإمكانهما أن يظلا معًا؟ هل سيستطيع أن يخبرها بحبه؟ هل هي تحبه من الأساس؟ ما زال شاكا.

لم يستطع حسن أن يكمل خط التفكير فقد ألح عليه العطش ولم يستطع أن يمنع نفسه، فاقترب من هولاند مرة أخرى وقال باسمًا هامسًا هل في السيارة ماء؟

فقال هولاند في البدلة التي ترتديها ماء، وضغط هولاند على زر في تلك البدلة التي يرتديها حسن وشعر حسن أن هناك أنبوب صغير امتد إلى فمه وسكب فيه بعض الماء، شعر حسن بالراحة فاقترب من مولانا وضغط على الزر في بدلة مولانا المشابهة لبدلته، فشرب مولانا ونظر إليه باسمًا، استطاع

حسن أن يرى تلك الابتسامة في عين مولانا.

استطاعوا الوصول إلى النقطة التي حددها ستيف عندئذٍ كشفت الصحراء عن حافلتين بقرب طريق، فقال هولاند الآن سنقسم لفريقين أحدهما معي والآخر مع ستيف، ومضوا دون إضاعة الوقت، تحركت السيارتين خلف بعضهما لبضعة كيلومترات سرعان ما افترقتا.

ونجح كلا الفريقين في الوصول إلى البيت الآمن عندئذٍ، قاموا بخلع ما يرتدونه من ثياب لكن هولاند طلب من حسن عدم خلع رداءه لأن بصمته الحرارية مسجلة ثم أخرج شيئاً مشابهاً للحقنة واقترب من ذراعه وقال يجب أن أعطيك هذه أولاً وقام بحقنه في ذراعه.

فاستفسرت هالة وقالت ما هذا؟

فقال هولاند إنه لتغيير البصمة الحرارية، لأن معرفة البصمة الحرارية له ستعني هلاكه فوراً ومن بجانبه أيضاً.

فقالت هالة ألا تستطيع أجهزة التجسس أن تحلل البصمة ومعرفة أنها زائفة؟

فقال ستيف ربما وربما لا، لكن لدينا عامل جيد أن حسن معنا وهنا مجال مشوش لن يستطيعوا تفكيكه بسهولة، ثانياً هم لن يتوقعوا أننا ما زلنا على قيد الحياة قبل غد عندما تصدر الإشارة من المغارة في اتجاه أبناء غايا وسيعاملون معها ثم يقومون باستنتاج مواقعنا وتحليل كل البصمات الحرارية في المنطقة.

فقالت ألم نكن نرافق حسن أنا وستيف؟، إذن هم سجلوا بصمتنا الحرارية أيضاً فقال لقد تم تزويدكم قبل الخروج ببصمات زائفة.

بعد لحظات خلع حسن بدلته، وبعد أن استراحوا قليلاً استأذنوا للنوم لكن مولانا أصر على أن يصلي الفجر وينام، فانتظر حسن بجانبه وصلى معه الفجر، دخل حسن غرفته، حاول النوم لكنه لم يستطع النوم وقال لما

تبدو القاهرة متوترة إلى هذا الحد، على الرغم أن المظهر العام للقاهرة لا يشي بذلك إلا أنه يعلم فخبيرته الأمنية ومعرفته بأحوال القاهرة توحى باللهيب المستتر تحت الرماد، هل ساعة الحرب بين الشمال والجنوب قد دقت والكل يستعد لها، استطاع حسن أن يعرف أين يقيم إنه في المقطم،

لم ينم حسن وفكر في كلمة مولانا تعليقاً على ما شاهده من السيارة.

- وقال مولانا أين ذهبت مصر الجميلة.

نام حسن لم يستطع أن يكمل استرساله في الأفكار لكنه رد على مولانا وقال متمتماً قبل نومه وهو يعتدل على جنبه الأيمن:

- إنها كما أردت يا مولانا.

استيقظ الجميع في وقت متأخر لأن أجسادهم كانت تحتاج إلى الراحة ثم أيقظوا مولانا حسن البناء وتناولوا فطورهم، ثم قال هولاند لحسن ومولانا:

سنقوم إلى أبحاثنا ونعد كل شيء حتى نجعل الناس يعرفوا أن مولانا قد عاد من الموت ويصدقوه، هل يمكنني الاطلاع عليها؟ قال هولاند لا، لكن أعدك حالما ننتهي سأوضح لك الأمر.

- فقال حسن ومتى يمكننا أن نبدأ؟

- فقال هولاند، حالما ننتهي من إعداد أجهزتنا الحديثة لذلك.

- فقال حسن ألن تكون عرضة للتشويش من أجهزة الآخرين؟

- فقال هولاند لا أظن ولا تعتقد أنها أجهزة بث تلفزيوني وضحك وقال

هذا خيال قديم.

- فقال حسن إذن ما عمل تلك الأجهزة؟

- فقال هولاند ستعلم عند اكتمال الخطة والشروع في البدء.

زم حسن على شفتيه ولم يشعر بالرضي عما قاله هولاند.

قال هولاند قبل أن يغادر بإمكانكم التحرك في جنيئة القصر والتنزه فيها والمكتبة ودخول كل جزء من القصر حتى المعمل وتحرك هو ومن معه لكن هالة لم تتبعهم وظلت مع حسن ومولانا، خرج ثلاثهم لاستكشاف جنيئة القصر والتريض فيها كانت الجنيئة كبيرة وفسيحة وتحتوي على أشجار قديمة وكبيرة متناسقة ذات منظر جميل وظل وفير. فجلس مولانا حسن البنا تحت ظل إحدى تلك الأشجار وكانت شجرة تين عتيقة وارفة الظل، وكان جوها يلائم خيال الشعراء فجلس مولانا صامتاً متأملاً.

لكن حسن الذي لا يعرف الراحة أخرجه من تأمله. وقال له سائلاً ماذا رأيت بعد موتك يا مولانا؟ هل كل ما أخبرونا عنه صحيح؟ كان ذهن هالة يحمل نفس السؤال، لذا أنصت بكل جوارحها.

لكن مولانا لم يجب بل سأل وأعرب عن حيرته وقال لحسن أتعرف أن هناك ما يحيرني، هل ستضاف أعمالي بعد رجوعي للحياة لميزان حسناتي أو سيأتي؟

وأمسك بيد حسن وقال هل وجودي حقيقي أم أنه مجرد حلم تعيشه الروح؟

شعرت هالة أن كلمات مولانا قريبة منها وأنها تعرضت لتلك الحالة.

شعرت أن تلك الكلمات تخرج من مكان ما في وعيها لا تستطيع تعريفه، وأكمل مولانا على كل ربما لم أمت ربما ما زلت أنا في غيبوتي في المستشفى في انتظار الموت وقد اختلق عقلي تلك الحكاية ليعيش فيها. حتى تحين وفاتي، وربما يكون هذا دافع ناتج من شعوري بالذنب؛ ذنب تكوين تلك الجماعة، فاستبق عقلي المستقبل وقرأ إن كان وجودها سيضر المجتمع إلى هذا الحد فقرر أن يتخلص من هم ثقيل قبل موتي حتى لا أشعر بذنب فيوهمني أنني قد قمت بحل تلك الجماعة، أو هي إرادة حقيقية من وعيي للتخلص من

عبي تلك الجماعة فألف قصة عودتي للحياة تلك، على كل لن يكون هناك مجال للتراجع لأن وجودها شرٌّ أود أن أتبرأ إلى الله منه حتى ولو كان في وعيي.

ونظر مولانا إلى حسن فوجده واجم سارح الذهن ورأى دمعة تحدرت من عين هالة.

وصمت الجميع مرة أخرى..

وبعد وقت قصته هالة في نقل عينها من مكان إلى آخر استأذنت هالة وقالت سأذهب إلى المعمل، راقبها حسن بابتسامة حتى اختفت من أمام عينيه، وقام مولانا يتحرك ومعه حسن واركأ على حسن.

وقال لكن يا حسن إن كان كل ما أنا فيه حقيقي فهناك شيء ما في داخلي يقلق ربما أنا لست من عصركم.

وصمت فقال حسن ما الذي يقلقك يا مولانا ؟

فقال مولانا هؤلاء الفرنجة هل يريدون خيرًا حقًا؟، هل هم غير متآمرين أو أن لهم من عودتي مآرب أخرى مثل أحداث فوضى شاملة؟، وأيضًا هل سيصدق الناس عودتي إلى الحياة مرة أخرى؟، فإن عزيزًا لم يصدق أنه مات وعاد إلى الحياة حتى أراه الله كيف أحيا الحمار.

لم يستطع حسن أن يجيب بالرفض أو بالقبول لأنه أيضًا ما زال رغم الذي رآه منهم شاكًا.

وقام مولانا ومعه حسن للدخول إلى القصر وربما للجلوس في المكتبة وتصفح بعض الكتب لقد صارت القراءة من هوايات حسن فدخل المكتبة ووجد حسن تلفزيون ف شكر الله لأنه يريد أن يسمع الأخبار فجلس أمام التلفزيون للمشاهدة.

كانت مانشيتات عسكرية، عرف حسن أن هناك خطب ما وقيام مذيع الأخبار بعرض البيان وقال مع عرض الصور لسيادة اللواء ولحسن أيضًا وقال المذيع لقد تصدت قواتنا لمجموعات قتالية يقودها الرائد حسن همام المتأمر قائد ميلشيات الجنوب العميل لدى اللواء السابق محمد عباس وسنوافيكم بالتطورات تبعًا.

فنظر مولانا إلى حسن وقال أنت تقود مجموعات، لإثارة الفوضى ما كل هذا الكذب؟ إذن من يجلس بجانبني؟

تبسم حسن بحزن، فقال مولانا إن الأمر خطير ويلزمنا التحرك بسرعة حتى نمنع شلالات الدماء التي ستراق.

- فقال حسن مستنكرًا انتحرك دون علم أبناء غايا.

- فقال مولانا أنا لا أثق في مقصدهم.

- فقال حسن لكن ليس لدينا خطة لفعل ذلك.

- فقال مولانا الخطة أمامك.

- فقال حسن مستغربًا أين؟ أنا لا أراها.

- فقال مولانا أن يظهر في التلفزيون ونقول للناس ما يجب أن نقوله وأعلن حل الجماعة.

- فقال حسن مولانا إن مجرد ظهورنا سوف يؤدي بحياتنا.

- فقال مولانا هازئًا وما جدوى الحياة وشلالات الدماء تلك ستراق

تحت ستار الكذب

- فقال حسن أنا لا اضمن وصولنا إلى التلفزيون ولا أن نعيش حتى تكمل خطابك، إنها فكره خيالية.

أذن الظهر فذهبا للوضوء وصليا الظهر وما كادا يتتهيان حتى قال مولانا ألسنت رجل أمن؟، فقال حسن نعم فقال مولانا أليس الوضع مرتبك؟ فقال حسن نعم فقال لو كان معنا عبد الرحمن السندي لوجد ثغرة بمتهى السهولة ولنفذ ما أمره به.

كان هذا الحديث مخفراً لذهن حسن الذي وجب عليه أن يجد ثغرة وأن يعود للعمل كرجل أمن.

فقال حسن إن حركتنا في النهار وبعد نشر صورتي ووجهك للعامة ستعجل بنهايتنا، ثم استطرد حسن وقال:

لذا ستكون حركتنا في الليل، لكن كيف ندخل المبنى؟ وسكت قليلاً ثم قال عليّ أن أصنع كاريهيا لي ولك وأعرف من يفعلها وقال ذلك بسرور، لكن يا مولانا هل بإمكانك أن تعد كلمة مختصرة وحاسمة، أريدك أن تسيطر بها لا على الشعب الذي يسمعك وحسب ولكن على العاملين في التلفزيون وأنا سأعيق وصول رجال الأمن إليك وأجبرهم على التراجع حتى تذيب خطبتك على الهواء؟ لكن علينا تغيير ملاحظنا.

لكن لسبب ما لم يطمئن مولانا لتلك الخطة ولا حتى حسن نفسه اطمئن وكان عقله في حالة بحث عن بدائل عندئذ تذكر أمراً كان له وقع السحر على قلبه.

- فقال لمولانا وجدتها.

- فقال مولانا قول لي.

فقال حسن أنا أعرف نفقاً قديماً من النيل يتصل بشبكة المجاري القديمة كانت خاصة بالتلفزيون، لكن يلزمنا بدلتى غطس وقد وجدتها، فبدلتينا التي ارتديناها بالأمس ربما تكونا جيدتين لذلك، لكن على أن أختبرهما أولاً.

- فقال مولانا كيف ستختبرها؟

- فقال حسن سأملاً البانيو وأغوص في قاعه وأجرب.

- فقال مولانا حسناً ذلك جيد.

لم يضع حسن كثيراً من الوقت وقام باختبار البدلة بعد أن ملأ البانيو واستقر في قاعه وكانت مفاجأة فقد كانت تلك البدلة صالحه لذلك الأمر أيضاً. كان على حسن وضع خطة، كان يعلم أنه لن يعود منها لذا عليه توديع حالة وشعر بقوة رهيبه تعتصر قلبه لرحيله عنها ورفضه هدية القدر التي جمعتها بها بعدما ماتت، وسيذهب عنها دون وداع، هي الحياة كم حملت من مفاجئات غير مبالية بتقديرنا لكن على كل حال إنه ليس اختيار. وجلس في غرفته ليضع خطة للدخول وخطة للانسحاب إن استطاع الصمود وخطة يسطير بها على الأستاذوديو وإجبار العاملين فيه على الانصياع للأوامر دون رد وربما يقتضي الأمر أن يضحى بأحد العاملين و بمتتهى القسوة حتى يستجيب الآخرين.

- لماذا؟

كان صوت السؤال واضحاً فنظر حسن لمصدر السؤال فلم يجد، من أين أتى الصوت، بحث حسن في أرجاء الغرفة عن ميكروفون أو كاميرا ظننا أن هناك من يراقبه لكن هذا الصوت لا يشبه صوت أي من أبناء غايا، ورغم استبعاد حسن النفسي أنهم يراقبونه هو ومولانا عن طريق الكاميرات واعتقاده في قرارة نفسه أن أبناء غايا ذوي أخلاق رفيعة إلا أن عملية البحث كانت إجراء احترازي، وعاد للبحث في ذاكرته عن صاحب الصوت لأن هذا الصوت منسجم مع الأذن لأنه سمعه من قبل فهو مسجل في خلايا التذوق الموجودة في الأذن، وحاول حسن أن يعود إلى خيط أفكاره إلا أن محرك البحث في العقل لا يتوقف حتى وإن تظاهرنّا أننا أوقفنا البحث، وما هي إلا لحظات حتى أخرج حسن صاحب الصوت من تلافيف عقله الداخلية إلى منطقة الوعي، إنه الشيخ الدرويش وتبسم حسن لأنه يشاق إليهم، إلى مولانا وهؤلاء الرجال وإلى الشيخ الدرويش الذي لا يعرف اسمه ولم يسأل عنه مولانا.

نظر حسن في كل أرجاء المكان بحثًا عنه لكن لم يجده كان لدى حسن ظن أن هذا الشيخ بإمكانه العبور والوصول إلى أي مكان يريد وإلا لما استطاع أن يوصل صوته إلى حسن بهذا الوضوح. لكن حسن توقف أمام تساؤل هل من الممكن أن يكون هذا الشيخ افتراض عقلي لا علاقة له بالواقع أبدًا؟ إنه حقيقي قال لنفسه بأسلوب تقريرى غير قابل للنقاش فالوقت أمامه ضيق وعليه أن ينتهي من وضع اللمسات النهائية، وعاد إلى العمل لكن سمع مرة أخرى ذات التساؤل:

- لماذا؟

لكن الصوت هذه المرة كان صادرًا من عقله فانتبه حسن إلى أنه تجاوز سؤال الشيخ الدرويش ويبدو أنه كان عامدًا لأنه خائف من مناقشة ذلك السؤال مع نفسه....

- بكى حسن وبكى لماذا؟

يعلم حسن أن ما يفعله الآن عكس إرادته ويعلم أن المرشد الأول حسن البناء قد أوقع به واستثاره بعبد الرحمن السندي، فطن حسن بعدما اختلى بنفسه إلى أنه كان لعبه في يد المرشد وأنه تلاعب به وأوصله إلى حيث يريد ولأن حسن أعطاه وعدًا فلن يخلفه حتى لو كلفه حياته لكن قلبه الآن يتمزق فهو قد أحب الحياة بعدما رآها في الأيام السابقة، لم يكن يعلم أنها تحتوي على هذا الجمال وقد عاهد نفسه عهدًا قبل خروجه من النفق أن يعيشها حرًا وربما يذهب مع حبيته إن أرادت مع أبناء غايا، ما أجمل أن تكون حرًا في هذه الحياة مع حبيته. وجلس حسن ليتذكر كل حرف كل همسة، كل نظره مع حبيته وتأكد بعد أن مر شريط الذكريات أمام عينيه أنها تجبه وعليه أن يخبرها أنه يحبها... لن يخبرها لأنه ذاهب للموت. بكى حسن ونعى نفسه وأدرك أنه ممزق بين خيارين، فقلبه يختار البقاء بجانب حبيته.

وكان الشيخ الدرويش يقف أمامه ويذكره «عندما يأتي الاختيار بين قلبك وعقلك فاختر بقلبك»

فقال له حسن نعم أذكر ما أوصيتني به لكن لن أختار بقلبي لأنني قد أعطيت وعدًا ثم بكى.....وبعد أن مسح دموعه أعد الخطبة جيدًا.

ولم يكن عليه أن يخبر مولانا عما سيفعله لكن عليه أن يخبره بميعاد التحرك وهو السابعة والنصف مساءً، حتى يذيعوا الخطبة في التاسعة لأن نشرة التاسعة هي الأكثر جذبًا ومتابعة من الجماهير وخاصة مع هذا الجو المتوتر في مصر.

وأخبر مولانا بالميعاد حتى يستعد، عندئذٍ شاهد هولاند ومعه هالة وأعضاء الفريق قادمون لتناول الغداء مع مولانا وقبل الغداء تفحص هولاند مولانا تمامًا وقال بصوت رقيق بعد أن أعطاه حقنة، قال له إنك ستستعيد غدًا عافيتك الكاملة تمامًا وتصبح جاهزًا بعدها بمصارحة الناس.

فنظر حسن إلى مولانا راجيًا أن يوافق على ما يقوله هولاند. لكن نظرة حاسمة من مولانا لحسن جعلته يتراجع ويكمل الخطبة.

وما أن فرغوا من الطعام حتى قام أبناء غايا بالعودة إلى العمل وقامت هالة معهم لكن حسن نادى عليها فوقفت فقام لها ووقف أمامها ونظر إليها نظرة طويلة وترقرقت دمعة من عينه قرأتها هالة وكأنها دمعة فراق لكنها قالت بصوت خافت ما بك يا حسن؟ ووضعت يدها على قلبه، ولم تأبه لوجود مولانا بل حاولت أن تخفف من روعه وتسكن قلبه واقتربت من جبهته وكادت أن تقبلها.

التفت هولاند قبل دخوله العمل إلى تلك اللقطة وكان بداخله سر أراد البوح به إلى حسن. لم يدر لم أراد أن يقول له ذلك السر، ولام نفسه لأنه لم يخبره به من قبل وقال لنفسه ربما بعد العشاء أخبره به.

فقد أراد أن يخبر حسن أن لهفة هالة لمولانا كان سببها أنه ابنها، أو شعرت أنه ابنها فالبويضة التي تم استخدامها لحقن الحامض النووي الخاص بمولانا كانت بويضتها، ودخل هولاند العمل وقال لنفسه حتمًا سأخبره بعد العشاء.

كانت الساعة تقترب من الساعة، استطاع حسن ومولانا أن يتجاوزوا البوابة كما خطط حسن ودون أن يلحظه أي أحد، كانت شوارع القاهرة تحتضن توتر مكتوم بادي حتى في المنازل المغلقة، والطرق تعاني من قلة المارة، ولم يمض وقت طويل حتى وصلا إلى كوبري قصر النيل، وشاهد حسن مبنى التلفزيون فأشار إلى مولانا أننا قد اقتربنا، وبدأ التوتر يظهر على وجه حسن، لكن نظرة مولانا البوهيمية العابسة التي كانت بلا معنى، عكست نفسها على أفعال حسن وكأن لا شيء يهم حتى الحياة، مضى حسن ومولانا، لأقرب نقطة قررهما حسن، عندئذ اقتربا من كورنيش النيل ومضى حسن متجاوزاً التلفزيون في اتجاه الكوبري الحديدي، كوبري الشهيد عبد الرحمن عز وبعدما اطمئن من عدم وجود متابع أو مارة قفز من فوق السور الحديدي وساعد مولانا في القفز وقفزا في اتجاه الشاطئ ونزلا مرة أخرى حتى اقتربا من الماء، عندئذ قام حسن بفتح الشنطة التي كان يحملها وأخرج منها البدلتين اللتين سيستخدمهما في الغوص، كان الظلام والسكون يلف المكان وكان اختيار مكان النزول الذي اختير بعناية من قبل حسن يوشى بمعرفة حسن الكبيرة بالقاهرة، وضع حسن اللباس الذي كانا يرتديانه في شنطته ثم نزلا إلى الماء وسبحا حتى اقتربا من المدخل الذي حدده حسن مسبقاً وكان الوضع آمناً كما كان متوقعاً لأن المتابع لن تبدأ إلا مع دخول قطاع الأخبار وإجبار العاملين فيه على الإذاعة مباشرة استطاع حسن ومعه مولانا الوصول إلى قلب التلفزيون فبعد مروره من خلال أنبوب المجاري القديم تسلل إلى المخرج الآمن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب عندما كان يتدرب على يد سيادة اللواء، وكان قد تدرب على طريقة التسلل الآمن إلى داخل التلفزيون حتى يستطيع تحرير الرهائن والسيطرة على الإرهابيين أو السيطرة على التلفزيون حين يتعرض لأي عمل تخريبي أو عمل عدائي بقصد الاستيلاء عليه، وبعدما خرج أغلق ذلك الممر الآمن جيداً وبعدما خلع هو ومولانا بدلتتي الغطس وارتديا زيهما كان أمام حسن أن يحصل على سلاح، وهو يعرف جيداً مكان هذا السلاح والذخيرة، كان هناك خزانة في الجدار خلف صورة مولانا حسن البناء، عندئذ فتحها وأخرج منها السلاح بعدما أعده بالذخيرة تحرك مولانا مع حسن إلى قسم الأخبار وما هي إلا لحظات

حتى وصلا قطاع الأخبار وقبل أن يقوم بالسيطرة على القطاع سمع المذيع وهو يذيع نبأ القبض على خلية من أعوان اللواء المنشق عبد الكريم القاسم في منطقة المقطم وكان المذيع كما هو مكتوب في التقرير يدلل على خيانة اللواء واتهامه بالعمالة بأن تلك الخلية تتكون من جنسيات متعددة وامرأة من أسرة ليبرالية كافرة، شعر حسن بغصة كبيرة في حلقه وأراد أن يصرخ كذب، وصرخ فعلا، صرخ في العاملين وكرجل خبير سيطر على الوضع وأمرهم بترك الهواء لمولانا.

لكن قوات مكافحة الإرهاب كانت من السرعة والمهارة أن اقتربت بوابل نيراني، تطايرت أشلاء ودماء من أعضاء الغرفة على وجه حسن الذي اتخذ ساترا وتمكن من قتل الكثير منهم لكنهم بسرعة ومهارة بدأوا في السيطرة على الوضع تمامًا، نظر حسن إلى مولانا فوجده يتحدث غير عابئ لم يكن يسمع صوت الرصاص لكن المشاهدين كانوا يسمعون صوتًا ضعيفًا غير واضح مختلطًا بأصوات الطلقات، بدأ البارود يتجه صوب مولانا الذي اخترقت الرصاصات ذراعه فجري حسن بسرعة كبيرة تجاه مولانا حتى يستطيع إنقاذه، لكن قبل أن يتحرك شاهد حسن تلك الطائفة التي تحدث عنها حبيته هالة وتحدث عنها أبناء غايا كانت تقف حاملة الموت في اتجاه مباشر لمولانا، جرى حسن بكل ما يملك من قوة في اتجاه مولانا لكن قبل أن يتحرك دوى انفجار عنيف، فطار جسد حسن في عكس الاتجاه، وشاهد حسن قبل أن يسقط اللقطة مرة أخرى.

راح عقله يكررها، الصاروخ توجه مباشرة إلى مولانا، شاهد حسن جسد مولانا وهو يتفكك إلى بخار وأشلاء وأحدث التفريغ موتًا لكل الموجودين حتى اللذين هم خلف حسن لكن لماذا لم يمض حسن فقد كان الكرسي الذي جلس عليه مولانا والذي طار والتصق بجسد حسن حاميًا له من تلك الشظايا، وارتمى جسد حسن بعيدًا وسقط جسده في بركة من الدماء وبقياء أجساد ممزقة وفي تلك الأثناء كان هناك صاروخ آخر لم يسمعه حسن لكن شاهده وهو يمر من فوق جسده ولفحت حرارته خلايا جلده لكن حسن لم يشعر بأي ألم ومر الصاروخ فوقه ثم مضى وانفجر، وتبعه صاروخ

ثالث في زاوية مختلفة تتبع حسن لهيه ببصره، ثم أغلق عينيه من شدة الضوء الصادر عن انفجاره ومع ذلك لم يسمع صوتًا للانفجار لأن أذنه أضحت خارج الخدمة بعد الانفجار الأول مما جعل المشهد مؤلمًا لكن بلا نكهة الألم، وكانت عين حسن ترصد كل شيء حتى الغبار المتطاير من المبنى الذي زادت كثافته تدريجيًا وبسرعة مع توالى الصواريخ ملأ الفراغ حتى أنه لم يستطع أن يرى أي شيء، وتنفس بصعوبة وبطء وبعد الصاروخ الرابع انصرفت الطائفة وتركت سكون الموت، والغبار المتصاعد وألسنة اللهب، الكل موتى عدا حسن الذي يصارع من أجل أن يحظى بالموت، لكن لم تكن روحه قلقه أو متطلعة لا للموت أو الحياة.

كانت حالة بوهيمية عابسة.

جلس حسن في القطار المتحرك في اتجاه الإسماعيلية، أنا لم أذكر لكم كيف نجى أو إلى أين يتجه.

خرج حسن من الحالة البوهيمية تحت تأثير الخوف فقد كان لدى حسن الكثير من الأسئلة هل سيموت الآن أم أنهم سيقبضون عليه، تمنى أن يموت الآن فهو يعرف تمامًا ما الذي سيتم معه إن قبضوا عليه، فبحث عن السلاح الذي كان بيده حتى يتحرر به، نظر حوله لكنه لم يستطع أن يرى من كثافة الغبار أي شيء، وكان عليه أن يزحف حتى يحظى بالموت قبل أن يحظى بالتعذيب، فزحف، لم يكن يدري أنه سيستطيع لكنه استطاع، لكن لم يعثر على أي سلاح، كان مصرًا على أن يكمل راجيًا رحمة القدر في العثور على سلاح، لكن القدر لم يكن به رحيماً لذا وصل حسن إلى الغرفة الآمنة، ودخل حسن فلم يكن أمامه أي خيار، ثم خرج في النهر، وترك نفسه للتيار آملاً أن يقتله، لكن النهر لم يكن رحيماً فلم يقتله بل رماه بعيداً، شعر حسن أن النهر يبغضه فلم يشأ الاحتفاظ بجسده ويجعل منه طعاماً لصغاره من الأسماك، ولفظه حتى يذوق العذاب، أنا لم أقصد أنهم سيمسكون به ويعذبوه فهو كما قلت لك يستقل القطار المتجه إلى الإسماعيلية الآن، لكن ربما فهمت قصدي.

إن عذابه ناتج عن فقدته أعز ما يملك؛ حبيبته؛ التي قبض عليها وهو يعلم ما ستلاقيه من اغتصاب لروحها وتعذيبها حتى الموت، وفقدته لمولانا الذي تناثر كحبات غبار ناعمة، وصار مثل الغبار المتصاعد من كومة تراب شديدة النعومة عندما تصطدم بها كرة حديد، على كل كان مولانا حالة حياة، لكن لم يكن هذا هو الألم الذي أقصده، ألم أقل لك من قبل أن القدر لم يكن به رحيماً بل غاضباً، وكان نفير القطار قد صدر معلناً استعداده للتحرك، عندئذٍ لمح حسن طرف بنظرون بدلة أبناء غايا التي تغير البصمة الحرارية للجسد تحت اللبس العادي الذي يرتدونه، فانبه إلى وجه الرجل المرتدي ذلك الزي لكنه لم يتبين ملامحه، عندئذٍ ظهر ستيف وبجانبه امرأة، نظر حسن إليها، كانت هالة! نظرت إليه لكنها لم تعرفه فقد كان وجهه المحترق قد بدل ملامحه حاول أن ينادي أو أن ينزل من القطار لكن.... لكن القطار قد تحرك ورجله كانت مكسورة ولولا صياد طيب قد ضمهدها له وألصق بها خشبة وأعطاه ذلك الملبس الذي يرتديه لمات أو قبض عليه، سيعيش حسن لأن الموت لم يقبله. سيعيش بحزن يملأ قلبه، حزن من فقد حبيب من القدر به عليه، أحبه حباً... لا تستطيع الكلمات أن توصفه، عاش ينتظرها طوال عمره ثم اطمئن أنها ماتت مرة ثم يجدها، عاش ثلاثة عشر يوماً معها ولم يستطع أن يخبرها بحبه، ثم أدرك أنها ماتت مرة أخرى، ومرة أخرى لم تمت بل خرجت لترتحل مع أبناء غايا اللذين يتشرون في كل الأرض، ولأنها حتماً سترحل عن مصر، وهو يعلم أنها ما أن تخرج من مصر حتى تتبخر في الأرض، تسبح فيها، تدخل معاملهم، تتعلم على يدهم، تفعل أفعالهم، وهي تعلم أن حسن قد مات، أي ألم الذي سيحييه حسن طوال عمره؟ وأي عذاب سيختبره بعدما فقد كل من حوله وفقد حبه؟، كانت أمام عينيه مرت، كان بإمكانه اللحاق بها، كان بإمكانه أن ينادي عليها لكن القدر منعه وتحرك القطار!

فقدتها للأبد يا حسن!

أما عن وجهته فهو ذاهب للبيت الآمن الذي يمتلكه في الإسماعيلية سيختبئ فيه حتى يشفى ثم يبدأ رحلته إلى الجنوب إلى مولانا مرة أخرى.